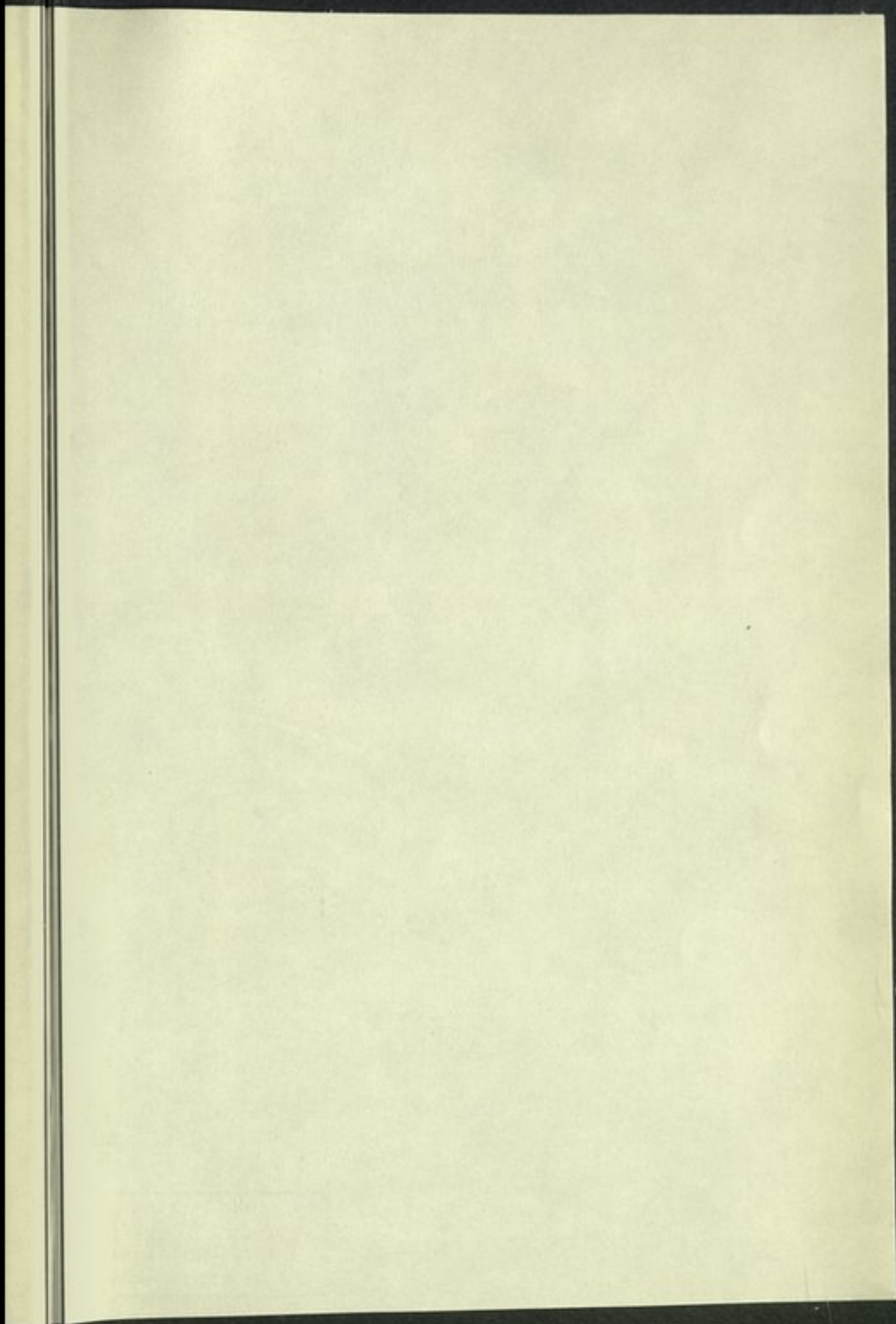
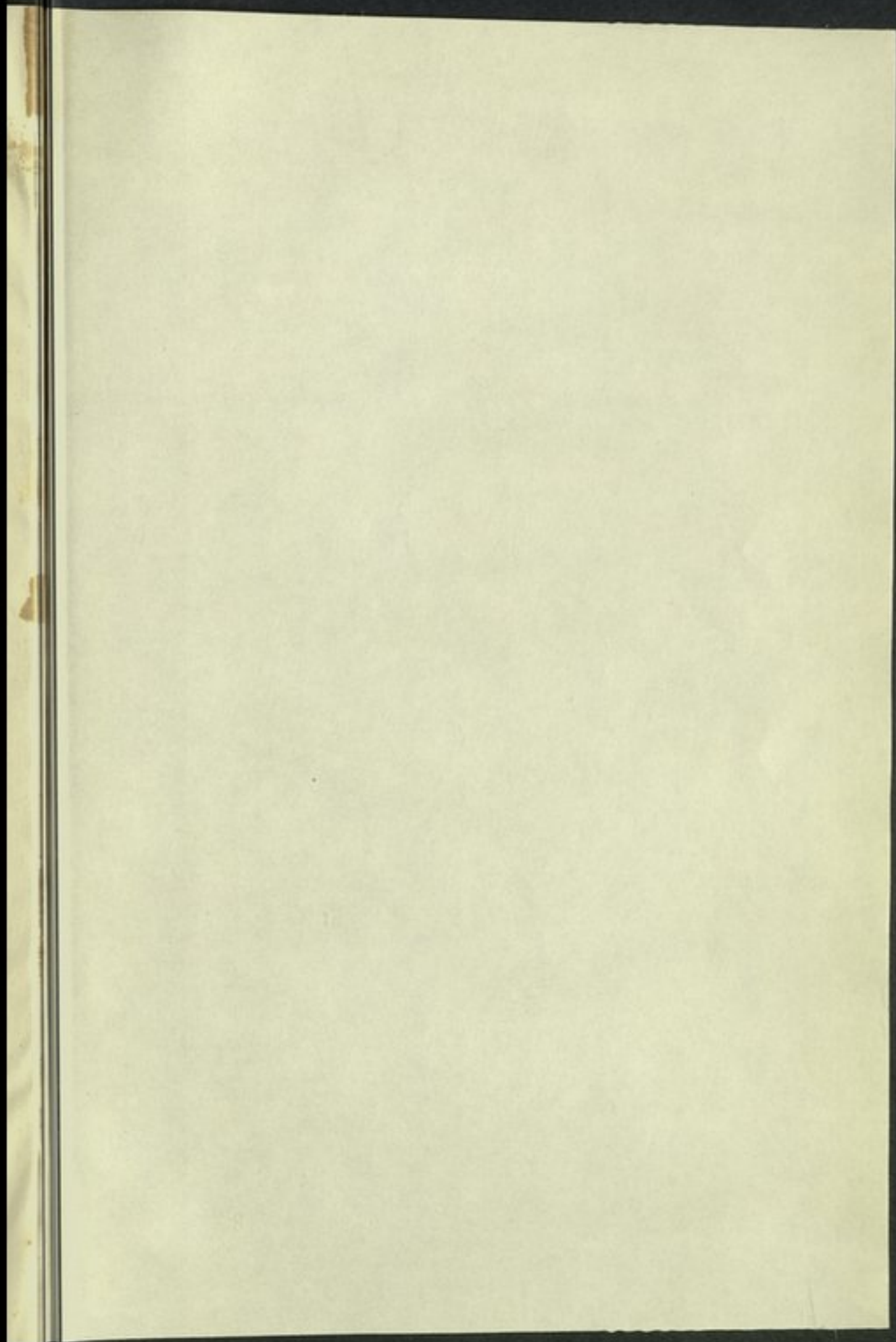


AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
22 JUL 1972
Tel. 260458



عبدالله بن محمد
البحراني



170
K451rA
v.1
C.1

الزناضير الخيرية

في السنين الإنسانية

أو
فضل ما حفظه قلم في الأخلاق والحكم

تأليف من تألفت القلوب على جبهه وولائه ، وترنمت الالسن بحمد آلائه ، وشكر
فضله ونعمائه ، رشيد هذا الزمان باقباله وعلائه ، ومعن الاحسان بفيض عطائه ،
وقس بن ساعدة بمفصاحة بيانه وادائه ، عميد العرب العرباء ، وقره أعين الشعراء
والادباء والعلماء ، ومظهر جلال المجد بين الملوك والشيوخ والامراء

معز السلطنة سردار اقدس صاحب العظمة

الشيخ محمد علي خان
حوزي

امير نويان وسردار عربستان

المجلد الاول

رفف على طبعة رعتن حوزيه

عبدالمسيح انطياكي
صاحب جريدته العمريه بمصر

الطبعة الثالثة

مطبعة العمريه
حوزي



﴿ معز السلطنة سردار أقدس سمو الشيخ خزعل خان ﴾

﴿ سردار عربستان وأمير نويان ﴾

هذا هو الملك الذي في عدله نالت رعيته البشائر والنعم
هذا الذي فيه لقد بلغ الاغا رب سؤلهم اذ كان أفضل من حكم
هذا الذي ساس الرعية حازماً ومشى بها للرفي تحدوه المهم
بيمينه السيف الصؤول على العدى حتى اذا أفانم مسك العلم
وبساره للبسر قد خلقت وللسردار اقدس خزعل خنق الكرم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ توطئة الكتاب ﴾

﴿ بقلم العبد المملوك الواقف على طبعه ﴾

الحمد لله وكفى ، والصلاة والسلام على من اختار واصطفى ، وبعد فبينما كنت
أبحول بين العرب لخدمة العرب ، وأقصد رحاب ملوكهم وأمرأهم باسم العلم والأدب ،
فطويت بهم المراحل ، وأتمت المنازل ، برحلات متوالية ، وزيارات متتالية ، وجدت
فيها ماشاء الله من الاحياء العامرة ، والوجوه الزاهرة ، والمآثر الباهرة ، والاخلاق
العالية الفاخرة ، فعرفت أن القوم لا يزالون على مكارم أخلاق ، في نفائس أعلام ،
قد حافظوا وهم الاحفاد ، على تراث مجد الابرار والاجداد ، رغم معاكسة الزمان القهار ،
وعوادي الليل والنهار ، وأن في هذه الامة الكريمة من الملوك والامراء ، من جدّوا
بهذا العصر عهد الرشيد والمأمون وغيرها من أعظم الخلفاء ، وأن العراق كان ولا
يزال مظهر مجد العرب العرباء ، علمت هذا فخدمت الله المتعال ، وقتت في مثل هؤلاء
الاقبال ، لا بد وأن تبدل الاحوال ، وتعال أمة الرسول العربي بعيد الامال

سعبت الى العرب ، وأنا في باكورة الشباب ، وعانيت في سبيل خدمتهم من
الوصيب ، ما يتحدث به الآن ذوو الالباب ، وأقول والثناء لله مع الافتخار ، اني
كنت في مقدمة من ناشد العرب ان يهبوا الى ارجاع ما كان لهم من قديم المجد
والفخار ، وأوقفت على خدمة هاته الامة الكريمة هذا القلم ، واستسهلت في سبيل
نهضتها كل صعب بلا سأم ، وتحملت لاجلها كثيراً من التعب والالم ، وانى لأحمد الله
الذي ما أضع لي تعباً ، ولا خيب لي مارباً ، اذ رأيت وأنا في السكولة تغور الامال
باسمة ، وبواد النجاح بادية ، فالحمد لله الذي حقق أملي ، وأنجح عملي ، حمداً اردده
في كل بكرة وعشبة ، وبدوي صداه في ربوع أمي الكريمة العربية

وكان من حظ هذا العبد المملوك ، ظفري برضاء أفضل الامراء وأكرم الملوك ،
الجناب العالي ، صاحب المجد المتلالي ، مولاي وولي نعمتي ، معز السلطنة ، سردار



﴿ معز السلطنة سردار أقدس عظمة الشيخ خزل خان ﴾

﴿ أمير نويان وسردار عربستان ﴾

أمير سلطنة الالكاسرة الذي
بهنيك انك في السلام أبو الندى
حتى اذا خضت الوغى نادى القضا
أفديك من ملك يساهر مجده
فأهنا بانك شمس أمة يعرب
مازات في روض المفاخر ترتع
والجود فضلك لا يمد ويجمع
بالنصر «ياسردار اقدس» ترجع
فمخر الأعراب والأعاجم أجمع
وبأرضها زاهي ضياؤك يستنم

أقدس، عظمة الشيخ خزعل خان ، أمير نويان وسردار عربستان ، وحاكم الحمرة
الرفيع الشأن ، فوقفت ببابه ، ونزلت برحابه

فوجدت مجداً جاوز الجوزاء في علم وآداب واحسان عميم
وبكارماً وماتراً ومفاخرأ في جیده هذا المصير كالدرّ الزنيم
ومحامداً يعيا الفصيح بحمدها تجلي على الاعراب من ملك رحيم
فانحنت في ذلك المقام مطيبي ونويت في ظل المعز على نعيم

وجدت صدراً رجباً ما كثر القاصدون ، وثغراً باشاً بمجموع الوافدين ، وجوداً
كالغيث الهتون ، ودلاً وسع الاعداء والمخلصين ، وذكاءً يعرف به مما كان باقود يكون ،
ودهاءاً أدهش السياسيين ، ومجداً تجاوز السماكين ، وفضلاً فضل به الاتيأ الصالحين ،
وعلاءً حتى يفرق بين الشك واليقين ، وأدباً يضول بجانبه أدب المنادين ، وشأيرة
تسخر لجلال المعاني القوافي والموازن ، واستسلاماً الى ارادة الله عز وجل استسلام
المتقين ، ونسكاً بحب محمد الهادي الامين ، وآل بيته الخبيرين ، صلوات الله عليهم أجمعين

فبايعت أن أحيأ لخدمة خزعل مبايعة فيها الرشاد مع الهدى
وأقسمت أن لا أبرح الدهر صادقاً بخدته أروي المدائح ونشدا
فندشمت فيه خير من ساد واعتلى حزوماً حلماً أرواً أو سوذا
وأفضل من برجي لآلة أحمد اذا طابت عزاً وراستاً بمد
وما العرب العرباء الا بخزعل وقد كان فيها بالفضائل فردا
فلا يثرو ان قيدت نفسي بحبه «ومن وجد الا احسان قيداً قيدا»

وبد ان اتصت بخدمة مولاي المعز ، وفزت برضوانه ، وفيه انتهى السؤدد
والعز ، عرفت أن في العرب رجلاً تحط بحضرتهم الرجال ، ويحج الى روعهم بالامال ،
وأن في الخلف للسالف الصالح أفضل مثال ، فمن يأسف على عهد دمشق وبغداد ،
ومن نشأ فيها من الملوك الصيد ، والسادة الامجاد ، فايبشر بأن في الحمرة ملكاً أحيأ
مجد أولئك الاقطاب الاجواد ، وجدد عهدهم الازهر للناطقين بالضاد

اذا مارأيت المجد في دار خزعل وفيها تجلئ بالمواهب للناس
حسبت به هارون في أوج مجده ونحن به في عصر دولة عباس
لا جرم أن هذا الملك العظيم ، والاب الرؤوف الرحيم ، قد أنعش آمال العرب
بأعماله البواهر ، وأحيأ موات الامال باناره الزواهر ، وتقرّد بحميد الشمانل ، وكريم

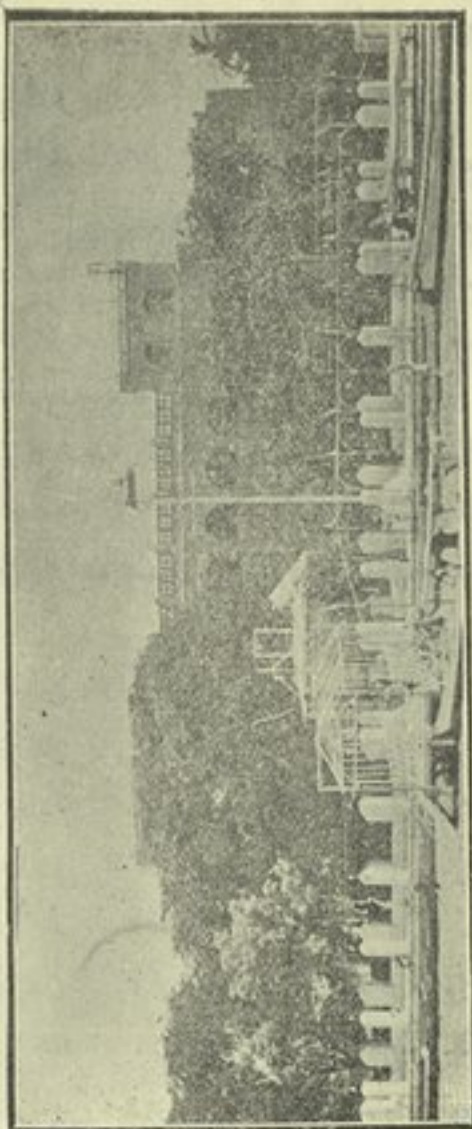
المائر ، وعظيم البودار ، مما
لا يحصيه شعر شاعر ، أو نثر
نثر ، فبارك الله في الملك الذي
نفاخر العالمين بجماله ، وأدامه
الله للعرب والإسلام بحميد
مآتيه ، فان المعول بعد الله لرفي
العرب عليه ، والمرجع لاهل
العلم والادب اذا ما جار الزمان
اليه ، أهلنا الله لنفضي فروض
الحمد لعظيم مآتيه .

وبعد ، فها أنا ذا كرت عن
عظمة المردار أقدس ، ما فيه
البيان الشافي لقاريه هذا
الكتاب الانقاس ، ليعرف ان
عظمة المزانف هو حامل السيف
والقلم ، وأنه في ملوك وأمراء
العرب الملك الاعظم ، والاير
الانظم ، والسيد المحترم ، والعالم
العلم ، واني لعمري ما شهدته بنفسي
وعرفته بعد طول اختباري

ودرسي ، غير بانع بالرواية ، ولا متجاوز حد الرشد والهداية ، ليعلم منه العرب أن
عظمة المليك المعز قد جمع بين الحزم والعلم ، وأصاب من كل منهما بخير سهم ، وكذلك
فلتكن الملوك والامراء ، اذا اراد العرب ان يسترجعوا نثار الاجداد والاباء .

﴿ عربستان ﴾

يقسم العراق الى قسمين احدهما العراق العربي وهو يمتد من الفاو الى الموصل
وكان في حكم الدولة العثمانية ثم فتحه الانكليز في سنة ١٩١٥ في اثناء الحرب الاوربية
العامه ووهبوه استقلاله حسب القرار العام المعلن في مؤتمر فرسايل فصار مملكة



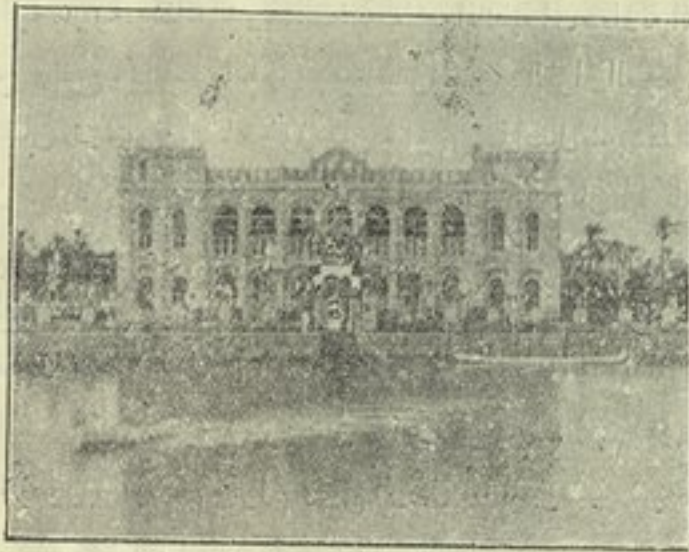
« العصر الخزعي المسمى كما هو اليوم »

دستورية عراقية عربية بكفالة الدولة الفخمة الفاتحة المنتدبة الى معاونة الدولة العراقية الجديدة لتتبع وتفلح . والقسم الثاني يسميه الجغرافيون «العراق المعجمي» ويسميه الفرس «عربستان» ويسمونه ايضاً «خوزستان» أو ان ما اتصل منه بشط العرب يعرف باسم عربستان وما كان على نهر قارون سموه «خوزستان» وكان الاكاسرة يطلقون على هذا القسم اسم «شوشتر» باسم حاضرتة شوشتر الواقعة على نهر قارون فوق الاهواز حتى اذا ما فتح المسلمون مملكة الاكاسرة أطلقوا عليه اسم «الاهواز» نسبة لا كبر مدنه المعروفة بهذا الاسم

وهذا القسم الذي نسميه «عربستان» أهله عرب معظمهم اهل بدو فهم قبال وفيهم المقيمون في بلادهم وقراهم وفيهم الرحل اما المدن الشهيرة فيه فمعظم أهلها من الفرس ويقال فيهم عدد الدرب لثمرة هؤلاء من التجارة

وهذا القسم داخل في حكم الدولة العلية اليرانية وأنت تعلم ان هذه الدولة لانزال على قديم عهدتها بحكم المدن وتترك ابراري العشائر التي تسكنها وفي هذه العشائر العرب والبختيارية والاراك والارمن والاكراد وغيرهم ولكل عشيرة منها زعيم يتولى شؤونها السياسية والادارية ولكل مجموع متجانس من الزعماء رئيس أو يضع رؤساءهم واسطة الصلة بين حكومة طهران والعشائر التي حولهم وهم روساؤها الاعلون. وأعظم هؤلاء الشيوخ قدراً وأكبرهم نفوذاً وأمراً هو عظمة مولانا السردار أقدس معز السلطنة الشيخ خزعل خان ابن نصرت الملك ساكن الجنان المرحوم الحاج جابر خان الجاسبي المحبسي الكبي العامري ذي المجد الطريف الثالث والوارث المجد عن آبائه الصيد الاماجد

أما حدود «أمارة عربستان» المتشرفة بحكم عظمة مولانا الشيخ المعز العلي الشان فيحدها من الشمال شرق لارستان . ومن الجنوب الشرقي جبال فارس ومن الجنوب خليج فارس . ومن الغرب العراق العربي أو المملكة العراقية الحديثة الممتدة من الموصل الى الفاو . ومساحة هذه الامارة تسعة وثلاثون الف ميل مربع . وفيها نيف وأربعمائة ألف نسمة عدا القبائل الرحل التي تنبأها للسكلا وأهم مدن هذه الامارة المحمرة «وهي العاصمة» والاهواز «ويطلق عليها اليوم اسم ناصرية الاهواز بعد ان جدّ عمرانها سادتنا آل البيت الجاسبي العظام وفيها كثير من المدن والقرى العامرة أهمها عبادان مركز الغاز الذي يسمونه «النفط»



« كما كان سنة ١٩١١ »

« القصر الخزعلي العامر »

وأهم أنهارها قارون والكرخ ونمرٌ بحدودها الدجلة فشط العراق الكبير وأهم محصولاتها الباج « النمر » وهو يباع في أسواق أوروبا وأميركا والقمح والشعير والادره وغير ذلك .

واذ كان المجال لا يتسع لنا لوصف كل مدينة من مدن اماره عربستان أو نشير الى قبائلها الباسية المستظلة بظل عظمة السيدار أقدس الشيخ خزعل خان المتنفة من حوله الغراف الهالة بالقمر والاكام بالتمر فان من الواجب علينا أن نذكر شيئاً عن حواضرها الشهيرة مبتدئين من القصر الخزعلي الماحور الذي هو مهبط السؤدد والعز في حمى عظمة الشيخ المعز

﴿ القصر الخزعلي العامر ﴾

ان البواخر التي تقصد البصرة تفر العراق من أوروبا بطريق السويس او من الهند تدخل في خليج فارس المشهور وتنتهي الى صدره حيث تنتقل من الماء المالح هو ماء الخليج الى الماء الحلو هو ماء « شط العرب » في موضع اسمه البويات سموه كذلك لاختلاف شكل المائين فالحلو لونه احمر والمالح لونه ازرق وعند ما تدخل هذه البواخر شط العرب تصبح بين أرضين قائمة عليهما اشجار النخيل فالارض التي هي لى يمين الباخرة الداخلة هي تابعة لبران تحت حكم عظمة مولانا الشيخ المعز حفظه الله والتي هي الى شمالها هي اراضي المملكة العراقية .

وتظلّ الباخرة ماخرة كالعروس بين اشجار النخيل المحاكية العرائس في ذلك الشطّ العظيم نحو بضع ساعات فتدور بجزيرة عبادان ومنها على نحو ساعة تمرّ بالخمرة ومنها على نحو نصف ساعة تنتهي الى موضع يسمى « الكالبة » وهناك قصر عامر شاح البنيان عالي الاركان امامه اليخوت والبلاد هو القصر العالمي لعظمة مولانا السرदार اقدس حيّاه الله

وهذا القصر العظيم بناه عظمة ولي النعم على شطّ العراق بالقرب من حدود امارته والمملكة العراقية على أنحط طراز وأجمل نظام وكان ذا طابقين عظيمين في الطابق الاول صاعة الاستقبال وهي مفروشة بأمن وأجمل الرياش وفيها من التحف والنفائس الشيء الكثير ومزدانة بالثريات الفاخرة التي تضاء بالكهرباء وفيها رسوم أعظم الملوك المهداة لعظمتهم وفيها صوراً كاسرة الفرس العظام بأجمل تصوير وأبدعه وهي مفروشة بسجادة عجيبة من أمن وأفضل مانسجه الناسجون ويجوار هاته الصاعة العظمى « غرفة المائدة » وهي واسعة على الطراز الاوربي بمائدة وكراسي وخزانات للواني الذهبية والفضية والحزفية وفيها كان يقيم عظمة مولانا مادبه الشهيرة للولاية والقناصل والاعيان من الاجانب والوطنيين . وهناك غرف عديدة هي مكاتب رجال المعية وموظفي القصر ومستخدمي الخاصة

وكان القسم العالمي من هذا القصر المعمور يقسم الى قسمين كبيرين أحدهما للحرم وفيه من نفائس الرياش ما لا يوجد مثله الا في دور الملوك وفي القسم الثاني صاعة كبرى جلوس عظمتهم الى ندمائهم من العلماء والادباء والشعراء الذين لا يفارقونه في سره الليلي وفي هذه الصاعة « المكتبة الحزلية » وهي أمن واغنى مكتبة في العراق بغير جدال وكان بجوار هذه الصاعة غرف خاصة بهؤلاء الكرام ياوون اليها ويقومون فيها طلماهم في ضيافة ولي النعم حفظه الله وكان في جوار تلك الصاعة الكبرى التي حولها غرف الندماء المشاهير اليها ساحة عظيمة كنا نسير فيها في الصيف حيث يستحيل السمر في غير الخلاء كما هو الحال في العراق المعروفة بشدة حرّها

وتحت هذين الدورين العظيمين من ذلك القصر المعمور سرداب واسعة جميلة البناء مزدانة بالنقوش والرسوم التاريخية يقيم فيها عظمة ولي النعم وضيوفه في أيام الحرّ ويتصل الهواء اليها بمناقب عالية متصلة بأعلى سطح القصر تلتقي الهواء من الجوانب الاربعة بشكل هندسي معروف في العراق ويسمونه « باتنج » على ان عظمتهم حفظه الله بعد أن استحضروا الكهرباء



« المحمرة حاضرة الامارة »

لقصره المعمور استعاض عنها بالمرآح الكهربائية الكثيرة فرطبت الحرارة في أشد أوقات القيظ وجعلت تلك السرايدب مقرّ رطوبة تنهش النفوس وهذه السرايدب مفروشة بسمين الرياش وغالي الاثاث وكنا كلما ندخلها نذكر مارواه المؤرخون عن السرايدب المشهورة التي بناها هارون الرشيد في قصر الخلد في الكرخ بل كنا نقول هيئات لسرايدب الرشيد ان تكون كسرايدب المعز بما فيها من جاه وعزّ ومجد وطيد هذا ما كان عليه القصر الحز علي العالي الى سنة ١٩١١ وفي أواخر هذا العام أضاءه بالكهرباء بالآلات مخصوصة استحضرها عظمة وليّ النعم خصيصاً لخدمة قصوره واستحضر معها من زاهر الثريات والمصابيح ما يستهوي الابصار حتى اذا ما انبعثت منها الانوار كان الليل فيها أضواً من النهار ولا سيما الانوار الشمسية المقامة على الساحة السطحية وفي ساعات القصر الكبرى وأهم هذه المصابيح مصباح كبير أقيم على أعالي القصر ونوره كالنجم الثاقب ويصل الى مسافات بعيدة أقامه عظمة مولانا خصيصاً ليستضيء به قاصدوه اذا وصلوا الى رحابه ليلاً ولي الشرف أنا عبده المملوك ان اكون واسطة مشتري هذه الآلات والثريات في سياحتي الاولى في أوروبا ابتعتها لهظمته من عروس الدنيا باريس

كما صار لي الحظ ان أكون في خدمة عظمته في الكهالة المحروسة عند ما أضاء القصر المعمور
بالانوار الكهربية الرمة الاولى فقلت وقتئذ أو رخصها :

يا من يرى بديار مولانا الم	ز سناً يشابه بالفاسخر نوره
ان رمت تعرف ما يضي بقصر ال	مالي لينظر كل مرور بره
فاعلم بأن سناءه متشمع	من مجده السامي فيرفع قدره
ويديع ما بين الاعارب والاعا	جم في المشارق والمنارب شكره
ذا جابه بنهاره باد كنو	ر الشمس يملئ بالثلاليه ذكره
ولآيله عند المؤرخ منور	بالكهرباء أنار خزعل قصره

سنة ١٩١١

أقول وقد كان هنا اول عهد اناس في العراق بالكهرباء وما كانوا يعرفون
« النور الكهربائي » الا في البواخر التي كانت ترتاد البصرة وما انتشرت الكهرباء
في العراق الا بعد سنة ١٩١٥ عند ما فتحتها الجيوش البريطانية المنصورة في الحرب
العامة الاوربية .

على أن عظمة مولانا السردار اقدس روعي فداه لم يرض ان يبقى قصره الباصر
على حاله بعد ان تارل العمران عموم مملكته الالية فأخذ بتوسيته فأشاد بجوار
القسم العالي المخصص بضيوفه وندائه داراً فخمة للامير الجليل الخالد الذكر المرحوم
الشيخ مبارك آل صباح أمير الكويت وحاكمها ورئيس قبائلها ذلك ان هذا الامير
الجليل رحمه الله كان كثير الولاء والاخلاص لعظمة مولانا السردار اقدس وكذلك
كان عظمته لسموه حتى كان الاميران روحاً في جسدين وكانا يتزاوران مراراً في
كل عام ويوملان بالنضام في سبيل خير رعائهما في عربستان والكويت فربما بعد طول
الصحبة ان يبني كل منهما قصرأ لصاحبه في بلده ليستكمل اسباب راحته فبنى عظمة السردار
اقدس بجوار قصره قصرأ المرحوم الشيخ مبارك آل صباح كما تقدم وبنى الشيخ المرحوم
قصرأ لعظمة مولانا في الكويت بجوار قصره (١) وهكذا كانت الصداقة بين الاميرين

(١) ورأى عظمة مولانا السردار اقدس حفظه الله أن هوام الكويت يلائم صحته
الثمينة فما اكتفى بالقصر الذي بُني لعظمته بجوار قصر اخيه المرحوم الشيخ المبارك داخل البلد
بل بادر فبنى قصرين فخمين خارج الكويت على ضفاف البحر من الجهة الشرقية أحدهما
للحرم والاخر للندماء والاعوان والضيوف وحسب عادته الشريفة اتسهما بفاخري



« الشارع الخزعي في الحمرة »

وطيدة الأركان وظلت كذلك الى ان فرق بينهما الدهر الخؤون بداعي البين فلا حول
ولا قوة الا بالله ولقد نال رعايا الاميرين من وراء هذه الصدقة الوثيمة العري من
جلب المنافع ودفع المضار الشيء الكثير فتعسأ للزمان التدار الذي فرق بينهما ووقع
السكر يتبين بعد الشيخ المبارك بمصائب عرفوا منها فضل ذلك للشيخ الجليل بارتباطه
الأثاث فكانا أنعم وأجمل أبنية الكويت بالاجماع وبقى ما حلّ بهما عظمته باننا كنية
الزائر من الشيوخ ووجهاء القوم وسراهم وعلماهم وفضلاهم وهم بحسبون زيارة عظمتهم
لكويتهم نعمة من نعم الدهر أو عيداً من اعيادهم يتبادلون به كؤوس الغبطة والبشر

بعظمة اميرنا النبيل نعم عرفوا ذلك على عهد ولده المرحوم الشيخ سالم المتوفى سنة ١٩٢١ على
انهم عادوا الى مثل ذلك الخير على عهد اميرهم الحالي حفيد المبارك سمو الشيخ احمد بن جابر
الذي رجع الى مودة عظمة السردار اقدس متبعماً حسن سياسة جده رحمه الله فرجع
السكويثيون بذلك الى ماضي عهد الخير الذي فقدوه حيناً من الدهر وذكروا به شيخهم
المبارك اطيب الذكر ذا كرين قول الشاعر :

سيد كرتي قومي اذا جدّ جدّم وفي الليلة الظلماء ينتقد البدر
ثم رأى عظمة مولانا السردار اقدس أيده الله أن استقبال ضيوفه الكرام وهم
كما علمت من الامراء والوزراء وكبار الحكام في الدور الاول من قصره المصنوع
لا يتفق مع مكاته العليا ومقامه السامي فصدرت ارادته السنية في سنة ١٩١٣ ببناء
قصر خاص ملاصق لقصره وقصر اخيه المرحوم الشيخ مبارك الصباح وسرعان ما تخذ
أمره السامي وأقيم ذلك القصر على طراز عجيب جمع بين الاسلوب الاوربي والذوق
الشرقي الفارسي وهاك وضعه :

اقم هذا القصر العجيب على علو ستة أمتار فيصعد اليه بسالم مرمرية وهناك تدخل
الى فسحة واسعة الجوانب مستطيلة تسع نحواً من ألف نفس وقوفاً على الاقدام ونقش
بناة الفرس على أعلى جدران هاته الفسحة صوراً تاريخية تمثل المشهورين من قياصرة الفرس
القدماء وبعضهم وقوف والبعض على خيولهم والبعض يصارعون الاسود والبعض يجاربون
الانعام وتشيد على جانبي هاته الفسحة غرف عديدة بعضها كبيرة وبعضها صغيرة وجعلت
لتكون للضيوف الكرام الذين يقصدون عظمة وليّ النعم والبعض الآخر للخاصة من رجال
عظمتهم واقترح ان اقول ان احدى هاته الغرف قد خصصها عظمة لولاى بهذا العبد
المملوك اقم فيها عند ما اشرف بخدمة عظمته

وفي وسط هاته الفسحة الى يمين الداخل ممر ينتهي الى قصر عظمة وليّ النعم
وقصر المرحوم اخيه الشيخ مبارك الصباح ومن هذا المدخل الى قصر الشيخ المرحوم
صاعة كبرى يعجز القلم عن بيان ما فيها من بديع النقوش التي اشتغل بتصويرها
ابرع مصوري الفرس وتمثل هذه النقوش مواقع تاريخية مشهورة لا كاسرة فارس
القدماء وقد زاد هذه الصاعة جمالاً نثر مصابيح الكهرباء الصغيرة الملونة في أعلى
جدرانها عند الصقف بين نقوش الزهور وكروم العنب حتى اذا ما أضئت ارسلت
الى أعين الرائيين منظراً بحير العقول وهذه الصاعة المباركة كانت مئوى جلالة الشاه



« حفرة الأبر الجليل صاحب السور سردار ارتق الشيخ جاب خزن »

احمد خان سلطان دولة ايران العلية عند ما زار عظمة ميلانا في ربيع سنة ١٩٢٠
وقد اظهر جلاله ابيه بيديع صنعها وترصيع مصابيح الكهروبا في جاراتها
وانتم على كهرباني النصر الاسطى داود ينوط الصناعة الذهبي لاجلها
وفي صدر هاته الساعة غرفة واسعة ايضاً مفروشة بشمين الرياض في صدرها
صورة زيتية على طول ولي الزم تشرفت باستصنائها في مصر وسماها الى ذلك القصر
المعمور في خريف سنة ١٩٢٠ وترى صورتها في هذا الكتاب وفي هذه الساعة من فاخر
السجاد الايراني ما يسي باتقان صنعه الالباب وهذه الساعة جعلها عظمة ولي الزم

لاقامة الولايم لسكرام ضيوفه وأعظم قاصديه على الطريقة الاوربية كما يشاهد في قصور ملوك اوروبا وامراتها وسراتها

وفي جوار هذه الصاعة الى يمين الداخل دائرة واسعة ذات غرف عديدة تخصصت بكبار موظفي الخاصة منها غرفة حضرة الشيخ الوقور صاحب السعادة الحاج محمد علي خان رئيس تجار عربستان كبير الوزراء وغرفة حضرة النبيل الذكي صاحب السعادة جلاء الملك ميرزا عبد الصمد خان كاتم أسرار الامارة وغرفة حضرة النبيل الفاضل صاحب السعادة الحاج ابي الحسن خان مشير تجار عربستان كاتم أسرار الامارة في الشؤون الخارجية وغرفة حضرة الماجد صاحب السعادة مفتي الدولة كبير مستشاري الامارة وغرفة حضرة الهمام وقار الملك مهندار الامارة فغرفة حضرة الكاتب المتضلع صاحب السعادة معاون الممالك رئيس التحريرات الفارسية فغرف بقية الموظفين والامناء والمقربين

ومن جوار هذه الصاعة الى شمال الداخل ممر يخرج منه الى شرفة مستطيلة تشرف على حديقة الفصير الغناء وعلى شمال الداخل في هذا الممر غرفة السيد المملوك تعينت لي عند ما اكون حائزاً على شرف مواصلة وليّ النعم روعي فداء اما الشرفة فمستطيلة وقد ارتكز صقفها على أعمدة عظيمة مستديرة لها تيجان منقوشة على نحو ما يشاهد بالهياكل الاثرية في بلاد فارس ومصر وهذه النقوش الفارسية تدهش الناظرين وتزيدها جمالا المصاييح الكهربائية الماثورة على هاتيك التيجان بين نقوشها البديعة وقد فرش هذا القصر الجديد بفاخر السجاد وحيي اليه بالاثاث الثمين على الطراز الاوربي فكان أعظم بناء في انجم رياش تقع عليه العين في اطراف العراقين وتحيط بالقصر الحزعلي العالي روضة غناء فيها من كل فاكهة زوجان وهي مستطيلة على نفس شط العراق فيزيدها مرأى الشط والبواخر الماخرة فيه زهواً وبهاءاً وفي هذه الروضة من أنواع الزهور والرياحين ما يعبق شذاه وتستهوئ النفوس رؤياه ولعظمة مولانا السردار اقدس عناية خصيصة بهذه الحديقة وقد جاء لها بيستانان من بني الروم يسهر على تنظيم ماشيها وترتيب مغارس أزهارها على نحو ما نعرف من حدائق مصر واوروبا الجميلة . والحديقة ذات ماشي وادغال وفيها المقاعد لراحة روادها . وفي كل مساء تأتي اليها الموسيقى الحزلية فتشرف الاسماع بنغماتها الشجية . وفي صدر هذه الحديقة ضربت خيمة جميلة ياوي اليها عظمة المنزّ وليّ النعم روعي فداء عند الضحى واحياناً



« حفزة الأمير الجبل صاحب السور سردار اجل الشيخ عبد الحميد خان »

كان حفظه الله يتناول في هذا المضرب طعام الغذاء مع ندمائه والمقربين اليه من أصحابه .

وامام القصر وحديقته ترسو منحوت عظمة مولانا سردار اقدس التي سنأتي على ذكرها فيما بعد وترسو أيضاً « بلائم » عظمتها وأهمها البلم الخاص بخدمة ولي النعم في حال انتقاله الى محتيه الكبيرين ونحو ذلك والبلائم جمع بلم وهو الزورق

﴿ القبيلة ﴾

وهذا القصر الفخم العظيم يبعد عن القبلة نحو ٣٠ دقيقة للمشي والطريق بين القصر والقبيلة عبارة عن مجموع أبنية متجاورة ولها قصر فخم بجانب النصر العالي وهو واسع

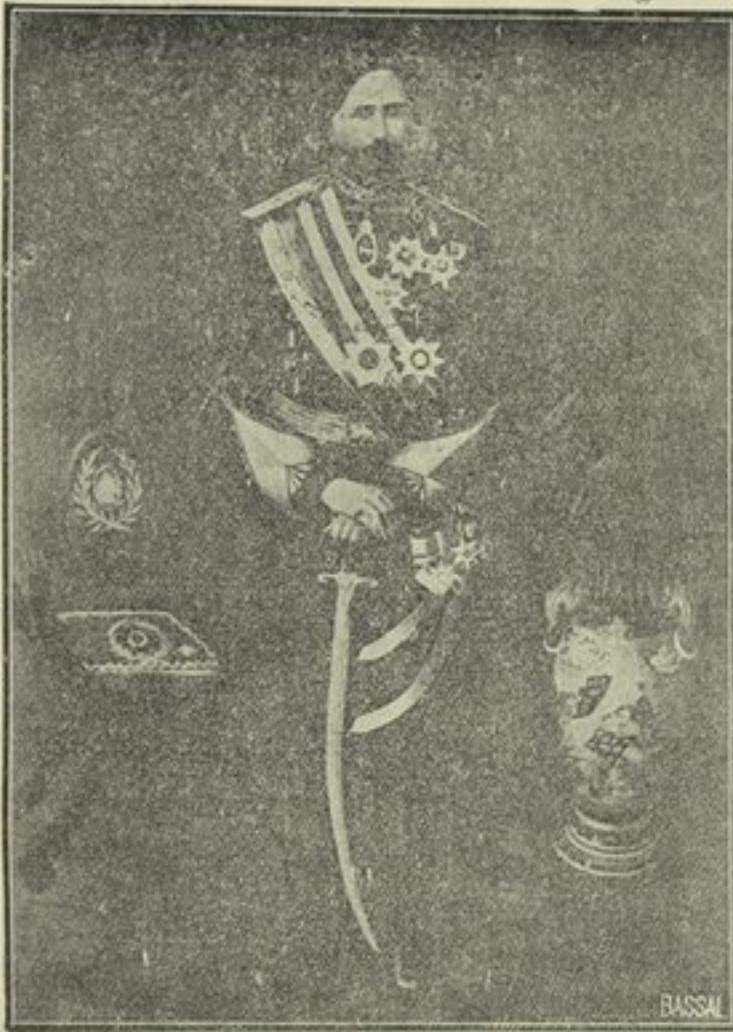
الاطراف ذو طابقين كبيرين يقيم فيه اليوم سموّ مولاي السردار ارفع الشيخ جاسب خان كبير الانجال وحاكم المحمرة مع حاشيته الكريمة فبناية اخرى للالات الكهربائية التي ترسل نورها الى القصر الخزعلي العامر وقصور الفيلية وبجواره بناية اخرى يقيم فيها عمال الكهرباء فقصور اخرى كثيرة اعدّها عظمة مولانا السردار اقدس لاقامة كبار ضيوف عظمتهم الذين يطيلون الاقامة في خدته العلية من امراء العرب والفرس وفي آخر هذه الابنية الديوانية الشهيرة التي سيأتي ذكرها وكل هذه الابنية على شط العرب ومنارة بالكهرباء وقائمة حولها اشجار النخيل الباسقة

لا جرم ان هذه الابنية الفخمة القائمة على شطّ العرب من حدود الفيلية حيث « الديوانية » الى القصر الخزعلي العامر في « السكالية » هي سورّ لما ورأها من بلد « الفيلية » الخاص بالخاصة الملوكية الخزعية فهناك يسكن كل من له نصيب في المائدة الخزعية من غلمان وعمال ومعاملين وهناك سوق لهؤلاء الجماعات يتعاملون فيها وهناك « الحسينية » الكبرى المشادة لاقامة التمازي في الايام السوداء التي يذكر فيها المسلمون ما لقيه من الخطوب آل البيت النبوي عليهم وعلى المصطفى الصلاة والسلام وكانت الفيلية مقرّاً لشيوخنا العظام من القدم وباني قصورها هو ساكن الجنان المرحوم نصرت الملك الحاج جابر خان وظلت هذه القصور على حالها الى أن تشرّف عرش الامارة بعظمة مولانا ولي النعم فزاد في عمران هاتيك القصور وجدّد كثيراً من أبنيتها وأدخل في الاخير اليها الانوار الكهربائية

وبجوار هاته القصور قصر المرحوم ميرزا حمزه خان وزير الامارة بُني على عهد المرحوم الشيخ مزعل خان ويسكنه اليوم كبير ائجاله صاحب السعادة جلاء الملك ميرزا عبد الصمد خان وقد زاد حضرته في بناء هذا القصر وترميمه وجمله بالنقوش والرسوم وفلنتر الرياض

وكما سبقت الاشارة الى وراه قصور ساداتنا الشيوخ بيوت مواليتهم وهم « الحرس الخاص » وفي هذه الكورة ايضاً « الديوانية » وهي عبارة عن دار واسعة الاركان شامخة البنيان مشرفة على شط العراق بناها عظمة مولانا ولي النعم المعزّ المعظم لاضافة ضيوفه الكثيرين الذين يقصدونه من كل صوب وحذب فينزلون على الرجب والسعة ويقبضون ما شاء الله ان يقيموا برغد وهناك حتى اذا ارادوا الانصراف غمرهم بالمنح والالمانف فيصدرون عنه حامدين شاكرين بعد ان قصدوه آمليين .

« منقولة عن الصورة الزيتية الكائنة في القصر العالمي »



« عظمة مولانا السردار أقدس الشيخ خزعل خان »

وكانت عادة ولي النعم المعزّ المعظم زيارة القبيلة هذه في أكثر الايام التي يكون فيها في قصره العامر في الكمالية ولكن أبطل حفظه الله بعد الحرب العامة عادته تلك وصار يجلس الى الناس في قصره العامر ويرسل حضرة كبير انجاله سمو السردار ارفع الشيخ جاسب خان للاهتمام براحة الضيوف وتقديم من يجب تقديمه منهم الى حضرته السنية ولقد لقي الضيوف من كرم سمو الامير مجلهما حقق لهم المثل المشهور « الولد سر أبيه »

وكانت « ديوانية القبيلة » مقرّ الاحكام التي ينظر فيها عظمة مولانا السردار اقدس روعي فدهاء فكان يجلس للناس في صاعتها لينصف المظلوم من الظالم ويرفع

عن اغناق الناس المغارم ولكن بعد الحرب العامة حول ادم الله علاه مجلسه ذلك الى
القصر المعبور ايضاً

﴿ الحمرة ﴾

اما الحمرة فواقعة على ملتقى شط العراق ونهر قارون وبعبرها نهر بهمشير ومبينة
دورها بين اشجار النخيل القائمة فيها كالعرانس وفيها نيف وثلاثون ألف ساكن
وتحيط بها وتنتثر امامها أي ما وراء شط العرب « كور » جمع « كورة » يباع سكانها
نحواً من مئة ألفاً فيكون مجموع سكان الحاضرة بكورها مئة وثلاثين ألفاً (١)

اما نفس الحمرة فهي مدينة قديمة كانت كغيرها من مدائن الخليج الفارسي فلما
علا عرش الامارة عظيمة مولانا السردار اقدس أعزّه الله صدرت ارادته السنية بتعميرها
على الاسلوب الحديث واذ كان هذا يتقل كواهل الاهلين أمر حفظه الله بان تكون
النفقات من حبيبه الخاص وهكذا جاء بالمهندسين من البصرة والهند وجدد بناء
الاسواق على طراز حديث بحيث أصبحت الدكاكين والمخازن فيه متناسقة متشابهة
وشوارعها واسعة وكذلك أمر بتنظيم وتوسيع شوارع عموم البلد وفرشها بالحجر
الصلد والسهر على تنظيمها وغسلها فاصبحت ولا جدال أجمل ثمر الخليج الفارسي وأعمارها
وأهم شوارع هذا البلد الشارع الخبز علي العالي وفيه الكرك ودور المعتمد الإيراني
والفصل الانكليزي والسراي الجاسبية الكبرى التي شيدها صاحب السمو والسردار
أرفع الشيخ جاسب خان كبير أنجال الحضرة الخيرية وحاكم الحمرة الان وهذه
السراي ذات دورين خمسين واسعين أحدهما لاستقبال الضيوف «سلامك» الذي يسميه
العراقيون «ديرانية» وفي هذا القسم غرف كثيرة لضيوف سمو الامير ينزلون فيها
على الرحب والسعة كلما أتت ساحتها وهناك غرفة خاصة جاناها سموه «داراً للعلم»
وفيه مكتبة كبرى جميعها من مقتني سموه واما القسم العالي من السراي فهو للحرم
وهناك الغرف الواسعة والصاعات الكبرى المفروشة بانعم الرياش على آخر طراز

(١) ومعظم هذه الكور منتورة في الجهة المقابلة للقبيلة والحمرة وما ورأها
وأمامها أي من الفاو الى ما وراء البصرة من املاك المملكة العراقية وتسكن هذه
الكور قبائل المحسن وهي عمومة عظيمة مولانا السردار اقدس أما النخيل التي في
منازلها تلك فمتم كبر منها ملك خاص لعظمة مولانا وبعضه ملك روساء هاتيك القبائل
وبعضه ملك أهل البصرة



« سمو المرردار أرنع »

« الشيخ جاسب خان »

« حاكم المحمرة »

« سمو المرردار أجل »

« الشيخ عبد الحميد خان »

« حاكم الاهواز »

عصري أوربي اعتنى سمو الأمير بتشيدها وتأثيرها على ما هو معروف عن ذوقه السليم
وبرسو امامها بخنا سموه المرصدين لخدمته والسراي منارة بالكهرباء بالات خصيصه
استحضرها سموه على ما يليق بجاهه عظمة مولانا ايه السرदार اقدس وجاهه

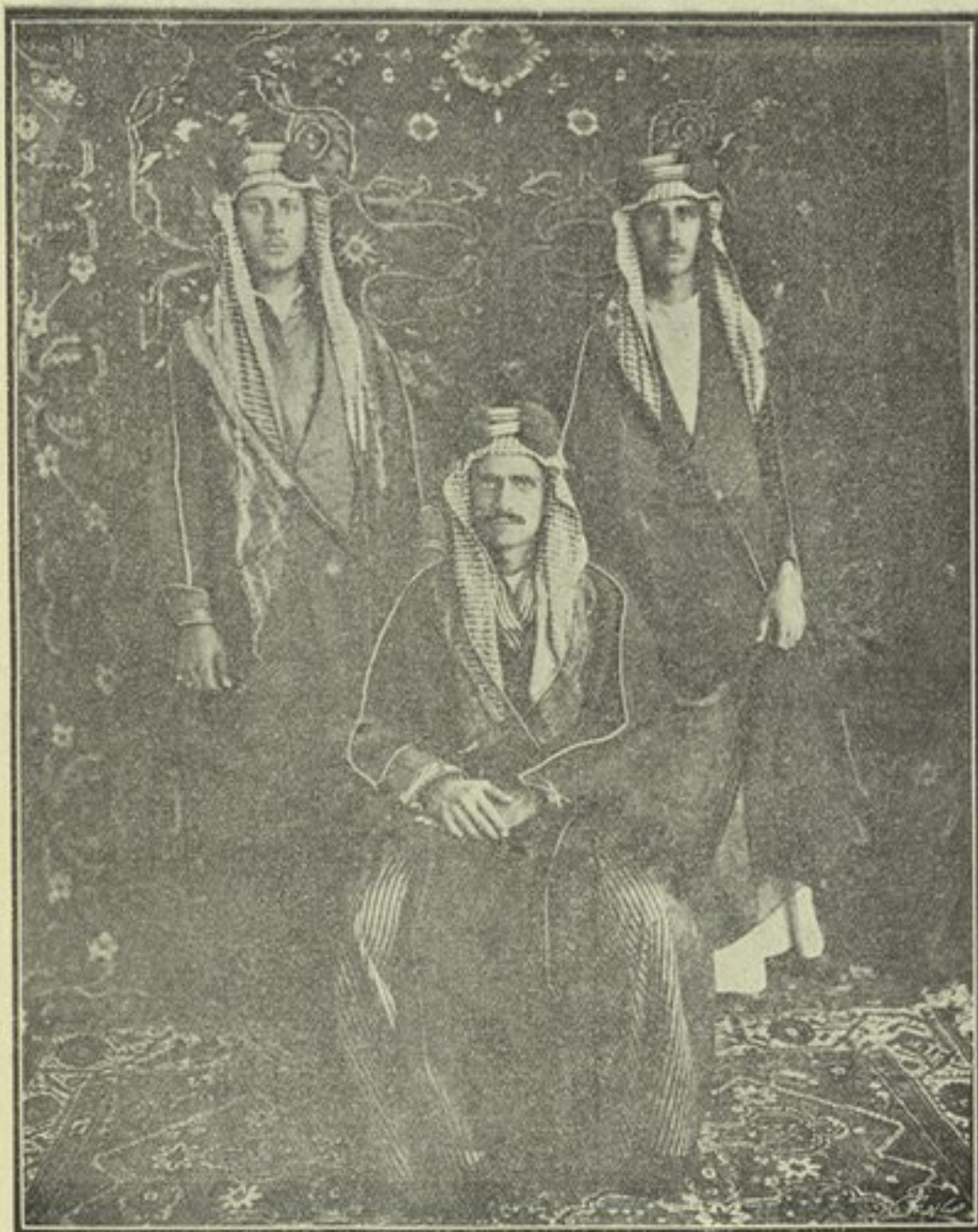
وفي هذا الشارع دار كبرى لشركة الغاز واخرى واسعة لحضرة الشيخ الجليل
صاحب السعادة الحاج محمد علي خان رئيس تجار عربستان وهو وزير الامارة الاكبر
المشهور باخلاصه وتفانيه في خدمة مولانا ولي النعم وفي هذه الدار مكتب تجارة سعاده
في دائرة مخصوصة وسعاده اكبر تاجر في عربستان وله علائق مالية كبرى مع الهند
وأوروبا ويدير متجره الواسع حضرة نجله الماجد الهام صاحب السعادة الحاج أبو الحسن
خان مشير تجار عربستان

وفي هذا الشارع أيضاً دار البنك الايراني الشاهاني وكثير غيرها من الدور العامرة
وأشجار النخيل تنخلها جميعها وتختال بينها كالعرائس على ما ترى في أحد الرسوم المذشورة
في هاته التوطئة .

ولقد أصبحت الحمرة في العهد الخزعلي الانور ثغراً تجارياً عظيماً تستورد اليه
البضائع من أوروبا والهند فيحملها التجار الى داخلية عربستان ويصدر منه لاوروبا
وأمریکا والهند الباج على أنواعه مع أنواع الحبوب والسمن والصوف فكثرت في ذلك
الارباح وعمت المكاسب وقد كان هذا بفضل ولي النعم عظمة الشيخ خزعل خان المعظم
الساهر بنوع خاص على ترويض المناجر وحماية التجار علماً منه حفظه الله بأن معول
العالم كله في هذا العهد على التجارة التي هي أساس الاقتصاد المرتبطة به سياسة
الممالك والدول .

وفي الحمرة خليط من الناس أكثرهم مسلمون من عرب وعجم وفيهم النصارى
واليهود والبنيان وهم عبدة الاوثان الهنديون وقد ساوى بينهم عدل عظمة الشيخ
وشملتهم جميعاً رحمته ولذلك لا يوجد في سكان الحمرة أحقاد وضغان كما يوجد في
غيرها من المدن التي انحرف حكمها عما انزل الله في كتابه العزيز

وفي الحمرة عدة « حسينييات » مشادة لتعازي التي اعتادها الشيعة بعضها
شيدها عظمة مولانا السرदार اقدس وبعضها شيدها الاهلون وفيها مساجد كثيرة
وكنيسة للاتين وكنيس لليهود ومدرسة عامرة تعرف باسم « المدرسة الخزعلية »
تيمناً باسم عظمة مولانا السرदार اقدس روجي فداه ويتعهدا عظمته دائماً بعطفه



« سمو السردار أشرف » « سمو السردار أرفع » « سمو السردار كشور »
« الشيخ عبد الله خان » « الشيخ جاسب خان » « الشيخ عبد المجيد خان »

وماله فلا غرو اذا ازهرت ورببت الناشئة أحسن وأفضل تربية عصرية
وقد لقيت المحمرة في حكم حضرة الامير الجليل سمو السردار أرفع الشيخ جاسب
خان رقياً عظيماً وعدلاً شاملاً وأمناً طيباً وتلك نيات عظمة مولانا السردار أقدس
نحو رعاياه فقد نها سمو الامير كبيراً بحجالة على ما أطلق اللسان بالحمد والثناء وصادق الدعاء
وينتظر المحمرة مستقبل عظيم باهر من وجهتي التجارة والزراعة في العهد الجديد
الذي دخلت فيه بلاد العراق في قسميها العربي والعجمي لان الاسباب التي كانت
تحول دون رقي هذه البلاد قد اضمحلت والحمد لله ولم يبق الا أن ينصرف عظمة
ولي نعم السردار أقدس المعظم بهمة الوضية الى تعمير مملكته العلية بما أوتي من
رغبات طيبة وذكاء مدهش ورأي سديد وانه لفاعل ان شاء الله تعالى

﴿ ناصرية الاهواز ﴾

اما الاهواز فهي تلك المدينة الأثرية العظيمة على نهر قارون وكانت قبل الاسلام
مقرّاً للناصرانية ورئيسها الديني كان عنده نيف واربعماية كنيسة وصارت بعد الاسلام
بلداً عظيماً عامراً بالعلم والعلماء ثم أخنى على هاته المدينة الزمن فناها الدمار واصبحت
قرية صغيرة قليلة السكان عديمة العمران والاطلال البالية التي حولها كانت باقية لتندب
زمناً فات هو زمن اليسر والعمار

وقد انصرف الى تعمير خرائب هاته المدينة ساكن الجنان المرحوم الحاج جابر خان
بعد ان استتب له الامر في عربستان فبنى قصرأ له على نحو غلوة من الاهواز جعله
نقطة عسكرية ولم يمض الا الزمن اليسير حتى أخذ الناس من العرب والفرس يبنون
حول ذلك القصر بيوتاً يسكنونها فصارت بلداً صغيراً أطلق عليه ساكن الجنان
الحاج جابر خان اسم « الناصرية » تيمناً بالمرحوم المبرور ساكن الجنان ناصر الدين
شاه شهنشاه الدولة العلية الايرانية وكان بين الناصرية هذه ومدينة الاهواز مسافة
يقطعها الماشي بنحو ٢٠ دقيقة

وعند ما تولى الامارة عظمة مولانا السردار أقدس توجه بنظره العالي الى هاته
المدينة شأنه مع جميع ممالك السعيدة فأخذت بالعمران والتقدم ووجد عمال « شركة
الغاز الانكليزية » ان يجعلوا هذا البلد مقرّاً لهم لتوسطها بين منبع الغاز في
« بركة سليمان » وعبادان التي جعلوها مركزاً عاماً للشركة ومستودعاً للغاز ينقلونه
منها الى البلاد البريطانية وهكذا أخذت « ناصرية الاهواز » نصيبها من التقدم والعمار



« نضرت الملك سمو الشيخ عبد العزيز خان »

حتى اتصلت في هاته الايام الناصرية بالاهواز واصبحت المدينتان مدينة كبرى واحدة وقد أتيج لي الحظ أن ازور الاهواز مراراً فزرتها في سنة ١٩١١ وكان يحكمها وقتئذ سمو مولاي السردار أرفع الشيخ جاسب خان كبير انجال الحضرة الفخمة الخزعية وسررتي ما رأيته وقتئذ من سهر سموه على راحة الاهلين وغبطتهم ورفاههم وفي ذلك العهد تأسست « المدرسة الجاسبية » بمعونة سموه تحقيقاً لنوايا عظمة مولانا والده العظيم وفي عهده السعيد ايضاً تأسست في الاهواز كنيسة للطائفة الكلدانية الكاثوليكية ومدرسة بجانبها (١) وكنت اسمع التناء على سموه من جميع السكان من عرب وعجم

(١) عند ما اشتعلت الثورة الاهلية في البلاد الارمنية العثمانية وهُدرت دماء الارمن وأبيحت امواهم واعراضهم فيما يسمونه « المذابح الارمنية » على عهد السلطان عبد الحميد من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٨٩٧ أصيبت بلاد الارمن وما جاورها

وكلدان . وزرت هاته المدينة في سنة ١٩٢٠ غير مرة ويحكها سمو مولاي السردار
أجل الشيخ عبد الحميد خان ثاني أنجال الحضرة السنية الخزعلية وشهدت من آيات
آلاء سموه على هاته المدينة وسكانها ما يقل عنده كل حد وثناء ولقد سار سمو الأمير
على خطوات سمو أخيه السردار أرفع في تميم الراحة والأمن ومساعدة الاهلين
على الرفاء واليسر تحقيقاً لنوايا عظمة مولانا ومولاه الوالد الكثير المحامد السردار
أقدس أطال الله في حياته السعيدة ولقد علمت أن في نية سموه حفظه الله استجلاب
الات اللازمة لرفع المياه ليستفي بها أراضي الاهواز الخصبة وهي فكرة لا بد من

بمقرر عام شأن جميع البلاد التي يضطرب فيها جبل الامن ويثور سكانها بعضهم على
بعض ونال وقتئذ المسيحيين الكلدان في ارمينيا وما جارها ولا سبها ولاية الموصل
بعض ما نال الارمن من المصائب والخاوف فحملوا يفرّون من مواطنهم وقد وجد
قسم منهم في ناصرية الاهواز ربماً آمناً بظلال عظمة مولانا السردار أقدس أطال
الله بقاءه فسكنوها واذ كثر عددهم تقدموا من عظمتهم طالبين ان يحسن اليهم بأرض
يبنون عليها كنيسة لهم ومدرسة يربى بها أطفالهم فقابلهم عظمتهم حفظه الله بما عهد
فيه من رحابة الصدر وسماحة الكف وأحسن اليهم بالارض التي طلبوها ومدّمهم
فوق ذلك هباته فشانوا هنالك كنيسة واسعة وأقاموا بجوارها قلاية لسكنى قسيسهم
ومدرسة لتعليم أولادهم وكان ذلك على عهد سمو مولاي السردار أرفع الذي كان
يتعهدهم بنفسه ويمني براحتهم بسهره الدائم تحقيقاً لنوايا عظمة مولانا ومولاه السردار
أقدس روعي فداء . ووجد الكلدان في الاهواز من العدل والامن ما باتوا به
محمودين من اخوانهم المتعيين في مواطنهم ولا يزالون كذلك واذ كان شكر المنعم واجب
فقد رأى حضرة الشيخ الجليل صاحب الغبطة السيد عمانوئيل يوسف بطريرك بابل
للكلدان الكاثوليك عند ما قصد رومه في نهاية الحرب الاوربية العامة سنة ١٩٢٠ أن
يذكر هذه النعمة السنية الخزعلية لدى عرش قداسة الجبر الاعظم البابا بناديكتوس الخامس
عشر ذكراً ان الذين ظلوا سعداء من ابناؤه الروحانيين في الشرق هم اولئك الذين
هاجروا الى ناصرية الاهواز وعاشوا في ظلال عظمة السردار اقدس فتأثر قداسة
البابا من احسان عظمة الشيخ خزعل خان الى هؤلاء المنكوبين من ابناء البيعة واهداه
وسام القديس غريغوريوس من رتبة فارس قومندور اعلاناً لشكر قداسته ومعرفته جميل
هذا الملك العربي العظيم الكريم وهكذا « فالفضل يعرفه ذووه »



« سمو السردار لشكر الشيخ عبد الكريم خان »

تحقيقها. بهمة هذا الامير المصلح الجليل بظل ظليل الحضرة السنية الخزعية .
ومما يذكر عن ناصرية الاهواز ان عظمة مولانا السردار اقدس قد سمح مؤخرأ
للاجانب النازلين فيها بمشترى ما يحتاجون اليه من اراضيها لاقامة الابنية عليها وللزراعة
ايضاً وبهذا الامر العالي الذي انتضته حكمة عظمة وليّ النعم لا بدّ وأن تدخل الاهواز
بدور جديد من العمران تحسد عليه .

وناصرية الاهواز بلد تجاري زراعي بروج فيه مصنوعات ايران وحوله أرض
خصبة تصلح لزراعة القطن والتوت الذي يربى على ورقه دود الحرير وناهيك بارض
نهر قارون وأنا المنتظرون في العهد الخزعلي الأ نور وبهمة حضرة مولاي صاحب
السمو السردار اجلّ أن تصبح الاهواز بعد زمن يسير مظهرأ من مظاهر العمران
الزاهي في المراقين ان شاء الله تعالى .

وترتبط الاهواز بالمحيرة بطريقتين احدهما طريق نهر قارون وهي طريق لا بدّ
للبوخر النهرية من خمسة عشر ساعة لاجتيازها اذا كانت سائرة من المحيرة للاهواز
واما الرجوع فيحتاج الى نحو العشر ساعات على الاقلّ ونهر قارون هذا لا بدّ له
من النزح والتطهير للملاحة لكثرة ما فيه من الرمال وهذا قيد نظر عظمة مولانا وليّ
النعم السردار اقدس المعظم . اما الطريق الثانية فهي طريق السيارات وتبرّ محاذية
لأنايب الغاز الممتدة من « بركة سليمان » موضع النبع الى جزيرة عبادان وفي هذه
الطريق محطات لشركة الغاز وتستفيد منها السيارات وركابها اذ يأخذون منها ما قد
يحتاجون اليه من البنزين او الماء كما يأخذون منها ما يحتاجونه من الاطعمة عند الحاجة
والمسافة بالسيارات بين الاهواز والمحيرة من ٣ الى ٤ ساعات اذا كان النصل صيفأ والطريق
خالية من الوحول اما في الشتاء ولا سيما على أثر وقوع المطر فان اجتياز هذه الطريق
بالسيارات ضرب من ضرور المستحيل . وبما ان هذه الطريق نهم كثيراً شركة الغاز
مثلما نهم الامارة السنية كان لا بدّ من اتفاق الامارة والشركة على تصايجها . وهذا
ما ينويه عظمة مولانا السردار اقدس حفظه الله

وما زال القصر الذي ابتناه ساكن الجنان المسرحوم الحاج جابر خان في ناصرية
الاهواز في موضعه وامامه الميدان الواسع الذي يطلق عليه اليوم اسم «ميدان الحكومة»
غير أن هذا القصر قد تبدلت معالمه وتجدد عمرانه ويقم فيه لهذا العهد حضرة الامير
الجليل الكريم صاحب سمو السردار اجلّ الشيخ عبد الحميد خان ثاني الانجال

فلکم أنستُ بها وکم
ولقد أزينتُ باسک ال
فذکرتُ فيها فضلك ال
قاله اسأل ان تدو
وبدوم خزعلنا لسا
طامتُ من فصل مفید
سامي ومعناک الحمید
زاهي ومسماک الرشید
م بنالّ والذک الحمید
لنظّل في العیش الرغید

وصاحب السمو السردار أجلّ بهم بتشييد قصر نخم بجزوار هذا القصر القديم على بعد بضعة عشرة متراً وقد وضع أساسه ليكون أعظم تصور الاهواز وقد ظهرت جدرانه ولاحت غرفه الواسعة على أحسن عمران هندسي يلام ما اشتهر عن سوره من الذكاء وحسن الذوق وسيكون بعد قليل قصراً فخماً بديماً ان شاء الله تعالى

﴿القصور الخزعلية في الاهواز﴾

ومن عادة عظمة مولانا السردار أقدس الشيخ خزعل خان حفظه الله انه يزور الاهواز غير مرة في كل عام للاشراف على قبائمه النازلة على ضفاف نهر قارون والاهتمام بمصالحهم ولاحكام عرى الولاء مع حيرانه امره البخارية وكان من عاداته في زيارته تلك ان يقيم في أحد البيخوت التي كانت تسمى بمثلته مع الحاشية الى الاهواز ثم رأى بفضل العميم ان يشيد في هذه المدينة التي عمرت في ظله الغليل تصوراً يتم فيها مع حواشيه وحرمة المصون عند ما يشرّف الاهواز بزيارته فبنى لهذا الغرض ثلاثة قصور شامخة أحدها على ضفاف نهر قارون مباشرة وهر ذو طابقين وفيه غرف واسعة عديدة وقد خصصه بكرام ضيوفه من البخارية والبرانيين وجعل امام هذا القصر روضة غناء فيها الاشجار الباسقة ذات الثمار الشبيهة والزهور البهية ذات الروائح الزكية وأقام في هذه الروضة امام مدخل القصر جنديين من الحجر الصاب يمثلان حرسه الخاص وفي يد كل منهما بندقيته وقد رفعها لأخذ السلام

ووراء هذا القصر الفخم أقام عظمة وليّ النعم قصرين نخمين متصل أحدهما بالآخر وكلٌّ منهما ذو طابقين جميل أحدهما لمقام عظمته وكبار رجال حاشيته وفي هذا القصر صاعة كبرى تسع نيفاً وخمسةماية زائر والغريب في أمر هذه الصاعة انها فرشت بسجادة جميلة الصنع ما رأيت في كل رحلاني أجمل منها لا في العراق ولا في بلاد ايران فضلاً عن سعتها حتى ملأت أرض تلك الصاعة على اتساعها فسكانت هذه السجادة كئثال لبديع صنع «السجاد العجمي» المشهور في الدنيا بأسرها



« رئيس تجار عربستان ووزير الامارة »

« صاحب السعادة الحاج محمد علي خان »

وبجوار هذه الساعة الكبرى على الجانبين غرف واسعة كثيرة يقسم في القسم الداخلي منها الحرم المصون وفي التعم الخارجي كبار حاشية وليّ التعم وأكبر موظفي الامارة الذين في معيته

وفي هذا القصر شرفة واسعة اعتماد عظمة وليّ التعم حفظه الله ان يقم فيها في كلّ صباح من أيام الحرّ فيستقبل ضيوفه فيها وينظر في شؤون رعاياه وفي أسفل هذا التصر سرايب عجيبة الصنع بدعة الهندسة كثيرة العمق انست الناس ما رواه المؤرخون عن ابيه سرايب الخلفاء العباسيين والله ما كنا نشعر بأثر الحرّ في هاتيك السرايب الجميلة في الهاجرة المحرقة التي كانت تلفح وجوه الناس في الصيف ولا سيما في صيف سنة ١٩٢١ اذ كنت في الخدمة وكان الحرّ شديداً جداً يشكا منه الناس في كلّ الارض

اما القصر الثاني فهو ملاصق لهذا القصر الفخم وهو ايضاً ذو طابقين كان الارضي منهما للرجال والحرس والعالي للضيوف ايضاً من رؤساء العرب وشيوخهم وفي هذا القصر المطبخ الخزعلي المشهور الذي لا تطفأ ناره والذي يقدم الاطعمة الشهية للذين يأكلون على المائدة الفخمة الخزعلية والالوف من فقراء الاهواز الذين ينالون نصيبهم من الكرم الخزعلي في كل ظهر ومساء من الايام السعيدة التي يشرف بها عظمة ولانا وليّ النعم مدينه الاهواز

وهذه القصور الثلاثة مضاءة بالكهرباء بالة خصيصه استحضرها :ظمة وليّ النعم لهذا الغرض وفي جميع غرفها وسراديبها أقيمت المراوح الكهربية لترطيب الهواء في اثناء الحرّ الذي يستدّ كثيراً في الاهواز . واما اناث ورياش هذه القصور العظيمة فهو على أبداع طراز اوربي كما هو الحال في جميع القصور الخزعلية في الكمالية والفيلية والكويت

﴿ الخزعلية ﴾

وفي سنة ١٣٢٦ اختطّ ولي النعم عظمة الامير المعزّ حفظه الله « كورة » في نقطة متوسطة ما وراء المحمرة والفيلية أطلق عليها اسم الجناب العالي « الخزعلية » وكان تخطيطها على الاسلوب الهندسي الحديث فخبيء لها بالمهندسين فخططوا وشوارعها ثم بوشرو بنائها فبنى سموه فيها قصرًا فخماً وتقدم رؤساء العشائر والاعيان فبنوا فيها قصوراً شامخة بديعة الصنع فكانت مدينة جميلة تروق للناظرين

وقد سُدّ الى هذه « الكورة » رعة بطول ثمانية آلاف متراً وعرض عشرين متراً وعمق ثمانية أمتار ووصل أحد طرفيها بشطّ العراق الكبير والطرف الثاني بنهر قارون وبهذا توفر لها الماء للاستسقاء وللمسير اليها بالبلاليم ايضاً

ولهذه الكورة موقع صحي بديع يشرح الصدور وينعش النفوس بطلاقة هوائه وحسن مناظره ولذلك بات المأمول في وقت قصيران تتسع بناياتها اتساعاً عظيماً وتصبح مصيفاً جميلاً لاهالي المحمرة يرتادونها للانس والسرور

ولقد اتيح لي في سنة ١٣٢٧ وقد كنت في خدمة عظمة مولاي وليّ النعم السردار أقدس المعظم في المحمرة زيارة هذه المدينة الجميلة وقد كانت على بدء عمرانها فشافني موقعها الجميل ونسيمها العليل وهوؤها البلبل وما حوالها من الاشجار الباسقة والزهور المتناسقة فقلت أوّرخها :



« رئيس سكرتارية اماره عربستان »

« جلاء الملك سعاده ميرزا عبد الصمد خان »

قد بنى خزعل بشرى بلدة حسنا بهيه
 فعدت حنة مدن بمغانيا السفينه
 بين افراس بانما رر وازهار شهيه
 فوقها الاطيار تشدو باناشيد شجيه
 بشروامن قد اوها بنماويها الهنيه
 قيل اين الصفو أرخ قات ما «بالخزعليه»

سنة ١٣٢٦ هجرية

﴿ عبّادان ﴾

ومن مدن اماره عربستان المشرفة بحكم عظيمة مولانا المردار أقدس الشيخ
 خزعل خان مدينة « عبّادان » الشهيرة في قدميتها والتي يمثل بها العراقيون فيقولون

« ما بعد عبّادان قرية » اشارة الى الشيء الذي ما بعده بعد تهاياً في الوصف المدحي وكانت عبّادان جزيرة قديمة في أسفل شط العرب عند دنوة من مصبه في « خايج فارس » وكان الشط اذا قارب خليج فارس انفرج فرجتين احدها تسيل الى ناحية « ابو شهر » وما والاها من ثغور ايران والفرجة الثانية تسيل في جهة الكويت والبحرين وكان بين هاتين الفرجتين قطعة من الارض سبخة التربة ذات ماء اجاج لكثرة اختلاط ماء الخليج الملح بماء الشط العذب بفعل المدّ والجزر وكان في هذه الارض مشاهد ورباطات وكان فيها قوم منقطعون الى الابداء ويعيشون من اوقاف فيها أو من نذور الناذرين من المتدينين وكان يعول هؤلاء في معاشهم على الاسماك التي يصطادونها وكان يقصدهم الناس في المواسم للزيارة . تلك كانت حال هذه الارض واكواخ العبّاد الذين ياوونها وكان الفرس يدعونها « ميان رودان » اي « ما بين الانهر » وعند ما فتح العرب العراقيين في صدر الاسلام دعوها « عبّادان » نسبة الى اولئك المنقطعين للعبادة الذين يسكنونها نقول هذه رواية البعض عن هذه الجزيرة ووجه تسميتها أما آخرون فقالوا ان هذه الجزيرة كانت لحران بن أبان مولى عثمان بن عفان أقطعها له عبد الملك بن مروان الخليفة الاموي أو زياد عامل الامويين في العراق . وكان حران هذا من سبي عين التمر الا انه كان يدعي انه من التمر بن قاسط قلوا فاذاظت هذه الدعوى الحجاج بن يوسف عامل الامويين على العراق فقال يوماً في مجلس كان فيه عبّاد بن حصين الجبلي ان اتسمى حران الى العرب ولم يعترف انه مولى عثمان لأضربن عنقه . فخرج عبّاد من عند الحجاج مبادراً الى حران فأخبره بقول الحجاج قومه القسم الغربي من تلك الجزيرة وحبس الشرقي لنفسه فصار يعرف القسم الغربي باسم « عبّادان » نسبة اليه ثم عمت التسمية الجزيرة بجملةا : وقيل في



« عبّادان الجديدة »

الخير ان عبّاد بن الحصين المشار اليه
كان اول من رابط بهذه الجزيرة فنسبت اليه
اما وجه نسبة البلد الى « عبّاد »
أو « عبّاد » بزيادة الالف والنون
فذلك على قاعدة البصريين وقد اصطاحوا
على هذا الشكل من النسبة مع مخالفتها
لقواعد اللغة العربية بمجازاة لجيرانهم الفرس
ولهم في ذلك كثيرٌ مثلها

وكانت « عبّادان » على عهد
العباسيين عامرة بالعلم والعلماء وينسب اليها
جماعة من الرواة والمحدثين وظلت كذلك
الى ان نكبت العراق وهاتيك الاطراف
بانتر بعد غزوة هولاء كواض محلت مع
غيرها من مدن العراق على ما هو مدون في
التاريخ وفي الاخير اجتاح ماء شط العرب
الجزيرة بجملتها فاندست تماماً ولم يبق



« مشير التجار الحاج ابو الحسن خان رئيس شركة بحرية عظيمة السردار اقدس »

لها عين ولا أثر وما عاد لها بين أهل العراق من ذكر الا عند الذين يردّون مثلها
المشهور « ما بعد عبّادان قرية » وظلت كذلك الى ما قبل ٢٠ سنة من هذا التاريخ
حيث اتخذت شركة الغاز الانكليزية في الموضع القريب من جزيرة « عبّادان »
مستودعاً عمومياً للغاز تجرّه بانابيب حديدية من منبعه في « بركة سليمان » بجوار
شتر وراء الاهواز على نهر قارون الى ذلك الموضع حيث تعمل على تصفيته في الاحواض
ونقله الى بواخرها التي اعدتها لنقل الغاز الى لندن واطلقت على ذلك الموضع اسم
« عبّادان » وذلك لان شط العرب هنالك غزير الماء تدخله بكل سهولة البواخر
الكبرى التي تمخر في البحار .

وتد اعنتت شركة الغاز الانكليزية بهذا الموضع فشيّدت الابنية الجميلة لسكنى
كبار موظفيها والبيوت الصحبة لسكنى عمالها من الهنود والبرانيين والعرب وبطبيعة

الحال أقبل الناس من ايرانيين وعرب على سكنى هذا البلد للارتزاق من عمال الشركة
الكثيرين ومن اعمال الشركة فكثير عدد السكان حتى أصبح اليوم قريبا من عشرين
ألفاً وبنت هذه المدينة على طراز المدن الانكليزية ذات المائل بشوارع عريضة
فيها الاشجار الباسقة وتتخذل شوارعها الميادين والجنان

وقد وجدت الشركة من عناية عظمة مولانا السردار أقدس الشيخ خزعل خان
أيده الله ما جعلها ان تردد أي الحمر واثناء مراراً وتكراراً على أيديه البيضاء ذلك
انه وهب للشركة بغير مقابل جميع الاراضي التي احتاجت اليها في عبادان وقد فعل
معها مثل هذا في جميع النقط التي اتخذتها لتأمين طريق أنابيبها من عبادان الى
بركة سليمان مع ان امتياز الغاز اخذته الشركة من الحكومة الايرانية في طهران
وجميع المنافع المادية هي للدولة الملكية الايرانية

ورأى عظمة مولانا السردار أقدس بحكمته ان يسهر على نوع خاص على راحة
الشركة وعمالها وتأبين خطوطها ففعل ومرت الاعوام المشرون وحدث فيها من
الاضطرابات الناجمة عن الثورات والحروب ما هو معلوم ومع ذلك ما شكك الشركة
ولا مرة واحدة من حصول اي اعتداء على انابيب الغاز او على خطير التليفون التي
اقامها بين عبادان وبركة سليمان او على احد ما ووري الشركة ونهالها كـ هذا اعترف
به دائماً عمال الشركة الانكليزية بمقابلته حكومة جلالة ملك بريطانيا الظلمي بالاعجاب
والامتنان والتمكر وأهدت لاجله اكبر اوسمتها انظمة الشيخ المعز صانه الله
وهكذا اليوم بمجد السامح في العراق في مدينة « عبادان » بدأ أفرنجياً على نحو
ما يهدد الناس في اوروبا ويدهش اذ يرى فيها عامل عظمة السردار أقدس العربي
يحكم باسم عظمته البلد على ما يرضي العدل والامن والتمدن المصري وقد ساوى بين
الناس جميعهم من هنود وعرب واعجم .

﴿ ختام القول ﴾

وختام القول ان الافاضة اكثر مما تقدم عن امارة عربستان وأهاها مما يحتاج معه
الى اسباب ليس هنا محلها فهناك مدن عامرة وقرى كثيرة منتشرة في الامارة وعشائر
وفيرة هامة العيش مطمئنة نواتها في الظل الظليل الخزعلي وقد خيم عليها الامان
ورفعت عليها اعلام العمران وهي تذكر دائماً ابداً ملكها المحبوب المعز بآي
الحمد والشكران

العائلة الفخمة الجاسبية

ان العائلة الفخمة الجاسبية هي من أشهر بيوتات النبل والشرف في شيوخ كعب الذين كانوا يحكمون مقاطعة « دورقستان » في ولاية « خوزستان » وهم من بني عامر من أشهر قبائل العرب العرباء وقد هبطوا العراق منذ الفتح الاسلامي وتوارثوا المجد كبراً عن كابر ورويت عنهم محامد المأثر وغرر المفاخر ولهم على عهد العباسيين وقام مشهورة في سبيل الاسلام وطلما عضدوا الدولة « ناصر الدين شاه » العلية الفارسية بمد ان دخلوا في حكمها وحراروا تحت لوأها



راخلصوا لها في السر والجهر كما كانت تخصم بعالي الالقاب وسامي الرب

وفي أواسط القرن الثالث عشر الهجري أي حوالي سنة ١٢٥٠ فما بعد حدثت قلاقل وفتن بين شيوخ عربستان من كعب وغيرهم فعظمت الخنة واتسع الخطب حتى أمسي الدولة الفارسية أمرهم وعزاً عليها اخضاعهم ولم ينزل على ولائها منهم سوى العائلة النبيلة الجاسبية وعلى رأسها ساكن الجنان المرحوم المبرور الحاج جابر خان وهذا الشهم الجليل أبي ان يشترك في الفنة وجعل يعمل على تأييد سطوة الدولة الفارسية بكل ما في طوقه من ذكاء ودهاء وحول وطول المأني توفق الى تسكين القلاقل والاضطرابات بياسته الحكيمة وسيفه البتار فعرفت له رحمه الله الدولة الفارسية هذه المنة وأنعم عليه ساكن الجنان السلطان ناصر الدين خان برتبة « أمير تومان » ولقبه بلقب « نصرة الملك » مكافأة على ذلك واذ رأى هذا السلطان الحكيم انه يتعذر على الحكومة المركزية في طهران بمحافظاة على الحدود والامان في عربستان لبعده الشقة وصعوبة المواصلات وضمف العسكر النظامي الإيراني واستفحال نفوذ العشائر كما هو الحال حتى الآن سمى السلطان ناصر المشار اليه المرحوم الحاج جابر خان حاكماً على القبائل العربية في امارة عربستان وجعل مركزه المحمرة

ثم صدر الفرمان الشاهاني سنة ١٢٧٣ هجريه الى هذا الملك العظيم باستقلاله في داخلية امارته لتكون له ولائائه من بعده على شكل الاقطاعات فكان هذا الفرمان بده عهد هذه الامارة بالاصلاح وال عمران كما هو معلوم



« عظمة مولانا سردار اقدس من السلطنة في يوم ولايته السعيد »

ملك لقد دخلت له العلياء واذا صاعت لحكمته بغير مرأه
ولذلك أصبح عرشه بجلي الجلال ل ومرجع الامراء والعلاء

وقد قام الحاج جابر خان رحمه الله باعظم الاعمال في اماره عربستان فنشر رايات العدل والامان وسكن القلاقل والفتن ورد غارات المغبرين على الحدود وبلاجمال كان قوة عظيمة على الحدود الايرانية لحماية هذه السلطنة ولا تزال هذه الامارة الجبيلة حصنها الحصين .

وكان ساكن الجنان الحاج جابر خان مشهوراً بالشجاعة والكرم والسياسة والدهاء مهيب الطلعة وقور المجلس عظيم الجاه واسع الساطة نافذ الكلمة بعيد مرامي النظر ولذلك استطاع أن يؤسس هذا الملك ارنأ خالداً لابنائه وأحفاده وأن يخدم الدولة العلية الايرانية بسيفه ودهائه رحمه الله رحمت واسعة

وللمرحوم نصرت الملك الشيخ جابر خان من الزوادر والاخبار عن حزمه وعزمه وقوة ارادته وعدله وفضله ما يروى مثله عن داود باشا في بغداد ومحمد علي باشا في مصر والامير بشير الشهابي في لبنان فهو من الاربعة نجوم التي اضاءت في سماء الامة العربية في القرن التاسع عشر فنجان تاللا نورهما محمد علي باشا في مصر ونصرت الملك الحاج جابر خان في عربستان او العراق العجمي وضوى النجمان الاخران وخبا نورهما وهما داود باشا في بغداد والامير بشير الشهابي في لبنان

وفي سنة ١٢٩٩ استأثرت رحمة الله بهذا الزعيم العظيم الملك الحكيم شهماً من الايام محموداً بكل شفة ولسان فتولى الاريكة من بعده ثاني أبحاله ساكن الجنان المرحوم الشيخ مزعل خان فصدر له الفرمان الشاهاني بالامارة مع لقب ابيه « نصرت الملك » وظل رحمه الله حاكماً على هذه الامارة الى سنة ١٣١٥ حيث استأثرت به رحمة الله تعالى فبويع بالامارة عظيمة أخيه خامس أبحال الحاج جابر خان سيدنا ومولانا الشيخ خزعل خان أطال الله بقاءه وخالد ملكه مدى الدوران

﴿ الحضرة السنية الخزعية ﴾

ذاتٌ مقدّسة بجلافة بأس	حي الحميدات الزهر والالاء
لو صوّرت كانت كنور الشمس في	رأد الضحى في القبة الزرقاء
سبحان من سوّى المعزّ أعزّ من	نوق الثرى من سار الامراء
هذا هو المرردار أقدس خزعل	نخر الملوك الصيد في العرباء
هو شمس امتنا المنير به اهتدت	لننور بعد التيه في الظلماء



« مظفر الدين شاه »

هو معزز السلطنة سردار أقدس عظمة الشيخ خزعل خان أمير نويان وسردار
 عربستان خامس أجمال المرحوم المبرور ساكن الجنان نصره الملك الحاج جابر خان
 مؤسس اماره عربستان خلد الله ملكه مدى الدوران ووقفه الى رفعة شأن الاسلام والقرآن
 اضاء هذا الوجود بانوار عظمة ولي النعم أطال الله عمره في سنة ١٢٧٩ للهجرة
 النبوية على صاحبها أزكى سلام وأشرف تحية فكان يوم مولده السعيد بدء عهد اماره
 عربستان بهذا الاقبال والسودد والسعود
 وقد استبشر أهالي اماره عربستان بمولده عظمة ولي النعم وتبينوا به اذ أن عظمته

فضلا عن نسبه العظيم لأبائه وأجداده وهم أشرف شرفاء قبائل كعب العامرية فان أمه من قبيلة الباوية المعروفة بشديد بطشها وعظيم جاهها ومحافظةها على بداوتها في خيامها وهي القبيلة التي تخرج خمسة آلاف محارباً كلاً منهم يظلم بأسل يهزأ بالوت وهكذا كان عظمته شريف الجدين كريم النبعين وقد ترعرع أيده الله في مهد المجد والحلال كريم الاعمام والاخوال وللنسب شأن عظيم بغير جدال في سياسة العرب وتأثير كبير على ادارة شؤونها واعتبار ناسها

وقد ظهرت مخائل الزبابة على عظمته منذ نعومة أظفاره فتوسم المتوسمون فيه المستقبل الذي وصات اليه اماره عربستان من السؤدد والعمران على عهده وكان في مقدمة المتوسمين بهذا الخير العظيم ساكن الجنان المرحوم المبرور الوالد الكثير المحامد نصره الملك الحاج جابر خان الذي كان لا يطيب عينه الا اذا رأى نجمة المحبوب « خزعل » وهو طفل بين يديه وكان رحمه الله يذهب عنه النعم والحزن كلما أقبل عليه عظمته وهو في طلعه الصبوحه وثفره الباش ويناديه « ولي النعم »

وقد سمعت من أفواه بعض شيوخ المحسن الشيوخ ممن عاصروا المرحوم الحاج جابر خان عند ما كنت في خدمة ولي النعم في عربستان أن ذلك الملك الكريم رحمه الله كان في بحر ان الارتباكات الآخذة بعضها برقاب البعض سيان بين خصومات العشار أو بين الدسائس التي كانت تعشى عربستان في الدوائر السياسية في طهران وكان رحمه الله قد أرسل الى حاضرة السلطنة الإيرانية كبير أمجاله المرحوم الشيخ محمد وأرسل هذا اليه من سيء الانباء ما لا يبعث على ارتياح خاطره الشريف وبينما هو يفكر بالمصاعب التي ينبغي له ان يجتازها فلا يرتاح له بال نام ذات ليلة فرأى في الحلم شيخاً وقوراً مهيب اللعنة كت اللحية فقال له أنت في التفكير والله في التدبير فاعلم أن نجمك عال يتلأ وأن كل ما يعترض من المصاعب سيتلاشى ولا يمضي عليك الحول الأ وأنت الحاكم المطلق على عشار العرب في عربستان الا أن ملكك لا يكمل الا بمن يخرج من صلبك في غمنا هذا فانك ستزرق ولدأ ذكراً طالعه في برج السعد وعلى وجهه امارات المجد فمن يوم مولده السعيد ستصبح قرير العين مرتاح خاطر على أحسن ما تحب ولكن عند ما سيخلفك سيصبح له الملك الذي لا نحلم به الان وسيكون بين يديه من المال ما لا يخطر لك على بال قال الشيخ هذا واختفى واتبه المرحوم نصره الملك من نومه ومثال نحيبه نصب عينيه ولم يشك أنها رؤية صالحة



« الحاج مصطفى فهمي معتمد. عظمة السردار أقدس في البصرة »

وكان قد انبثق الفجر نحفاً الى الصلاة ثم جلس الى الناس فاجتمع عليه كبار شيوخ
 المحيسن وكعب خدثهم بنائه فتفاهلوا جميعاً خيراً وانصرفوا اليه يهنئونه ولم يمض الحول
 على هاته الرؤيا المباركة الا وكان في حجره طفل رضيع هو عظمة مولانا الشيخ
 خزعل خان فاستبشر بولادته السعيدة ودعاها باسم « خزعل » وهو من الاسماء المحبوبة
 في كعب وجعل يمهده بنفسه . قال الذين رووا لي هذا الخبر : ومنذ ولادة عظمة
 السردار أقدس انصرف المصاعب من امام والده العظيم الحاج جابر خان وأخذت
 السعود تلتف حواله وذلك توفيق الله يؤتیه من يشاء

وعند ما بلغ عظمة وليّ النعم السنة الخامسة من ربيع عمره سلمه سواكن الجنان
 والده الي المرين من علماء النجف الاشرف وكرهه فمكثوا على تأديبه باداب القرآن

الشريف قراءة وحفظاً حفظ الذكر الحكيم على لوح صدره منذ صغره وتأدب بادابه
العالية وطبقها في سياسة دنياه والعمل لا خراه

ثم أخذ يتقن آداب اللغتين العربية والفارسية فبرع في الصرف والنحو والمعاني
والبيان والبديع ونظم الشعر وتوسع في الاحكام الشرعية وأصبح عالماً يشار اليه بالبنان
ويرجع اليه لحلّ المشاكل وهو بعد في مقتبل الشباب

وتموّدت عظمته الفروسية وركوب الخيل منذ نعومة أظفاره واعتاد خوض المعامع
ومنازلة الاعداء حتى نال النصيب الاوفر في فنون النضال وأصبح يعوّل على سيفه
الفتاك في حومة القتال ونهب منازلته الابطال وما زال كذلك حتى اعتمد على شجاعته
ساكن الجنان نصره الملك المرحوم الحاج جابر خان والده الكثير المحامد في قيادة
جنوده في اواخر أيامه فقادها في سبيل النصر مراراً وكذلك بقي عظمته بوظيفة
القائد الاكبر لجيوش عربستان على عهد أخيه ساكن الجنان المرحوم نصره الملك
الشيخ مزعل خان وكان في الحروب التي خاض معامعها ظافراً منصوراً كتبت لاقدار
على سيفه البتار « نصر من الله وفتح قريب »

وامتاز عظمة شيخنا المحبوب أعزّه الله ببعده النظر وسداد الرأي حتى أصبح المرحومان
أبوه وبهده أخوه يعولان عليه في سياسة الملك ولا سيما اذا دعت الامارة الخطوب
واتابت البلاد الشدائد وكان ولا يزال عظمته ممتازاً بثاقب الرأي وحسن السياسة
ووفرة الدهاء وبعد مواقع النظر الى ما يدهش العقول ويغيّر الالباب

وكان مجلس عظمته مجلس العلم والادب والشعر من قبل جلوسه على اريكة الامارة
فكان يجتمع حوله زواجغ الشعراء والعلماء والادباء فيخصهم بهباته الكثيرة اذ كانوا
يقصدونه من بعيد الامصار وينالون من رفته وافر الاموال

ولنشأة عظمة ولي التعم حفظه الله تعالى نذكرارات في نفوس أهالي الامارة وما
جاورها من بلاد فارس والعراق يذكرونها بالاعجاب حتى الآن أيد الله سلطانه فقد
كان وافر العطف على الموالي والعييد كثير الاهتمام بنصفه المظلومين واغاثة المستغيثين
منهم بعرض المرحوم أخيه جيم البرّ والاحسان شقيقاً رحيماً على الضعفاء والمساكين
ولذلك أجلته شيوخ القبائل واحترمه العلماء وامتدحه الشعراء وخطب ودهه الادنون
والبعداء وانصرفت اليه القلوب بشعائر الحبّ والولاء وخصته الالسنه بالحمد والتناء
وصادق الدعاء



« شاعر عظمة السردار أقدس ونديه »

« سيد المسيح انطاكي بك »

هذا شباب عظمة ولانا المزمز وهذا عهد الناس به قبل أن يتولى الامارة وبسير
 بها الى ما بلغت اليه اليوم من الرقي وال عمران والسؤدد والسمة بارك الله فيه وحقق
 آمال العرب الكرام على يديه

﴿ اماره عظمة السردار أقدس ﴾

خُلت أسودده الامارة فهو
 ومعزز أملاكها ومهي
 واليه ساءت البلاد قيادها
 هذا المزمز الاربجي المرتجى ال
 لي قدرها وموطئ أركانها
 اسعادها ومؤن سكانها
 برضى فأعلى بالذكا سلطانها
 سردار أقدس ملك ايوانها

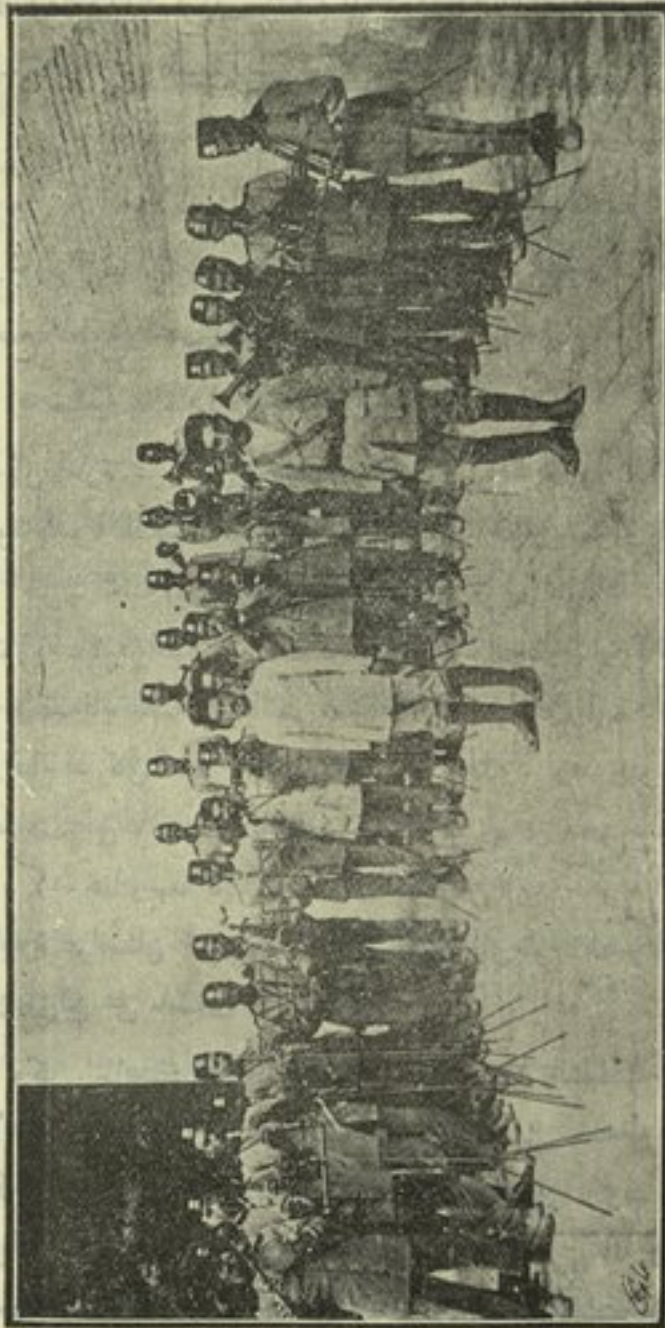
انتقل لرحمته تعالى المرحوم المبرور ساكن الجنان الشيخ مزعل خان سنة ١٣١٥ هـ
 فأجمع آل البيت الجاسبي الكرام وروساء القبائل والعشائر في عربستان على مبايعته

عظمة مولانا معز السلطنة سردار أقدس الشيخ خزعل خان خذنا الله ملكه مدى الدوران
فتربع على سرير أخيه وأبيه وانصرف الى تعمير البلاد واسعاد العباد بحسن ما تبه
وكان يوم جلوسه المسعود يوم فرح شامل وبشر عام أقيمت فيه المظاهرات من
أقصى الامارة الى أقصاها برهاناً على ما لعظمته أعزّه الله من المكانة العالية في نفوس رعيته
المحبوبة في حضارتها وبدائها وأقيمت الزينات في عموم المدن والقرى فرحاً وابتهاجاً
وتسابق الناس للبيعة والتهنئة أفواجاً أفواجاً وجدوا يهتفون بعضهم بعضاً بأمارته وبدعون
لعظمته بطول البقاء ويتبادلون باسمه كؤوس الماء

وما اتصل نبأ جلوس عظمته المانوس بالبصرة وبغداد وكر بلاء والنجف الاشراف
والسكاظم حتى تبادل الناس الافراح والمسرات ولا سيما أهل العلم والادب والشعر منهم الذين
كانوا يرجون بعظمته أن يكون النصير الاعظم لهم وأسرعوا زرافات للحجرة لقضاء
واجب التهنئة والتبريك بقصائدهم رخطبهم وهم مستبشرون فرحون بولايتهم

وما اتصل بالدولة العلية اليرانية نبأ ولاية عظمتهم حتى أسرمت باصدار فرمان
الشاهاني بالتصديق على اختياره وأنعمت على عظمتهم بسيف مرصع بأئمن الجواهر
واللاللي ولقب « معز السلطنة » وهو من أعلى الالقب مع رتبة « سردار أرفع »
وهي أسمي الرتب العسكرية وبوسام شير خورشيد من الدرجة الاولى فسكان لهذه
الانعامات الشاهانية أجمل وقع في نفوس أهالي عربستان تلقوها بالحمد والشكران

وكانت أمارة عربستان عند تولي عظمتهم ولي النهم ضيئة النطاق كما كانت أكثر قبائلها
منتفضة على البيت الجاسبي مظهرة البغضاءه والعدوان فانصرف عظمتهم حفظه الله بما أوتي
من ذكاء ودهاء وحسن دراية لاصلاح الفاسد ومدارة المعتل والتدبير في اخضاع القبائل
لسلطانه باللين تارة وبالشدّة أخرى شأن الحكيم الحازم وتفتح مهدد الشريف بالسهل
على تعميم العدالة في البلاد وبين العباد والضرب على أيدي الاشقياء العابثين بالفساد
ثم جعل يستدني القلوب المتنافرة ويؤلف بين الميول المتباينة حتى اجتمعت القبائل
حول عرشه ونحت رايته والقبائل التي أبت الخضوع أعلن عليها الحرب العوان
فأخذها عنوة أخذ عزيز مقتدر وهكذافي مدة قصيرة دانت لحكمه العادل القبائل جميعها
وساد في الامارة كلها الامان فاطمأنت القلوب الواجفة وصفت من الاحقاد القديمة الى
ان أصبح روساء عشائر عربستان يعترفون جهره وعلى رؤوس الاشهاد بأنهم لولا
أبو جاسب لافنى بعضهم بعضاً فهم مدينون لعظمتهم بما يرتعون فيه من بحاج الرغد



« الموسيقى الخزعية »

هذا ما أجمله عن إمارة ولي النعم عظمة الشيخ خزعل خان المعظم الذي يحقّ لسائر
أمراء العرب أن يتخذوه قدوة حسنة لسياسة إماراتهم وإدارة شؤون قبايلهم وبعدها

والرفاه والسلام وأنهم
يقولون هذا جبهة
وهم مفتخرون بأمرته
مستعزّون بحكمته
مستبشرون بولايته
مؤتمرون بأمره وهي
نتيجة محمودة عزيزة
المنال لا يدركها إلا
النوابغ من الأمراء
والأقبال

ثم عكف عظمة
على رقية مملكته
ففتح فيها المدارس
وروّج بمعاوناته
الجديرة المتأجر
والصانع حتى أصبحت
التجارة في الحمرة
خصوصاً والإمارة
عموماً وافرّة المنكاسب
كثيرة الأرباح تراحم
ماجاورها من الثغور
والبدان كما تفاخرها
بالعدل والأمان

سأفصل للقراء الكرام حياة عظمته السياسية والاقتصادية والادبية بما اختبرته بنفسه
لاما تلقينه عن طريق السماع ولا ينبئك مثل خبير

﴿ سياسة عظمة السردار أقدم ﴾

بني عظمة مولانا الشيخ خزعل خان سياسته على قاعدة الشورى عملاً بقوله تعالى
« وشاورهم في الامر » مع انه حفظه الله الحاكم المطلق في امارته العلية وليس فيها الا
الخاضع المطيع والمحب الخاص وسار بسياسته في امارته العلية على الشكل الآتي
« سياسة عظمته الخارجية »

ان اماره عربستان ترتبط من حيث السيادة بالدولة الالهية الايرانية ومن حيث
النفوذ بالدولة الفخمة الانكليزية ومن حيث الجوار بالعراق العربي العثماني هذا كان
قبل الحرب العامة أما بعدها فأصبح العراق العربي بحمد الله مملكة عربية وطنية مستقلة
دستورية ديموقراطية باشراف صديقة العرب الصدوق بريطانيا العظمى
ولقد قام عظمة ولي النعم بمعاونة الدولة الالهية الايرانية بما تقتضيه حقوق السيادة
خير قيام اذ كان الحصن الحصين لها على الحدود وقد وفر عليها كثيراً من المتاعب
والمصاعب التي عانت أشباهها في حدودها الاخرى على ما هو مشهور في التاريخ فلا حاجة
الى ذكره هنا وبهذا ظهرت الحكمة العلية من تأييد حكومة ايران الاستقلال العربي
في اماره عربستان على عهد ساكن الجنان المرحوم ناصر الدين خان شهنشاه دولة
علية ايران على ما سبقت الاشارة

وكان ساكن الجنان مظفر الدين خان الشهنشاه الاسبق كثير العطف
والاكرام لعظمة الشيخ المعز اعترافاً بحسن خدماته للدولة العلية الايرانية
فأكرمه في حال جلوسه المانوس بلقب « أمير نويان » وهو أنعم القاب الامراء
اليرانيين ليس فوقه الا « الجالس على العرش » بمعنى انه لو اجتمع امراء الفرس
في حضرة الشاه المعظم كان عظمة مولانا السردار أقدم الشيخ خزعل خان صاحب المرتبة
الاولى لدى جلالة الشاه فيجلس عن يمين جلالتهم وما اكتفى الشاه مظفر الدين بهذا بل أنعم أيضاً
على كبير انجال ولي النعم سمو الشيخ جاسب خان بلقب جده العظيم « نصره الملك » مع سيف
مرصع بالجواهر وكان ذلك السلطان العادل في كل فرصة ساحة بهديه تحياته الشاهانية
بفرمانات مخصوصة وفي الاخير أهدى الى عظمته الملوكية نوط « نيمال هايون » وهو

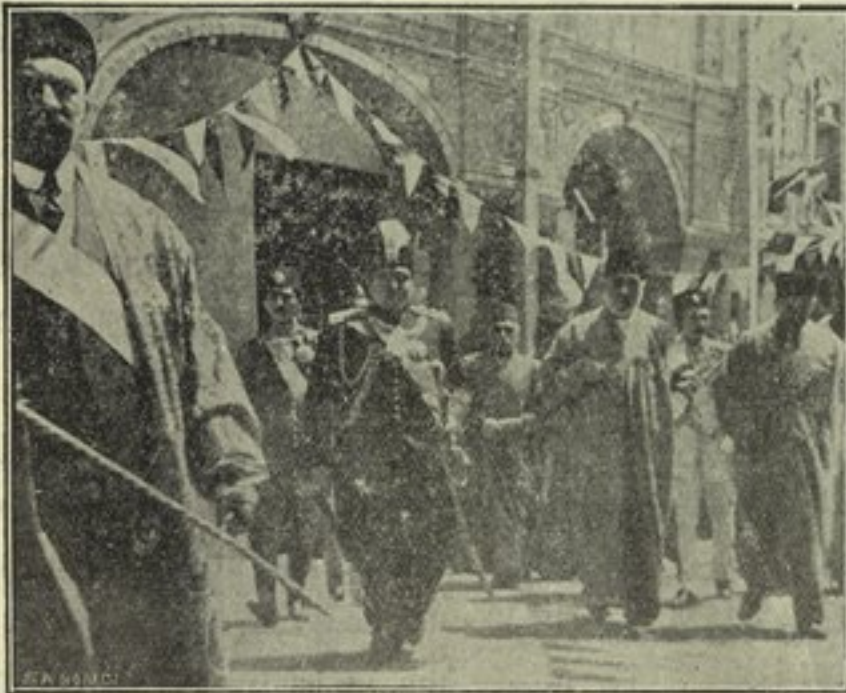
مدالية مرصعة بالماس « البرلانت » وفي وسطها صورة جلالة الشاه بالفوتوغرافيا ويعلق بالعنق ولا يديه شاهات الفرس الآ لملوك وأعظم الامراء

وعند ما تولى الاريكة الإيرانية محمد علي خان الشاه السابق جدد عهداً به وجدته لعظمة مولانا السردار أقدس وأهداه مجدداً « تمثال همايون » بصورتها الشاهانية ونوط آل قاجار وهو أيضاً يعلق بالعنق وفي وسطه الاسد والشمس وحوله قد أع الماس الثمينة وهذا النوط يندر ان ينعم به الشاهات على غير افراد امراء العائلة المالكة « الناجارية » فكان لهذه النعمة الملوكية وقع عظيم في الدوائر العليا الإيرانية

وحدث أن الشاه محمد علي خان الذي أوصاه أبوه مظفر الدين شاه وهو على سرير الموت بالدستور خيراً أبي أن يماشي الدستوريين ورجع عن الدستور الذي كان قد اعلنه أبوه قبيل وفاته فنارت عليه نائرة الدستوريين ونصرهم البختيارية النازلون في جوار امارة عربستان اما عظمة مولانا السردار أقدس الدستوري بطبيعة نفسه الذي يحكم شبه بالقسط الذي يتطلبه الدستور فإنه نظر الى الثورة الإيرانية بين الحضيف الحكيم فما اشترك مع القبائل النائرة احتفاظاً باستقلاله الداخلي وتحاشياً من ادخال رعاياه العرب في ثورة الفاعون بها هم جماعة الإيرانيين على انه في الوقت نفسه أيّد الدستوريين بماله بما دفعه لرجال البختيارية وبنفوذه اذ طاب من جلالة الشاه أن يرجع الى « الدستور » لهماشي به الامة الإيرانية غيرها من الامم الحية المتمدينة ويؤكدون ان تبلغراف عظمة السردار أقدس هذا هو الذي فل عزيمته محمد علي شاه وسهل على الجيش البختياري دخول طهران وانجبت الثورة عن خلع الشاه وجلس ولده احمد خان ميرزا على العرش تحت وصاية الوزير الكبير القدير البرنس فرمان فرما أخي ساكن الجنان مظفر الدين شاه

ونخامة البرنس فرمان فرما أعرف الامراء والوزراء الإيرانيين بقدر عظمة مولانا السردار أقدس وجليل ما أثره وبواهر أعماله وسبق له ان عرفه شخصياً « وما را، كمن سمع » ولذلك كانت اول اعماله في تسلمه زمام الحكم في ايران العمل على اكرام واجلال عظمة مولانا السردار أقدس ففعل من هذا الشيء الكثير وكانت في عهد وصايته جميع مصالح عربستان تنفذ في الحال من طهران

وفي سنة ١٩٢٠ ذهب الشاه احمد خان الى اوروبا وهو يقصد على الخصوص زيارة بريطانيا العظمى لان جلالاته على رأس السياسيين الإيرانيين الفائلين بان سلامة



« جلالة الشاه احمد خان في موكبهِ عند وصوله الى القصر الخزعي الدامر »

بريطانيا العظمى وسيرها في سبيل النجاح متوقفان على صداقة هذه الدولة العظيمة في حولها وطولها العظيمة في روثها وبسارها العظيمة في رجالها النوابغ المصاحين وبعد عودته أحبّ جلالته ان يقصد العتبات المقدسة في النجف الانرف وكر بلاه لزيارة سيدنا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب وزيارة سيدنا الحسين ثم يمرّ ببغداد فيزور سيدنا الكاظم عليهم وعلى المصطفى واخيار أهل البيت الصلاة والسلام وبالقول جعل عودته بطريق خايج فارس ورأى بعطفه السامي ان يمرّ بعظمة مولانا السر دار اقدس فيستضيفه في قصره العامر في السكالية وما بلغت هذه الارادة الشاهانية مسامع عظمته حتى أخذ لها عدتها على ما يابق بقدر الضيف العظيم والمضيف الكرم فجعل القصر آية من آيات الزينة والبهرجة وأعدّ لجلالة الشاه عرشاً من الذهب الوهاج مرصعاً بالجواهر وبذل في استقبال الجالس على أريكة الاكاسرة كلّ مرتخص وغال ويضيق المجال دون استيعاب ما كان من الحفاوة في استقبال جلالته الملوكية حتى كان ممثلاً سروراً رغبتة براعراً بما لا يخامر فؤاد جلالته بن الامتتان والاشمراخ نزع عن صدره

صاحب العظمة
سردار اقدس
 مولانا الشيخ خرمعل خان داماد
 سردار اشراف
 سمو الشيخ عبد الباقى خان
 نصرت الملك
 سمو الشيخ عبد العزيز خان
 عبدالحميد خان
 سمو الشيخ عبد الباقى خان

الوسام الاقدس وهو الوسام الذي يحمله الشاهات وعلقه يمينه على صدر عظمته الملوكية ودعاه باسم « السردار الاقدس » وهو لقب لم يعرف ان شاهات الفرس أعطوه لاحد من امراء وعظماء السلطنة اليرانية وفي الوقت نفسه صدرت ارادته السنية بالانعامات التالية على ساداتنا اصحاب سمو الامراء انجال عظمته والاختصاص اللانذين بعظمته الملوكانية فكانت هكذا :

السردار ارنج سمو الشيخ جاسب خان والسردار اجل « ابقاء » لسمو الشيخ عبد الحميد خان (١) ونصرة الملك لسمو الشيخ عبد العزيز خان (٢) والسردار كشور

(١) ان سمو السردار اجل الشيخ عبد الحميد خان ثاني الانجال وحاكم الاهواز قد ابدى من الحكمة وسداد الرأي وسعة الصدر في حكومته ما اطلق السنة اهالي الاهواز بالحمد والثناء ونال رضاه الاجانب ولا سيما موظفي شركة الغاز الانكليزية ووصل صدى ثناء الناس على سموه الى طهران في سنة ١٩٢٠ فأحب صاحب الجلالة السلطان احمد شاه ملاطفته مكافأة على عدله وفضله فأنعم عليه بلقب « سردار اجل » وبسيف مرصع بالاحجار الكريمة ومما يذكر هنا ان جلاله الشاه عند ما وقع نظره العالي على سموه في القصر الامر تلتطف به قائلا : « لقد سمعت عنك ما يسر الخاطر فانا راض عنك كرضاء ابيك عليك »

(٢) ان لقب « نصرة الملك » عزيز على هذه الاسرة النبيلة لانه كان لقب

اسموا الشيخ عبد المجيد خان والمردار لشكر «عسكر» اسموا الشيخ عبد الكريم خان والمردار أشرف اسموا الشيخ عبد الله خان ووسام شير وخورشيد من الدرجة الأولى لحضرة الشيخ الجليل الحاج محمد علي خان رئيس تجار عربستان ووزير عظمة السردار أقدس ولقب جلالة الملك لحضرة الماجد ميرزا محمد الصمد خان رئيس سكرتيرية عظمة السردار أقدس ووسام شير وخورشيد من الطبقة الثانية لحضرة النبيل الحاج أبي الحسن خان مشير تجار عربستان وكانم اسرار عظمة السردار أقدس وهذا الوسام من الدرجة الثالثة لحضرة صاحب السعادة الحاج مصطفى افندي فهمي معتمد عظمة السردار أقدس في البصرة وبالمدالية الذهبية لحضرة الحواجه داود مأور الكهربائية والاعمال الميكانيكية في النصور المالية الخزعية لاعتجاب جلالة بدنة صناعته في اشاهده من بدائع الكهرباء في صالة الاستقبال وسار غرف القصر الخزعلي العالي في السكالية

وبعد رجوع جلالة الشاه الى حاضرة مملكته طهران رأى عظمة مولانا السردار أقدس ان يوجه اليها حضرة كبير وزرائه الشيخ الجليل صاحب السعادة الحاج محمد علي خان رئيس تجار عربستان لشكر جلالاته على تفضله بزيارة قصره المعمور وصحبه بالهدايا التي أحسن ما يقال فيها انها « هدايا خزعية » فوعدت لدى جلالة الشاه واكابر وزرائه موقع القبول والرضى وتفضل جلالاته فأهدى الى عظمة السردار أقدس مدالية « تمثال هابون » برسمه العالي الملوكاني في اطار من الماس الوهاج على أبداع ما أوجدته الصناعة من هذا الحجر الكريم وانعم جلالاته ايضاً على كبير انجبال عظمته صاحب السمو السردار أرفع الشيخ جاسب خان بسيف مرصع بالجواهر الكريمة كالسيف الذي سبق لجلالاته ان اهداه الى ثاني الانجبال سمو السردار

وؤسسها العظيم الوالد الكثير المحامد ساكن الجنان الحاج جابر خان ولهذا أنعم به جلالة مظفر الدين شاه على كبير الانجبال سمو الشيخ جاسب خان ولما رأى جلالة الشاه اهداء عظمة وليّ النعم الشيخ خزعل خان « الوسام الأقدس » وتلقيه باسم « السردار أقدس » وكان لقب « السردار أرفع » عزيراً على هذه الاسرة النبيلة لانه بقي مدة طويلة اسماً عالماً لعظمته احواله جلالاته الى سمو الشيخ جاسب خان واحال لقب « نصره الملك » الى سمو الشيخ عبد العزيز خان وهكذا ظل هذان اللقبان الكريمان باقيين في البيت الخزعلي المعمور



« ثلة من الجيش الخزعلي المنصور »

أجل الشيخ عبد الحميد خان وحل سعادة الحاج رئيس من تحياته الشاهانية الى
عظمة مولانا سردار أقدس ما يشير الى ما اعظمته من فؤاد الشاه العظيم من عالي
المسكاة ورفيع القدر

وعند ما حدثت الحركة الرجعية ضد الدستور على عهد الشاه السابق محمد علي خان
المشار اليه أسعف ولي النعم قيامة البختيارية أديباً ومادياً على إعادة اعلان الدستور
الى ايران فكان اعظمته في ذلك اليد البيضاء التي يحفظها التاريخ بالشكر جيلاً بعد
جيل كلما ذكر تاريخ ايران

وأفضل خدمات اعظمته الدولة العلية الإيرانية انه حفظ امارته العلية من انثورات
التي انتشرت في جهات ايران عموماً شمالاً وجنوباً فبينما كانت المخاوف والتعديت منتشرة
في عموم ايران كانت اماره عربستان في ظل الحضرة الفخمة الخزعية راتعة في بحابح
الامان والاطمئنان الأمر الذي أدهش العالم بأسره ووجه أنظار أهل السياسة في أوروبا
الى عظمة سردار أقدس الذي يحكم هذه الامارة ونشرت صحف أوروبا والهند من
الامادج اعظمته الشيء الكثير ووصفته بالامير « العاقل الحازم » واذا عرفت أنها
القاري الكريم أن هذه القلائل التي عمت ايران بجملتها الامارة عربستان قد أفضت
الى احتلال روسيا الجهات الشمالية وانكثرت النغور الجنوبية علي خليج فارس ظهر

لك مبالغ فضل واقدار هذا الامير العظيم بمحافظته على استقلال امارته حياه الله
 أمعلائق عظيمة ولي النعم مع الدولة الفخمة الانكليزية فهي علائق صداقة واخلاص
 وطنتها الحكمة وايدتها « المصلحة » ورجال هذه الدولة أعانوا مزاراً وتكراراً من
 قبل الحرب بزمن طويل امتانهم من عظمتهم وسرورهم من حسن سياسته اعلاناً حمل
 الدولة الانكليزية على اهداء عظمتهم وسام نجمة الهند من الطبقة الاولى وأرسلته
 لعظمتهم مع وند خاص على مدرعة حربية في سنة ١٩١٢ وهو اكرام عظيم يابق
 بأمرنا الجليل ثم توالى الاوسمة الانكليزية على عظمتهم بمد هذا التاريخ حتى بات صدره
 العالمي المزدان بالاخلاص يحمل ارفعها مكانة واعظمتها تيمناً وذلك بعد ان انسعت العلائق
 بين اماره عربستان والدولة الفخمة الانكليزية ولا سيما بمد تغلب السياسة واستعمار
 الحرب العامة ولييان ذلك نقول :

ان الدولتين الانكليزية والروسية كانتا قد اقتسمتا النفوذ في ايران فكان الشمال في
 منطقة نفوذ روسيا والجنوب في منطقة نفوذ انكلتره وفيه اماره عربستان وكان الفرق
 بين بريطانيا العظمى وروسيا كالفرق بين النور والظلمة او الديموقراطية والاولوقراطية
 وما كانت الدولة الانكليزية ترمي من اقتسام النفوذ في ايران الى أكثر من المنافع
 التجارية لقومها وحماية شركة الغاز التابعة لها ولضمان سلامة حدودها الهندية فهي
 كانت تطلب حفظ النظام وتعميم الامان في المناطق الايرانية الداخلة ضمن دائرة نفوذها
 ولذلك لم تعجل في احتلال الجهات الجنوبية من ايران كما فعلت روسيا في الشمال بل اكتفت
 بأن أرصدت في مياه الخليج الفارسي اثنتي عشرة مدرعة حربية وفيها السكبير من
 الذخائر والجنود اتقاء للغوائل وظلت هنالك الى أن اعلنت الحرب العامة وتبهما من
 الانقلاب العام ما تناول هذه الاطراف أيضاً

واذ كان الامان في عربستان على أحسن حال في ظلّ عظمتهم ولي النعم بحيث كان
 يسافر في اطرافها التجار ومعهم الاموال والنصار آمنين مطمئنين وكانت شركة الغاز
 الانكليزية آمنة على مخازنها وانابيبها واعمالها ولم يكن لانكلتره ما تقول الاعلان شكرها
 وامتنانها من هذا الامير العظيم الذي لا يوجد في كل امارته من يشكو ظمناً من جميع
 التجار الهنود والانكليز وغيرهم وفوق هذا فان شركة الغاز الانكليزية التي مدت
 الأنابيب في أراضي عربستان لتصل بين الينابيع في جبال البختيارية وبيادان على شط
 العرب السكبير كانت ولا تزال بحجة وراه عملها من غير أن تحتاج مرة واحدة الى مراجعة



« ثلة من الجيش الخزعلي المنصور »

الفنصل الانكليزي في الحمرة ولا شاكية من تعدي أو افعال فهذا كله جعل الدولة الفخمة الانكليزية كثيرة الامتنان من حكم ظمته والاعجاب بحزمه وعدله والقرار بفضلته وشكره من غير ان تعرض للامارة كما اضطررت ان تعرض لتفويض فارس اليرانية على اشر انتشار الثورة في هاتيك الاطراف

ولما اعلنت الحرب العامة في اغسطس سنة ١٩١٤ واطر الاتحاديون الذين كانوا مسيطرين على تركيا ميلهم نحو الالمانيين وعداؤهم للحلفاء وفيهم بريطانيا العظمى وجدت هذه الدولة العظيمة ان ارضها بعض مدركاتها في الخليج الفارسي كان بحكمة لانه بهمها جداً سلامة هذا الخليج لضمان سلامة شطبيه العربي والفارسي الداخلين ضمن منطقة نفوذها . اما عظمة مولانا السردار اقدس فكان كسكك عاقل من المسلمين كان كأكبر الوزراء العثمانيين وكجلالة شريف مكة وغيرهم يتوقع الفشل للاتحاديين من مناصرتهم للالمان في تلك الحرب المشؤومة وما فيه من الضرر الكبير للترك لان عظمته كان على علم تام بقوي بريطانيا العظمى التي لا تقهر على انه في ذلك الوقت هذا حذو الدولة اليرانية ذات السيادة على امارته بالتزام الحياد التام بكل معنى الحياد اما عمال الاتحاديين في البصرة فقد كانوا والدولة العثمانية لم تخض الحرب رسمياً يميلون الى اجتذاب عظمة السردار اقدس اليهم فما أفلحوا بل اسهمهم عظمته بانته

يريد منهم هم ايضاً ان ينصحوا لدرلتهم بالتزام الحياد اتمام فما أصغوا اليه وطلبت منه ولاية البصرة وقتئذ ان يحتج على وجود المدرعات الانكليزية في مياه المحمرة فاجابهم كسياسي صريح بان ذلك من شأن الحكومة المركزية في طهران وليس من شأنه لانه تابع في سياسته للدولة الايرانية ومع قانونية هذا الجواب وصراحته اني الاتحاديون الاصغاه الى قوله واضمروا البغضاء له وطالما أضروها وكادوا لعظمته وما أفلحوا وعند ما دخلت تركيا الحرب بجانب الالمان رسمياً في اكتوبر سنة ١٩١٤ من غير ان تكون لها فيها ناقة أو جمل رأيت بريطانيا العظمى ان تتقدم لانقاذ العراق من الازراك الذين باتوا وقتئذ في عرف السياسة عمالاً للالمان فارسلوا بعض قواتهم الى (الناو) عند مصب شط العرب في خليج فارس وابتدأ القتال بينهم وبين الجيش التركي اما عظمة مولانا السردار أقدم فلبث على الحياد رغم كل الوسائل التي توصل بها الاتحاديون لوجه معهم في هاتيك النار المنتهية لاسباب جوهرية اولها وأهمها ان الدولة الايرانية محتفظة بحيادها في هاتيك الحرب فلم يكن لا مير مخلص كعظمته مرتبط بربط معها وعلمه علمها ومصالحته في مصالحتها ان يدخل في حرب هو جاء مخيفة دونها وثانيتها لانه كان يرى ان الحرب الحقيقية هي بين المانيا وانكلترا والنمسا وفرنسا وروسيا وكل هاته الدول مسيحيات فقول بعضهم ان الانتصار للاتراك الانجاديين المأجورين من الالمان هو انتصار للاسلام قول باطل ومردود ويمكن القول مثله في الانتصار لبريطانيا العظمى بصفتها محكم بيتناً ومائة مليون من المسلمين ومعظم الجيش الذي ارسلته الى العراق هو اسلامي هندي وثالثتها هو رغبة العرب في تركيا في التحرر من الحكم الاتحادي التركي وهم قومه فاذا لم يكن في طوقه مناصرهم فلا أقل من التزامه الحياد لكي لا يعرقل مساعيهم وعظمتهم معهم على حد قول الشاعر :

وما أنا الا من غزيرة ان غوت غويت وان ترشيد غزيرة أرشيد

الى غير ذلك من الاسباب الجوهرية التي دفعت هذا الأمير الحازم الرشيد الى التزام الحياد في كل الحرب التي استعر لها بين الانكليز والاراك في العراق ونجم عن حياده الخير الكثير لولاية البصرة وامارة عربستان معاً فلم ينلها الاذى الذي نال البلاد التي كانت ميادين للقتال وقد عرف عقلاء البصريين ولو في الزمن الاخير لعظمة السردار أقدم بمد مواقع نظره عند ما وجدوا انفسهم واملاكهم ونجيلهم وسائر مقتنباهم في أمن وغيرهم عرضة المصائب والاحن كما ان الذين اساءوا الظن بعظمتهم



« ثلثة من الجيش الحزبي المنصور »

من غير رويّة لا التزامه الحياد وفيهم من حاربه بلسانه ومن حاربه بسيفه لقد وجدوا أنفسهم أخيراً على خطأ ميين فعادوا الى عظمته مستغفرين واعترفوا له بالحكمة وسداد الرأي ولو بعد حين على ان عظمته كما حفظ حياده بشرف وشعم واعاد الى امارته الا من بعد ان جاسها الذين استخدمهم الانحاديون لا يفار صدور المتعصبين على عظمته باسم الدين على سبيل المغالطة كذلك كسب اولئك الذين عادوه ظالماً وعدواناً بعفوه وصفحه فعرف له الناس هذا الفضل العظيم والمنة الخالدة واصبحوا يعطرون الاندية بشكر عظمته والثناء على سداد رأيه والدعاء له بطول البقاء وقلوا فيه ما يقوله عارفوه بانه (رجل المرب في هذا العصر بغير جدال)

أما علائق ولي النعم بالعراق العربي العثماني فكانت علائق جوار وأهمها في البصرة وحواليها حيث لعظمة السردار أقدس أملاك ونخيل ورعايا كثيرون وكانت هذه الملائق توطئد تارة وتفتر أخرى تبماً للسياسة التي كان يتبها الولاة العثمانيون مع عظمته والسكل يعلم أن ولي النعم حفظه الله بعواطفه العربية والاسلامية كان وافر العطف على مجاوريه العراقيين وفي مقدمة العاملين على تأييد الحكومة العثمانية بمجواره ومعاونتها على حفظ النظام بماله وجاهه فإمن اعانة فتحت في البصرة الا وكان عظمته في مقدمة المتبرعين فيها وما من موقف نحرّج بالحكومة الا وأجله بما له من الكلمة النافذة

بين الاهلين ومع ذلك كله فقد اساء بعض ولاة البصرة الاتحاديين باغضاب ولي النعم في احوال شتى مع انهم في كل انفسهم كانوا يجنون على انفسهم على حد المثل المأثور (جنت على نفسها براقش)

على ان الدولة العثمانية في اخريات هدها بالعراق قد حورت سياستها بعد ان اتضح لها فساد حركات عمالها السابقين واختطت مبدأ الترتيب من عظمة ولي النعم فأهدت اليه الوسام العثماني وطبقته الاولى وأرسلته اليه مع مأمور خصيص من كبار وزرائها وكان الاحتفال بتعاينه على ذلك الصدر المزدان بمكارم الاخلاق عظيماً مهيباً

ومما يذكرونا ان عظمة ولي النعم حفظه الله مع كل ما كان يشاهده من بعض الولاة والحكام العثمانيين من المغايرات طلباً على ولائه للدولة العثمانية باعتبار انها دولة اسلامية يجب تعظيمها وكان ينسب تلك المفايد الى شخصية الولاة الاتحاديين الذين أساؤا استعمال مناصبهم لا في البصرة وحدها بل في عموم البلاد العثمانية على ما هو معروف ومشهور وكان يقول ان الدولة العثمانية تتعرض لخطر الدمار بعاملها الفجار وكان كما أشار والأسفاه . اما بعد ان استقلت العراق واصبحت مملكة عربية عراقية صرفاً بضمانة واشراف بريطانيا العظمى فقد اصبحت علائقه معها علائق ولاء واخلاص ثابتة راسخة لا تززعها الايام ان شاء الله تعالى

ومما نذكره هنا هو ان رجال بريطانيا العظمى العسكريين والاداريين عند ما احتلوا البصرة اخذوا بعض دور ولي النعم لسكناهم وعظمتهم من اكبر اصحاب الاملاك في البصرة وأبى نظمتهم ان يتقاضى اجراً عليها من عهد الاحتلال الى غاية سنة ١٩٢٢ فعرف المصلحون البريطانيون لعظمتهم هذا الجليل فوق ما يحفظون لعظمتهم من صادق المودة والاخلاص فوهبوه بخناً نهرياً جميلاً لركوبه ونحواله في شط العرب ونهر قارون واسمونه هم انفسهم باسمه العالي « خزعلي » وقد سبقت الاشارة الى هذا البيخت النفيس الذي زاده جمالا انه هبة من الدولة البريطانية كمر بون مودة واخلاص أما أهالي البصرة فكانوا ولا يزالون موضع عطف وغبابة ولي النعم أعزّه الله بكرم أكبرهم ويسمع أصغرهم واذا وجد في البصرة من يضم غير الولاة لعظمتهم فأولئك نفر ساءت نواياهم وساؤا اخلاقاً وقليل ما هم ولا غرو ان يكون لعظمة السردار اقدس هذا الاهتمام بالبصرة والبصريين وهو يُعدُّ من اكبر اصحاب العقارات والنخيل في منصرفية البصرة وذلك يهيمه مصحتها ويذل كل عناية في سبيل رفاهها



« فصيلة من الجيش الخزعلي العربي »

« سياسة عظمته الاقتصادية »

وقد انصرف ولي النعم للعمل على رقية أمارته اقتصادياً بالتجارة والصناعة والزراعة
 أما التجارة فقد عرف عظمته أن رواجها يتوقف على الأمان وكما سبق القول أن
 الأمان من يوم تولية ولي النعم حفظه الله ساد الأمانة كلها بدوها وحضرها وفوق
 ذلك أن عظمته بهم اهتماماً كبيراً بسماع شكاوي التجار فيحققها بنفسه ويزيلها مهما
 كانت وبأقرب وقت وبهذا باتت تجارة عربستان اليوم كثيرة الرواج
 أما الصناعة فمع قلة رغبة القوم وأكثرهم من العرب الرحل بها فهي بتقدم ونمو
 بفضل عناية ولي النعم والمأمول اتساع نطاقها بفضل مجهودات عظمته الذي بكرمه
 الحائمي ولجرد معاونته الأهالي أسس على نفقته الخاصة معملاً للحدادة وما زال يرقبه
 حتى قام بتعمير السفن البخارية ونحوها وهذا المعمل يقوم بحاجة الأهالي فيما
 يحتاجون إليه من الحدادة لسفنهم البخارية وادوات مزارعهم وهي خدمة جليلة

يقدرها قدرها كل من عرف حاجة الامارة الى المصانع الميكانيكية في نهضتها الجديدة في ظله الظليل .

وأما الزراعة فمن المعلوم ان امارة عربستان كسكل العراق ذات اراض زراعية وافرة الخصب غير ان تهم هذا القطر في العمران اضر بزراعته ايضاً فلم يبق مورد للسكب غير اشجار النخيل وعدا ذلك فان الاهلين يزرعون من انواع الحبوب ما يقوم بأودهم فتوجهت عناية ولي النعم لتحسين الزراعة حيث استجلب من مصر طائفة من المزارعين لزراعة القطن واستحضر معهم بذرة القطن المصري وأجرى التجربة الاولى فنجح نجاحاً اولياً عظيماً غير ان هنالك عقبات لنجاح زراعة القطن لابد من تذليلها بظل عظمته حفظه الله اولها ان المزارعين المصريين يجهلون طقس البلاد وحالتها الجوية فلا بد لهم من درسها عاماً بعد عام وثانيها ان الاراضي تحتاج الى تصليح وثالثها انها تحتاج الى أدوات زراعية حديثة وآلات لرفع المياه وهذا ما يعنى به عظمة مولانا السردار أقدس اليوم ومتى زالت هذه العقبات وهي سهلة بجانب صدق عزيمة ولي النعم تصبح الامارة وافرة الثروة بحيث تسكون وارداتها من زراعة القطن وحدها نيفاً ومليون ليرة في العام بعد بضع سنوات ان شاء الله

ويهتم عظمته ايضاً بتجربة تربية دود الحرير والمتدبراتها تفاح فلاحاً عظيماً لان شجر التوت ينمو بكثرة في هاتيك الديار ولا سيما لان المياه متوافرة لنموه وأنت ترى من قليل ما تقدم مبالغ الجهد الذي يبذله هذا الامير الجليل في سبيل امارته العلية فلا عجب اذا أصبحت رعيته في حالة من الرغد ورفاه العيش تحسد عليها ولذلك تراهم مجتمعين على محبة عظمته يتزعمون بالدعوات الصالحات بطول بقائه

« سياسة عظمته الادبية »

لم تنس مشاغل الملك عظمة ولي النعم عن الادب والعلم فظل عظمته بعد أن علا باليمن والاقبال عرش الامارة العضد الاكبر للعلماء والادباء والشعراء فخصهم بهباته ومنحه حتى أصبح القصر الخزعلي العالمي كعبيهم يحجون اليها وهم يسمونها « سوق عكاظ » وعدا ذلك فقد أسس في الامارة كثيراً من المسكاتب للتعليم ويقوم حيناً بعد حين بتعديدها باحساناته المسالية وبتشجيعه الادبي وبهذا وذلك خدع عظمته دولة العلم ليس في امارته النابتة ودها بل وفي العراق العجمي بمجملاته أشرف وأفضل خدمة



« ثلة من الحرس الخزعلي »

ولعمري لو توفق العرب في بلادهم واماراتهم الى مثل هذا الامير العظيم المحب للعلم والعمل على شمره وتعميمه لنقدم العرب تقدماً عظيماً في زمن يسير لانه من المعلوم لا تتقدم أمة بغير العلم وقد قال الله سبحانه في كتابه العزيز « وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وعلى هذا فيكون العرب مدينين لعظمته بهذه النهضة الادبية القائمة في عربستان بظله الظليل

ومن فضل عظمة وليّ النعم على أهل العلم والادب والشعر وفقني الله الى نظم « العلوية المباركة » وهي قصيدة من نوع « الشعر القصصي » الذي قلما نسج الشعراء العرب على منواله نجاءت في ٥٥٩٥ بيتاً على قافية واحدة وبحر واحد وتضمنت تاريخ صدر الاسلام بحمته وقد طبعتها في ظلّ عظمته الظليل بحواشيتها فكانت آية الآيات بحيث كل من تلاها يتجلى امام نظره فضل هذا الامير العظيم وتمثل له « العوارف الخزعية » على أعمها فينطق لسانه بالدعاء لذاته السنية

ومن فضل عظمة وليّ النعم على العلم والادب والشعر ايضاً هذا الكتاب النفيس الذي افضل ما يقال في تقريره انه جامع لاشات الادب وفيه من طليّ المباحث ما يعي بيان الفصحاء وهو وحده يكفي لتخليد فضل عظمته بغير مرأ

ومن فضل عظمته على العلم والادب والشعر انه اغنى المتصلين به من العلماء والشعراء والادباء عن بذل ماء الوجه الى الاشحاء من اهل الامارة وارباب الثراء ومجالس عظمة وليّ النعم مشهورة بانها مجالس علم وأدب وشعر على نحو ما كانت عليه ايام زهوة المجد العربي الاسلامي وطالما ذكرها اذا كرون بلاعجاب كما يذكرون ايام الخلفاء العباسيين العظام في غابر الاحقاب ولا عجب في ذلك فابو جاسب ربّ المواهب وابو حميد أهل الكمل عمل حميد

﴿ احكام عظمته ﴾

بحكم عظمة وليّ النعم الامارة حسب الزريعة المطهر الفراء على أيدي قضاة عادلين نزهاء يثق بدينهم وعلمهم وينظر عظمته حفظه الله في القضايا الكبرى بنفسه قبل تنفيذها مخافة أن يؤخذ أحد رعاياه بظلم واذ كان عظمته معروفاً بالعدل والرحمة معاً كان اطمنان الناس الى احكامه العادلة عظيماً

ومما نذكره بالاعجاب لاحكام عظمته انه حفظه الله مع عدله في الدعاوى الجنائية وشدته على الذين يعيشون في الارض فساداً عملاً بقوله تعالى « ولستم في القصاص حياة » حتى انه توفيق الى نشر رايات الامان حول امارته العاية الآمنة ينظر في القضايا الحقوقية بشفقة وحنواً ابوي بحيث نحسبه أباً للمتقاضين لاحكام عادلا فقط فاذا رأى مديوناً يعجز عن سداد دينه فعلاً لا احتيالا وكان المدين مما يضرُّ به تأخير دينه بادر عظمته بدفع ذلك الدين من جيبه الخُصّ واذا رأى أن الدائن في سعة يستطيع معها الصبر على مديونه وأن المديون يستطيع دفع الدين اذا تقسط عليه حكم بالتقسيت وهذا من احسن انواع القضاء في نظر القضاة المقيدون بالقوانين فيحكمون حسب بنودها بغير شفقة على المتخاصمين والنظر الى حالة الدائن منهم والمدين وبالاجمال نقول ان القضاء في امارة عربستان بظلال وليّ النعم لاحيف فيه ولا تسوية ولا ضرر ولا ضرار وهكذا فليكن القضاء العادل والا فلا

﴿ العسكرية في عربستان ﴾

ليس في امارة عربستان عسكرية منظمة وليكن كل رجل مكلف عند أول اشارة أن يلبي طلب عظمة المليك المهيّب في حمل السلاح والسير للقاء الاعداء وهم يتسابقون برغبة وسرور الى خدمة وليّ النعم والسير تحت لوائه ومن متع الطرف برؤية هذه الجنود وهي محتشدة ورأى اخلاصها وتقانيها في سبيل المحافظة على الامارة ومرضاة



« فرقة الحرس الحزائي »

سيدنا وسيدها والطاعة لاوامره عرف حينئذ قوة المرء المعنوية واتصافهم الصحيح بالمحافظة على استقلالهم وسرهم وانظهم على قوتهم كل هذه السنوات الطوال بالرغم عن معاكسات الاقدار وطالما استبشرنا بهذه الجيوش وسررنا السرور الجهم ببسالها ودعوتنا بالسؤدد والنصر لهذا القائد الباسل والسرمدار الحازم والملك العظيم
 أما الحرس الخاص فهم الموالى الرابضون حول ولي النعم كالاسود في غاباتها وهم عرب وعجم وليس فيهم الا الخالص الامين الذي يذبل حياته فداءً عن مولاه وفيهم رجال الموسيقى الحزائية وأفرادها من العرب والعجم ايضاً وهؤلاء يلبسون الزي العسكري ويشفون الاسماع بالانغام الشجية في القصر الحزائي المالي في كل صباح ومساء وفي الاحتفالات الرسمية

﴿ معيشة عظمته ﴾

أما معيشة عظمته حفظه الله فهي هكذا ينهض عظمته باكراً قبيل الفجر فيتوضأ ويصلي ثم ينكف بمكتبه بالحرم لمطالعة الاوراق التي تعرض عليه فيقيم فيه نحو الساعتين

ثم يتفضل فيخرج الى الناس في قصره العامر فينظر في حوائجهم وبعد ذلك يتوجه باليمن والاقبال على « بلمه » الملوكي الى القيلية يحيط به الحرس الخاص وهناك يتصدر صاعة الاستقبال في الديوانية للنظر في حوائج الناس وشكاويهم وقبل الظهور يدخل الحرم حيث يصلي ثم يتناول طعام الغذاء ويقضي القيلولة وبعد أن يصلي صلاة العصر يخرج فيجلس للناس حتى قبيل الغروب فيعود باليمن والاقبال الى قصره العامر فيصلي صلاة الغروب ثم يتناول طعام العشاء على مائدته السنية مع ضيوفه ثم ينهض فيصلي صلاة العشاء ويخرج لسمره فيستدعي من في الباب من العلماء والشعراء والادباء ويسمر معهم بمحاورات أدبية وشعرية ومذاكرات علمية وفقهية وهذا هوسوق عكاظ الذي تعرض فيه نتائج العقول وفيه تتوزع هبات ولي النعم وجوائز الوفرة

نقول هذا هو اسلوب معيشة مولانا السردار أقدس منذ تربع على اريكة الامارة ولم يتبدل منه غير اعراض عظمته عن الذهاب اليومي الى الديوانية بعد الحرب اذ حسن في نظره العالمي ان ينظر في شؤون رعاياه في قصره المعمور في السكالية بعد ان زاد اتساعه على ما سبق لنا وصفه

وعظمة ولي النعم يخرج عند الاقتضاء واحياناً مرتين في العام لتفقد رعاياه ومواصلة زعماء عشقته وروساء قبائله حيث يرى من ضروب الحفاوة والاخلاص ما فيه الدلالة الساطعة على تعاقب ائمة المحبوبة بشخصه العظيم وفي هذه الرحلات الملوكية يتجلى كرمه الخائمي على رعاياه كما تتجلى عواطف رعيته الشريفة نحو أميرها المفدى بالنفوس والنفاس أدام الله علاه

﴿ الامراء الانجال العظام ﴾

ولولي النعم حفظه الله ثمانية انجال ائحباب تمثلت فيهم مكارم اخلاق هذا الملك العالمي الجناب وقد تربوا أفضل تربية بالعلوم والآداب وهم السردار ارغ الشيخ جاسب خان والسردار اجل الشيخ عبد الحميد خان ونصرة الملك الشيخ عبد العزيز خان والسردار كشور الشيخ عبد الحميد خان والسردار عسكر الشيخ عبد الكريم خان والسردار أشرف الشيخ عبد الله خان والشيخ منصور خان والشيخ مسعود خان والسكل من هؤلاء الشيوخ النجباء قصر عامر وحاشية خاصة وهم مع ذلك منعكفون على طلب العلوم والآداب وركوب الخيل ومعروفون بالاخلاق السكريمة والشهائل الطيبة جعلهم الله قرة عيني ولي النعم ومظهر مجده في امارته العامرة وأدامهم في ظله الظليل مظهر المجد وحيد الشيم



« الحرس الخزعي الابراني »

اخلاق عظمته ومناقبه

أما أخلاق عظمته فيصدق فيها قوله تعالى « وانك لعلى خلق عظيم » فان عظمته حفظه الله يظهر دائماً أبداً للناس وهو بادي الاسارير باش النفر لائحة على عياه الازهر لوائح السرور والرضاء ولا يذكر أحد من حاشيته انه رآه مرة غاضباً وهو يتعالى علواً كبيراً عن الحق كغير الصفح والحلم عن محض قدرة ومن مزاياه الكرم بحيث ينزعج اذا مرّ به يوم ولم يسد فيه يدأ بمزوف وهذا نادر الحدوث واذا جاد أفاض العطاء بسخاء من غير أن ينتظر كلمة شكر ممن يحقق أمنيتهم من وفود قاصديه الذين يقابلهم برحابة صدره ويبادرهم بالاحسان قبل السؤال عن حبّ بالنوال وتمنّ اسائيه باسعاد الاحوال ومن مميزات عظمته عطفه على اللائذين به حتى لتحسبهم أبناءه وهم عبيده الامناء فلا يسمع عليهم وشاية ولا يسمح لمن يعرض بهم بلام وهو الملك الوحيد الذي سلم عبيده من السنة الواشين وفوق كل ذلك فان عظمته لا يغفل عن واحده منهم ويشاركهم بعطفه وعواطفه في سرّهم وضرّهم فلا عجب اذا افتدوه بأنفسهم وأخلصوا في خدمة عظمته اخلاصاً نسمعه من أفواههم وتشاهده في حركاتهم وسكناتهم

ومن مميزات عظمته حفظه الله انه يتغاضى عن اساءة المسيئين منهم تغاضياً يحمله على التوبة من أنفسهم واذا رأى موجياً لتوبيخ أحد منهم عرض بذلك تعريضاً ومن مميزات وداعته وحنونه بحيث يتفقد بنفسه العالبة من اصيب من عبيده بمكروه وهذا قلما روي عن ملك عظيم مع عبيده

وعظمته ذو ذكاء متوقد في نظره الى بعيد الامور وفراسة نادرة لا تخفي في معرفة

الرجال وآداب عالية أدهشت الناس حتى الاوربيين الذين يتصدونه ويفوزون بالمثل لديه
وأما في بره وتقواه فعظمته من ان السلم الصالح المتأدب بأداب القرآن النام بالفروض
والنوافل وهو كثير الاخلاص لمحمد وآله عليهم الصلاة والسلام تشيع لهم بالسر والجمهور
مؤتد بهم في الخير والبر

ومن مناقبه حفظه الله انه يحفظ حقوق أعوانه ويكفهم أحياءه وأوتاناً فيبين هو
يفدق عليهم عطايا ويتولاهم بكرمه اذا هو ينظر ايمان الذين يتونون منهم ويرعاهم بين
عنايته ويتولاهم برحمته جعلنا الله جبراً فداه وأداه ذخراً ونخراً الى ابد الابد
وبين رى عظمته حفظه الله كثير الشفقة والحنو على المخلصين لعرشه والملتفين
حواله تراه وقد خرج للقتال وشهر سيفه في مواقف النضال ببطش الاسد الرثبال
وكم له من مواقف في مغازبه تشيب لها الاطنال وقد فئت فيها الرجال
وبالاجمال فقد جمع من مكارم الاخلاق ما لو اجتمع لامة لسكانت مظهر السؤدد
والفخار وذكرت بمحامد الآثار وامري :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

هذا قليل من كثير من المذاقب الحسنة المروف بها هذا الملك الباهر الالاء نشير
اليها مع الفخر وزددها بالشكر والتناء في السر والجمهور

﴿ الرياض الخزعية ﴾

أما وقد ذكرنا خلاصة تاريخية عن امارة عربستان وترجمة عظمة المليك المحبوب
مؤلف الرياض فاتنا نرى من المييد أن نذكر كيفية تأليف هذا الكتاب النفيس
وكيف انتهى اليها الامر بلبعه فسنذكره بالتفصيل الوافي في توطئة المجلد الثاني ان
شاء الله تعالى وهنا لك سنذكر تفصيلاً من مناقب عظمة وليّ النعم وكلها مفيد وسار
ان شاء الله تعالى

هذا ما انشره مع الافتخار عن عظمة مولانا المرदार أقدم المغوار الذي تفضل
على العالم العربي بكتابه النفيس على ما فيه من البدائع وهو يتم عن فضل عظمته
باعطر من المسك الفيّاح في المجالس والجمامع والله المسئول ان يديم عظمته نخر العرب
وذخراً للاسلام وان ينعم علينا بمعرفة قدر فضله على عالم العلم والشعر والادب وفي
ذلك مسك الختام

مملوك المعز

عبد المسيح انطاكي

مصر في رة ربيع الاول سنة ١٣٤٤ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

ان أحسن ما يوضح به صدر كلام ، وأجمل ما ينظم به عقد نظام ، وأفضل ما يفتح به مقال في مقام ، حمد الله عز وجل الذي ميز الانسان عن الحيوان ، بالفصاحة والبيان ، ووقفه الى اظهار ما في الجنان ، بنطق اللسان ، وملسكه عقال العقل لبيهم بصروف الحدائق ، ويحلى بحلى العلم والعرفان ، أحمدته حمد الرياض للسهاب الهتان ، وأرد في هديه موارد الاخلاص للاخوان ، وأسأله العصمة من الدليل في البيان ، والصلاة والسلام على النبي العربي الامي محمد المصطفى ، يظهر العلم والهدى لمن اصطفى ، المنادي بعباس المؤمنين ، اطابوا العلم ولو في الصين ، الذي نزلت عليه آية « وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » بلسان عربي مبين ، وعلى آله الاجداد الصالحين ، الذين شادوا معالم الدين ، ووطدوا أركان اليقين ، وباتوا غياث المتقين ، وعلى رأسهم سيدنا المرتضى أمير المؤمنين ، وفاطمة الزهراء سيدة الطاهرات وولديها الحسن والحسين ، والائمة الهداة المعصومين ، اللهم فصل وسلم عليه وعليهم أجمعين ، واجعلنا لهدية وهدىهم متبعين ، وبجبهه وحبهم صادقين ، ووفقنا بشفاعتهم الى خدمة العرب والمسلمين ، وأهلنا لنفع والانتفاع في الدنيا وفي الدين ، اللهم آمين

وبعد فيقول راجي التصبر والتأييد ، من الملك العزيز المجيد ، خزعبل ابن نصره الملك الحاج جابر خان السكبي العامري ، اني بعد أن انصرفت الى العلم أطلبه على حد قولهم من المهدي الى الابد ، وأرجو من وزائه الوقوف على ما يمكن الوقوف عليه من الهداية والرشد ، فكرت في قضاء خدمة عامة أنفع بها قومي العرب ، جامعة بين الحكمة والفكاهة و صنوف الفنون والادب ، دائرة حول الطباع النفسية ، والاحكام العقابية ، والسياسة الانسانية ، مما لا يستغني عنه الملك على عرشه ، والعالم وراء مكتبه ، والاديب في واسع مطلبه ، والتاجر في متجره ، والصانع في صناعته ، والزارع في

حقه ، والطفل في مدرسته ، واذ كنت أعلم أن الإنسان يرغب عن الجد في الهزل ، ولا ينصرف الى صرف العقليات الابعض من عقل ، وأن الأكثرين يميلون الى الفكاهات ، وينصرفون الى تلاوة القصص والحكايات ، حتى انصرف كتاب هذا العصر في أوروبا الى نشر العلوم والآداب في سلك الروايات ، تلافياً لاعراض العامة عن المفيد ، ورغبة في نشر العلم بين السواد العديد ، وقد كان هذا شأن السلف الصالح من كتاب العرب ، فيما خلفوه لنا من شتات الكتب ، نعم ما فكرت بهذا أردت أن أتحو هذا المنحى السديد ، وأسلك هذا المسلك الرشيد ، بكتابي هذا الذي وصفت فيه البيانات العلمية ، مؤيدة بالشواهد والامثال الشعرية والنثرية ، والمنقولات الفكاهية ، المأثورة عن أسلافنا الصالحين الذين اشتهروا بالحضارة والمدنية ، وقد تساحت باضافة شيء من الاحماض فيه ، تسلياً لقارئه ، مع الاشارة الى أن الزنجية في هذا العصر قد ساروا على طريق أسلافنا بالتصريح بمثل هذا الاحماض ، بعد أن كانوا ينكرونه على أدباء العرب من قبل ويجهلون ما فيه من بعيد الاعراض ، ولقد أمنتني في فراغ الوقت من المهام ، وفي الساعات التي انتبهت بها من مشاغل الاحكام ، وأنت تعلم ما لذي الرئاسة من المشاغل ، وما يعرض له من جلائل الحوائل ، مما يجعل البال في بلبال ، والفكر في اشتغال ، بين النظر في كشف المظالم عن العباد ، والاهتمام باسعاد البلاد ، وارضاء الله عز وجل فيما ناط به من أمر الناس ، وتوطيد أركان الملك بالعدل وهو لخير أساس ، وسميته « الرياض الخزعية في السياسة الانسانية » فجمعت بتسميته بيني وبين الكتاب ، ليتذكري بالخير طلاب العلوم والآداب ، واني لاسأل الله العزيز العليم أن يجعل في كتابي النفع لقارئه ، كما أتوقع منهم الرضاء بحسناته والاغضاء عن مساويه ، سبحانه على كل شيء قدير ، وبالاجابة جدير

فهذي رياضي اني قد غرستها
 هي عيسر شتى وفيها مواعظ
 وفيها فكاهات وفيها فوائد
 أقول وقد تم لهذا الكتاب طبع مجلديه الاولين في مصر في مطبعة هندية الشهيرة سنة ١٣٢١ هـ على يد أحد أعواننا المرحوم ميرزا عبد المجيد البهبهاني ، فقال المجلدان المشار اليهما حظ القبول من أرباب الذوق السليم ، من اخواننا الناطقين بالضاد ، وجعلوا يلحفون علينا بانجاز المجلدين التاليين ، وطبعهما ، فليتنا الطلب وأنجزنا العمل ، واذ كان المجلدان الاولان المطبوعان قد نداء ، أقررنا على طبع المجلدات الاربعة مرة واحدة بعد أن أعدنا النظر على المجلدين المطبوعين ، وسلمنا الكتاب بمجلداته الاربعة الى شاعرنا اللبيب ،

وتابعنا الحبيب النجيب ، عبد المسيح انطاكي بك صاحب جريدة المعمران المصرية وأمرناه أن يقف على طبعه بنفسه ففعل وطبع الكتاب ووزعه هدية على الاخوان والاحباب ، وقد أرخ ولدنا المشار اليه تلك الطبعة بأبيات من الشعر تثبتها قال :

أنثر الحمد عطوراً بالازاهير الشذييه
 وأنظم الشكر عقوداً بالاناشيد السذيه
 للمليك قد تعالى في ماتيه الوضيه
 وأمير قد تسامى في سجاياه الرضيه
 خزل الشهم المفدى خير من ساس الرعيه
 من به الاعراب باتت في مغايبها هنيه
 غرست بمتاه روضاً ذات أشجار زهيه
 أزهرت أزهار نصح لمزل حسناً زكيه
 وأنجحت باليمن أرخ في معانيها غنيه

١٣٣٢ هجرية

وزعت أرخت حسناً الرياض الخزعليه

١٩١٤ مسيحية

ثم عاد الناس الينا ماعنين بطلب الكتاب المذكور ملحين علينا باعادة طبعه فعدنا اليه منقحين مصححين وسلمناه الى تابعنا الامين الوفي عبد المسيح بك انطاكي المشار اليه اذ كان بين يدينا في العام الماضي « ١٣٣٩ » وأمرناه باعادة طبعه ونشره تلبية لاطالييه والله المسترسل أن ينفع به قارئيه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الاخيار ما تلاوات في الرياض الازهار

خزل

عن قصرنا في الكمالية في غرة محرم الحرام سنة ١٣٤٠ هجرية

الرياض الخزعية

﴿ المورد الاول ﴾

﴿ في الطبائع الانسانية ﴾

« وهذا المورد يشتمل على مقدمة وثلاث رياض وخاتمة »

المقدمة - في حقيقة النفس من حيث هي وبيان الطبائع بشكل اجمالي

الروضة الاولى - فيما يختص بالقوة الشهوية

الروضة الثانية - فيما يختص بالقوة الغضبية

الروضة الثالثة - فيما يختص بالقوة الروحية

الخاتمة - في بيان امرين : اولهما فيما يعم النفس البشرية ولا اختصاص له بقوة من

القوى الثلاثية . والثاني في بيان ما يؤثر في نفس الانسان وهي امور سبعة ستأتي

مفصلة ان شاء الله

﴿ المقدمة ﴾

في الحديث المشهور « من عرف نفسه فقد عرف ربه » وقد ذكر المحققون في معناه وجوهاً وكلها وجهة الا ان الذي يتعلق به غرضنا منها وجهان اولهما ان النفس محركة للبدن ومدبرة له فاذا كان هذا البناء الحقير يحتاج الى مدبر ومحرك فكيف لا يحتاج اليه عالم الكون فتسكون معرفة النفس من الدلائل الموصلة الى معرفة الله عز وجل ولعله قسم دليل الافاق في قوله تعالى « في الافاق وفي انفسهم » وأما الوجه الثاني فهو ان من عرف ان له نفساً واحدة وانه لو كان معها غيرها لزمه الفساد في تدبير بدنه علم ان مدبر هذا الوجود واحد هو الله الاحد « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدنا » : وقد قلنا في هذا المعنى :

ويدبر الاجسام انفسها ولو	لا النفس ضل الجسم عن طرق الهدى
ان كان للنجم الضئيل مدبر	هاد فكيف الحال في هذا المدى
ووجود هذي النفس اصدق مخبر	لوجود رب حق ان يتمجدا
امن ربك نم بالنفس التي	وجدت لتبقي للمعاد وتخلدا

« وحدة النفس »
 ولقد اختلف الفلاسفة في النفس فقال بعضهم : انها وحدة بالذات ولها افعال ثلاثة
 الفكر والغضب والشهوة . وقال آخرون : بل ان هذه هي ثلاثة أنفس وكل واحدة منها
 مستقلة بنفسها تعمل عملها ولهم في ذلك أقوال مأثورة
 زعم ارسطاليس : ان النفس واحدة ولها ثلاث صفات هي الفكر والغضب والشهوة
 وان القلب هو الصلة بين النفس وسائر الاعضاء ينقل القوى النفسانية منها واليها
 وقال بقراط وتبعه أفلاطون وجالينوس : ان للجسم ثلاث أنفس وكل واحدة
 مستقلة بنفسها تعمل عملها وزعموا : ان لكل واحدة من هذه الانفس الثلاثة عضواً يحل
 فيه فالنفس المفكرة تستقر في الدماغ والنفس الغضبية مقرها القلب والنفس الشهوانية
 محلها الكبد . وحجتهم في قولهم هذا هي انهم وجدوا النفس الشهوانية في النباتات دون
 الغضبية والغضبية في الحيوان دون النطقية واما في الانسان فقد وجدوا الانفس الثلاثة
 مجتمعة وعلى هذا الاستدلال قالوا : ان كل واحدة من هذه الانفس الثلاثة جوهرياً
 مستقل بنفسه منفرد بذاته
 هذا ما ذهب اليه هؤلاء الفلاسفة على ان نقضه من الهنات الهيئات فقد ثبت في
 أصول المعقولات ان الماهيات المختلفة مجزأ شراً كما في آثار متساوية وعلى هذه القاعدة
 يجزأ ان تكون النفس الانسانية مساوية للنفس البهيمية في فعل الغضب وللنفس النباتية
 في فعل التغذية والنمو وهي فوق ذلك متميزة دون سائر الانفس بالنطق فهي واحدة
 بالذات الا انها مبدأ الافعال الثلاثة الشهوة والغضب والنطق على ما قال ارسطاليس وهو
 ما قرره القرآن العزيز والحديث الصادق والخيار عند أصحابنا
 « ماهي النفس ؟؟ »
 ان النفس هي الجوهر الملائكي الروحاني الذي يستخدم هذا البدن الجسماني في حاجاته
 مسخراً له تسخير المولى لخدمه . بل هي ذات الانسان وحقيقته المألمة بالمعلومات ولها
 في هذا البدن جنود جسمانية وجنود روحانية هي القوى . قال الله تعالى « وفي أنفسكم
 أفلا تبصرون ؟؟ »
 وقد يسمى هذا الجوهر الملائكي الروحاني « روحاً » لتوقف حياة البدن عليه
 « وقلباً » لتقلبه في الخواطر
 وتوصف النفس باوصاف مختلفة حسب اختلاف أحوالها . فإذا سكنت تحت

الاورام والنواهي سميت مطمئنة . قال الله تعالى « يا أيها النفس المطمئنة أرجعي الى ربك راضية مرضية »

واذا لم يتم سكون النفس وصارت مدافعة للشهوة والغضب سميت لوامة قال سبحانه « ان النفس لا تارة بالسوء »

« شوائب النفس الانسانية »

ولقد اصطبج النفس الانسانية بمامل تركيب جسم الانسان وخلقته أربع شوائب أولاً - السبعية فان الانسان من حيث تسلط الغضب عليه يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بضروب الايذاء

والثانية - البهيمية فان الانسان من حيث تسلط الشهوة عليه يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق ونحو ذلك

والثالثة - الربانية فان الانسان من حيث في نفسه أمر رباني كما قال تعالى « قل الروح من أمر ربي » فقد يتأدى بالغرور حتى يدعي الربوبية أو ما هو بمعناها من حب الاستيلاء والتماهي والتخصص والاستبداد بالامور كلها والتفرد بالحرية والتخلص من رتبة العبودية والتواضع وتبني الاطلاع على العلوم كلها بل ويدعي لنفسه العلم والمعرفة والاحاطة بمخاتق الامور والاستيلاء قهراً على جميع الخلق وكل هذا من أوصاف ومميزات الربوبية .

والرابعة - الشيطانية فان الانسان من حيث أنه يمتاز عن البهائم بالذكور مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه الصفات الشيطانية فصار شراً يتعمد ذكاهه في استتباط وجره الحيل . ويتوصل لاغراضه بالكر والخداع واظهار الشر في معرض الخير وهذه اخلاق الشيطان . وكل انسان فيه أثر من هذه الشوائب الاربعة التي سنفصلها ونوضح معانيها باخبار وأمثال وقصص كما سترى

« في الاحوال النفسية »

ثبت لدى أهل الدراية والذكاء ان الانسان وان كان نوعاً من الحيوان فهو العالم الاصغر فان الله سبحانه خلق خلقه على أرقى مثال وجعل فيه من القوى المختلفة والاخلاق المناسبة والشهوات الغالبة ما يقتضي خروجه في أكثر الاوقات عن الاستمرار على حالة واحدة .

الأثرى الانسان اذا ما رأى نفسه متمكناً في الارض مستغنياً عن العبد تظاهر عليه

دلائل الطغيان ومخائل الخيلاء والتجبر والكبرياء كما جاء في القرآن الكريم « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » وقلنا في ذلك :

عجبت لمن يطغى اذا شعر الغنى عن الناس أو ان نال من دهره المنى
واسفه هذا الخلق من ساء خلقه اذا فاز بالعلياء أو سمع الثنا
على أن هذا الانسان الذي يطغى اذا ما استغنى سرعان ما تظهر عليه دلائل الضعف
والاستكانة اذا رأى في نفسه ضعفاً وفي حاله عجزاً كما قال الله تعالى « وخلق الانسان
ضعيفاً » وقد قلنا في ذلك :

أنظر لرب العنقوان وقد عرته نكبة في الجسم أو في المال
فاذا هو الرجل الضعيف وقد أطاع قواهر الاقدار بالاذلال
أما اذا رأى الانسان في عقله رزانه وفي رأيه سداداً وفي فكره يقظة خدعته
مواقع تدبيره وقد توقعه افكاره في الوسوس والتقدير والتلقيه أو هامه في أودية
الخيالات والتصورات لاستعمال المخادعات وفي مثل هذا قال الله جل جلاله « ولقد خلقنا
الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه » وقلنا في ذلك :

وكم خادع للنفس في قوة الذكا وحسن سداد الرأي قد خاب حدسه
وخالفه أدري بباطن أمره وظاهره أو ما توسوس نفسه
أما اذا رأى الانسان في نفسه المعجز عن تسهيل ارادته وتخوفه من خيبة آماله
تظهر عليه مخائل التفتيش فتسرع به الى التلبس بالامور قبل تحين تمامها وتحمله على
مباشرة الاشياء قبل ابرامها . وبهذا الاعتبار قال الله سبحانه : « خلق الانسان من عجل »
وقلنا في ذلك :

وما خاب من يسعى لادراك سؤله بحزم اذا ما كان يسعى على مهل
ولكن يخيب المرء في كل مبتغى اذا ما ارتجى نيل الاماني على عجل
وباعتبار هذه الاسباب والقوى يكون الانسان في حالات متضادة من سرور وحزن
وانبساط وانقباض وياس وأمل وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام في بعض كلامه
الى بيان ما عليه الانسان من اختلاف حالاته وتضاد صفاته على الوجه الذي قدمناه
فقال : « أعجب ما في الانسان قلبه ، له مواد من الحكمة وأضداد من خلافها ، ان
سبح له لرجاء أذاه الطمع ، وان هاج به الغضب اشتد به الغيظ ، وان أسعف به الرضا
نسي التحفظ ، وان ناله الخوف نضح الجزع ، وان استفاد مالا أطفاه الغنى ، وان

عضته الفاقة شغله الفقر ، وان جهده الجوع أقعده الضعف ، وان أفرط بالشبع كظنه
البطنة ، وكل تقصير به مضر ، وكل افراط له مفسد » وحسبنا في قول أمير المؤمنين
هذا برهاناً على صحة ما ذكرناه من استعداد النفس البشرية لانواع الاخلاق والشيم
خيرها وشرها. وقد جعل الله سبحانه لكل صفة منها سبباً يحدثها وموجباً يقتضيها .
فما استفق على تفصيله قريباً ان شاء الله

« الملكات النفسية »

الخلق ملكة مصاحبة للنفس تستصدر أفعالها بلا تفكير وروية . وفي الحكمة
النظرية ان الكيفيات النفسانية منها ما هو سريع الزوال ويسمونه حالاً ومنها ما هو
بطيء الزوال ويسمونه ملكة

والملكة كيفية من الكيفيات النفسية وهي ماهية الخلق ويتسبب وجودها عن
شئين : أحدها طبيعي والأخر اعتيادي . أما الملكة الطبيعية فهي تنجم عن أصل المزاج
الشخصي وتكون كامنة في صاحبها الى ان يظهرها ما يعرض لها من الاحوال فاذا
حصل سبب محرّك غضب الغضوب مثلاً ظهرت ملكة الغضب فيه أو اذا سمع الضعيف
خبيراً مكرهاً ظهر عليه الخوف ، وأما الملكة الاعتيادية فهي ما يكتسبها الانسان بالعادة
والمزاولة فتكون باديء بدء اختيارية ثم تصح قهريه كاعتياد التدخين والسكر والميسر
في الشرّ واعتياد الصلاة والعفاف والنزاهة في الخير وقس عليه . فولى الانسان أن
يعتاد الخير ويكثر منه وينفر من الشرّ ويتعد عنه
والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تقطعه ينقطع

﴿ الروضة الاولى ﴾

﴿ في الاخلاق المتعلقة بالقوة الشهوية ﴾

« بين العاجل والاجل »

من طبائع هذا الانسان حب العاجل وترجيحه على الاجل بصرف النظر عن
الاصح الانفع اذا ان النظر الى الاصح الانفع راجع للعقل وهيئات أن يتغلب العقل
على العواطف الا عند أرباب العقول النيرة والارادة الحازمة
قال الله تعالى « كلاً بل يحبون العاجلة وتذرون الآخرة » وقال سبحانه ايضاً

« ان هؤلاء يحبون العاجلة و يذرون وراهم يوماً ثقيلاً » وقال أيضاً تبارك اسمه
« فاعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبغضهم من الم » وفي
شطرة لاحد الشعراء مقتبسة من الاية الاولى (والنفس مولعة بحب العاجل) ولقد
ضمن شاعرنا الانطاكى هذه الشطرة بمرض طاب أسداء البنا ذات يوم فقال :

عجبت لي كرمأ بيض مطالبني وتركت بمضاً للزمان الآجل

فلك اناء على المعبجل عاجلاً نقداً بمحمد مستطاب شامل

واذكر بما أجات قول الله ان النفس مولعة بحب العاجل

وقنا في مرض غزل :

سأنتها الوصل قالت ان كنت تهوى تمهل

فقلت ينفد صبري من كل وعد يؤجل

والخير أبقى اذا ما قد كان نقداً معجل

وقال أحد الشعراء :

أرى رجالاً بأدنى الدين قد فنعوا ولا أراهم رضوا بالعيش بالدون

وما رضى هؤلاء الرجال بأدنى الدين ونفروا من العيش الدون الا لجهنم العاجلة

ونقرتهم من النعمة الآجلة . وأنت تعلم أن نعمة الدين وان كانت أهدأ وأبقى الا انها

مؤجلة وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على الآجلة لا تمتد نورها الى مشاهدة

العواقب ولذلك قال الله تعالى « بل تؤثرن الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » الاية

وهذا هو السبب في التمهيل بطلب ملاذ الدنيا والتسويب بالعمل الصالح ابتغاء الآخرة

ومن أمثال ذلك والامثال تقرب الى الافهام ان من كان له ولدان غائبان ينتظر

قدوم أحدهما في غده والثاني بعد شهر أو سنة فيستعدّ طبعاً للقاء القادم القريب ويسوف

الاستعداد للقاء القادم البعيد حيث ان الاستعداد يكون المنتظر القريب وليس المنتظر

البعيد . وكذلك من ينتظر زيارة حبيب أو كسب مال أو نيل جاه بعد قليل من الزمن

يستعد له بكل قواه واما انتظار المرء الموت فهو انتظار بعيد يرجو أن لا يقرب أجله

فلا يستعد له لانه يرى دائماً ابداً لنفسه متمسكاً عن دنو أجله فيؤخر العمل لما بعد

الموت بطول أملة تأخيراً تدفعه اليه رغبته بالعاجلة ونفرتة من الآجلة

ومن ثمرات حب العاجلة الاصرار على الذنب وذلك لان اللذات الباعثة على الذنوب ناجزة

ممتعة وهي آخذة بالخلق بحكم الاعتياد والمادة طبيعة خاسسة كما يقولون وقد قلنا في هذا المعنى :

عندئذ يراغب الملائكة فيكثير منها بما جلا تزول وترحل
 إنما أتمها يظل ويبقى بعدها مرصداً عليك مؤجلاً
 وما يقال في هذا الموضوع أيضاً أن العقاب الموعود به المذنبون غائب والنفس
 تتأثر بالخيف العاجل أكثر مما تتأثر بالخيف الأجل لما طبعت عليه من سعة الأمل
 وتقاسي الأجل

« ما أضيقت العيش لولا فسحة الأمل »

ومما جلبت عليه النفوس طول الأمل وهو نتيجة حب العاجلة . والأمل خلق
 جلبت عليه النفوس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يشيب المرء وتشيب
 معه خصلتان الحرص وطول الأمل » فكان هاتين الخصلتين زردان بنقص الانسان
 وتقويان بضعفه وقال أبو عثمان النهدي : (قد أتت علي ثلاثون ومئة سنة وما من شيء
 الا وأجد فيه نقصاً الا الأمل فاني وجدته كما هو أو يزيد) وقيل في الامثال : (لولا
 الأمل خاب العمل) . والحكمة في ذلك ان الانسان يعمل وهو يجهل حسن النتيجة
 من وراء عمله ولكنه يؤمل بالنتيجة الحسنة ولولا أمه لما أقدم على عمله وقلنا في الأمل :

ما أضيقت العيش والايام متعبة الا انسان لو لم يرج فسحة الأمل

لو لم يؤمل بفوزي في قضا وطري ما كنت أنشط في جهدي الى عمل

والأمل في الانسان لا يتقيد بسبب ولو تقيد لضاق ذرعاً بحياته فهو من هذه الوجهة
 يمتاز عن الأمانة التي لا تكون بدون سبب فالانسان مثلاً يؤمل بالأثر وان كان لا يرى
 سبباً موصله ويطول الحياة حتى ولو كان غليلاً سقيماً ولكن لا ينسى الأثر أو طول
 الحياة الا اذا وجد سبباً اليهما

والناس في الأمل على مراتب فمنهم من يؤمل البقاء الى الهرم وهو أقصى العمر
 الذي يعهده لحرصه على البقاء ولو رأى من قبله من عاش الخلود لا أمل فيه وقد قال
 رسول الله صلى الله عليه وآله : (الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وان انتفتت رقوبناه
 من الكبر) وهكذا حال أكثر الناس الا الذين اتقوا وقليل منهم

ومهم من يؤمل العيش الى أجل معين فلا بهم بما ورائه على ان مثل هؤلاء
 يوسعون في آملهم يوماً بعد يوم وقليل مثل هؤلاء . والاقول من هؤلاء من يقصر آمله
 على يومه فلا بهم لعدده . وبالجملة فالأمل لا ينتزع من البشر وان تفاوتت مراتبه في النفوس
 على حسب قوة الأيمان وخصفه وزيادة عقله ونفسه وأما اليأس فيدعو الى أسوأ النتائج

وأخرها الانتحار ولذلك حرمت الأديان بأجمعها اليأس وعدته من نتائج الكفر والعباد بالله
والإمل ثمرات ونتائج منها انه سبب العمران قال رسول الله صلى الله عليه وآله :
(الأمل رحمة لامتي لولا الأمل ما أرضعت والدة ولدها ولا غرس غارس شجيراً)
وقال حكيم : « لو عقل الناس وتصوروا المرات بصيرته خربت الدنيا ولولا ان الآخر
يرتفق بما أنشأه الاول حتى يصير به مستغنياً لافتقر أهل كل عصر الى انشاء ما يحتاجون
اليه من منازل السكنى وأراضي الحرث وغراس الزرع وفي ذلك من الاعواز وتعذر
الامكان ما لا خفاء فيه » فلذلك أرفق الله تعالى خلقه باتساع الامال حتى عمر به الدنيا
فعم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها قرناً بعد قرن فيتم الثاني ما أبقاه الاول من عمارتها
ويتم الثالث ما أحدثه الثاني من شعها لتكبرن أحبالها بيدي الاعصار ملتئمة وأمورها
على ممر الدهور منتظمة ولو قصرت الال ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى
ضرورة وقته وسكانت تنتقل الى سن بعده بأسوأ من ذلك حالاً حتى لا ينمو بهانبت
ولا يمكن فيها لبث

ومنها خراب الآخرة قال أمير المؤمنين عليه السلام : (من أطال الأمل أساء العمل)
وسببه التسويف الذي هو نتيجة الأمل فيبدأ بالسيئة حياً بملاذه قبل الحسنه اغتراراً
بالأمل في أماله ورجاء تلافى ما سلف من تقصيره وإخلاله فلا ينتهي به الأمل الى غاية
ولا يفضى به الى نهاية فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال : (من يؤمل أن
يعيش غداً فإنه يؤمل أن يعيش أبداً) ولامرري هذا هو الحق الصراح لان لكل يوم غداً
قالا مل يفضى به الأمل الى الفوت من غير درك ويؤدي به الرجاء الى الاهمال من غير
تلافى فيصبح الأمل خيبة والرجاء يأساً وذكر الحلبي في البحار عن ثعلبة عن معمر
قال قلت لابي جعفر : ما بال الناس يملون ولا يعلمون . قال : ان الله تبارك وتعالى حين
خلق آدم جعل أجهه بين عينيه وأمله خلف ظهره فلما أصاب الخطيئة جعل أمله بين
عينيه وأجهه خلف ظهره فمن ثم يملون ولا يعلمون . أقول : ومراد السائل بالعقل
عقل المعاش وتدبير أمور الدنيا فكأنه يقول ما بال الناس في أمر دنياهم عقلاء لا يفوتون
شيئاً وفي أمر آخرتهم سفهاء لا يعلمون شيئاً والجواب على ذلك هو ان السبب نسيان
الموت أو تناسيه بدافع طول الأمل بحيث يترك الانسان ما ينفعه بمعاده ويقصر همته على
تحصيل معاشه ومرة أمور دنياه لسكنها نصب عينيه دائماً ومن ثم ينجم الحرص على
الدنيا وحب المال والاجتفاظ به والعمل على تنميته على ما سيبيح

ومما حُببت عليه النفوس بطبيعتها حب المال قال الله تعالى : « وانه لحب الخير
اشديد ويحبون المال حباً جماً » ولحب المال سببان : أحدهما حب الشهوات العاجلة التي
لا وصول اليها الا بالمال مع طول الامل فان الانسان لو علم انه يموت بعد يوم أو أسبوع
أو سنة قصر أمله فيجود بماله بعد أن يدخر لنفسه ما يكفيه ليرمه أو أسبوعه أو سنته
ولكن من الناس يعبر ويقنع بدنو أجله حتى ولو كان مدفقاً على فراش الموت ؟
وفوق هذا فان الانسان لطعمه بالخلود وعزه عن نيله ينزل ولده من نفسه
منزلة الخلود ويحب انه يتخذ بهم ولذلك يضمن بماله مهما كان كثيراً وان وجد عمره قصيراً
ليورثه الى عقبه ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله (الولد ببخلة مخفلة بمخلة)
وإذا أضفنا الى هذا وذلك ما هو متأصل بالاكثرين من صنوف الفقير وقلة انفقة
بالارتزاق قوي البخل في الانسان لا امة خلاناً لمن أحسن الظن بالله وأيمن بالخلف
المتيد. قال أمير المؤمنين عليه السلام : « من أيمن بالخلف جاد بالطية » اذ ان من يورقن
بالخلف يعلم ان الجود شرف لصاحبه وأن الجواد محمود عند الناس . عند الله حيث يجود
من نفسه الداعي الى السماح ولا صارف له عنه لعله ان مادته دائمة وعلى ذلك يجود
بالعطية وهو سرور منشرح الصدر وفي ذلك فانا من تبيل « وتحديثاً بنتم ربكم » :

من بات يورقن ان الله رازقه يوماً ييرم لا تطى المال عن كرم
والبخل من شم المأبوس بمسك ا في كفه خوف أن يمسي أخا عدم
لا كنت ان كنت لأولي العطاء لمن يمسي الي وليس البخل من شيهي
والله برزقي ما دمت أرزق من برحو زوالي ورزق الناس بالتسم (١)

(١) والسبب الذي انظم فيه عظمة مولانا المراد اقدس حفظه الله هذه الايات هو
ان عظمته كان مرة في الاهرار يتنقذ بكره رعاياه المخلصين واذا بالبرابي يندو عظمته في
صخر نخته يحب به روساء تباله وكرام حاشيته وعند ملوتمت عيناه على لي الزم أنشد :
مه لاي رزقي عليك اليوم أطابه حقاً صريحاً فخد لي وارتب الله
وأنت أكرم من تسمى العناية له نلم تدع مسامحاً من دهره آها
واهاً لدهرى ولكن بعد زورة مر لانا المنز فلا آها ولا واها
اني لأطمح أن أجني بفضل ما يحبي العيال فأجني المال والجاهها
فسر مولانا بهذا الاعرابي وتلفظه بمسئته وأولاه ما فوق آماله وأنشد بعد ذلك
لك الأيات الأبيات التي يحق أن يقال فيها كلام الملوك ملوك الكلام

ولله درُّ الشاعر الذي يقول :

من ظن بالله خيراً جاد مبتدئاً والبخل من سوء ظن المرء بالله

والسبب انما في حب المال لنفسه فمن الناس من يقنى ما فوق حاجته بل ما يكفيه لو عاش الخلود وليس له ولد يرثه ومع ذلك يقتر على نفسه في ماله ولا يجود بقليل من ماله وهو يعرف يقيناً أنه مائت لا عمالة وان ما بين يديه سيصير الى الوارثين تبديده وتبديداً فان مثل هذا البخيل الشحيح الذي لا تسبح نفسه بصرف قليل من ماله في مصالح دنياه وآخرته حتى ولا في سبيل مداواته اذا اعتل لا يفتر حرصه بأكثر من انه لنفس ماله . ولذته أن في صاديقه القناطير المتظرة من الضرار أو انه يملك السكر من التخييل والمقار وما مثل هذا الا مثل عاشق اشتغل عن الحبيب برسول الحبيب اذ أن المال للانسان رسول يبلغ به حاجته من دنياه وأخراة ولذلك هام به وجد في سبيل كسبه ولولا انه كذلك لما فرق الناس بين الذهب والفضة وغيرها من المادن التي لا قيمة لها

وحب الماء مما لا يخالو منه أحد وهذا الحب قد يسكن ويكمن في النفس وقد يهيج وظهر تبما امروض به من الاسباب فمن جملة الاسباب المسببة لتهيج هذا الحب ما عاينه أهل النعمة في آرائهم بشاهدتها المحروم المدموم قد يهيج في صدره عاطفة الحب لا ان يفنداع نارها في نفسه فيتنبه لآلم الحرمان الذي كان غالا عنه ومنه تأتي الفرضى التي نسمع بانباها السرداء في بلاد الغرب حيث يتتل الفتراة الاغنياء وتكثر حوادث التتسار لدى الماسرين وهذا نادر في الشرق حيث الناس على خشونة من العيش والاعنياء يكثر فيهم الكرم فيشاركون بأموالهم المترين

ولا يندجو من حب المال الا أهل القناعة ممن تصبهم الله من أوليائه الذين اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً حيث انه من مقتضيات الطبيعة البشرية والهواجس النفسية حب الذات والرغبة في الذات وقد قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام في وصف الدنيا وحب الانسان لها : « فهو عبد لها (للدنيا) ولمن في يديه شيء منها فحينما زالت زال عنها وحينما أقبلت أقبل عليها » وأخذ هذا المعنى ابن دريد فقال :

عبيد ذي المال وان لم يطعموا من ماله في نعمة تشفي الصدى

وهم لمن ألقى أعباءه وان شاركهم فيما أفاد وحوى

وقال أحد الشعراء في هذا المعنى :

ما الناس الا مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلبت يوماً به انقلبوا

بعضهمون أخا الدنيا فان وثبت يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا
وقلنا في هذا الموضوع :

ترى الناس قد هموا بذوي المال وانثنوا لاكرامه من غير فائدة تجني
كأنني بهم مثل الزمان بأهله يسرون بالدنيا لمن معه الدنيا
وقال شاعرنا الانطاكي :

عبد الناس ذوي المال فان مر فيهم مؤسراً شقوا الطريق
ليت شعري هل دروا أن الذي عبدوه في الاهانات حقيق
انما يكريم من أهل الغنى كل شهم محسن ندب شفيق
يبذل المال بجد وسخا فينال الحمد كالمسك الفتيق

وقالت العرب في امثالهم : « من ذهب بالههان على اهله » وانما الامثال حكمة الشعوب
فكم ترى غنياً والناس حوله اذا مضى بالنقر ارضوا من حوله ونسوه ان لم يطرده و يهينوه
وذكر وان مؤسراً يوماً على عالم زاهد فنهض هذا اجلالاً له فقيل اكان لك به
حاجة ؟ فقال لا والله واسكني رأيت المال فتبهت

هذا وان من ثمرات حب المال ونتائج الشح عليه والبخل به والحرص عليه اذا
وجد والشوق اليه ان كان مفقوداً كل ذلك لحاجة الانسان اليه ولاستكمال راحته به
« في الشح »

ومما جرت عليه النفوس البهيمية الشح لقوله تعالى « وأحضرت الانفس الشح »
أى جعلت حاضرة له مطبوعة عليه والشح هو أن يرى الانسان القليل من الانفاق اسرافاً
وما ينفقه على حاجياته التي لا بد له منها اقوام حياته اتلافاً والشح يزيد وينقص وقد ينهي
في بعض الناس الى أن يبخل على نفسه مع الحاجة فكم من بخيل يملك مالاً فلا يسخر
بالقليل منه اكسوته أو اغذائه أو مداواته وهو عليل الى أن ينهي به بخله هذا الى الموت
فيجود بحياته حرصاً على ماله ؟؟ وكم من الناس من يشتهي أنواع الشهوات فلا يمتنع
عنها الا الحرص على ماله حتى اذا ظفر به مجاناً ما عفت عنها

ومن ثمرات البخل التقاطع والنداب قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « اياكم والشح
فانه اهلك من كان قبلكم حملهم على أن ستركوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم
فقطعوا أرحامهم » وقال أيضاً عليه وعلى آله الصلاة والسلام : « تهادوا تحابوا » وفي
هذين الحديثين الشريفين العبرة البالغة للاشياء لو كانوا يعتبرون وقال بعض الحكماء :

« جود الرجل يحببه الى أصداده وبخله يبغضه الى أولاده » وهذا ما نشاهده عياناً في كل يوم فكيف من كريم تكاد الناس تعبدته بتجيلاً وحباً كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « وتكاد النفس تعبد من أحسن اليها » وكمن أولاد يبغضون آباءهم لشحهم ويتمنون لهم الموت والهلاك بل إن بعضاً من أولاد الأشحاء يعملون على اهلاك آباءهم للتخلص من شحهم والله درّ ابن عبدالقدوس حيث يقول :

ويظهر عيب المرء في الناس ببخله ويستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغلى بثوب من سخاء فاني أرى كل عيب فالسقاء عطاؤه
وقال شاعرنا الانطاكي :

الجود يدفع بالكريم لان يكون ن محبباً تالله من أصداده
والبخل يجعل للبخل كراهة ممزوجة بالبغض من أولاده
وقلنا في هذا المعنى :

ان السخي بماله بعد اشترى الا حرار اذا أمسوا عبيد نواله
لكنا القدم البخل يبخله قد باع في الاسواق حب عياله
والشع يكسب صاحبه مذموم الاخلاق اذ يكون الشحيح كذوباً ومملقاً ووضعاً
بين أمثاله وعشراته كما قيل في الامثال (عز مالك عز مالك وذل مالك ذل مالك) وحسبنا
بهذا الان وسنعود اليه

« التشوق الى المال »

ومما حببت عليه النفوس التصبي الى المال والشره له أما التصبي فهو شدة الكدح والاسراف في طلب المال وكسبه قال رسول الله صلى الله عليه وآله (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا يفتي لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب) وأما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهذا هو الفرق بين التصبي والشره وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله : (من لا يجزيه من العيش ما يكفيه لم يجد من العيش ما يغنيه) وأخذ هذا المعنى شاعرنا الانطاكي فقال :

من ليس يجزيه من العيش القليل تعففاً ورضى بما يكفيه

فلعمر ربك ملك كسرى كله لو كان في كفيه لا يغنيه

وقال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : (من هو مان لا يشبعان طالب علم وطالب مال)
ونقول ولكن شتان بين النهم بالعلم من حيث صاحبه يستفيد ويفيد والنهم بالمال وصاحبه

يضر نفسه وسواه وفي خبر عنه عليه السلام انه قال : (طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً) وكان يقال : (الناس رجال ان طالب لا يجود وواحد لا يكفني) أخذها الشاعر فقال :

وما الناس الا واحد غير قانع
وقنا في تضمين هذا البيت :

ورالمسال لاتعني بملقى الشدائد
فهل أنت الامانة وابن مائة
(وما الناس الا واحد غير قانع)
فكن قانناً فيما كنت سبت من الغنى
وللتفس حق لاتضعه بمطمع
ورالمسال لاتعني بملقى الشدائد
فهل أنت الامانة وابن مائة
(وما الناس الا واحد غير قانع)
فكن قانناً فيما كنت سبت من الغنى
وللتفس حق لاتضعه بمطمع

وقال بعض العلماء : (لا يخرج نفس من الدنيا الا وصاحبها بحسرات ثلاث : انه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما امل ، ولم يحسن الزاد مما هو قادم عليه) ونعم القول قوله وبالجملة فالشره بانك والتصبي الى جمعه من الفرائض الطبيعية اللازمة لبقاء الانسان وهاتان الختان تفويان في كل من غلبت عليهم القوة البهيمية قال أمير المؤمنين عليه السلام : (احسانك الى الحر بحر كره على الكاظمة ، واحسانك الى الذل بحر كره الى معاودة المسئلة ، وبه يعلم الكريم من اللئيم) وقال في ذلك أبو الطيب المتنبي :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته
ووضع الندى في موضع السين في العلى
وقد جاء في القرآن الشريف عن الشره قواء تعالى : (وقالوا يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك بخرج لنا مما تخبث الارض من بقلها وقتانها) الآية
والشره لا حد له الا ترى الفقير المدهم يتمنى أن يرى في يده ديناراً ؟ فاذا بلغ أمنيته طمع بعشرة دنانير ، فاذا انتهت اليه صبت نفسه الى المئة والالف وهلم جراً ، وهو بينما كان يتمنى أن يستر عورته ، ويشبع كرشه الخاوي ، بما تيسر ، أصبح ولا يرضى بغير الديباج كساء ، والفالودج طاماً ، والقصور الشامخة مأواه ، والخيول المطهمة لركوبه ، ما لم يكن يطمع به من قبل ، عند ما كان يتمنى على الله كسب الدينار الواحد ، وهكذا يقع الشره في هاوية آخرها عمق جهنم . وما أحسن ما قيل :

تموت مع المرء حاجاته
وحاجات من عاش لاتنهي

وقال آخر :
والنفس كالطفل ان تطعمه شب على حب الرضاع وان تطفمه ينفطم
وقال ثالث :

متى تنقضي حاجات من ليس بالغاً الى حاجة حتى تكون له اخرى
وقال رابع :

زوح وتعدو لحاجاتنا وحاجات من عاش لاتنقضي
تموت مع المره حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي
وقلنا في هذا المعنى :

أرى الناس والحاجات لاتنهي لهم كأنهم أهل الخلود بندي الدنيا
فهل علموا أن الفناء مصيرهم وآمالهم يفنون فيها ولا تقى
وقال شاعرنا الانطاكي :

وآماننا لاتنقضي ان نعسر الخلود ونسعى باجتهاد لأجلها
فكيف بنا والعمر اقصر ما نرى ونقضي ولم نبلغ منال أهلها
هي النفس لم تعقل وكان طموحها وأطاعها الكبرى نتائج جهلها
وقد علم مما ذكرناه أن الحرص والشره هما الفقر الحاضر لان معنى الفقر هو الاحتياج
ولذلك قيل (ان الله هو الغني المطلق) فاذا كان الحرص فقراً فالقناعة غنى وقد قال
في ذلك وأجاد متنبى الشعراء :

ومن يقطع الايام في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر
وقيل لبعض الحكماء ما الغنى ؟ قال : قلة تمنيك ، ورضاك بما يكفيك . ومن أمنال العرب
(وماغلب الايام الا من رضي) ومن امثالهم الشعرية :

والعيش لا عيش الا ما قنعت به قد يكثر المال والانسان مفتقر
وقيل ونعم ما قيل : (استغناؤك عن الشيء اذا عدم ، مثل استغناؤك به اذا حضر)
وقال الشاعر :

ماكل ما فوق البسيطة كافياً فاذا قنعت فكل شيء كافي
وقلنا في هذا المعنى :

اذا رمت أن نجيا سعيداً فلا تكن طموحاً وحاذر من معاندة الدهر
وكن راضياً عما به أنت ظافر من العيش رضواناً به رغد لعمر

وقال امير المؤمنين عليه السلام : (الزهد روة) وهذا حق لان الروة هي ما استغنى به الانسان عن الناس ولا غنى عنهم كما الزهد في دنياهم فالزهد والقناعة على الحقيقة هما الغنى الاكبر وسئل امير المؤمنين عليه السلام عن قول الله عز وجل (فلنجينه حياة طيبة) فقال عليه السلام : ان الحياة الطيبة هي القناعة ولا ريب ان الحياة هي حياة الغنى وقد يدنا ان الغنى هو القناعة لانه اذا كان الغنى عدم الحاجة فأغنى الناس أقلهم حاجة الى الناس والى هذا أشار النبي صلى الله عليه وآله بقوله : (ليس الغنى بكثرة العروض انما الغنى غنى النفس) وقال الشاعر :

غنى النفس ما يكفيك عن سدّ خلفه فان زاد شيء عاد ذلك الغنى فقرا
وقال شاعرنا الانطاكي :

اذا رضيت بحال أنت واجدها وما نظرت الى ما فوقها أبدا
أنت الغنى وما أنت الفقير ولو لم تلق عندك الا عيشك الرندا

« الحرص على الممتع »

ومما جلبت عليه النفوس الحرص على الممتع وقيل : النهي عن الشيء داع الى تعاطيه وفي الامثال « المرء حريص على ما منع » ويستدل على هذا الحرص بفعل آدم وحواء لما نهيها عن أكل الشجرة . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لو منع الناس عن فت البعر لقتوه وقالوا ما نهينا عنه الا وفيه شيء » وقال بعض العلماء « اذا ورد من الشارع نهي عن شيء كان داعياً الى تعاطيه » وفي الامثال « الشيء يرغب فيه حين يمتنع » وقد أخذ شاعرنا الانطاكي هذا المعنى فقال :

لقد صبوت لبنت الحان أشربها من دنسها لست بالكاسات أقتنع
وما بها لذة تحلو ومنفعة تُرحى سوى اني أضوى فاضجع
شربتها رغبة في كل ممتع والشيء يرغب فيه حين يمتنع

وقال بعض الشعراء :

منعت شيئاً فأكثر الولوع به أحب شيء الى الانسان ما منعا

وذكر ابن الجوزي في كتابه الاذكياء قال قدمت على عمر بن الخطاب حلال من البن فقسمها بين الناس فرأى فيها حلة رديئة فقال كيف أصنع هذه اذا أعطيتها أحداً لم يقبلها اميها نال فأخذها وطراها وجعلها تحت بحاسه وأخرج طرفها ووضع الحلال بين يديه فجلى يقسم بين الناس قال ندخل الزبير بن العوام وهو على تلك الحال فجعل ينظر الى

تلك الحلة فقال له ما هذه الحلة ؟ قال عمر دع هذه عنك قال ماهيه ماهيه ما شأنها؟ قال
دعها عنك قال فاعطينيها قال انك لا ترضاها قال بلى قد رضيتها فلما توثق منه واشترط
عليه أن يقبلها ولا يردّها رمى بها اليه فلما أخذها الزبير ونظر اليها اذا هي رديئة فقال
لا أريدها فقال عمر هيات هي نصيبك

والخلاصة أن الحرص على الممنوع من الطباع اللازمة للنفس وهي في النساء أشدّ
وكان يقال ما نهيت امرأة عن شيء الا آتته وفي هذا المعنى يقول طفيل الغنوي :

أن النساء كاشجار نبتن معاً هن المرار وبعض المرّ ما كول
ان النساء متى ينهين عن خلق فانه واجب لا بد مفصول

ولهذا الحكم عملة في العالم العقلي وذلك ان النفس عندهم غنية بذاتها مكثفة بنفسها
غير محتاجة الى شيء خارج عنها وانما عرضت لها الحاجة والفقر لما قارنت الهوى وذلك
أن أمر الهوى بالضد من أمر النفس في الفقر والحاجة ولما كان الانسان مركباً من
النفس والهوى عرض له الشوق الى تحصيل العلوم والمقتنيات لا تنفاه بهما والتذاذة
بمحصور لهما فاما العلوم فانه يحصلها في شبيهه بالخزانه له يرجع اليه متى شاء ويستخرج منه
ما أراد أعني أن القوى النفسية هي محل الصور والمعاني التي تدرك على ما هو مذكور
في موضعه وأما القينات والمحسوسات فانه يروم منها مثلما يروم من تلك على انه يريد ايضاً
ان يودعها خزانه محسوسة خارجة عن ذاته وهذا ما أوجب له الحرص

وأما حرص الانسان على ما منع فهو لانه انما يطلب ما ليس عنده وأما ما هو حاصل
عليه فلا ضرورة للسمي اليه وهكذا بطبيعة الحال يتوجه الى المعدوم لا يجاده فاذا حصل
عليه سكنت شهوته وعلم لانه قد ادّخره ومتى رجع اليه وجدّه (ان كان مما يبقى بالذات)
وقد لا يرجع اليه لاطمئنانه من حصوله عليه على انه لا بد من أن يشغل نفسه بشيء
آخر مفقود ليحصل عليه ايضاً ويظل هذا رأيه يعامل الطمع الغريزي في نفسه

هذا وأما المبتذل والرخيص والكثير الوجود فمما يرغب الناس عنه سهولة الحصول
عليه حيث يعلم كل انسان أنه بمجرد ذلك الشيء عند ما يتمسه وانما يرضن بالرضين . وقد قال
أمير المؤمنين عليه السلام : « من وثق بمساء لم يظلماً » يريد بذلك الظلم الذي يكون عند
شعور الانسان بفقد الماء وعدم الثقة بالحصول عليه وليس يريد النفي المطلق حيث الواثق
بالمساء يظلماً ويرتوي ومثل هذا قول أبو الطيب المنجي :

وما صبابة مشتاق علي أمل من اللقاء كمشاق بلا أمل

وقلنا في هذا المعنى : *« لا تملك الدنيا قلباً ولا دنياً »* :
 لا يعيش الا لمن آماله كثرت والموت غاية ما يؤسى من الامل
 لولا التعلل بالآمال لا تنجر السـ محروم من خيبة المسعى على عجل
 والصحيح هو أن الانسان يحبب الامل ويقتله اليأس ولذلك كثرت آمال الناس حتى
 أصبحوا منها في وسواس

ونرجع الى مسألة الرغبة بالمنوع فتري المرء قد يقضي يومه طياً ومن غير سحور
 فلا يهتم لطعام ولا يشكو من أوام على أنه وهو صائم ممنوع عن الاكل والشرب يكون
 شديد الرغبة فيهما ينتظر غروب الشمس بسأم وضجر وفروع صبر وما ذلك الا لانه
 ممنوع عن الشيء فيشتهيه وكذلك يقال عن الانسان في شهراته الاخرى التي يزهد فيها
 وهي ميسرة له ويشتهيها وهي متذرة عليه ممنوعة عنه وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام :
 « اذا كثرت القدرة قلت الشهوة » والسبب في ذلك هو ما قدمناه ولان القليل القدرة
 على ما يشتهي لا تزال تحده الشهوة بنيلها هو محروم منه لعدم ثمنه بنواله وتأن كده
 من فواته فيكون ذلك الخوف معاقباً للذة به فلا تزال في قلبه دغدغة نفسانية تحمله
 على مشتهاه وتبتم شهوته عليه أما اذا تمت قدرته عليه فانه يأمن قوته فيضف البأس
 لشهوته ويزهده فيه ومن ذلك قيل لاعرابي كان يتمشق قينة وقد برح به هواها ما
 يضررك لو اشتريتها يبيض ما تنفق في سبيل هواها ؟ فقال فمن لي بلذة الخلسة ولقاء
 المسارقة وانتظار المرعد وتمل بقولهم في الامثال (تمنعني أشهى لك) وهذا المثل
 يضررب للكثيرات الابتذال القليلات الدلال وأصله أن اعرابياً قال لامرأته وقد كثرت
 من التبتذل عليه تمنعني لاغازلك فاشتبهك فان كل مبتذل رخيص

ومن هذا القبيل ما قرأناه في كتب الأدب فقد رووا أن امرأة حسناء شعرت
 ان زوجها يخونها وينتاب اما كره الفسوق فاستدلت على تلك الاماكن وقصدت زوجها
 فيها كواحدة من المومسات ومكنته من ندها وهي مغطاة لوجهه يديوي خونها من
 الرقباء حتى اذا ما قضى منها وطره كشفت قنابها فقال لها « ما احرك في الحرام
 وابدك في الحلال » فذهب قوله مثلاً وتاب عن فجوره

« التهاون بالكثير المبتذل »

ومما جُبلت عليه النفوس التهاون بالكثير المبتذل ولذلك ترى الناس في شرقنا لا
 يفرحون بنور الشمس مع كثرة الحاجة اليها لانها قلي أن يحجبها الغمام خلافاً للإوربيين

ولا سيما سكان المدن الشمالية المتلبدة سهاؤها غالباً بالغيوم كلندن ونحوها فان القوم هناك اذا
أشرقت عليهم الشمس في يوم تركوا فيه أشغالهم وجعلوه عيداً وخرجوا زرافات الى
حدائقهم وأقاموا في نورها الوهاج فرحين مستبشرين
ومن هذا القبيل قلة فرح الناس عندنا بالسماء وهي مرصعة بالنجوم وقل أن ينظروا
إليها وهي أجمل من كل ماتقع عليه العين من مناظر الطبيعة البهجة وما زهدم فيها الا
لابتذالها وكذلك قل عن سائر الاشياء النادرة بنفسها والناس قليلو النايه بها لابتذالها
وقد قال شاعرنا الانطاكي :

أحرص على آدابك الغراء أن تمنى بشرّ الابتذال لدى الورى
فالناس تهمل كل مبتذل ولو كان الخليق بأن يعزّ ويذخرا
فبهمّة بأعوا الحياة وانها لزينة ما أن تباع وتشتري
والماء قد تركوه وهو المذبذبا — خذوا بديلاً بالنضار المسكرا
سدوا المنافذ بالاطالس كي ترى الشمس وابتاعوا الضياء المنورا
وصبوا الى الذهب العقيم فكان — بوداً لهم ما ان برد مقدراً
وقلنا في هذا الباب :

حاذر هو ان الابتذال اذا أردت مزرّة وتعلّى على الاقران
فالناس تحتقر القريب مناله وتخصه بالزهد والاهوان
وتجد في طلب البعيد نواله جداً وان يك واضح الحسran
وعلى هنا فنفاسه الاشياء لا تكرن لذاتها بل لما يمرض لها من الاقران أو الندرة أو
الضياح فمن الاول قول الشاعر :

خلت الديار فسدت غير مسرود ومن الشقاء تفردي بالسودد
وقال جامع ديوان الشريف المرتضى سمعت بعض مشائخنا يقول ليس اشعر المرتضى
من عيب الا أن الشريف الرضي أخوه فانه لو كان منفرداً بشعره كان اشعر أهل زمانه
ومن الثاني قول بعضهم :

ترى الفتى ينكر فضل الفتى مادام حياً فاذا ما ذهب
لج به الحرص على نكتة يكتبها عنه بماء الذهب
ومن هذا القبيل ما هو معروف عن مصوري الصور الزيتية في أوروبا فان أكثرهم
ان لم نقل كلهم عاشوا مترين ولم بهم أحد ببراءتهم الصناعية حتى اذا مات أحدهم أخذ

الناس يهتمون بصوره ويتنافسون باقتنائها ويتفاخرون بتزيين بيوتهم بها وقد روى لنا شاعرنا الانطاكي قصة فكهة من هذا القبيل قال ان احد مهرة هؤلاء المصورين اهلكه الفقر فاتفق مع امراته على ان يختفي وتذيع هي نبأ موته وتلبس الحداد عليه وما كاد يملن بين الناس نبأ موته حتى اقبل الناس على صورته يتنافسون باقتنائها حتى اغتنت المرأة فظهر المصور بعدئذ وطفق يضحك على اولئك النوااة الذين لم يقبلوا على صناعة يده الا بعد ان سمعوا بموته

وقيل دخل وانظ على هرون الرشيد فقال له تخاني فقال يا امير المؤمنين انك لو شمت شربة ماء عند عطشك بم كنت تشتريها قال بنصف ملكي قال ولو حُبست عنك عند خروجها قال بالنصف الاخر فقال لا يعرفك ملك قيمة نصفه شربة ماء وقيمة النصف الاخر اخراج تلك الشربة من جوفك

ومن هذا القبيل تنافس الناس باثار الاقدمين وبذلم في سبيلها ما عزر وما هان مع وجود ما هو اصالح منها واجمل وما ذلك الا لندرتها

ففي المالم المتدين تشتري هذه الاثار بالقناطير المقنطرة من الاموال والون بالمخارة فيها وما وقف هذا التنافس عند الافراد بل تعداه الى الحكومات فتراها تبذل الكثير من النفقات لثبر على قبرة فخار قديمة العبد أو قطعة خشب من آثار من غير الخ ومن اثال قول الشاعر :

ستذكرني اذا جرت بئر غيري وتعلم انني نعم الصديق

وقول الآخر :

سيدكرني قومي اذا جد جدّم وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر

وقالت الامة في اثالها « لاتعرف خيري حتى تجرب غيري » وقال بعض الحكماء

« انما تعرف قدر النعمة بقياسها على ضدها » فأخذها ابو تمام وقال :

والحادثات اذا اصابك بؤسها فهو الذي اُتياك كيف نعيمها

وقال الشريف الرضي :

ولا بدّ من ذلّة للفتى تعرفه كيف قدر النعم

وروي عن أحد الاولياء انه كان يدعو نفسه بالكذاب لبيت قاله وهو :

فليس لي في سواك حظ فكيف ماشئت فامتحنني

وعلى أثر نظمه هذا البيت رأى نفسه في حاجة الى الخلاه فضجر وقال يا كذابي

وروي مثل ذلك عن عمر بن الفارض القائل :

وبما شئت في هواك اختبرني فاختياري ما كان فيه رضا كما
فابتلي بحاجة الى الخلاه فجعل يعدو الي مكتب الصبيان متضجراً وهو يقول لهم
ادعوا لعصم الكذاب وقال بعضهم :

ومن لم يذق للهجر طعماً فإنه اذا ذاق طعم الوصل لم يدرك ما الوصل
وقلنا في هذا الباب :

قضيت مع المحبوب دهرأ ببغطة فكذت أمل الحب من كثرة الوصل
ولما افترقنا جدد البعد حيناً وبت ولا أرجو سوى جمع الشمل
فلا خير في حب اذا لم يكن نوى ونيرانه في الصدر دائماً الشمل
وقال شاعرنا الانطاكي :

لم يدرك ما الحرمان من ورث الغنى ارتأ وشب منعماً بالمال
وكذلك لم يدرك الهوى من لم يذق كأس البعاد ولوعة الاملال
فمن اغتنى من بعد فقر كان في نعمائه في غبطة وجلال
ومن اکتوى بظلي الجوى بعد التوى يلتذ من محبوبه بوصول

وبالاجمال نقول أن النفايس لا تعرف الا بالقياس على اضدادها ولا يدرك كنه النعمة
الا بعد معاناة النعمة والا فالفوز بالملاذ على هيتها مفض لجهل النفوس بقدرها ولذلك
ترى أكثر الناس لا يشكرون الله سبحانه على كثرة النعم التي انعم بها عليهم وما ذاك الا
لانها وصلتهم عفواً ومن غير أن يعانون مرارة الحرمان منها

وكذلك الناس لا يشكرون الله على نعمائه العامة المشتركة للجميع فلا يشكرونه على
الهواء الذي لولا تنفسه لماتوا خنقاً ولا على الماء الذي لولا شربه لماتوا عطشاً ولكن اذا
ابتلي أحدهم بفقد الهواء والماء ولو مرةً بالعمر وكاد يقضى عليه لفقدانها لقدّر قدر
نعمة الله على خلائقه بهما وترطب لسانه بشكر الله كلما شرب نهاية ماء أو استنشق
نسيم هواء وهذا والله غاية في كفر نعمة الله بحيث لا يكون الناس شكورين الا اذا سلبت
عنهم النعم ثم رُدّت اليهم على أن النعمة في جميع الاحوال أولى بأن تشكر لتدوم وقد
قيل « بالشكر دوام النعم » ألا ترى البصير لا يشكر الله على صحة بصره الا اذا ابتلي
بالرمد وخاف ان يظلم ضياء عينيه ثم عاد فصح والصحيح لا يشكر الله على صحته الا
اذا ابتلي بمرض عضال أقعده عن معاينة الاعمال وخلفه أسير الاوجاع والاسقام . ألا

قُتِلَ الإنسان ما أ كَفَرَهُ (١) وما مثل الذين لا يشكرون الله على نعمائه الا مثل عبد السوء
حقه أن يُضْرَبَ دائماً حتى إذا ارتفع عنه الضرب ساعة حسب ذلك منة لمولاه فيشكره
أما لو سُئِنَ عنه الضرب لا خذه البطر فاستكبر وما شكر

ومما يؤلم نفوس الذين يدرسون أحوال للناس ما زارهم فيه من التمتع بنعم الله المباحة
للجميع وقل فيهم من يشكره تعالى على نعمائه الا اذا أصاب مالا كثيراً وجاهاً وقيماً
كانت بحسب أن الخير كله في الجاه والمال وياليت شعري ما ينفع المال والجاه لمن أضع
بصره أو بات عليلاً مقعداً على فراشه ؟

حكى عن روتشد غني اليهودي في أوروبا انه دخل مرةً مخبأ خزانة أمواله وكان
ذا أفعال تتسلسل في دهاليز متداخل بعضها في بعض حدث أن أغلقت الابواب وأقفلت
الاقفال خطأ فمات الرجل جوعاً وهو بين كوم الذهب وقرطيس المالم المتراكمة فما أغنته
جميعاً عن نهلة ماء أو كسرة خبز

وحكى أن فقيراً شكوا سوء حاله الى بصير حكيم فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة
آلاف درهم ؟ فقال لا فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ قال لا فقال
أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً ؟ فقال لا فقال أيسرك أنك مجنون
ولك ثلاثون ألفاً فقال لا فقال أمانستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض قيمتها
ستون ألف درهم ؟ فاشكر الله على صحة العقل وسلامة الحواس والنظر وجاهد لتكسب
رزقك بعرق الجبين

ولسوء الحظ ان الجهل بنعم الله يكاد يكون عاماً في الناس لا يتنبه اليه الا القليلون
وقد قال الله تعالى « وقليل من عبادي الشكور » وقد قلنا في ذلك :
الله عن نعمائه السكثرى السى أعطاكها كن شاكرأ دوماً ذكور

(١) نقول من عرف عظمة شيخنا المرقد اقدس اطال الله بقاءه وفاز بالتمول بين يديه
الفاه وشكر الله عز وجل ملء فيه فهو يشكره اذا اكل ويشكره اذا شرب ويشكره
كلما يرى نعماءه متجلية عليه فلاغرو اذا أتم الله نعمه على عظمة الأمير وجعله مظهر المجد
العربي والجاه السكثير وقد قلت في ذلك :

رايتك تولى الله شكرك دائماً على النعم السكثرى التي فيها ترتع
فلاغرو أن تسي وعيشك وارفت وحمدك متلو وقدرك موسع
فان تشكر الرحمن دوماً فانتا بشكر معز العرب نصحو ونهجم

ولقد رأيت الناس قد كفروا بنعماءه وقلَّ المؤمن العبد الشكور

« الملال من الموجود »

ومما جُبلت عليه النفس الملال من الموجود مع الرغبة فيه مفقوداً من ذلك المثل العربي المشهور « ان نكح الحبُّ فسد » وأنشد ابن وكيع :

قالوا عشقت كثيراً كان ممنوعاً فقلت هيبات عنكم غاب مطلبه

لوجدان هان وقلت الجود غايته وانما عز لما عز مطلبه

وقال شاعرنا الانطاكي :

عشقتها وتمنيت البهاد لها خوف الملال من اللقيا بغير نوى

ان الهوى كامنٌ في الصدر حتى اذا ما أنكح الحب قل أضحي الوصال هوا

وحكى أبو بكر الصولي أن المهدي اشترى جاريتة فاشتدَّ شغفه بها وكانت به أكثر شغفاً وكانت تتجافاه كثيراً فدس اليها من عرف ما في نفسها فقالت ان واصلته يماني

ويهجرنى أموت فأنا أمنع نفسي بهرض لذتها لا عيش في البهض الاخر فقال المهدي :

ظفرت بالقلب مني عادةً مثل الهلال

كلما قد صحَّ حبِّي قابله باعتلال

لا تحبُّ الهجر مني والتنائي عن وصالي

بل تسوم البعد عني لاهوى خوف الملال

وقلنا في مثل هذا :

سألتها الوصل وهي بي مدلهمة تخفي الغرام وتبدي صدها تيمها

فقلت حتى متى هذا الجفا وأنا أراك تخفين ما في القلب تمويها

قالت أخاف بأن يدعو الوصال الى املال من في جفاها راغبٌ فيها

ومما جُبلت عليه النفوس أيضا الملال من الشيء لكثرة ومنه قيل « كثرة التعاهد

تدعو الى التبعاد وقلة الزيارة أمان من الملالة » وقال الشاعر :

اني كثرت عليه في زيارته فقل والشيء مملولٌ اذا كثرا

ورابني منه اني لا أزال أرى في طرفه قصراً عني اذا نظرا

وقال آخر :

أقلل زيارتك الحبيب تكون كالثوب استجده

ان الصديق يمل من أن لا يزال براك عنده

وكان للبخاري وهو أبو السادات صاحب انقطع عنه فعاتبه بكتاب رقيق فأجابه صاحبه بهذين البيتين :

لا تزر من تحب في كل شهر غير يوم ولا تزد عليه
فاجتلاه الهلال في الشهر يوم ثم لا تنظر العيون اليه

وقال ابن الوردي :

غب وزر غباً تزد جبا فمن أكثر الترداد أضناه الملال

وقال شاعرنا الانطاكلي :

أقلل زيارتك الحبيب مخافة من أن تمل ولا تطل حبيبا
يكفئك يوم كل شهر ان أردت بأن تكون الراغب المرغوبا
أو لم تجد يوم الهلال تحفه الا انظار ثم تعافه ليؤوبا

وقلنا في هذا المعنى :

لا تزر مكثرأ تسأل فتشقي انما مكثر الزيارات يزرى

غب وزر غبها فتزداد جبا عند أهل النهى وتعتز قدرا

ومما حُببت عليه النفوس أيضاً الملال من شدة القرب والسر في ذلك أن البعد موجب للعزة والمحبة والقرب مفض الى الهوان والملال من قبيل الاستمرار قول أكنم ابن صيفي : (تباعدوا في الديار تقاربوا في المودة) ومن أمثال العرب : (الهوى من النوى) يعني أن البعد يورث الهوى ومنه يتولد فان الانسان اذا كان مبتذل لدى اخوانه وأصدقائه هان عليهم فلو كان ممن يرغب فيه ولذلك قيل (اغترب تتجدد) وفي الامثال (رب ناور يمل منه الثواء) وقيل لعطاء بن مصعب كيف تغالبت على البرامكة وكان عندهم من هو أوفر منك أدباً قال كنت بميد الدار منهم غريب الاسم عظيم الكبر صغير الجرم كثير النوى فقررتني اليهم تباعدي عنهم ورغبهم بي رغبتني عنهم وليس للغرباء ظرافة القرباء وفي ذلك قانا :

اذا رمت ان تسمي حبيباً معزراً فأبعد عن الاحباب حيناً وواصل

فان الذي يلقي أحبته بلا نوى وهو ناور ينهم غير راحل

يهون عليهم قدره ولقاؤه وينزل منهم مرسماً غير أهل

ومما حُببت عليه النفوس الملال من طول العهد والمعاشرة قال زهير :

لعمرك والامور منبصرات وفي طول المعاشرة التقالي

لقد باليت مظهر أم أوفى ولكن أم أوفى لا تبالي
وروى بعضهم أنه خاصم زوجته وعزم على طلاقها فقالت له اذكر طول الصحبة
فقال والله مالك ذنب سوى ذلك

وقيل لرجل لماذا تكثر من الزواج والطلاق والزوجة الاولى اذا كثرت معاشرتها
كالصاحب لا يفارق؟ فقال نعم ولكن ان النفس بشهوتها شهت بالكلب والكلب لا يطعم
الا بأخذ الثريب على اذنه يزهد بالصاحب والصديق ومن هنا قيل السقنقور هو
المرأة الغريبة

وقيل في الامثال (اسكلّ جديد لذة) غير اني ولما حضرت الحطيئة الوفاة اكتنفه أهله
وبنو عمره فقيل له أوص فقال اخبروا أهل ضاني بن الحرث انه كان شاعراً مقلماً
حيث يقول :

اسكلّ جديد لذة غير اني وجدت جديد الموت غير لذيد
وقال بعض العقلاء :

اذا تحدثت في قوم لتؤنسهم من الحديث بما يمضي وما يأتي
فلا تعاود حديثاً ان طبعهم موكل بمعادات المعادات
وقال شاعرنا الانطاكى :

دع من تحب ولو كرهت هنيئة تشاقه وتروم عود لقائه
فأعلمه يوماً يمل ثواك ان تصبر ولم زهد بطول ثوائه
وقلنا في هذا المعنى :

أقلل زيارات الأجابة خوف أن تلقى بمجلس من تحب هوانا
وأطل ثواك بقعر بيتك تاركاً من قد هويت الى اللقا ولهانا
« الدفع والجذب »

واعلم زادك الله علماً ان اسكلّ نفس قوتين احدها جاذبة والاخرى دافعة وكل
منها تعمل عملها باضطراد ولولا ان الله تعالى أناط بالقوة الدافعة اظهار ما عندها لما
أتاك بالاخبار من لم تزود وهذا هو السبب في افشاء الاسرار وأما القوة الجاذبة
فظاهرة من رغبة الانسان بمنافع نفسه وجذب الخير اليه وهو ما يسمى الانانية أو
محبة الذات وقد نقل صاحب مجمع الامثال أن يزيد بن مروان ضاع له جمل فأمر المنادي
أن ينادي بأن من لقيه فهو حلال له فقيل له فما الفائدة اذن من النداء؟ فقال : لذمة

الوجدان وحلاوة العطفية وأراحة البال

ونُقل عن حماد الراوية قال كنت محبباً للوليد بن عبد الملك فلما تولى أخوه يزيد الخلافة هربت خوفاً منه إلى الكوفة ومكنت فيها فبينما أنا ذات يوم في المسجد الأعظم واذا برسول محمد بن يوسف الثقفي يدعوني إليه فأسرعت ودخلت عليه فقال لي أجب الخليفة ودفع لي كيساً فيه ألف دينار وقال لي هذه نفقة عيالك وفي الباب جوادان نحيان أرسلهما يزيد لكوكبك فركبت في طريق الشام إلى أن بلغت دمشق في اليوم الثامن وأسرعت إلى دار الخلافة وأنبأت الحاجب باسمي فاستأذن لي فأذن ودخات على الخليفة فاذا هو جالس في دار مبلطة بالرخام الأحمر وفيها سرادق خبز أحمر وسط قبة حمراء من خبز أحمر أيضاً وأثاثها ورياشها وكل ما فيها أحمر اللون وكان على رأسه جارتان مرتديتان ثياباً حمراء ويبد أحدهما ابريق فيه نبيذ أحمر ويبد الأخرى ابريق فيه نبيذ أبيض فلما مثلت بين يديه سلمت عليه بالخلافة فرد علي السلام وقال لي ادن مني يا حماد أندري فيما بعثت إليك؟ قلت لا يا أمير المؤمنين قال في بيت شعر ذهب عني أوله قلت من أي عروض ومن أي قافية؟ قال لأدري إلا أنه بيت فيه لفظة ابريق فقلت في نفسي إن لم تغن الرواية يوماً فالآن وقتها وطفقت أعمل فكرتي نحو ساعة ثم قلت نعم يا أمير المؤمنين لعله قول التبّع البماني أو عدي بن زيد العبادي وهو:

بكر العاذلون في وضع الصبح يقولون لي أما تستفيق
ويلومون فيك يا ابن بنت عبيد الله والقلب عندك مرهوق
لست أدري إذ يكتر العنل فيها أعدو يلومني أو صديق
ودعرا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها ابريق

نصاح يزيد وقال هو والله الشعر بعينه وشرب وقال يا جارية اسقيه فسقتني فقلت يا أمير المؤمنين ذهب ثمن عقلي فقال سل حاجتك قبل أن يذهب الثلث الآخر فقلت إحدى هاتين الجاريتين فقال هما لك بما لهما وما لهما، وقيمة ألف دينار تحسن بها حالك ثم ناولتني الجارية كأساً فشربتها ونهضت وقد ذهب عقلي فشدت بي إلى دار الضيافة فانتبهت في آخر الليل وإذا بشمع يوقد والجاريتان ترصان أمتنهما والبعال يحمل ما لها من أثاث وغيره ولما أصبحت قبضت المال وانصرفت وأنا أيسر أهل الكوفة (١)

(١) أقول كنا مرة في خدمة مولانا الشيخ خزعل خان روجي فداه في مجالس

أدب وعلم من مجالس عظمت المشهورة وبين يديه طائفة من الشعراء والادباء والعلماء

أقول انظر أيها الأديب الى هذه الأريحية العربية وما هي الأثمرة ما ذكرناه من لذة الوجدان وما تترك من عظيم الأثر في النفس

ثم أعلم أن رواج سوق الأدب على حسب ملاءمة الطبع وطبائع ملوك العرب وامرائهم عالية تهتز للأدب وتتأثر فيه تأثر النفوس الطرقة بالانعام الشجية

وتلذذ النفس بوجدان الشيء على قدر احتياجها اليه والانسان كلما كثر جوعه كان التذاذه بالطعام أتم وكلما كثر ظمأه كان التذاذه بالشراب أكمل ألا ترى ان الانسان اذا كان في الهاجرة وقد اشتد عليه الحر ثم هب النسيم عاياه تليلاً وجد من هبوبه لذة ما عهد مثلها في أيام الشتاء الباردة وما ذلك الا من شدة حاجته الى البرودة وترى الفقير يستلذ خبز الشعير ويمتتع منه أشد من لذة الغني وهو يتمتع بطيبات الطعام

فتفاوت اللذات باختلاف التمتع بها بالنسبة الى الحرمان والنيل أو القدرة والعجز

من أهل النجف الأشرف وسائر العراق فروى لنا عظمته هذه القصة ثم قال هكذا كان الملوك والامراء يصلون أهل الأدب والعلم بالمال الكثير والخير الوفير فلا غرو اذا ازهرت دولة الأدب في عهدهم أما الان فإين الذين يتنون بالأدب والادباء ويعطون على بيت من الشعر مثل هذا العطاء؟ وأنشد:

أولئك آباي فخيني بمنهم اذا جمعنا يا جربرجار

فصاح من في المجلس بلسان واحد عفواً أيها الملك المندي فقد جدت دولتهم بدولتك وأحييت مجدهم بمجدك وأنت الذي تصل الشعراء وتزيل الادباء وتسعف العلماء فيحجون اليك من كل صوب وحبوب وعندك بحمد القوم المرى اقول: أما أنا وأنا أكثر الناس علماً بفضل عظمة ولانا المعز فقد أنشدت في الحاضرة مرثجلاً:

أبا جاسب ما دمت مظهر مجدنا	وسؤددنا انسا بك الدهر تفخر
فليس لنا نبكي زماناً قد انقضى	ومعه انقضى ذلك الجلال المدثر
فأنت الذي أحييت مجداً ليعرب	وهيات ما قد فات للدهر ينشر
وعنك روايات المسكارم والندی	مع الحمد والشكر ان تروى فتشكر
فأي نثار عند نحرك يؤثر	وأي جلال عند جاهك يذكرك
فان كان قد أعطى يزيد لشاعر	عطاءً كثيراً فضله ليس ينكر
فما كان الا دون فضلك فضله	وان عطايك العميمة أكثر
وما عرف الاعراب مثلك محسناً	جواداً لمنظوم المواهب ينثر

وقالت العرب في أمثالها (والجوع يرضي الاسد بالحليف)
 وتعجبي قصة اتفقت لبعضهم مع أحد المترفين والمترفين بطريق كبرياء قال الراوي
 قصدت زيارة سيدنا الحسين عليه السلام مع جملة من الاخوان مشاة فنزلنا يوماً ماضياً
 على بعض الاعراب فقدم لنا صاحب البيت خبزاً من دخن على ماهي عادتهم فأكل
 الجميع الاي اذ لم آكل عمري من ذلك الخبز ولا رأيته قبل ذلك اليوم الا اني بعد قليل
 اشتدّ بي الجوع فصرت أتمنى أن يعود الضيف الينا بخبزه الاسود وقلت لرجل كان
 بجواري لو حصل لي من ذلك الخبز كسرة لاكلها شاكرأ وكان صاحبي هذا قد استدرك
 ما فاتني فخبأ لي كسرة من الخبز حتى اذا ما أنبأته بندمي على الاستكبار عن مناوله ذلك
 الخبز الاسود تبسم وأخرج لي كسرتة الخبزة فأكلتها بسرور ونهم لم أشمر بهما منذ سنين
 وأشبه هذه الاحاديث كثيرة يعرفها كل من ركب متن الاسفار واجتاز القيا في والغفار
 ومن مثل هذه الحوادث قال العرب في أمثالهم « خير الادم الجوع »

﴿ الروضة الثانية ﴾

﴿ في القوة الغضبية وما يتفرّع عنها من الطباع النفسية ﴾

« توطئة »

ألم ان الله تعالى الخلق الحيوان معرّضاً للفساد والموت افتقر هذا الحيوان الضيف
 الى قوة وحماية تدور ان من باطنه فندفعان المهلكات عنه وهكذا كانت طبيعة الغضب
 النارية غريزية في الانسان معجونة بطبيعته فتى ما صد عن غرض من اغراضه
 أو قصد من مقاصده اشتعلت نار الغضب في صدره وثار به ثوراناً يغلي به دم القلب
 وينتشر في العروق ويرتفع الى أعالي البدن كما ترتفع النار أو كما يرتفع الماء الذي
 يغلي في القدر فلذلك ينصب في الوجه فيحمر الوجه وتتقد به العينان وانما ينبسط
 الدم في الانسان الغاضب على من دونه المستشمر بالقدرة عليه فان كان غاضباً على من
 فرقه وكان ما يوسأ من الانتقام تولد فيه انقباض الدم من ظاهر الجلد الى جوف
 القلب وتحول الغضب به الى حزن ولذلك يصفر اللون وان كان الغضب على نظير
 مشا كل يشك في التغلب عليه تردد الدم بين الانقباض والانبساط فيحمر الغاضب
 مرّةً ويصفر أخرى ويضطرب اضطراباً مقلقاً وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب

ومعناها غليان دم القلب بطالب الانتقام وإنما توجه هذه القوة عند ثورتها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها والى التشفي والانتقام بعد وقوعها والانتقام فوق هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن الا به

ثم ان الناس بفطرتهم على درجات ثلاث في القوة الغضبية وهي التفريط والافراط والاعتدال أما التفريط فيفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم ويقال لصاحبه لاجمية عنده ولذلك قال بعض الحكماء : (من استغضب فلم يغضب فهو حمار) وبالاجمال نقول من فقد قوة الغضب والجمية بطبعه كان ناقصاً جداً وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي صلى الله عليه وآله بالشدة والجمية فقال (أشداه على الكفار رحماء بينهم) وقال لنبيه صلى الله عليه وآله (جاهد الكفار والمنافقين واغلق عليهم) الآية وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الغضب والجمية

وأما الافراط فهو أن تغلب طبيعة الغضب على الانسان حتى تخرج به عن سياسة العقل والدين ولا يبقى له معها بصيرة ونظر وفكرة واختيار بل ويصبح في صورة المضطر المغلوب على أمره وسبب غلبته هذه أمور غريزية وأمور اعتيادية فرب انسان كان بطبعه الغريزي مستعداً لسرعة الغضب حتى كأن صورته بالفطرة صورة الغاضب ويزيد في سرعة غضبه حرارة مزاج قلبه لان الغضب من النار كما قال النبي صلى الله عليه وآله وإنما برودة المزاج تطفئه وتكسر صورته ويزداد هذا الغضوب غضباً بعشرته قوماً يتشجعون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب فيقول الواحد منهم أنا الذي لا أصبر على المسكر والمحال ولا احمل من أحد أمراً ومعنى قوله هذا لا يفسر بأكثر من الجنون (والجنون فنون) كما يقول المرء ثم يذكره في معرض الفخر بحمله فمن سمعه رنخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بهؤلاء القوم المجانين والطباع سرافة فيقوى فيه

والناس على اختلاف في الغضب فبعضهم كالخلفاء سريع الوقود سريع الحمود وبعضهم كالغضى بطي الوقود بطي الحمود وبعضهم بطي الوقود بطي الحمود وهو الأحمدمالم ينته الى فتور الجمية والغيرة وبعضهم سريع الوقود بطي الحمود وهذا هو شرهم بالاجماع بل هذا هو المجنون الواجب تجافيه والبعد عن تصافيه وفي الخبر (المؤمن سريع الغضب سريع الرضى)

وربما يشتد الغضب في بعض الناس فيتعدى الى معادن الحسن فتظلم عينه حتى لا يرى بها وتسود بنظره الدنيا بأسرها وربما تزوى نار الغضب في صدره فتفني

الرطوبة التي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظاً كما تقوى النار في الكهف فينشق
وتهدأ أعاليه على أسفله وذلك لا بطل النار ما في جوانبه من القوة الممسكة الجامعة
لاجزائه . ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغيير اللون وشدة الرعدة في الاطراف
وخروج الافعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والسكلام حتى يظهر الزبد
على الاشداق وتحمراً الاحداق وتصلب الاظافر وتستحيل الخلقه ولو رأى الغضبان
نفسه في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياءً من نفسه واستحالة خلقته
وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فان الظاهر عنوان الباطن وانما قبحت صورة الباطن
أولاً ثم انتشر قبحها الى الظاهر ثانياً فتغير الظاهر هو ثمرة تغير الباطن
هذا أثر الغضب في الجسد وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام
الذي يستحي منه ذوالعقل ويستحي منه قائله عند فتور غضبه وذلك مع تحبط النظم
واضطراب اللفظ

وأما أثره على الاعضاء فالضرب والهجم والتمزيق والجرح ثم القتل عند التمكن
من غير مبالاة بالعواقب فان هرب منه المغضوب عليه أو فانه بسبب وعجز الغاضب عن
التشفي رجح غاضباً على نفسه في زق ثوبه ويلطم نفسه وقد يلطم برجله الارض ويده
الحائط وقد يكسر المائدة اذا غضب على الطاهي أو يشتم البهيمه والجمادات كأنه يخاطب
عاقلاً حتى ربما اذا رفته دابة يرفسها وربما عض القفل اذا تعسر عليه فتحه وربما
كسر القلم اذا تملقت به شعرة من الدواة ولم تزل لساعتها وبالاختصار مثل هذا والمجنون
سواء وفي ذلك قال الشاعر :

لسكل داءه دواءه يستطب به الا الحماقة أعت من يداوها

حكى عن أحد ملوك اليونان الاقدمين انه كان يغضب على البحر اذا هاج واضطرب
وتأخرت سفنه عن النفوذ فيه فيقسم بمعبوده وآلهته وكل عزيز ليطرحن الجبال فيه
حتى يصير أرضاً ويقف بنفسه على البحر ويهدده بذلك ويزجره زجراً عنيفاً حتى
تدرأ أوداجه ويشد احمرار وجهه فهل مثل هذا الملك الغضوب يصبح أن يحصى بين العقلاء
ومنهم من لا يسكن غضبه حتى يُنصب على راسه ماء بارد برطب ثوران الدم المنصب
من قلبه الى دماغه يهدأ نأثره

وإذا اردنا ان نحصي الاضرار التي تنجم عن الغضب لضاق بنا المقام فدكم من حق
ضاع لغضب صاحبه وكم من عزة ضاعت بغضبه من صاحبها وقد قال الشاعر :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلى من طبعه الغضب
أما الأذى يتأثرون بغضب الغاضب من المغضوب عليهم فهو لاء يضمرون لاولئك
الناضيين حقداً وحسداً واضماراً السوء مع الشماتة بالمسآت والحزن بالسرور والعزم
على افشاء الاسرار وهتكها والاستهزاء بالناس ان غابوا وبالاجمال فان الكثير الغضب
قليل محبوبه كثير أعداؤه

وأما الاسباب المهيبة للغضب فهي الزهو والعجب والمزاح والمزء والهزل والتعير
والماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه الخ
« الحقد »

اعلم ان الغضب اذا لزم كتلمه بسبب عجز الغاضب عن التشفي في الحال رجع الغضب الى
باطنه واحتقن فيه فصار حقداً ومعنى الحقدان يلزم قلب المبعوض استئفال المبعوض والغضب
له والنقار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى فالحقد ثمرة الغضب
وأما ثمرات الحقد ثمانية وهي الهجران والمصارمة والاستصغار والاعراض
والايذاء باللسان كالغيبة والنميمة والكذب وافشاء السر والايذاء باليد كالضرب وما
يؤلم البدن ومنع الحقوق من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظالمه والحسد والشماتة
فهذه ثمان ثمرات للحقد والذي يتعلق بفرضنا منها ذكر الحقد والشماتة لان المورد
مورد الاخلاق

وأما الفرق بين الحسد والشماتة فان الحسد هو المساءة بمسار الغير والشماتة السرور
بمساوته وقد أشار اليهما القرآن الشريف بقوله « ان تمسككم حسنة تسؤمهم وان تصبكم
سيئة يفرحوا بها » وهذا الفرح شماتة وذلك السوء حسد
والحسد والشماتة يتلازمان على الغالب وقد يفترقان فيكون بعضهم قليل الشماتة
كثير الحسد وبالعكس

والشماتة خلق غير يزى في النفوس لا يخلو منه أحد الا من نزهه الله تعالى من أوليائه
والشماتة كما تقع بالمسات الكلية تقع أيضاً بالمسات الجزئية من ذلك نكتة ظريفة لسكران
قيل ان سكراناً مرّ بمؤذن رديء الخنجرة فيبيح الصوت فجلد به الارض وجعل
يدوسه برجليه فاجتمع عليه الناس وسألوه عن سر غضبه على مؤذنه فقال والله ما
كنت لا بألي برداءه صوته لولا خوفاً من شماتة اليهود والنصارى بالمسلمين
ومن الامثال « مصائب قوم عند قوم فوائد » ويقال ان أهل الجنة ليتضاعفوا

فرحهم بما يرونه من آلام أهل النار ويعدون ذلك نعمة عليهم
وأما الحسد فهو خلق اكتسابي صدره الانانية وحب الذات بحيث يتمنى الانسان
النعمة لنفسه فيسوءه ان يراها على سواه

ولقد مد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى وهو خلق لازم لسلك نفس بشرية
ولقد سأل أحدهم بعض العلماء هل يحسد المؤمن؟ فقال ما أنساك بني يعقوب ثم تلا قوله
تعالى «اذ قال يوسف وأخوه أحبّ الى أينا، لنا ونحن عصبة ان أبانا لفي ضلال مبين
اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم» وأنت ترى من هذه الآية أن
بني يعقوب حسدوا أخاهم يوسف لحب أبيهم له فمكروا له ما مكروا والله لا يهدي كيد
الماكرين

وأعلم أنه لا حسد الا على نعمة فاذا أنعم الله على أحد بنعمة فلاغير فيه حالتان أما
أن يكره تلك النعمة ويحب زوالها وهذه الحالة تسمى حسداً والحالة الثانية أن لا يحب
زوالها ولا يكره وجودها ودوامها ولكن يشتهي لنفسه مثلاً وهذه الحالة تسمى غبطة
وقد يطلق عليها اسم المنافسة غلطاً لان المنافسة هي النزاحم على النعمة وتسمى مثلاً
فهذه هي حقيقة الحسد والفرق بينه وبين الغبطة كالفرق بين الخير والشر فتأمل
وقد يكون الحسد منبئاً عن الحقد والعداوة فيكون عارضاً على نفس صاحبه لان
الانسان بالطبع اذا كان يكره انساناً أو يحقد عليه أو بينهما عداوة يسوءه أن يرى عدوه
بنعمة فيتمنى زوالها وقد يكون الحسد طبعاً بالنفس ألا ترى كثيرين يحسدون ذوي
النعم حتى ولو كانوا لا يعرفونهم ويسوءهم ما يسر الناس ويسرهم ما يسوءهم والى مثل
هؤلاء أشار الله تعالى بقوله «ان تمسك حسنة تسوءهم» وقوله سبحانه أيضاً «ودّ كثير
من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم» الآية
واعلم أن الانسان في الحسد مراتب منها أن يودّ انتقال نعمة غيره اليه من قبيل
التغالي في حب النفس كرهته في دار حسنة أو جارية رائعة الجمال أو ولاية نافذة
أو روة واسعة الخ ويطلبه في الاصل نوال تلك النعمة لا زوالها عن غيره فيقول
ليتها لي وهذه المرتبة أدنى مراتب الحسد

ومنها أن يحبّ زوال النعمة عن غيره وان كانت لا تنتقل اليه وهذا غاية الحب
ومنتهى اللؤم قال صاحب كتاب الادب في نكت العرب «اجتمع ثلاثة نفر من
المهوديين في الحسد فقال أحدهم لصاحبه ما بانع من حسدك قال ما اشتبهت أن أفعل

لأحد خيراً قط حسداً له فقال الثاني أنت رجل صالح أنا ما اشتبهت أن يُفعل لي خيراً
قط حسداً لنفسه فقال الثالث كلا كما صالحان أما أنا فما اشتبهت أن تبقى نعمة على أحد
حسداً له فاعترف الاثنان انه شرهما

وتذاكر قوم من ظرفاه البصرة في الحسد فقال رجل منهم ان الناس ربما حسدوا
على الصلب فانكروا عليه ذلك فسكت ثم جاءهم بعد أيام فقال ان الخليفة قد أمر بصلب
الاحنف ومالك بن مسمع وحمدان الحجام فقالوا يا الله كيف هذا الحديث حمدان يصلب
مع هذين الرئيسين فضحك وقال ألم أقل لكم ان الناس يحسدون حتى على الصلب
قال المأمون ما حسدت أحداً قط كحسدي لابني دلف على قول الشاعر فيه :

أما الدنيا أبو دلف بين يديه ومحضره

فاذا ولي أبو دلف ولدت الدنيا على أثره

وروى أبو الفرج الاصبهاني عن عبدوس بن أبي دلف قال حدثني أبي قال قال لي
المأمون يا قاسم أنت الذي يقول فيك علي بن حيلة أما الدنيا أبو دلف الى آخر البيتين
فقلت مسرعاً وما ينفعني قوله يا أمير المؤمنين مع قوله :

أبا دلف يا أكذب الناس كلهم سواي فاني في مدبحك أكذب

ومع قول بكر بن البطاح في :

أبا دلف ان الفقير بينه لمن يرتجي جدري يدريك ويأمله

أرى لك باباً مغلقاً متمماً اذا فتحوه عنك فالناس داخله

كأنك طبل هائل الصوت معجب خلياً من الخيرات تعساً مداخله

قال فلما انصرف قال المأمون لمن حوله لله دره حفظ هجاء نفسه حتى اتفح به

عندي واطفاً لطيب المنافسة

والحسد أسباب كثيرة تزيد على ثمانية فلنشرح بعضاً منها وهو ماله مدخل في
المورد فمن أسبابه العداوة والبغضاء وهو أشد أسباب الحسد فان من آذاه شخص
بسبب من الاسباب وخالفه في غرضه بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ
في نفسه الحقد والحقد يقتضي التشفي والانتقام فان عجز المبغض عن أن يتشفي بنفسه
من بغضه أحب أن يتشفي منه الزمان وربما أحال ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى
فهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكانة له من جهة الله تعالى على بغضه لذلك
الشخص وانها لاجله ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لانه كان ضد ارادته وربما يخطر

له انه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه
وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما وإنما غاية التقى أن لا يبغى وأن
يكره ذلك من نفسه فاما أن يبغض أحدهم انساناً ثم تستوي عنده مسرته ومساوته فهذا
غير ممكن وهذا مما وصف الله الكفار به أعني الحسد بالعداوة اذ قال تعالى « واذا
لقوكم قالوا آمنا واذخلوا اعضاءكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عالم
بذات الصدور وان تمسك حسنة تسوؤهم » الآية وكذلك قال تعالى « ودوا ما عنتم
قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر » الآية
والحسد بسبب البغض ربما يفضي الى التنازع والتقاتل واستفراق العمر في ازالة
الزعمة بالحيل والسعاية وهتك السر وما يجري مجراه

ومن أسباب الحسد استشعار النفس بفوت مقاصدها وذلك يختص بالمتزاحمين على
مطلب واحد فان كلاً منهما يحسد صاحبه على كل ائمة توصله الى مقصوده دونه ومن
هذا الجنس تحاسد الضرائر على مقاصد الزوجية وتزاحم الاخوة على نيل المرتبة الاولى
في قلوب الآباء والامهات للتوصل الى مقاصد الكرامة والمال وكذلك تحاسد التلامذة
على نيل الافضلية من قلوب اساتذتهم وتحاسد ندماء الملك ورجال بطاقته على نيل
الحنوى برضاء توصلوا الى المال والجاه الخ وهذا شأن النوم المتناظرين في كل فن
ومطلب اذ كل واحد منهم يريد المنفعة لنفسه ولهذا السبب قيل القاص لا يحب القاص
وقيل لبعض العقلاء ما بال فلان يبغضك قال لانه شقيقي بالنسب وشريك في الصنائة
وجاري في البلد فذكر بجوابه هذا أشد دواعي الحسد

ومن أسباب الحسد خبث النفس وشحها بالخير لهداب الله تعالى فانك تجد كثيراً
من الناس اذا وصفت احد منهم حسن حال آخر أنعم الله عليه ببعض نعمه شق
ذلك عليه حتى ولو كان لا يعرفه ولا يتضرر من الخير الذي هو فيه واذا وصف له
اضطراب أمور بعض الناس وادبارهم في دنياهم وفوات مفاسدهم وتفقد عيشهم فرح
به فهو أبداً يحب الادبار لغيره ولو لم ينله من وراء ذلك اتع ويبخل بنعم الله على عباده
كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه وهذا ليس له سبب ظاهر الا خبث في النفس
واؤم في الطبع وما أحسن ما قيل في هذا الباب:

ان يحسدوك على علاك فانما متسافل الدرجات يحسد من علا

وقال شاعرنا الانطاكى في الحسد:

على م بحمد الحسأدمثلي ولا خير لهم مني وشركي
 ألوم الطبع بجمعهم جزاني على ما فيه من دهري أسرى
 والحسد كما قلنا لا يكون الا على نعمة قال النبي صلى الله عليه وآله (استعينوا على
 قضاء حوائجكم بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود) وقال صلى الله عليه وآله (ان
 لكل نعمة أعداء) فقل ومن هم يا رسول الله ؟ قال (الذين يحمدون الناس على ما آتاهم
 الله من فضله)

« حمد الاقربين والمتناظرين »

اعلم أن الحسد انما يكثر بين قوم تسكر بينهم الاسباب التي ذكرناها وانما يتقوى
 بالاكثر في صدور قوم يجمعهم روابط القرني أو التناظر على المنفعة لكثرة اجتماعهم
 في مجالس المحادثات والمناظرات فاذا حالت أحدهم صاحبه في غرض من الاغراض
 وأسباب الخلاف كثيرة - نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه ثم ند ذلك يريد
 احتقاره ومجازاته بالهوى على مخالفته له بغرضه ويكره تمكنه من النعمة التي توصله الى
 أغراضه وهذا قلما يكون بين القوم الذين ليس بينهم منازعة أو مجاورة أو قرابة إذ
 لا رابطة بين شخصين في بلدين متنازعتين أو في مصالحتين مختلفتين أو ليس بينهما قرني
 تسكر من اجتماعها في أمورهما ومقاصدهما

وعلى هذا فان المتناظرين أو ذوي القرني تور في صدورهم نارة التنافس والتنافس
 والتباغض ومنه تور بقية أسباب الحسد ولذلك ترى العالم يحمى العالم دون العابد
 والعابد يحمى العابد دون الصانع والتاجر وهلم جرا ويحمى الرجل أخاه أو ابن عمه
 أكثر مما يحمى الغريب والمرأة يحمى زوجها أكثر مما يحمى أم زوجها أو غيرها من
 النساء والسر في ذلك كله هو المزاحمة على المنافع والامر بديهي لا يحتاج الى زيادة
 بيان ومنشأ جميع ذلك هو حب الدنيا فان الدنيا هي التي تضيق في وجوه المتزاحمين
 فيتحاسدون أما الآخرة فلا تضيق فيها ولا تزاحم وانما مثال الآخرة أمة العلم فلا حرم
 من يحب معرفة الله تعالى ورسوله وأهل بيت رسوله لم يحمى غيره اذا عرف ذلك
 أيضاً لان المعرفة لا تضيق على العارفين بل المعلوم الواحد يعلمه ألف عالم ويفرحون
 بمعرفته جميعاً ويلتذون به وتتلعج صدورهم فيه ولا تنقص لذة واحدة بسبب غيره بل
 بالعكس تزداد فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة ما دام مقصدهم معرفة الله تعالى
 وهي بحر خضم واسع لا تضيق فيه وبقيتهم المنزلة عند الله تعالى وهي تسع الجميع إلا

إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لان المال أعيان وأجسام اذا وقعت في يد واحد دخلت عنها يد الآخر ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلا قلب شخص بتعظيم عالم انصرف بالطبع عن تعظيم الاخر أو نقص عنه لاحتمال فيكون ذلك سبباً لحسده والفرق بين العلم والمال ان المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن يد والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعاليه من غير أن يرتحل من قلب معلمه فان فرض كثرة في المعارف لم يكرهوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين « ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين » فهم اخوان بغير تحاسد كما عرفت أنه لا حسد الا لتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالسكل ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر الى زينة السموات وجنان الارض وما يقع تحت أنظارهم من بدائع الطبيعة لان ليس في ذلك اختصاص وانما يتحاسدون على ما يمكن فيه الاختصاص فعليك أيها القاري الكريم ان كنت بصيراً أن تطلب نعمة لازحة فيها ولذة لا كدر لها ولا يوجد ذلك في الدنيا الا في معرفة الله تعالى فان كنت لا تشاق الى معرفة الله ولم تذق لذتها فانت في ذلك معذور لان الاعمى لا يدرك وهج النور تقول وقد تمثلنا هذا بالعلماء دون غيرهم لما نعلم من أنهم يجب أن يكرهوا أبعد الناس عن التحاسد

هذا وقد يكون الحسد منها على فضل المحسود ونقص الحسود كما قال أبو تمام الطائي :
 وإذا أراد الله نثر فضيلة طيرت أناح لها لسان حسود
 لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب عرف العود
 لولا التبخرف للعراقب لم يزل للحاسد النعمى على المحسود
 وقيل كان وانظ في بغداد كثير التبول تند الناس فحسده بعض الوعاظ وأرسل
 اليه رجلاً وهو على كرسيه نأسر اليه بما يكره من فحش القول ظناً منه انه يقابله بمثله
 فتسقط كرامته من عيون السامعين أما الواعظ فتبسم وقال ما أحوج الذي أرسلك
 الى الحلم قبل العلم ولم يزد على ذلك فازدادت بجوابه هذا منزلة رفعة عند الناس
 ومثل هذا ما نقله بعض الثقات من أن رجلاً من العلويين من أهل النجف الأشرف
 وفد على الميرزا حسين قلي خان المروفي بأبي غسداره فاعطاه خمسمائة درهما فحسده
 بعض الحاضرين من الوافدين وقال الميرزا ان هذا السيد لا يستحق ما أعطيته لانه
 يشرب الخمر فقال ياسبحان الله ما علمت بذلك اذن هذا يحتاج الى أكثر مما أعطيتاه

فلا تكفيه الحمىة ثم أمر له بمائة أخرى فكان الحسد موجباً لزيادة عظمته (١)

(١) أورد عظمة مولاي السرदार أقدس هذه الرواية عن صاحبه أبي غداره حسين قلي خان بنفس تطهرت من رجاسات الحسد مع انه حفظه الله أنى كثيراً من أمثاله وأبى أن يذكرها عن نفسه تواضعاً وهي خطته العليا في سياسته مع عبيده المتنفذين حوله المتناظرين في خدمته المتنافسين على نيل رضاه فكما قرر اعزّه الله في المتن من تحاسد المتناظرين حول الملك فإن حاشية سموه الواسعة لم تنسكب عن هذه القاعدة ولكن التحاسد في حاشيته أقل بكثير من التحاسد في حواشي الملوك الآخرين والفضل في ذلك لعظمته حفظه الله فإنه من جملة المميزات التي تفرّد بها على ملوك هذا العصر انه لا يترك مجالاً لتحاسد حاشيته وتنافسها لاهاله كل ما يسمعه من بعضها ضد البعض الآخر

قيل لعظمته يوماً وكنت بحضوره ان خادمك فلان (وسماه) أصبح اليوم بفضلك غنياً واسع الثروة حتى تبلغ أملاكه وتقوده نصف وثمانية ألف من الليرات فقال عظمته حفظه الله ولم لا يصبح كذلك وهو أمين في خدمتي؟ وهذا الجواب الملوكي وحده يكفي لحذل ذلك الحاسد المعروض بخادم أمين لا تضل المحسنين عظمة الشيخ خزعل خان وقيل لعظمته مرة أن خادمك فلان يتمتع بأموالك في بلد كذا وينفق عن سعة فضحك عظمته وقال سأزیده ان نعمتي لاني أحب من أتباعي ان تظهر عليهم نعمتي كما يحب الله من عبده أن تظهر نعمته عليه وكان هذا الجواب أيضاً رادعاً لذلك الحاسد اللئيم خزاع الله

وقيل لعظمته في مجلس ان عبدك فلاناً قال لي كيت وكيت تعريضاً برفيع قدرك فعبس لا كدّره الله وقال ان كلامك هذا هو العيب الذي أني سمعته فعبدي الذي تعنيه أخلص لي منك وأنا أوفر ثقة فيه وهكذا تصاغر بنفسه ذلك الحاسد النمام ولم يعد الى مثل هذه الدسائس التي لا يأتيها غير اللئام

وأمثال هذه الحوادث كثيرة ومأثورة عن عظمة مولانا معز السلطنة ولذلك ترى جميع حاشيته مطمئنة على مستقبلها في خدمته اذ لا تخاف وشاية حاسد أو نيمية حقوق ولذلك لا تعجب اذا قلت لك أن جميع أفراد الحاشية مخلصون لعرش ملكهم المقدس ويتمنون لو يضيف الله من أعمارهم الى عمره السعيد ليعيش الخلود فإن عظمة وليّ نعم المرردار أقدس بمكارم أخلاقه وسعة صدره من أولئك

« حب المائلة »

ومما جُبلت عليه النفوس حبّ المائلة والمشاكلية أي المرء يجب دائماً أن يساوي غيره في السراء إذا لم يستطع أن يفضله كما يجب أيضاً أن يمانه غيره في الضراء وهذا نوع من أنواع الحسد والمنافسة واليه أشار القرآن الشريف إذ قال تعالى (ودّوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء) وقوله تعالى (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً) الآية وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام قال (مازلت مظلوماً إذ كنت صبيّاً إذ كان عقيل ليرمد فكأن يقول لا تذرّوني حتى تذرّوا أخي عالياً فأضطجع وما بي رمد) ومن هذا قال بعض العلماء من آفات البذل والعطاء أن إيصال الخير إلى الكل محال فلا بدّ من إيصاله إلى البعض دون البعض فيفضي ذلك إلى العداوة لأن المحروم يقول في نفسه لماذا منع فلان المحسن عني خيره وأوصله إلى فلان وهكذا تقوم له في نفسه عداوة) وأنشد بعضهم في هذا المعنى :

عدوّك من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرن من الصحاب

فإنّ الداء أكره ما راه يكون من الطعام أو الشراب

وذكر ابن خلكان في تاريخه أن تاجراً أدخل مدينة الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام ومعه حمل من الخنجر السود فكسدت عليه ولم يجد لها طالباً فضاقت صدره فقيل له ما ينفعها لك إلا مسكين الدارمي وهو من مجيدي الشعراء الموصوفين بالخلاعة والظرف فقصدته فوجده قد تزرّه وانقطع في المسجد فقص عليه قصته فقال وكيف أعمل وأنا قد تركت الشعر وعكفت على العبادة فقال التاجر ولكي غريب وليس لي بضاعة سوى هذه الخنجر ثم تضرع إليه فخرج مسكين من المسجد ولبس لباسه الأول ونظم بيتين وأذاعهما وهما :

قل للعليجة في الحمار الاسود ماذا صنعت بزاهد متعبّد

قد كان شمر للصلاة رداه حتى وقفت له بباب المسجد (١)

فشاع بين الناس أن مسكين الدارمي قد رجع إلى ما كان عليه بغواية كهوب مرت

المملوك الذين يصغون للحساد والوشاة فينكفون بالابرياء ويقصون الخالصين الاوفياء فلا يخلص لعرشهم عبد ولا يصدق في خدمتهم خادم لعلمهم أنهم في كلّ ساعة معرضون لغضب الملك بوشاية حسود ولذلك قيل في الامثال « مجاور السلطان كمجاور الاسد »

هذا بعض مميزات عظيمة شيخنا المرقد اقدس حياته الله وبيّاه وجعلنا فداءه

(١) كنا مرة في مجلس عظيمة الامير السرदार اقدس الشيخ خزعل خان في القيلية

عليه وهو في المسجد وكانت لابسة خمار أسود فلما سمعت النساء القصة أسرع عن اللب
الحمر السود وباع التاجر بضاعته بأضعاف ثمنها . أما مسكين الدارمي فرجع بعد ذلك
لذوبته وانقطاعه في المسجد . وما كانت رغبة النساء في الحمر السود إلا الحب المائلة
ومن ظرائف الروايات أن رجلاً كانت لحيته سوداء قد خالطها الشيب وكان له
امراتان شابة ومسننة فكان إذا حضر عند الشابة تفتت من لحيته الشعر الأبيض وإذا
حضر عند المسننة تفتت من لحيته الشعر الأسود فما مضى عليه شهر إلا وقد تفتتا لحيته
فراحت شهيدة المائلة

ومن هذا القبيل قول أمير المؤمنين عليه السلام « لا تصحب المائق فإنه يزين لك
فعله ويورد أن تكون مثله والمائق هو الشديد الحق وأما يزين لك فعله لئمانه وبالجملة
غيب المائلة والافتداء طبع لازم لسائر النفوس وكذلك بعض المخالفة والتباؤض بين
المتخالفين

« الغيرة »

ومما جُبلت عليه النفوس الغيرة وهو ألم حاصل عند استشعار المشاركة في المحبوب
وهو خلق لازم بهيج عند عروض أي سبب من استشعار الرغبة في المشاركة والذنس
كما تحب أن تشترك مع غيرها في المرغوب المحبوب وأن يشاركها غيرها بما عني به من
المبغوض المكروب كذلك تحب اختصاصها بمحبوبها وتفر عن المشاركة فيه من قبيل
الانانية وحب الذات على حد قول الشاعر :

أحب من الاحباب من كان لي وحدي وأهوى من الحلان من لم يخن عهدي
وبناء على هذا الاختصاص المطبوع في النفس قال أحد العقلاء « إذا خدمت رئيساً

الحمية وكان عظمته حفظه الله يحدثنا عن آداب العرب فنصفى ونستفيد ثم ذكرت
في حضرته العلية عناية الفرنجة بالاعلانات حتى ان تاجرهم يصرف نصف رأسماله على
الاعلانات عن بضاعه وان العرب مازالوا حتى بمصر أقل عناية من الفرنجة بالاعلانات
عن بضائعهم ولذلك كانوا أقل نجاحاً منهم فتبسم أعزّه الله وقال ولكن أتدري أن
الاعلانات هي من اختراع العرب وان الفرنجة أخذوها عنا كما أخذوا غيرها فدهشنا هذه
الرواية واستزدنا عظامه البيان فقص علينا القصة التي تراها في المتن وقال أليست هي
اعلان عربي يوم كان الفرنجة لامدنية عندهم ولا يعرفون الاعلانات ؟؟

فلا تلبس مثل ثوبه ولا تتركب مثل مركوبه ولا تستخدم كخدمه فعماسك تسلم منه « (١) وما نسكبة البرامكة الا من هذا القبيل
 وذكر ابن الجوزي في تاريخه لما تزوجت ليلى جاء المجنون الى زوجها وهو بصطلي
 في يوم شتاء فوقف وقال :

بربك هل ضمنت اليك ليلى قبيل الصبح أو قبلت فاها
 وهل رفت عليك قرون ليلى رفيف الاقحوانة في نداها
 فقال اللهم اذ حلفتني نعم فقبض المجنون بكفتي يديه قبضتين من الحجر فما كان
 فارقها حتى سقط مغشياً عليه فسقط لحمه مع راحتيه
 قلنا والغيرة لاحمد الا في موضع واحد وهو أن يغار الوضيع من الرفيع فيعمل
 ليرتفع نظيره وفي ذلك قلنا لولدنا جاسب وكان يترعز في واقعة حال
 أجاسب قد عددتك المعالي فكأن في المقبل الآتي فناها
 وانك فوق طلاب الملاهي ونفسك لا يسرك مشنهاها
 وأطمع ان طمعت بذات يوم بأن تعدوذوي التيجان جاها
 فاني لم أر عمري سوى من معالٍ لست أبلغ منهاها
 واعلم أن الغيرة في النساء والصبيان أشد منها في الرجال وذلك للضعف الفطري
 الموجود في النسوة والفتيان

ومن فكاهات الغيرة في النساء المستباحة ما ذكره ابن الجوزي في كتاب الاذكياء
 عن خالد بن صفوان التيمي انه أدخل يوماً على الخليفة السفاح وليس عنده أحد فقال
 يأمر المؤمنين والله ما زلت منذ قلدك الله الخلافة أطلب أن أصير الى مثل هذا الوقت
 في الحلوة فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بأمسك الباب حتى أفرغ فليفعل فأمر

(١) كنا يوماً في خدمة عظمة مولانا الشيخ المعز حياؤه الله وكنائفة من الادباء تتأدب
 باداب عظمته فاتقل بنا الحديث الى هذا القول المأثور فضحكنا جميعاً وقال مبتسماً ما
 الذي يضحككم قلنا ان صاحب هذا القول لو عرف عظمتك لما قاله فانتا تراك تؤثر
 عبيدك وخدمك على نفسك فنحن في رث ورغد أكثر من ولي نعمتنا على أننا نتفق من
 فضلك ونجود من كرمك ومع ذلك ليس منا من يتوقع غير السلامة في رضاك والعيشة
 في طاعتك فقال روي فداه وقوله من الفرر «كل سروري أن أرى كل من حولي مسرورين»
 فقلنا والله انك لعلی خلق عظيم

الحاجب بذلك فقال يا أمير المؤمنين اني فكرت وأجلت الفكر فلم أرَ أحداً له قدرة
 واتساع على الاستمتاع بالنساء مثلك ولا أضيقت فيهنّ عيشاً منك انك هكت نفسك
 امرأة من نساء العالمين فاقصرت عليها فان مرضت مرضت معها وان غابت غابت لاجلها
 وان عركت عركت وان حزنت حزنت وحرمت نفسك يا أمير المؤمنين التلذذ باستطراق
 الجوّاري ومعرفة اختلاف أحوالهنّ والتمتع بما يشهيه منهنّ فان منهنّ الطويلة التي
 تشهيه لجمها والبيضاء التي تحبّ لرؤيتها والسمراء العماء والصفراء الذهبية ومولدات
 المدينة والطائف والجمامة ذوات الالين العذبة والاجوبة الحاضرة وبنات سائر الملوك
 وما يشهيه من نضارتهم ونظافتهم وتخلل خالد بامانه فأطنب في صفات ضروب
 الجوّاري وشتات محاسنهم والسفاح يسمع وهو ساكت حتى اذا ما انتهى قال ويحك
 ملأت سمعي بما شغل خاطري والله ما طرقت أذني كلام أحسن من هذا فأعد عليّ
 كلامك وقد وقع مني موقفاً حسناً فأعاد عليه خالد كلامه بأحسن مما ابتدأه ثم قال له
 انصرف فانصرف وبقي السفاح يفكر فدخلت عليه أم سلمة زوجته وكان قد حلف لها
 أن لا يتخذ عليها زوجة ولا سرية ووفي لها بذلك فلما رآته مفكراً مهموماً قالت اني
 لانكرك يا أمير المؤمنين فهل حدث شيء تكرهه أو أتاك خبر ارتعت له قال لا هذا ولا
 ذلك فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد فقالت وما قلت لابن الفاعلة فقال لها أينصحني
 وتشتيمه ففضبت وخرجت الى موالها وأمرتهم بضرب خالد قال خالد فخرجت من عند
 أمير المؤمنين مسروراً ولم أشك بالصلاة فيبينها انا واقف أنتظرها اذ أقبل قوم يسألون عني
 فحقت أنهم جاؤوا اليّ بالجائزة فقلت لهم ها أنا ذا فاستبق اليّ أحدهم بخشبة فعمزت بردوني
 فلحمتني وضرب كفّل البرذون فركضت ففهم واستخفيت في منزلي اياماً ووقع في قلبي
 اني أوتيت من أم سلمة فيبينها أنا ذات يوم جالس في بيتي فلم أشعر الا بقوم قد هجموا
 عليّ وقالوا أجب أمير المؤمنين فسبق اليّ قلبي انه الموت فقلت انا لله وانا اليه راجعون
 والله لم أرَ دم شيخ أضيع من دمي فركبت الى دار السفاح فأصبتة جالسا ولحظت في
 المجلس بيتاً عليه ستور رقاق وسمعت حساً من خلف الستر فأجلسني ثم قال ويحك
 يا خالد وصفت لأمير المؤمنين صنعة فأعدها فقلت يا أمير المؤمنين أعلمتكم أن العرب جعلوا
 اسم الضرة من الضرر وان الرجل لا يكون عنده من النساء أكثر من واحدة الا
 وكان في ضرر وتنغيص فقال السفاح لم يكن هذا كلامك أو لا قلت بلى يا أمير المؤمنين
 وأخبرتكم أن الاربع من النساء شرّ مجموع لصاحبهن يشبهن ويهرمنه قال والله

ما سمعت هذا منك أولاً قلت بلى والله يا أمير المؤمنين قال أفنكيدني قلت أفنقتلني ؟
 نعم والله يا أمير المؤمنين ان أبكار الائمة رجال الا أنهم ليس لهم خصي قال خالد فسمعت
 ضحكاً من خلف الستر ثم قلت والله يا أمير المؤمنين وأخبرتني أنك عندك ريحانة قريش
 وأنت تطمح بعينيك الى النساء والجواري فقيل لي من وراء الستر صدقت والله يا عماء
 بهذا حديثه ولكنني غير حديثك ونطق بما في خاطره عن اسنانك فقال السفاح قاتلك
 الله وضحك قال خالد فانسالت وخرجت فبعثت الي أم سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذون
 وتخت ثياب

نقول ومن هذه الحكاية يجب أن تنتبه الى أمور منها وجوب المداراة وحفظ
 اللسان والنظر الى الاصلح ومنها ما ذكرناه من أن وجود الغيرة في نفوس النساء أشد
 وأعظم من وجودها في نفوس الرجال وقد تتجاوز النساء في الغيرة حداً يخرجن فيه
 عن سياسة العقل والشرع الى ما لا يحل وذلك لضيقهن

ومن هذا القبيل ما حكى عن رجل غاب عن زوجته ثم بلغها أنه اشترى جارية
 فاشترت هي غلامين فباع الخبر زوجها فجاء مبادراً وقال لها ما هذا ؟ قالت أو ما علمت أن
 الرحاء الى بغلين أحوج من البغل الى رحويين فباع الجارية لايبيع الغلامين ففضل
 وأصبح من ذلك ما حكى عن البهاء زهير الشاعر أنه كان يتبرّد في دهليز داره أيام
 الحر وكان يبيع الصورة فأتت جارية سوداء فوقفت تحتلس النظر اليه ثم مضت فلم
 يكن أسرع من أن أقبلت ومعهامرأة حسناء كأنها داراة القمر فلما أتته قالت أتأذن لي
 بالدخول فقال على الرحب والسعة فدخلت وقالت هل لك في نقال أي والله ومن برد
 مثلك فلما قضى منها وطره قامت لتذهب فعرض عليها شيئاً من الذهب والفضة فأبى
 أن تأخذ منه شيئاً فقال يا سيدتي متى يكون اللقاء فقالت ان عاد عدنا فقال جملة فذاك
 من ؟ قالت زوجي قام في غفلة مني الى جارية سوداء عندي في غاية الدمامة والبيع فأبى
 لا كما نمته على صنيعة رجل أسود مثاها فأرسلت ثماني هذه (تعني الجارية) التي سارت
 تبصر لي رجلاً قبيحاً مثل تلك الجارية السوداء . فطافت القاهرة فلم تجد من يبيع الجارية
 غيرك فأبى اليك لا كافي زوجي وان عاد عدت اليك ثم انصرفت ففرح البهاء زهير
 بعدما ته اذ كانت سبباً لنعمة بتلك الحسنة التي صدق فيها قول الشاعر :

حورينة لو رأها الشمس ما طلعت من بعد رؤيتها يوماً على أحد

ومن هذا قال أمير المؤمنين عليه السلام « غيرة الرجل ايمان وغيره المرأة كفر »

لان في غيرة الرجل على نساءه صوتاً لهن عن المنكر وفي غيرة النساء على رجالهن تهتك
 وفجور وابتذال والافضل أن تكون غيرة الرجال باعتماد
 « الحمية »

ومما جُبلت عليه النفوس الحمية ومعناها المحافظة على الحرمة من الهمة وهي على ثلاثة
 أنواع حمية النسب وحمية العرض وحمية الدين

أما حمية النسب فهي من خواص العرب وقد عرفت فيهم وسأتلو عليك أخباراً
 تشهد بذلك وتؤيده منها ما ذكره الشيخ عبد الحميد بن أبي الحديد في شرح النهج
 عن أبي عبيدة قال كان الفرزدق لا يندشد بين يدي الخلفاء والامراء الا قائداً فدخل
 على ساجان بن عبد الملك يوماً من الايام فأنشده شعراً فخر فيه بابائه وفي جملة ما قال :

تالله ما حملت من ناقرة رجلاً
 مثلي اذ الرمح لفتني عن السكور

فقال ساجان هذا المدح لي أم لك؟ قال لي ولك يا أمير المؤمنين فغضب ساجان وقال
 قم فأنتم ولا تندشد به الا قائماً فقال الفرزدق لا والله لا أفعل فقال ساجان ويبي على
 الاحق ابن الناعلة لا يكفي وارتنع صوته فسمع الضوضاء بالباب فقال ساجان ما هذا قيل له
 بنو تميم على الباب قالوا لا يندشد الفرزدق قائماً وأيدينا في مقابض سيوفنا قال فليشد قاعداً
 وروى المرزباني قال: كان الوليد بن جابر بن ظالم الطائي ممن وفدوا على رسول الله
 صلى الله عليه وسلم فأسلم ثم صحب علياً عليه السلام وشهد معه صفين وكان من رجاله
 المشهورين ثم وفد على معاوية بعد ان استقامت الامور له وكان معارفة يثبته معرفة
 يمينه فدخل عليه في جملة الناس فلما انتهى اليه استنسبه فاستسب له فثقل له أنت صاحب
 ليلة الهرير قال نعم قال والله ما تخلو مسامعي من رجلك تلك الليلة وقد علا صوتك
 أصوات الناس وأنت تقول

شدوا فداء لكم أمي وأب

فانما الامر لمن غلب

هذا ابن عم المصطفى والمنتجب

تميمه للعليا سادات العرب

ليس بموصوم اذا نص النسب

أول من صلى وصام واقترب

قال نعم أنا قائلها قال فلماذا قلتها؟ قال لانا كنا مع رجل لا يعلم خصلة توجب الخلافة
 ولا فضيلة تصير الى التفدية الا وهي مجموعة له كان أول الناس اسلاماً وأكثرهم علماً
 وأرجحهم حلمات الجياد فلا يشق غباره يستولي على الامد فلا يخاف عثاره وأوضح
 منهج الهدى فلا يبدي مناره وملك القصد فلا يدرس آثاره فلما ابتلانا الله تعالى باستقاده

وحول الامر الى من يشاء من عباده دخلنا في جملة المسلمين فلم نزع بدأ عن طاعة
ولم نصدع صفاة جماعة على أن لك منا ما ظهر وقلوبنا بيد الله وهو أعرف بما فيها
استتر فأقبل صغوفاً وأعرض عن كدرنا ولا تتركنا على حقد فان النار تقدح بالزناد
قال معاوية وانك تهديني يا أخاطي بأوباش العراق أهل النفاق ومعدن الشقاق فقال
يا معاوية هم الذين أشرفوك بالرئيق وحبسوك في الضيق وذادوك عن سنن الطريق
حتى لذت منهم بالمصاحف ودعوت اليها من صدق بها وكذبت وآمن بمنزاتها وكفرت
وعرف من تأويلها ما أنكرت فغضب معاوية وأدار طرفه فيمن حوله فاذا جلهم من
هصر ونفر قليل من اليمن فقال يا أيها الشقي الخائن اني لأخال ان هذا آخر كلام تنفوه
به وكان عفير بن سيف بن ذي يزن يباب معاوية فعرف موقف الطائي ومراد معاوية
تخاف عليه وهجم داخلاً وأقبل على البجانية فقال شامت الوجوه ذلاً وقلاً وجدعاً وفلاً
كتم الله هذه الاثمة كتماً مرعباً ثم التفت الى معاوية فقال أي والله يا معاوية ما أقول
قولي هذا حياً لأهل العراق ولا جنوحاً اليهم واسكن الحفيظة تذهب الغضب لقد
رأيتك بالأمس خاطبت أخا ربيعة يعني صمصمة بن صوحان وهو أعظم جرماً من هذا
وأزكى لقلبك وأفدح في صفاتك وأجد في عداوتك وأشد انتصاراً في حربك ثم
أثبتته ومرحته وأنت الآن تجمع على قتل هذا استصغاراً لجماعتنا بأننا لا نمر ولا نجلي
ولعمري لو وكلت أبناء قحطان الى قومك لكان جدك المأز وذكرك الدائر وحدك
المفلول ونمرسك المشلول فأربع على ظامك واطرونا على بلاتنا ليسهل لك حزننا ويظلمن
لك شاردنا فانا لازام برفع النعم ولا نغلب ببحر الخسف ولا نمر بفهم الفتن
ولا ندر على الغضب فقال معاوية انضبط شيطان فأربع نفسك أها الانسان فانسألت
الى صاحبك مكروهاً ولم ترتكب منه منضبطاً ولم تذهك منه محرماً فدرنك فانه لم يضق
عنه حملنا وبيع غيره فأخذ عفير بن الوليد وخرج به الى منزله وقال له والله لتؤوب
بأكثر مما آب به مهدي بن معاوية وجمع من بدمشق من البجانية وفرض على كل رجل
دينارين في عطائه فبلغت أربعين ألفاً فتعجباها من بيت المال ودفنها الى الوليد وردّه
الى العراق

ومن هذا القبيل ما ذكره الميداني في مجمع الامثال أن العيسار بن عبد الله الضبي
وفد هو وحيش بن دلف وضرار بن عمر والضبيان على النعمان بن المنذر فأكرمهم
وأجرى عليهم رزقاً وكان العيسار مهذاراً يقول الشعر ويضحك المملوك وفي جملة

ما يروى عنه قوله : *سألني عن رجل من بني تميم قال : ما فعلت يا رسول الله ؟*

لا أذبح النازي الشبوب ولا أسلخ يوم المقامة العنقا
 وكان النعمان بادياً فأرسل إليهم بجزر ذبهن تيس فأكلوهن غير التيس فقال ضرار
 للعيار وهو أحدتهم سناً أنه ليس عندنا من يسلخ هذا التيس فحبذا لو ذبحته وكفيتنا
 ذلك فقال العيار ما أبالي أن أفعل فذبح التيس وساخه فانطلق الضرار الى النعمان وقال
 له أبيت اللعن أيها الأمير ان العيار يسلخ تيساً فأني به وقال له ابن قولك لا أذبح النازي
 الشبوب الى آخر البيت فحجج العيار وضحك النعمان ساعة وعرف العيار أن الضرار
 هو الذي أخبر النعمان بما صنع وكان النعمان يجلس بالحاجرة في ظل سرادقه وكان
 كذا ضراراً حلة من حمله وكان ضرار شيخاً أعرج بادنأ كثير اللحم قال فسكت
 العيار حتى كانت ساعة النعمان التي كان يجلس فيها في سرادقه ويؤتى بطعامه عمد العيار
 الى حلة ضرار فلبسها ثم خرج يتعارج حتى اذا كان بحيال النعمان كشف عنه وقضى
 حاجته فقال النعمان ما لضرار قاتله الله لا يهابني عند طعامي وغضب عليه فلما بلغ الامر
 ضرار حلف بأنه لم يفعل هذا المنكر وقال ولسكني أرى العيار فعله للوقية بي جزاء
 ذكري سلخه التيس وعلى أثر ذلك وقع بينهما نفرة فتشائما عند النعمان فلما كان بعد
 ذلك وقع بين ضرار وبين أبي مرحب أخي بني ربوع ما وقع فتناول أبو مرحب
 ضراراً عند النعمان والعيار شاهد فشتم العيار أبا مرحب وذجره فقال النعمان أنشتم أبا
 مرحب في ضرار وقد سمعتك تقول به شراً مما قال له أبو مرحب فقال أبيت اللعن
 يامولاي وأسعدك الهدى « اني لا كل لحمي ولا أدعه لا كل » فأرسلها مثلاً فقال النعمان
 « لا يملك مولى لمولى نصراً » فأرسلها مثلاً نقول والسر في نصرة العيار للضرار انهما من
 نسب واحد فلم يرض أن ينال من عرضه أبو مرحب

ومثل ذلك ما روي أن ابن أبي جهل لما أسلم دخل المدينة فجعل يمر في الطريق
 فيقول الناس ابن أبي جهل فذكر ذلك لام سلمة فذكرته لرسول الله صلى الله عليه
 وآله فخطب في الناس فقال « لا تؤذوا الاحياء بسبب الاموات »

وأما حمية العرض فلا تختص بأحد دون أحد بل هي في الناس شرع وقد يعبر
 عنها بالغيرة وهذه الحمية وجودها في النفوس على مراتب ثلاثة وهي الافراط والتفريط
 والاعتدال فاذا غابت الحمية على الانسان حتى يتنقص بها عيشه فهي الافراط وفيها
 قال رسول الله صلى الله عليه وآله « ان من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل وهي

غيرة الرجل على أهله من غير ريبة « وقال أمير المؤمنين عليه السلام « لا تكثر الغيرة على أهك فزسى بالسوء من أجلها » وقال مسكين الدارمي

من لم يزل منهم مأ عرسه مناصباً منها لرجم الظنون

يوشك أن يغريها بالذي يخاف أو ينصبها للعيون

وذلك لما قدمناه من حرص الإنسان على ما منع والنساء في ذلك أشد

وأما التفريط فهو أن تفقد الحمية من الرجل حتى لا يبالي بعرضه وما يصنع به وهو

عكس الإفراط في الغيرة عليه وقد تفقد الحمية في بعض النفوس حتى لا يهتم إلا بنفسه قال

ابن الأعرابي خرج بعض الأعراب في عام مسغبة يتمس شيئاً يرجع به إلى أهله فتي من أطعمه وأسقاه فتمس من تخلف ثم جاء بعد حين شبعاناً رياناً فقالت امرأته له :

كفي لامة والله عالم غيبه وعندك من علم الكرام يقين

بأن يخرج المعتار من عند أهله سغاباً ويأتي الأهل وهو بطين

وان امرءاً يرضى بطم ومشرّب ويبتغي جياعاً خلفه لمهين

ومثل هؤلاء المفرطين الذين لا يهتمون بصيانة أعراضهم أو أنهم يرضون بهتك

نساءهم لقاء كسب يجنونه لحري بأن تكون نساءهم كالجاريين اللتين نمازحتا في قول الشاعر

قالت لجارتها يوماً ممازحة قرنت زوجك ان القرن يفضحه

قالت أيتمي بلا قرنت فوالهفي بلقاء زوجك ذو القرنين ينطحه

وأما حمية الدين فلا تختس بالعرب فقط بل لعابها في غيرهم أشد وقد يعسر عنها

بالعصبية ولكن الفرق بينهما ظاهر وكل منهما من ثمرات الغضب للدين أو الوطن

الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله « حب الوطن من الإيمان » إلا أن هذه

الحمية اذا خصت بالدفاع عن الدين أو الوطن أو كليهما أو التشييد لآثار الدين وعمران

الوطن ونحو ذلك صاحبها عن الطعن بالغير وتقيصه فهو حمية والا فهو عصبية والحمية من

هذا النوع محمودة ولا يخلو منها طبع بشري وان اختلفت مراتبها في النفوس

قال بعضهم: رأيت في بغداد رجلاً كفيف البصر يسأل الناس ويقول من أعطاني

فلساً سقاه الله على يد معاوية قال فنبهته حتى خلوت به فلطمته لطمه أو جعته وقلت

عزلت أمير المؤمنين عليه السلام عن حوض الكوثر بفلس واحدفقال الكفيف لا والله

لا كان ذلك أبداً وأنا لم أذكر معاوية حوضاً في كلامي فليسقهم من حيث شاء

ويعجبني ما نقله الشيخ محمد طه نجف دام الله عن الشيخ جواد نجف

قدس الله سره قال ان بعض من كان مشهوراً بالسرقه في طهران سرق في ذات ليلة دار رجل يهودي ولم يعلم بأن صاحب تلك الدار من آل اسرائيل فلما أصبح الصباح اشتهر أمر السرقه وعلم السارق ان المسروق يهودي فجاأ اليه كالمستخبر وقال كم كانت سرقتك قال كذا وكذا قال اكتبها على القرطاس لا نجسس السارق لعلي أعتز عليه فكتبها وسلها في كاغد ليد السارق فاذا هي كل ما كان مسروقاً من غير زيادة فقال له امض معي الى الحاكم فذهبا اليه وهناك سلم الرجل اليهودي كل ما سرقه منه في ليلته فقال له الحاكم وذاك تأخذ مال المسلمين وترد مال اليهود قال السارق نعم ان المسلمين أخوة واذا كان يوم القيامة أصالح بينهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالالتماس من هذا والتوسل لهذا ولكن يشق علي أن يطاطبي رسول الله رأسه بين يدي موسى ابن عمران حينما يقول له ان رجلا من أصحابك سرق دار رجل من أصحابي ويكيدني حينما يأخذ رسول الله بيدي اليه ويخضع له ويقول قل لصاحبك يهفو عن هذا القران وأما العصبية فلا يخلو منها طبع بشري لان عليها قوام الحياة والسر في ذلك هو عجز الفرد الواحد عن حفظ وجوده واحتياجه الى تعاقد اخوانه فيما يسمونه نزاحم البقاء أو تغلب القوي على الضيف وبذلك انقسم الناس الى قبائل وشعوب وقامت فيهم العصبية وهي التي توسع فيها الفرنجة فدعوها «وطن» بعد أن تحضروا وبعبارة أفصح ان العصبية عند الامم التي تغلب فيها البداوة تقوم مقام الوطن عند الامم التي تغلب فيها الحضارة

وللفكاهة نرى أن نورد هنا بعض القصص المشيرة الى الحمية الدينية الداخلة فيها الحمية العصبية لاشترك الدين والسياسة في الاسلام وللجمع بين الفكاهة والفائدة ذكر ابن الجوزي في كتاب الاذكياء انه كان في بغداد في طرف الجسر سائلان كفيفان أحدهما يتوسل الى الناس بأمر المؤمنين عليه السلام والاخر بماوية (وأنت تعلم أن الناس في بغداد شيعة وسنة) وكانا يجمعان المال بهذه الحيلة من كل من يمر بهما وكانا اذا انقضى النهار يجتمعان ويقسمان مكسب يومهما فتأمل وقيل للهلول أيهما أفضل أبو بكر أو علي فقال أما وأنا في كندة فعلي واذا كنت في بني ضبة فأبو بكر وكندة في الكوفة من شيعة أمير المؤمنين وبنوضبة هم أصحاب الجمل وفي الاثر ان رجلاً قال للهلول انه ورد في الحديث الصحيح ان في يوم القيامة توضع أعمال الشيخين في كفة من الميزان وأعمال سائر الخلق في الكفة الاخرى

فترجح أعمال الشيخين على أعمال الخلائق فقال الهلول ان كان هذا الحديث صحيحاً
فالعيب في الميزان

وكان صاحب ربيع يتشيع فارتفع اليه خصمان اسم أحدهما علي والآخر معاوية
فأنحى علي معاوية وضربه مئة سوط من غير ان تتجه عليه حجة ففطن المضروب الى
سبب نكبته وقال أصلحك الله سل خصمي عن كنيته فاذا هو أبو عبد الرحمن وكانت
كنيته معاوية بن أبي سفيان فبطلحه وضربه مئة سوط أيضاً فقال لصاحبه ماأخذته مني
بالاسم أخذته منك بالكنية

وقال الراغب في المحاضرات ان بقزوين قرية أهلها مغالان بالتشيع فمر بهم رجل
فسألوه عن اسمه فقال عمر فضربوه ضرباً شديداً فقال ليس اسمي عمر بل عمران
فقالوا أشد من الاول فان فيه عمر وحر فان من اسم عثمان فهو أحق بالضرب

ومن هذا الباب قصة الحجاج بن عكاظ السلمي في حسن تعلقه واحتياله وتبطله في
توصله الى تحصيل ماله وخلاصة القصة ان رسول الله صلى الله عليه وآله لما فتح خيبر
وأعرس بصفية وفرح المسلمون بجاهه الحجاج بن عكاظ السلمي وكان أسلم في حال قدومه
وشهد خيبر فقال يا رسول الله ان لي مالا عند صاحبتك أم شيبه ولي مال متفرق في تجار
مكة فائذن لي يا رسول الله في العودة الى مكة عسى أسبق خبر اسلامي اليها فاني أخاف
ان علم أهلها باسلامي أن يذهب جميع مالي فأذن له رسول الله قال الحجاج فخرجت
فلما انتهيت الى التنية البيضاء وجدت بها رجلاً من قریش يستمعون الاخبار وقد بلغهم
ان رسول الله صلى الله عليه وآله قد سار الى خيبر وكانوا قد عرفوا ان خيبر قرية
الحجاز ريفاً ومنعه رجالها فهم يتجسسون الاخبار فلما أبصروني قالوا هذا لعمرك الله عنده
الخبر اليين أخبرنا يا حجاج فقد بلغنا ان القاطع يعنون النبي صلى الله عليه وآله قد سار الى
خيبر قال فقلت لهم بلاني انه قد سار اليها وعندي من الخبر ما يسركم قال فازدحموا على جنبي
ناقتي يقولون ايه يا حجاج قال فقلت هزيم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وأسر محمد أسراً
وقالوا لاقتله حتى نبت به الى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم قال
فقاموا وصاحوا بمكة قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تظنون ان يقدم به عليكم فيقتل
بن أظهركم قال فقلت أعيونوني على جمع مالي من غرمائي بمكة فاني أريد أن أقدم خيبر
فأصيب من نفل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار الى هنالك فقاموا معي فجمعوا
مالي كما أحب قال ووجبت صاحبتك فقلت هات مالي لعمري الحق خيبر فأصيب من فرص

البيع قبل أن يسبقني التجار فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وما جاءه عني أقبل حتى وقف الى جنبي وأنا في خيبة من خيام التجار فقال يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به ؟ قال قلت وهل عندك كهان لما أضعه عندك قال نعم فاستأخر عني حتى ألتك على خلوة فاني دشعول في جميع مالي كما ترى فانصرف عني حتى أفرغ قال وبعد أن فرغت من استقصاء جميع أموالي بمكة وأجمعت على الخروج لقيت العباس فقلت احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل فاني أخشى الطلب واكنم عليّ ثلاثاً ثم قل ما شئت قال أفعل فقلت والله تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم يعني صفية ولقد افتح خير وانتقل ما فيها وصارت له ولاصحابه قال ما تقول يا حجاج ؟ قلت أي والله فاكنم عني ولقد أسلمت وما جئت الا مسلماً لا أخذت الي فرقاً من أن أغلب عليه فاذا مضت ثلاث فاطهر أمرك نهر والله على ما نحبّ قال حتى اذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له وتخلق وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة وطاف بها فلما رآوه قالوا يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحر المصيبة قال كلا والله الذي حلنم به لقد فتح محمد خيراً وترك عروساً على ابنة ملكهم وأحرز أمرهم وما فيها فأصبحت له ولاصحابه قالوا من جاءك بهذا الخبر ؟ قال الذي جاءكم به ولد دخل بملككم مسلماً وأخذ ماله وانطلق ليلته حق بمحمد وأصحابه ليكون معهم قالوا لقد أفلتت دود الله أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن وما لبثوا أن ظهر لهم الصحيح وهكذا توصل الحجاج بيقظته واحتياله الى الحصول على أمواله

﴿ الروضة الثالثة ﴾

﴿ في القوة الروحانية ﴾

(توطئة)

ان القوة الروحانية أشرف من القوة الشهوية ومن غلبت عليه الروحانية يسمى روحاني المزاج ويطلق عليه لقب (أريج) وأما ما يتعلق بهذه القوة من الاخلاق فهو حب الاستيلاء والاستعلاء والقدره على الغير وحب المال وألجاء والانفراد بالكمال وحب الثناء والدح وعلو الهمة وكبر النفس والانفة والمعجب والحياء والعفة وأشباه ذلك

« الكمال لله »

من المعلوم أن في الانسان صفات بهيمية وأخرى سبعية وأخرى ربانية ولما كان الانسان مر كسباً من هذه القوى الثلاثة أصبح ولا شك يتأثر بمؤثراتها عليه على قدر استعداده النفساني لها فهو لما فيه من الامر الرباني يحب الربوبية بطبيعته ومعنى الربوبية هنا التفرد بالكمال على سبيل الاستقلال واذا كان الكمال من الصفات الالهية صار محبوباً للانسان

والكمال بالتفرد بالوجود من حيث المشاركة فيه نقص فكمال الشمس في انها موجودة لوحدها فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصاً لها اذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية

والمنفرد بالوجود هو الله تعالى اذ ليس معه موجود سواه فانما سواه أمر من آثار قدرته لا قوام له بذاته بل هو قائم به فلم يكن موجوداً معه لان المعية توجب المساواة في الرتبة والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال بل الكامل من لانظير له في رتبته وكما أن أشراق نور الشمس في أقطار الافاق لا ينقصها بل هو من البراهين على كمالها وانما ينقصها وجود شمس مثلها مع الاستغناء عنها وكذلك وجود كل ما في العالم يرجع الى أشراق أنوار القدرة الالهية ليكون تاماً ولا يكون متبوعاً وعلى هذا فمعنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال وكل انسان يحب بطبعه لان يكون متفرداً بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ العلم ما من انسان الا وفي باطنه ماصرح به فرعون من قوله « أنا ربكم الأعلى » ولما لم يجد مجالاً لاطهار ربوبيته سوى باستعباد الناس الى أجل معين والعبودية قهر على النفس والربوبية بالمعنى محبوبة من الانفس النقية

لاجرم ما من أحد الا وهو يدعي الربوبية على من دونه من العبيد والاماء والخدم والحشم والاتباع على أنه يمنع عن اظهار ما في نفسه الا في حالات استشاطته وغيرته وغضبه عند تقصير بعضهم في خدمته (١)

(١) لله در شيخنا المزمز الذي نسر أفضل تفسير مايجوز في صدور أولي الزعامة وأهل الرئاسة من الكبر الى ادعاء الربوبية على من دونهم قدراً أو المنتهين اليهم في الخدمة ومن باب تقرير الحقائق نقول أن عظمة ملكتنا المفدى بالنفوس الشيخ خزعل خان حفظه الله قد تزه عن هذا على علو قدره وواسع سلطانه فهو من رعايا وعبيده بمنزلة الاب الرؤوف الرحوم من بنيه بلاطف الكبير والصغير ويرحب صدره فيهم جميعاً وما عهدناه

وما ادعاء مثل هؤلاء الربوبية أو ظهورهم بمظاهرها الا من عوامل الكبرياء التي لا يخلو من شرها انسان الا من عصم الله وقد أوماً الى ذلك القرآن الشريف بقوله « قل الروح من أمر ربي » ولكن لما عجزت النفس عن ادراك منتهى الكمال لم تسقط شهوات الكمال فهي محبة للكمال ومشبهة له وملتذذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال وكل موجود فهو محب لذاته والكمال ذاته ومبغض للهلاك الذي هو عدم الذاتية أو عدم صفات الكمال من ذاته وانما الكمال بعد أن يسلم المتفرد بالوجود بالاستيلاء

نحن عبيده غاضباً مغتاضاً الى أحد على كثرة ذلاتنا وتقصيرنا في خدمته العلية بل بالعكس اذا رأى من أحدنا تقصيراً في واجباته ينهيه الى تنصيره باشارة خفية كأن يقول له كنت أنتظر منك عمل المسألة الفلانية أو أظن أن عملك ذلك كان تسرعاً ولو تمهات أو سررت به من طريق كذا لكنت النتيجة أفضل

ومع أن عظمته حفظه الله وجعلنا فداه يتحمل توبة جميع اعمالنا اذا ساءت مع ذلك لم يواجه أحداً منا بما يكره بل كان بحكمته يصلح ما أفسدناه وهو في الوقت نفسه اذا قال له قائل أن فلاناً من عبيدك تسبب عن مسألة كذا خلق له المماذير على عمله وأوضح للعاذل أنه لا يزال على ثقته فيه وهذا منتهى الحلم وغاية الرأفة

اذ كر مرة أني كنت في خدمة علمته في الفيالية قطبت من أحد عبيد عظمته قضاء أمر لي في البصرة فتهازل وتضررت من تهامله واذا لنا أدلال على عظمته نحن عبيده الامناء انتهزت فرصة وجود ذلك الرجل في خدمة ولي الزم وعاتبته على ابله مصالحي في الحضرة وقبل أن يتمذر بادر عظمته لجبر خاطري وتخفيف حدتي قائلاً لا تتكدر من هذا الامين فقد أهمل مصالحي أنا من قبل وفي هذا الجواب المملوكي المملوء من الحكمة والرأفة أصاب عظمته ثلاثة أغراض لا بصيها الا بالحكم أو لها انه أزال من نفسي ما كنت أجده على ذلك العامل الامين والثاني به تامله الى اعماله مصالح عظمته ومصالح المنتهين الى عرشه والثالث انه وفق بيني وبينه فعدنا الى الصفاء والولاء بماضين على خدمة عظمته وأشبه هذه الحوادث كثير يعرفها كل من لاذ بعظمة ولي الزم ووقفت في بابها وأخلص في خدمته فهل لا يحق لنا أن نتفانى في حب هذا الملك الرحيم ونتنافس في سبيل كسب رضاه أعزه الله لا جرم أن ملكنا الممز من المتفردين في الكمال الروحية ولم نر في ملوك العرب الحاضرين ولم نقرأ عن غيرهم ممن سلف مثل فضله أضاف الله الى عمره السعيد من أعمارنا ووقفنا الى خدمته وكسب رضاه

على كل الموجودات فان أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فان لم يكن منك فعلى الأقل تكون مستولياً عليه فصار الاستيلاء على الكل محبوباً بالطبع لأنه نوع من الكمال وكل موجود يعرف ذاته فانه يحب ذاته وبحب كمال ذاته ويلتذ به الا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه وعلى تغييره بحسب الارادة وكونه مسخراً لك تردده كيف تشاء فأحب الانسان أن يكون له الاستيلاء على كل الاشياء الموجودة معه الا أن الموجودات منقسمة الى ما لا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته والى ما يقبل التغيير ولكن لا تستولي عليه قدرة الخلق كالأفلاك والكواكب وملكوت السموات وشمس الملائكة والجن والشياطين والحيوان والجمادات والبحار واليابس والسموات والارضيات والى ما لا يتدر عليه كذات الله والعالم الهولي أحب أن يستولي على السموات بالعلم والاحاطة والاطلاع على أسرارها فان ذلك نوع استيلاء إذ المعلوم المحاط به كالدخل تحت العلم والعالم به كالمستولى عليه فذلك أحب أن يعرف الله تعالى والملائكة والأفلاك والكواكب وجميع عجائب البحار والحيوان وغيرها لان ذلك نوع من الاستيلاء عليها والاستيلاء نوع من الكمال وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنع العجائب الى معرفة طريق صنعها كمن عجز عن اختراع الكبرياء اليوم فانه يشتبه معرفة أسرارها وكيف تنبعث أنوارها وتستخدم لحفظ الاصوات فيما يسمونه «الفونوغراف» أو نقل الاخبار فيما يسمونه التلفزيون بلا سلك الخزعلى ذلك فيكون الانسان متأماً ببعض العجز ملتزماً بكمال العلم ان علمه

والقسم الثاني وهو الارضيات التي بقدر الانسان عليها فانه يحب بالطبع أن يتولى عليها بقدرته على التصرف فيها كيف يريد وهي قسمان أجساد وأرواح أما الاجساد فاحبها الذهب والفضة فيجب أن يكثر منهما ليقبني فبهما ما يريد من متاع وعقار ويستخدما لرفعة أناس وضمة آخرين فان ذلك في قدرة رب المال والقدرة كمال والكمال من صفات الربوبية والربوبية محبوبه بالطبع مع ان الانسان لا يحتاج الى المال لاكثر من أكله ومشربه ومضجعه وما زاد على ذلك كان فضولاً.

وكذلك يطلب صاحب السطوة والمال استرقاق العبيد واستعباد الاحرار تارة يذلل ماله وطوراً بالتغلب والقهر بجيوشه وأعوانه توصلاً للتصرف بأرواحهم وأجسادهم على سبيل السخرة وأن لم يملك قلوبهم فانها قد تنفر من مظالمه وجوره وتمنى هلاكه ومع

ذلك تراه راثباً في هذا الاستعباد تلذذاً بالحشمة القهرية لما فيها من القدرة التي هي نوع من الكمال الرباني (١)

والقسم الثاني كسب نفوس الناس وقلوبهم وهي أنفس ما على وجه الارض فهو يجب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفه تحت اشارته واراادته لما في ذلك من كمال الاستيلاء والتشبهه بصفات الربوبية والقلوب انما تسخر بالحلب ولا تحب الا باعتقاد الكمال فان كل كمال محبوب اذ هو من صفات الله والصفات الالهية كلها محبوبة وعلى هذا نمى أوجه الحقيقى هو تسخير القلوب ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية

وعلى هذا فمحبوب النفس بالطبع الكمال بالعلم والقدرة والمال والجاه من أسباب القدرة ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات وما دام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن والنقصان لا يزول والوصول الى الكمال محال ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله « من هو مان لا يشبعان طاب علم وطاب مال » وسرور الانسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال

وقد يشارك الحيوان والانسان في حب الاستعلاء والاستيلاء والندرة لا ترى الهرة اذا صادفت فأرة تلاعها وتذاعها قبل أن تقتلها لاظهار قدرتها عليها وربما تغافلت عنها لتمن في الهرب وتشب عليها وتصيدها مرة ثانية كل ذلك تفعله ايثارا للذة القهر والغلبة على الاكل فاذا كان الحيوان بهذه المثابة فالانسان الذي هو أعرف بحب الاستيلاء والاستعلاء أولى بلذة الاقتدار والقهر

روي المدايني قال قدم على بعض الامراء بخراسان رجل فدخل مع الناس فقال أصلح الله الامير ان لي عليك يداً قال وما يدك : قال أخذت بركابك يوم كذا قال صدقت فما حاجتك ؟ قال توليتي للبلد الفلاني قال لم ذلك قال لا اكتسب مئة ألف درهم قال فانا قد أمرنا لك بها الساعة فتكون قد بلغناك ما تحب وأقررنا صاحبنا على عمله قال أصلح الله الامير انك لم تقض زمامي قال ولم وقد أعطيتك ما أملت قال فأين الامارة وأين التلذذ بالامر والنهي قال قد ولتلك اياها وسوغت لك ما أمرت لك به وأغفيتك عن

(١) نقول لقد تزه عظمة شيخنا المحبوب عن هذه الحلة لتزهره عن ظلم رعاياه والضغط على مر يديه والملتفين حوله ولذلك تراهم جميعاً يحبونه حباً جماً من صميم قلوبهم ويتنافسون الناس في حبه ويتفزلون دائماً أبداً بمحامده والثناء عليه

المحاسبة أن صرفتك عنها قال ولما تصرفني عنها ?? ولا يكون الصرف الا عن عجز وخيانة
وأنا بريء منهما قال اذهب فأنت أميرها مادامت لنا خراسان فلم يزل أميراً عليها حتى
عزل الامير عن خراسان

ومن أمثال العرب «يا حبذا الامارة ولو على الحجارة» وما من انسان الا ويجد
لذة للقدرة والقهر لغيره ما لا يجد في غيرها من سائر اللذات

(حب الجاه)

من أسباب السكام كما أسلفنا المال والجاه وقد تكلمنا طويلاً على المال وأما الجاه
فاعلم ان السبب الذي يقضي بأن يكون المال محبوباً هو بينه يقضي بأن يكون الجاه محبوباً
بل يقضي ان يكون أحب من المال لانه أبداً منالا منه فقد يكون صاحب المال وجيهاً
وقد يكون غير وجيه

فأنت تعلم ان الذهب والفضة لا عرض للانسان في أعيانها اذا لا يصاحبان لمطعم ولا
مشرب ولا متكح ولا ملبس وانما هما والحصباء بمنابة واحدة والكنهها محبوبان لانها
وسيلة الى جميع الشهوات والممذات من حاجيات وكاليات وبالاخير لانها يوصلان
صاحبهما الى الجاه وهو غاية ما تصبو اليه النفوس
والجاه كما سبق القول هو ملك القلوب حتى تشعر من نفسها بوجوب احترام
صاحبه وحبه أيضاً

وكما ان ملك الذهب والفضة يفيد الاقتدار الى الوصول لبعيد الاغراض فكذلك
ملك قلوب الاحرار يفيد القدرة على تسخيرها للتوصل الى ما فوق هاتيك الاغراض
وهو العلو الذي يفيد معنى السكالم الرباني

وكما ان صاحب المال يطلب الحيازة على الارقاء والعييد فصاحب الجاه يطلب الحيازة
على قلوب الاحرار واسترقاقها وعلى هذا فالرق الذي يطلبه صاحب الجاه أصعب منالا
من الرق الذي يطلبه صاحب المال اذ ان الغني يملك العبيد قهراً والبيد متأب بطبعه ولو
خفي ورأيه لانسى عن الطاعة وأما الوجيه فانه يطلب الطاعة طوعاً ويقصد ان يكون
له الاحرار عبيداً بمطلق رضائهم فرحين فاذن معنى الجاه قيم المنزلة في قلوب الناس
ومعنى قيام الجاه في القلوب اعتقادها صفات السكالم في شخص ذلك الوجيه أما بلم
أو بعبادة أو بحسن خلق أو بصحة نسب أو بكرم أو بولاية أو بمجهال أو بقوة أو بها
أو بعضها اذا اجتمعت في شخص واحد فان هذه الصفات تستعبد قلوب الاحرار وتكون

سبباً لقيام الجاه الذي هو غاية الغايات في هذه الدنيا (١)

وبقدر ما يعتقد الناس من كمال الرجل تعظم في أعينهم وجاهته وتدعن قلوبهم له
تقدر اذعان القلوب تكون قدرته على تسخيرها وبقدر هذه القدرة يكون فرحه وحبه للجاه
ولما ذكرنا من ترجيح الجاه على المال اقتضى ان يكون الجاه أحب من المال وفي
الطباع أمر عجيب وراء ما ذكرنا من حب المال والجاه لم يكن الا للتوصل الى
الاغراض والحاجات وهو حب جمع الاموال وكنز الكنوز وادخار النخار واستكثار
الجزاين وراء جميع الحاجات حتى لو كان للانسان وأديان من ذهب لا يتغى لها ثالثاً
وكذلك حب الانسان للسعة في الجاه وانتشار الصيت الحسن الى أقاصي البلاد وهو يعلم
انه لا يطأها في حياته ولا يشاهد أصحابها ليعظموه أو ليروه أو ليعينوه على قضاء
عرض من أغراضه ومع اليأس من ذلك فانه يلتذ بما يعلم من اذاعة صيته بالحمد غاية
التلذذ وحب ذلك ثابت في طبعه وليس لذلك سبب الا لما في النفس من معنى الربوبية
واعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه أصبح كثير الاهتمام بمراعاة الخلق شغفاً
التودد اليهم والمروآت لاجلهم ولا يزال في أقواله وأعماله ملتفتاً الى ما يعظم منزلته
عندهم وقد يدعو ذلك الى فساد حاله من التساهل بالعبادات والمراية بها والى اقتحام
المحظورات توسلاً الى اقتناص القلوب ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وآله حب
الشرف والمال وافسادهما للدين بذننين متضادين وقال انه ينبت النفاق في القلب كما
ينبت الماء البقل اذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو بالفعل وكل من طلب
المنزلة في قلوب الناس يضطر الى النفاق معهم والى التظاهر بمخالفات حميدة هو خال
عنها وذلك عين النفاق فحب الجاه اذن من المهلكات

ولكن شتان بين أن يدفع حب الجاه بالانسان الى الوصول اليه بالنفاق والرياء
وتصدق فيه نظريتنا ومن يصل الى الوجاهة الصحيحة فيملك قلوب الناس من غير

(١) نقول وما وصل عظمة مولانا المعز الشيخ خزعل خان الى غاية الغايات في
الجاه الا لحيازته على هذه الصفات العالية فهو أعزه الله وأدام علاه وافر العلم كثير
العبادة حسن الخلق صحيح النسب جميل الطلعة مها بها قوي البدن سديد الرأي وافر
السخاء جهم العطاء عميم العطف فسبحان من جملة بهذه الكمالات اه

أن يطلبها لميزات خاصة بنفسه جعلته في أعين الناس وجيهاً بكل معنى الواجهة (١)
« حب المدح والتناء »

ومما جُيِّبَت عليه النفوس الروحانية حب المدح والتناء وذلك ثمرة حب الجاه فما
من شيء أحب إلى من يطلب الواجهة من ترديد الناس تناءً والتغزل بمحامده ومدحاً له
ومن أمثال العرب في ذلك قولهم « حب التناء طبيعة الانسان »

قال يزيد بن المهلب « المال والحياة أحب شيء إلى الانسان والتناء أحب إلى منهما
ولو أنني أعطيت ما لم يمط أحد لاحتببت أن يكون لي أذن أسمع بها ما يقال عني غداً
وقدمتُ كرمياً واعلم أن للمدح والتناء تأثيراً عظيماً في النفوس العالية

وقيل إن المأمون تكلم يوماً فقال بحجي بن أكرم بمدحه يا أمير المؤمنين جعلني الله
فذاك إن خضنا في الطب فأنت جالينوس في معرفته أو في النجوم فأنت هرمس في
حسابه أو في الفقه فأنت علي بن أبي طالب في علمه وإن ذكر السخاء كنت حانماً
في جوده أو الصدق فأنت أبو ذر في صدق لهجته أو الكرم فأنت كعب في إشارته
على نفسه أو الوفاء فأنت السهول بن عاديته في وفائه فاستحسن قوله وتهلل وجهه (٢)

وكان الحجاج يستقل زياد بن عمر الكلبي فلما قدم على عبد الملك بن مروان
قال زياد يا أمير المؤمنين إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو وسهمك الذي لا يطيش
وخادمك الذي لا تأخذ، فيك لومة لأم فلم يكن بمد ذلك على قلب الحجاج أخذ منه
ومن هنا المثل يظهر لك فائدة المديح وكيف يؤثر على قلب من تمدحه حتى يرغب
فيك بعد أن كان يرغب عنك

ثم أعلم أنه لا فرق في التأثير بين أن يكون المدح للنفس أو لعلائقها من ذلك أن
هرون الرشيد كان يحب من الألوان السواد سأل يوماً بعض العلماء عن السواد فقال

(١) ومن هذا الصنف بل وفي مقدمتهم عظمة شيخنا المنز المحبوب الذي تسمى إليه
الواجهة ولا يسعى إليها لما فيه من الكمال العالية التي يترفها الادنون والابعدون اه
(٢) نقول كنا بالحضرة المليحة الحزلية في مجالسنا الادبية فروى لنا عظمة الشيخ
المعز حفظه الله هذه القصة وقد انتضاهما الحال وقال ان سرور المأمون في هذا المديح
على ما فيه من الاغراء لم يكن لتوجهه من نفسه صحته بل لانه كان من ذوي النفوس
العالية التي ترغب في كمالات هؤلاء النوايح فسرته أن يشبهه بهم ومن هذا التذليل يظهر
مبلغ فضل سمو شيخنا وبعد واقع نظره في استنتاجاته حياه الله

هو شرُّ الألوان لا يلي فيه محرم ولا يكفن فيه ميت ولا تجل فيه عروس فصعب على الرشيد ذلك لما فيه من مخالفة ذوقه وكان القاضي أبو يوسف حاضراً فرأى أن يستدرك غضب الرشيد فقال ولكم النور في السواد فتهاى وجه الرشيد وسُرِّي عنه ومن تأثر المدح في النفوس أو ما يتضمن معنى المدح ما حكي عن رجل كان جاراً لفيروز الديلمي فأراد بيع داره لدين لزمه فلما ساءها وأحضر المشتري الثمن قال البائع هذا ثمن الدار فأين ثمن الجوار فقال المشتري وهل يباع الجوار فقال نعم جوار فيروز يباع باضعاف ثمن الدار وأبى أن يبيعهما بغير ذلك فلما نمي لفيروز خبر معسرة جاره وأنه مع حاجته المال أبى أن يبيع داره بغير اضعاف ثمنها لتشريفها بحجرتة بعث له بضعف ثمنها وقال له بعها على نفسك بارك الله لك فيها (١)

ومثل ذلك ما جرى لابن الجهم العـدوي فإنه باع داره بمائة ألف درهم ثم قال بهم تشترون جوار سيد بن العاص فقالوا وهل يشتري جوار قط قال ردوا عليّ داري وخذوا دراهمكم والله لا أدع جوار رجل ان فقدت سأل عني وان رأيتي رحب بي وان نبت حفتني وان شهدت قربني وان سألتني أعطاني وان لم أسأله ابتدأني وان نابتني جأحة فرج عني فباع ذلك سيد فبعت إليه بمائة ألف درهم

ومن هذا قال بعضهم قد جُلبت النفوس الالوية الروحانية على تحقيق الظنون فيها وتحقيق آمال مرادها من نظرة فاطنة فسدت خلة فكشف مظلمة فدفع شرخجاب، نفعة وأما النفوس التي تكذب الظنون وتخيب الآمال فهي التي غلبت عاينها القوة الشهوية فصنعت بنفسها وتضائلت أمام المجتمع الانساني

ومن تأثر المدح والثناء ما ورد في الأثر وهو ان أعرابياً أطال صلواته فمدحه الحاضرون فلما فرغ قال وأنا مع ذلك صائم قال هذا استزانة لمدح ثم مال إلى صديق له فقال يجب أن أصلي طويلاً وأصوم كثيراً ان لم يكن في رضوان الله سبحانه فلكسب

(١) وحدث مثل هذا في النيلية فان جارية مجوز كان لها بيت صغير تسكنه بجوار قصور عظيمة، ولانا السر دار أقدس فعند ما أمرت به بشيخة الديوانية بجوار قصوره لتكون منزلاً لضيفه الكثيرين أرسل لها أحد عبيده ليبتاع منها دارها بالثمن الذي تريده فقالت معاذ الله أن أبيع جوار مليكي وأنا كل يوم أرقب مروره منها لاسبح الله بوجهه فلما باع ظلمته هذا الجراب سُرَّ سروراً كثيراً وأمر بأن تشاد لها دار جميلة بجوار الديوانية وأن يصرف لها ما تعيش به برفاه إلى آخر عمرها وهذا بعض مالمعلمته من النوادر في الكرم

مدح الناس وثنائهم

ومن لطائف النوادر ما حكى عن الشيخ فارس أحد مشايخ كعب جبيء له بماء
فقال بعض الحاضرين الشيخ لا يشرب من مائي فقال أي وأبي لا أشرب وامتنع عن
الشرب ليلته حتى إذا أمضى به العطش خرج لضرورة وشرب من ماء مطهرته وكان
حاراً فعمل كل ذلك حفظاً لما مدح به من انه لا يشرب الا الماء الذي يعتقد طهوراً
ومن هذا القبيل كان يتوصل الاذكياء الى أغراضهم من طريق المدح والاطراء
فيقولون لمن نال طرفاً من العلم هذا عالم هذا فاضل فيدعوه اطراؤهم له الى تحقيق
أقوالهم باجتهاده حتى يكون بالفعل عالماً فاضلاً ومثل هذا كثير

وعندي أن من يتعذر وعظه وتبذيره الى نقصه لعلو قدره أو ضيق صدره لأحسن
من مدحه بعكس ما هو فيه كأن يقال للغضوب أنت حليم وللبخيل أنت كريم ومدح
أمامه الحلم أو الكرم فان كان ممن فتح الله على قلوبهم كان مدحهم له خير مؤدب أما
اذا كان غيباً فيزداد في غيبه ولا يهتم بما يقال له أو يلقى عليه (١)

روي عن الحسن عليه السلام ان نقل في مجلسه عن معاوية انه قال اذا لم يكن
الهاشمي حواداً والاموي حليماً والعوامي شجاعاً والخزومي تهاها لم يشبهوا آباءهم فقال
الحسن انه والله ما أراد بقوله النصيحة ولكن أراد أن يفني بنو هاشم ما في أيديهم
فيحتاجوا اليه وأن يشجع بنو العوام فيقتلوا وأن يتبه بنو مخزوم فيمقتروا وأن يحلم
بنو أمية فيحبهم الناس

ومن دهاء معاوية في أيام صفين انه لما رأى كثرة مبارزة أمير المؤمنين والفشل
والزكول في أصحابه أو عز عمرو بن العاص ليكتب لابن عباس كتاباً فكتب عمرو
طال البلاء فلا ندري له آسي بعد ألاله سوى رفق ابن عباس

فأجابه ابن عباس رضي الله عنه

يا عمرو حسبك من خدع ووسواس فذهب فمالك في رك الهدى آسي

(١) مما نحفظه عن عظمة شيخنا العظيم حفظه الله أن ما من شاعر وافاه مادحاً الا
وكان يأخذ قصيدته ويحينا قاتلا ان الشاعر يطلب اني أن أكون كذا وكذا فاعني
اللهم على تحقيق ظنون القوم بي وأعني لاجمهم صادقين في مدحي واذا كنا نقرأ
لعظمته أنه قصر عن بيان الحقيقة كان يقول أنا لا أتهمكم لمعرفتي اخلاصكم لي ولسكني أعرف
نفسى وأريد لها السكالم بالاستفادة من كل ما يلقى علي ويلقى الي فهل بعد هذا من كمال؟

ثم كتب له معاوية كتاباً ذكر فيه أنما بقي من قریش ستة أنا وعمرو بن العاص بالشام وسعد وابن عمر بالحجاز وعلي وأنت بالعراق وأنا جميعاً على خطب عظيم ولو بويع لك بعد عثمان لاسرعنا فيه فأجابه ابن عباس برسالة فيها

دعوت ابن عباس الى السلم خدعة وليس له حتى يموت بخداع ويظهر جلياً من هذه القصة ان المدح مخادعة ولكنه لا يؤثر الا في النفوس الضعيفة وأما أرباب البصائر فلا ينخدعون الا من قبيل قريظهم «ان الكريم ينخدع» أي تغلب عليه صفاته العالية فيؤخذ بلطف القول وهو يعلم انه أخذ (١)

وبالمجمل فان كان المدح لذوي النفوس الروحانية والهم العلية فهو ينشطها الى بلوغ الكمالات وان كان يريد المادحون المخادعة فلا ينخدع الا كريم يريد أن يحقق آماله فاصديه أو أحق يعرفه ما يقال فيه فيكذب نفسه ويصدق سواه وبذلك يدخل عليه الغرور والكبر ولعياذ بالله

واعلم كما ان للنفس ميلاً الى المدح وارتياحاً الى الثناء فإياها أيضاً تفر عن الذم والقدح أو ما يتضمن معناه كالتنقيص والتنديد

صاح رجل بالمأمون يا عبد الله فنضب وقال أتدعوني باسمي فقال الرجل نحن ندعو الله باسمه فسكت المأمون وقضى حاجته وأما غضب لانه لم يدعه «أمير المؤمنين» ودعاؤه له باسمه تنقيص ولكن كانت حجة الرجل بالية وعذره مقبولاً بقوله انا ندعو الله باسمه فسكن غضبه وقضى حاجته

ومثل ذلك ما ذكره ابن خلكان في وفيات الاعيان قال لما ولي يوسف بن عمر انقطع عليه ثلاثون ألف ديناراً فحبس في السجن عليها وكان بلال ابن أبي بردة يومئذ محبوباً هناك فقال بلال يا يوسف ان الموكل بمذاب الذين في السجن رجل اسمه سالم ويلقب بزنبيل فإياك أن تقول له زنبيل فانه يكره ذلك ويشدد عليك المذاب تأتي الرجل الى يوسف وعذبه فنسي اسمه وجعل يقول له يا زنبيل اتق الله فأغاظه ذلك وشدد عايبه المذاب ويوسف يكرر عليه القول وهو يشدد لغيظه فلما أخلى سبيل يوسف قابله بلال

(١) ومن هذا القبيل ما يقوله لنا عظمة شيخنا المحبوب عند ما نعرض ببعض من يقصدونه لمطائه ممن يضمرون أذيته ولو أنهم عاجزون دعوهم ودعوني أن أظهر لهم بأن الكريم ينخدع فإنا أحسن اليهم لانهم قصدوني وأنجاهل لؤمهم لانهم أعجز من أن يوصلوا الاذى الى وفي ذلك ما فيه من علو الجناب وعزة النفس

وقال ألم أنك عن تسمية الرجل بزنبيل فقال له وهل أوقعني بالزنبيل غيرك
وانما طبعت النفس على حب المدح لما فيه من معنى الاحتشام والاحترام فاذا حصل
بالفعل كان ذلك أشد تأثيراً كما قيل انه قدم القعقاع بن شور على معاوية فدخل عليه
والمجلس غاص بأهله ليس فيه مقعد فقام له رجل من القوم وأجلسه مكانه فلم يبرح
القعقاع عن ذلك الموضوع يكلم معاوية ومعاوية يخاطبه حتى أمر له بمئة ألف درهم فأحضرت
اليه فجعلت الي جانبها فلما قام قال للرجل الذي أحله محله ضمها اليك فهي لك بقيامك
لنا عن مجلسك وفي هذه الحكاية تنبيه الى ثمرة الايثار على النفس وعلى حسن الوفاء
وبالجملة فحب المدح والاحتشام أمر جلي طبيعي في النفس لما فيها من معنى الربوبية
واعلم أن حب المدح وتلذذ القلب به أربعة أسباب الاول وهو الاقوى شعور النفس
بالكمال وقد سبق وبيننا أن الكمال محبوب وكل محبوب ادراكه لذيد فهمما شعرت
النفس بكمالها ارتاحت واهزت وتلذذت والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها فان
الوصف الذي به مدح لا يخلو اما أن يكون جلياً ظاهراً أو يكون مشكراً فيه فان كان
جلياً ظاهراً محسوساً كانت اللذة به وان لا يخلو من لذة كما يثنى على رجل لطول
قامته أو بياض لونه فان هذا النوع من الكمال ظاهر له يوم ولكن النفس تغفل عنه
فتخلو من لذته فاذا استشعره المادح لم يخل حدوث الشعور به من حدث لذة ولكن
ان كان الوصف المدح مما يتطرق اليه الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء على الرجل لعله
أو ورعه أو جوده الخ فالرجل ربما كان في شك من هذه الكمالات وهو يتمنى أن
يسمعا من أوصاف الناس لها لتجول عنده في عمل اليقين فيتلذذ بها
وتعالم لذة الثناء اذا كان صادراً عن بصير خبير ويفرح بها كفرح التلميذ عند
ما يسمع من استاذة مدحاً لكياسته وأدبه وذكائه وأما اذا صدر الثناء عن يكيه جزافاً
أو عن غير ذي بصيرة فنقل لذته عند المثنى عليه وان كان لا يجرها تماماً
وكذلك ينعض الانسان الدم ويكره التنقيص لانه يشعره بنقصان نفسه والنقصان
ضد الكمال المحبوب فهو ممقوت والشعور به مؤلم ولذلك يعظم الالم اذا صدر الذم من
بصير يثق الناس بقوله كما ذكرنا في المدح
والسبب الثاني ان المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح وأنه مرادله ومعتقد
فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيد وهذه العلة تعظم
اللذة اذا صدر الثناء ممن تسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالمملك والا كابر وتضعف اذا

كان المادح ممن لا يؤبه له ولا يقدر على شيء فان القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر صغير فلا يدل المدح الا على قدرة قاصرة وبهذه العلة أيضاً يكره الذم ويتألم به القاب واذا كان المذموم من الاكابر كانت ذكايته أشد وأكبر

والسبب الثالث أن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه ولا سيما اذا كان ممن ياتفت الى قوله ويعتد بثنائه وهذا مختص بثناء يقع على الملائم فلا جرم كلما كان الثناء أشهر والمثني أجدر بان ياتفت الى قوله كان المدح ألد وكذلك الذم كلما كثرت اذاعته وكان قائله جديراً بالاصغاء فهو آلم للنفوس

السبب الرابع ان المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح الى اطلاق اللسان بالثناء على الممدوح اما عن طوع واما عن قهر فان الحشمة أيضاً الذي ذمها من القهر والقدرة وهذه اللذة تحصل وان كان المادح لا يتقصد في الباطن بمدح به ولكن مجرد تذكيره بغايته على المادح يورثه اللذة وبالعكس يورثه الألم لمجرد تذكيره بنفرة الذي تذمه من يد قدرته

فهذه الاسباب الاربعة قد تجتمع في مدح مادح واحد فتعظم بها لذة الممدوح وقد تفرق فتنقص اللذة بها على قدر نقصها

أما العلة الاولى وهي استشعار الكمال فتندفع بان يعلم الممدوح أن المادح غير صادق في قوله كما اذا مدحه بالنسب وكان وضعياً أو السخاء وكان شحيحاً أو العلم وكان جاهلاً وهلم جرا فنزول حيثئذ من نفسه اللذة التي سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقيّة اللذات الاخرى المعنوية

واذا كان يعلم الممدوح ان المادح لا يتقصد ما يقوله فيه ويعلم خلوه من تلك الصفات التي وصفه بها بطلت اللذة الثانية وهي الاستيلاء على قلبه وتبقى لذة الاستعلاء والحشمة على اضطرار لسانه الى النطق بالثناء فان لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب والهزء بطلت اللذات كلها فلم يشعر أصلاً بلذة لفوات الاسباب الثلاثة وحل محلها الألم « العجب والزهو »

العجب خلق جبلت عليه النفوس قال أبو العتاهية

كل امرء في نفسه أعلى وأشرف من قرينه

وحقيقة العجب عبارة عن هيئة نفسانية تنشأ من تصور الكمال في النفس والفرح

به والركون اليه من حيث أنه قائم به وصفة له مع الغفلة عن قيام النفس الى الغير بكونها

أفضل منه وبهذا التمدد ينفصل عن الكبر اذ لا بد في الكبر أن يرى الانسان لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم زيادة مرتبته على مرتبة الغير فكل متكبر معجب ولا يعكس والفرق بين العجب والتهيه هو أن المعجب يصدق نفسه وهماً فيما يظن بها والتهيه يصدقها قطعاً كأنه متعجب في تهيه ويمكن التفريق بينهما بامر آخر وهو أن المعجب قد يعجب بنفسه ولا يؤدي أحداً بذلك الاعجاب والتهيه يضم إلى الاعجاب الغرض من قدر الناس والترفع عليهم فيستلزم ذلك الاذى لهم فكل تائه معجب ولا يعكس وأما الفرق بين الاعجاب بالعمل والاذلال به هو ان العجب يجعل صاحبه مستعظماً نفسه فقط فاذا أضيف الى ذلك ان له عند الله حقاً وانه منه ذو مكانة حتى يتوقع بعلمه كرامة في الدنيا ويستبعد أن يصيبه مكروه سمي هذا ادلالاً فكأنه يرى لنفسه دالة على الله تعالى وكرامة لديه

وكذلك من يعطي غيره شيئاً فيستعظمه ويتمنن به فيكون معجباً فان استخدم الذي أعطاه عطيته أو اقترح عليه الاقتراحات الشتى أو أنكر تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً

والادلال وراء العجب فما من مدل الا وهو معجب ورب معجب لا يدل اذ العجب هو نتيجة استعظام المرء لنفسه ونسيان نعمة الله عليه بما أوجب اعجابه والادلال هو أن يتبجح المرء على الآخرين بما هو معجب به ثم اعلم أن العجب انما يكون منبثاً عن ميزة يظن صاحبها انها كمال فيفرح بها من حيث انها فيه لا من حيث انها عطية من عند الله تعالى ونعمة يجب شكرها ولو عرف أن ما هو معجب به هو منحة الهية لو شاء سلبها عنه لزال عجبها وعلى هذا فيكون العجب عبارة عن استعظام المرء للنعمة التي هو فيها مع نسيان اضافتها للنعم بها عليه وهو الله عز وجل وهذا هو حقيقة العجب وهو مقدمة الكبرياء ولا يخلو منه طبع بشري الا من عصم الله من ذوي البصائر من الناس ممن تغلب عقله على عواطفه (١)

وأما ضعاف العقول والمدارك فلا تكاد تقع عينك على واحد منهم الا وتراه معجباً

(١) وما تثبته هنا عن عظمة شيخنا المعز الجليل اتنا مع استثنائنا سائر غيبة مولانا عن كل مدح اذا ذكرنا لعظمته بمقتضى واقعة حال تفرد به بالدكاه أو بالفضل أو بالعدل أو بالحلم أو بغير ذلك من المشاهدات الواقعية المحسوسة يبادرنا بقوله انها نعمة من الله تعالى هو مظهرها وبشفع ذلك بحمد الله وشكره عليها تجنباً لمواطن العجب

بنفسه لما يحسبه من مميزاتة أو ما بين يديه سواء في ذلك الجليل والحقير أو الكثير والقليل
حمانا لله وإياك من العجب وجعلنا على نعمه تعالى من الشاكرين
« أقسام العجب »

واعلم أن أسباب العجب بإضافته الى المعجب عديدة أولها اعجاب المرء ببدنه وجماله
هيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وبهاء طلعتة ورخامة صوته فيانفت الى ما فيه من
بعض أو كل هذه المميزات وينسى أو يتناسى أنها نعمة من الله تعالى عليه وأنه معرض في
كل وقت لزوالها عنه واعجاب المرء بهذه المميزات البدنية أكثر وهذا النوع من الاعجاب
يفضي بالمعجب بها الى تنقيص الغير وتلبهم وانغيتهم وذكر عيوبهم بالحق وبالباطل
الثاني العجب بالمال كما قال الله تعالى أخبرنا عن صاحب الجنة اذ قال أنا أكثر منك
مالاً وأعز نفراً . ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله رجلاً غنياً جالساً فقيراً فانقبض عنه
وجمع ثيابه فقال « أخشيت أن يعدو اليك فقره » وما فعل الغني هذا الا اعجاباً بغناه وهذا
العجب أكثر ما يكون بين الملوك في خزانهم والتجار في بضائهم والمزارعين في أراضيهم
والغاوين في لباسهم وخبوطهم ومرابهم فيحتقر غنيهم الفقير ويقول له بلسان الحال ان
لم يكن بلسان المقال أنت مكدود ومسكين وأنا لو أردت لا شريت مثلك واستخدمت من
هو فوقك ومن أنت وما معك وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك وأنا أنفق
في اليوم ما لا تأكله في سنة وكل ذلك لاستعظامه نعمة الله عليه واعجابه بها من غير أن
يلتفت الى أنها نعمة قابلة الزوال

والثالث عجب المرء بكثرة الاولاد والخدم والغلمان والعشيرة والاقارب والانصار
والاتباع كما قال الكفار نحن أكثر أموالاً وأولاداً وكما قال المؤمنون يوم حنين لا تغلب
اليوم من قلة واليه الاشارة بقوله تعالى « فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً
وأعز نفراً »

والرابع العجب بالبطش والقوة كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم
« من أشد منا قوة »

والخامس العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشميين حتى يظن بعضهم ان الناس له
موالي وغبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم وثمره هذا العجب على اللسان التفاخر به
فيقول لغيره يا هندي أو يا أرمني أو يا معيدي من أنت ومن أبوك فأنا فلان ابن فلان ومن
ابن مثلك ان يكلمني أو ينظر الي وما يجري مجراه وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك

عن مثله الرجل اذا كان حسيباً نسيباً الا من عصم الله فذكر القول المنسوب الى أمير المؤمنين عليه السلام

الناس من جهة التمثال اكفاء
وان يكن لهم في أصلهم شرف
يفاخرون به فالطين والماء

والسادس العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدينا والآفته الاستبداد بالرأي وترك المشورة واستجبال الناس المخالفين لرأيه وعدم الاصغاء الى أهل الدراية والاختبار والعلم فيخطيء وهو يظن نفسه مصيباً

والسابع العجب بالرأي ولو كان خطأ قال الله تعالى « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً » وقوله عز وجل « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » ومن هذا الباب قولهم ليس يفهم كلامك من كان كلامه لك أحب اليه من الاستماع منك ولا يستفيد من نصحتك من غلب هواه على رأيك ولا يستفيد من معرفتك من اعتقد من نفسه انه أم معرفة منك وهذا النوع من العجب يمر عنه بالجهل المركب وآفة هذا العجب التماذي بالاغلاط مع تحطئة الغير بما قد يكونون فيه مصيبين

والثامن العجب بالعلم قال رسول الله صلى الله عليه وآله « آفة العلم الخيلاء » فلا يلبث العالم ان يشمر بعزة العلم وينتفخ به ويستشعر بنفسه جماله وكما له فيستعظم قدر نفسه ويستعزى بالناس وينظر اليهم نظره الى الهام السائمة ويستجهلهم وداخله الانتقاد بانه المسلط عليهم وكثيراً ما ترى مثل هؤلاء العلماء ذوي الخيلاء يتوقعون ان يبدأهم الناس بالسلام ويخصوهم بالتحية والاحترام فان بداؤا واحداً منهم بسلام أو ردوا عليه سلامه ببشاشة أو قاموا له أو اجابوا له دعوة حسبوا ذلك صنعة وفضلاً كما يحسبون انه ينبغي لهم ان يترفعوا عن الناس الذين يطلقون عليهم اسم « العامة » فلا يبرون من برهم ولا يزورون من زارهم ولا يعودون من عادهم بل يتجاوزون ذلك الى استخدام من خالطهم وتسخيره في حوائجهم فان قصر في ذلك قصر استنكره وتقصيره كأن الناس سيدهم واجراؤهم أو كأنهم بتعلمهم العلم أسدوا الناس صنائع يجب ان يشكروها ويبروها ويتعبدون لها وبالجملة فما نشأ على وجه البسيطة عالم بحق ان يسمى عالماً الا وحركته عزة العلم وداخله خيلاءه الا نفر من أهل العقل الراجح والنفس الطيبة من يحسبون ما عاوه فضلاً من الله ومنه يشكرونه عليها بنير خيلاء ومن وجد من مثل هؤلاء فهو صديق زمانه فسلا ينبغي ان يفارق بل يكرن النظر اليه عبادة فضلاً عما يتوقع من مجالسته ومذاكرته من جلائل الاستفادة

والناسع المصعب بالعمل والعبادة وليس يخلو صاحبه من رزية الاستعزاز والكبرياء
 وآفة هؤلاء أنهم يرون فرضاً على الناس توفيقهم وتبجيلهم وزيارتهم وقضاء حوائجهم والتوسع
 لهم في المجالس وذكرهم بالوعظ والتقوى ولا يكتفون بهذا بل هم يحقرون من عداهم
 من الناس ويتهمونهم بالكفر والزندقة ويمدون لهم الهلاك في الآخرة قال رسول الله
 صلى الله عليه وآله « إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم » وإنما قال ذلك
 دلالة على أنه مزدرٍ بخلق الله تعالى فمترٍ بالله آمن من مكره وقال النبي صلى الله عليه وآله
 « كفى بالمرء شراً أن يحتقر أخاه المسلم » وكمن البون الشاسع بن مثل هذا العابد المحقر
 للناس وبين من يظلمه لبادته ويرجر له من رحمة الله فوق ما يرجوه لنفسه ?? فالخلق
 يتقربون إلى الله بالذنوب من مثله وهو يتمقت إلى الله بالنزول والتباعد عنهم فما أجدرهم وقد
 أحبروا صلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته وما أجدره إذ ازدراهم أن يهمله الله كما روي
 عن رجل من بني إسرائيل كان يسمى « خليع آل إسرائيل » لكثرة فساده مر
 برجل آخر كان يسمى « عابدة بني إسرائيل » وكان على رأس العابد عمامة تظله فلما
 مر به الخليع قال في نفسه لو جلست إلى هذا لا ابدق برحمتي الله فأتوب فجلس إليه
 فقال العابد في نفسه كيف يجلس هذا الخليع إلي ؟ وأنهره قائلاً قم فأوحى الله إلى
 نبي ذلك الزمان مرهما فليستأنفا عمهما فقد غفرت لخليع وأعمت العابد وفي رواية
 فتحوات عمامة العابد إلى رأس الخليع ومن هذا تعرف أن الله سبحانه يريد من الناس
 قلوبهم فالجاهل العاصي إذا تواضع هيبة لله وذلك خوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه أكثر
 من طاعة العابد المتكبر والعالم المصعب

وكذا روي « أن رجلاً من بني إسرائيل أتى عابداً من قرية ووطي على ركبته وهو
 ساجد فقال العابد انفض فوالله لا يغفر الله لك فأوحى الله إليه قائلاً « أيها المتأله بل أنت
 لا غفران لك » وهذه الآفة تكثر في الأباد الزهاد فإن أحدهم إذا استخف به مستخف
 أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشك في أنه صار ممقوتاً عند الله ولو جرى
 ذلك لغيره من المسلمين لم يستنكر عمله ويستبعد غفران الله له وذلك لمظلم قدر نفسه عنده
 وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب والاعتزاز بالله

وقد ينتمي الحق والعبادة ببعضهم وهو يتحدى من ناله منه غضاضة ويقول سترون
 ما يجري عليه وإذا أصيب بنسبة عرضاً زعم أن ذلك من كراماته وإن الله ما أراد بنسبة
 ذلك الذي أساء إليه إلا شفاء غلبه والانتقام له منه مع أنه يرى الكفار يسبون الله

ورسوله وكثيرون منهم آذوا الانبياء وضربوهم وقتلوه ثم ان الله سبحانه لحكمة يعرفها أهل أكرمهم ولم يعاقبهم في الدنيا بل ربما آمن بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة

ثم ان مثل هذا العابد الجاهل المغرور قد يظن بأنه أكرم على الله من أنبيائه وقد اتقى له بما لم ينتقم لانبيائه من أعدائهم ولعله في مقت الله لاجوابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه

وأسباب العجب كثيرة وأظهرها سببان المدح واعتقاد الانفراد بالكمال أما المدح فانه يحرك في نفس الممدوح العجب . كما روي انه خطب ابن ظبيان في البصرة خطبة أوجز فيها فنأدى الناس من أطراف المسجد أكثر الله لنا . ثم قال لقد كلفتم الله شططاً . وأما اعتقاد الانفراد بالكمال فانه لما حج آدم بعد هبوطه وقضى مناسك الحج بالبيت تلقته الملائكة يهنئونه بحجته وقبول توبته فقالوا برحمتك يا آدم أنا حججنا هذا البيت قبلك بالفني عام فتقاصرت الى آدم نفسه (١)

« العجب يدعو الى التقصير »

والعجب يدعو الى تقصير المعجب بحق نفسه قال أمير المؤمنين عليه السلام « الاعجاب يمنع الازدياد » وسر ذلك ان المعجب بنفسه أو بما لديه من الكمال الادبية والمنوية يظن نفسه قد بلغ الغاية التي ليس وراؤها زيادة مستزيدة يتقاعس عن الاستزادة في طلب الخير لنفسه تقاعداً ليس يمنع عنه الزيادة فقط بل يوقمه في النقصان ومن هذا القبيل ما رواه بعض العلماء اذ سئل قال من يرى انه خيرهم ؟ وذلك لما في هذا الاعتقاد من منع صاحبه عن الاجتهاد وقد قال الشاعر في هذا المعنى :

(١) يرى القاري الكريم العجب المطرب من هذا التفصيل لاحوال العجب بالنفس مما فيه الدلالة الناصعة على أن عظمة ولانا السرمدار أقدس رحي فداه قد درس بنفسه أحوال الناس درساً صحيحاً فكيف ما يحتاج نفوسهم من وسواس العجب أبداع تكييف على ما رأيت هذا وقد جمع عظمته حفظه الله جميع الاسباب الاثلة الى العجب فنزله الله سبحانه عن عيب العجب وفتح بصيرته فرأى العجب بالناس على قبيحة صورته ابراعة المصور الماهر لما امامه من المرئيات فبورك بعظمته التواضع بغير ضمة ووقفنا لتلقى عليه مثل هذه الدروس وتستفيد منها لديننا ودنيانا سبحانه على كل شيء قدبر

من لا يرى نفسه في الناس قاصرة
 عن الكمالات لم يكمل له أدب
 ومن يكن راضياً عن نفسه أبداً
 فذاك غرُّ عن الآداب محتجب
 وقال شاعرنا الانطائي :

أراك تواصل المسعى بمسمى
 خير الناس مجتهداً صبوراً
 كأنك ما علمت بان كنفيت الـ
 موافق وقد حبوهم الكثيراً (١)
 وقال أمير المؤمنين عليه السلام « رب مفتون بحسن القول فيه » أقول طلبا فتن
 الناس بثناء الناس عليهم فيقصر علمهم في اكتساب العلم اتكالا على ما عنده مما أوجب
 الثناء عليه وتهاون العابدين في عبادته اعتماداً على ما يسمعه من الاماديح وهلم جراً
 وأيضاً فان ثناء الناس ينفضي الى اغراء المثنى عليه بالعجب بنفسه ان لم يكن حكيماً
 واعجاب المرء بدعوه الى التقصير

حكى ان أحد نوابغ طلبة العلم مرض يوماً فقال أستاذة آسفاً اذا مات فلان
 ذهب لم كثير وعند ما تعافى بلغه مقالة أستاذة فاعتز بنفسه وترك طلب العلم اكتفاء
 بالقليل الذي عنده فحسر بذلك مستقبه وكان يتقدر ان يكون ماهراً وأشبهه هذه
 الحوادث كثيرة ومشاهدة فلا حاجة الى الاستزادة منها

« الكبرياء »

الكبرياء رأس الشرور ومصدر المآثم وصاحبها معرض دائماً الى كراهة الناس له
 واحتقارهم شخصه والتباعد عن مجلسه مهما كان عظيماً أو وجهياً أو عالماً أو عابداً أو
 غير ذلك من صنوف البشر

حكى أنه أتى وائل الى حبيو النبي فأنطمه أرضاً وأمر معاوية أن يمضي معه فيريه
 الارض ويرضاها عليه ويكتبها له فخرج مع وائل في هاجرة شاورية وشى خلف ناقته
 فاحرقته الرمضاء فقال اردفني فقال لست من ارداف الملوك قال فادفع اليّ نعلك قال
 ما بخل بمنعني يا ابن أبي سفيان ولكن اكره ان يبلغ اقبال اليمن انك لبست نعلي

(١) نظمت هذين البيتين مرتجلاً في يوم قضاء عظمة مولانا المرقد اقدس حياؤه الله
 في النظر بحاجات الناس من شروق الشمس حتى غروبها فكان بحسن لهذا ويكشف
 ظلامه ذلك ويوصي بعلي ويمنع الضرر عن حسين حتى اذا ما دخل مجلسنا الفيناه تعباً
 وصباً فانشدته البيتين وكلم لعظمته من أيام دارنا فاشج الناس بارك الله فيه

ولكن امش في ظل ناقتي وحسبك بذلك شرفاً (١)

وقيل أن هشام بن عبد الملك حبس يوماً الفرزدق في سجن خالد بن عبد الله القشيري فوفد جرير إلى خالد ليشفع فيه فقال له أسرك أن الله قد أخزى الفرزدق؟ قال أيها الأمير والله ما أحب أن يخزيه الله إلا بشعري وإنما قدمت لاشفع فيه في ملا من الناس ليكرن بذلك أشد خزياً فاشفعه ودعا الفرزدق وقال له اني مطلقك بشفاعة جرير فقال الفرزدق واذلاه أسير قشيري وطليق كلبي فبأي وجه أفاخر العرب بمدها بالله أيها الأمير ردني إلى حبي فذلك أشرف لي

والكبرياء بنفوس وضعاء الناس ولا سيما من أصاب منهم نعمة أرسخ ولكن القلة والذلة يمنعان ظهور كبريائهم وفي ذلك قال الشاعر:

مضى ترى الكلب في أيام دولته فاجمل لرجليك أطواقاً من الزرد
واعلم بأن عليك العار تلبسه من عضة الكلب لا من عضة الأسد

ومن ذلك أن عمارة بن حمزة بن ميمون مولى بني العباس كان مثلاً في التيه حتى قيل «أتبه من عمارة» وكان يتولى دواوين السفاح والمنصور وكان إذا أخطأ مضى على خطأه تكبراً عن الرجوع عنه وكان يتول الأصرار على الخطأ أهون علي من الرجوع إلى الصواب وكان قوله هذا كبراً وصانفاً جعله سخريته بين الناس

وافترخت أم سلمة الخزومية امرأة السفاح ذات ليلة بقومها على السفاح وبنو مخزوم يضرب بهم المثل بالكبر والتيه فقال أنا أحضرك الساعة على غير أهبة مولى من موالى يس في أهك مثله فأرسل إلى عمارة وأمر الرسول أن يعجله عن تغيير زيته فجاء على الحال التي وجد عليها الرسول في ثياب ممسكة مزررة بالذهب وقد غلغلت حبيته بالغالية حتى قامت فرمى إليه السفاح بمدن ذهب مملوء غالية فلم يلتفت إليه وقال هل

(٢) أقول بالشيء بالشيء يذكر أو كما قيل وبضدها تدبير الأشياء فان عظمة شيخنا المعز فضلاً عن وداعته في معاملة الأندلس بعرضه والمنتبهين إليه فانه حفظه الله كثيراً ما يتفقدنا بعطفه ولا سيما إذا كنا بخدمته في رحلة صيد أو سفرة حرب وكم من مرة رأيناه ينزع عن كتفه عبائته ليتنكبها أحدهم إليك إذا رآه وقدمه البرد بل كم رأيناه يرفق الركب أكراماً لتابع له وقد ظهرت عليه علامات الاعياء ويأتيه بنفسه متنازلاً للسؤال عن صحته وإذا أردنا أن نمرد حوادث عنايته بنا نحن عبيده الامناء وكيف بهم بكل واحد منا اهتمام الاب الرؤوف بينه لاحتجنا إلى مجلد كبير

تري لها في لحيتي موضعاً؟ فأخرجت أم سلمة عقداً لها ثميناً وأمرت خادماً لها أن يضعه بين يديه فقام وزركه فأمرت الخادم أن يتبعه به ويقول أنها تسألك قبوله فقال للخادم هو لك فانصرف بالعقد اليها فاعطت الخادم فكاكه عشرة آلاف ديناراً واسترجعته وعجبت من نفس عمارة وكان عمارة لا يذل للخائف وهم مواليه وبيته عليهم فنظر رجل الى المهدي ويده في يد عمارة وهما يمشيان فقال يا أمير المؤمنين من هذا؟ قال هذا أخي وابن عمي عمارة بن حمزة فلما ولي الرجل ذكر المهدي الكلمة كالمزح لعمارة فقال عمارة والله أنتظرت أن تقول مولاي فانقض يدي من يدك فتبسم المهدي (١)

(١) وما عطف المهدي على عمارة وتنازله بالتودد اليه وجواب سائله عنه بالشيء الذي يذكر بجانب عهاف عظمة مولانا ولي النعم الشيخ خزعل خان المعظم علينا نحن عبيده ومواليه وعندنا من البراهين على ذلك الشيء الكثير فقد كان عظمته مرة جالساً في حديثه الغناء في الكمالية على كرسي مذهب وكنا نحن أخصاؤه جالسين على سندس العشب تتبادل أطراف الاحاديث الادبية والمطارحات الشعرية في صباح يوم من أيام الصيف والحر لافح الا في ظلال تلك الاشجار الباسقة فجاء أحد الحجاب وقال في الباب أديب من مصر قدم لتأدية واجبات الاخلاص هو محمود أفندي طاعت المصري فقال دعته يدخل ثم استوقفه وقال احضر لنا خمسة كراسي لاخواني هؤلاء فانصرف الحاجب في أمر مولاه وقال لنا لقد اخترتم الجلوس على سندس العشب طلباً لراحتكم ولكن لا أريد أن يدخل علينا هذا الضيف فلا يفتن الى سبب جلوسكم وأنه باختياركم وندبظن أني أحتقر بحالكم وأنتم جلاسي فقلنا عفواً مولاي فان جلوسنا عند قدريك تشريف لنا قال ولكن لا يشرفني وما أنا الا بمقام الوالد منكم والأخ بصحبتكم وهكذا حضرت الكراسي فجلسنا ودخل الضيف فألفانا بين يدي مولانا أعزه الله كالهالة حول القمر والأكام لثمر وعند ما أرفض الاجتماع اجتمع بي طاعت أفندي وقال اني لاغبكم على صحبة هذا الامير الفاضل الذي لم أجد مثل لطفه وعطفه في كل ملوك العرب والعجم

أقول هذا مثال الكثير مما يجريه عظمة مولانا السردار أقدس ارواحنا نداءه على انه حفضه الله يابى الا أن يدعون أبناءه وما نحن الا عبيده الامناء العائشون بنعمته وما قدم أخونا الى زائر من زواره الا وقال «ولدنا فلان» فتأمل أيها القاري الكريم هذا العطف الابوي وقل لنا بالله أو ما خليك بنا ان تفاخر العالمين بهذا العاهل العظيم??

« حقيقة الكبرياء وآفتها »

أعلم أن الكبرياء تنقسم إلى باطنية وظاهرية فالباطنية هي خلق في النفس والظاهرية
أمر لها تتم عنها الجوارح ولذلك إذا ظهرت الكبرياء على إنسان يقال عنه متكبر وإن لم
تظهر يقال في نفسه كبر فالاصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون
إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فإن الكبرياء تستدعي متكبراً ومتكبراً عليه ومتكبراً
به وبهذا ينفصل الكبر عن العجب فإن المعجب بنفسه إذا لم يكن سواه في هذه الدنيا
يظل معجباً أما المتكبر فإذا لم يكن ما يتكبر به ومن يتكبر عليه لما استكبر

ولا يكفي الإنسان أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه
يرى غيره أعظم منه أو في مرتبته فلا يتكبر عليه ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع
ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر بل ينبغي للمتكبر
أن يرى لنفسه مرتبة فوق مراتب غيره من الناس فيستكبر عليهم ويتجبر لأن هذه
العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اتداد وهزة فرح وعزة وجبروت من حيث يصدق
فيه قول الشاعر :

أرى الناس دوني إذ أراني فوقهم ذكاءً وعلماً واعتلاءً وسؤدداً

قال النبي صلى الله عليه وآله « أعود بك من نفخة الكبرياء » ثم إن هذه النفخة
تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمراتها ويسمى ذلك تكبراً فإنه مهما عظم عند
الإنسان قدر نفسه بالاضافة إلى غيره حقر الغير في نظره فازدراءه وأقصاه عن نفسه وأبعده
وترفع عن مجالسته ومواكلته ورأى أن من حق ذلك الغير أن يقوم مائلاً بين يديه
إن اشتد كبره فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلاً للقيام بين
يديه ولا بخدمة عبته فإن كان ذلك يتأفف من مساواته وتقدم عليه في مضائق الطرق
وارتفع عليه في المحافل وانظر أن يبدأه بالسلام وقد لا يجاوب واستبعد تقصيره في
قضاء حوائجه وتعجب منه وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وعظ استنكف
من القبول وإن وعظ عنف في النصيح وإن رُد عليه شيء من قوله غضب وإن علم
لم يرفق بالمتعلمين واستبد بهم وانتهرهم وأمن عليهم واستخدمهم وينظر إلى العامة بطرف
عينه كمنظره إلى السائمة استجهالاً لهم واحتقاراً واشباه ذلك كثير في المتكبرين لا يكاد
يجهلها أحد والعياذ بالله من الكبرياء وأهلها

« في المتكبر عليه »

اعلم أن المتكبر أما أن يتكبر على الله أو على أنبيائه عليهم السلام أو على سائر خلقه وقد خلق الانسان ظلوماً جهولاً فتارة يتكبر على الخالق وطوراً على أنبيائه وأونة على سائر الخلق

فالتكبر على الله وذلك أخف أنواع الكبر لا مثار له الا الجهل المطبق والظغيان والكفر والعباد بالله مثل تكبر نمرود فانه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء وكن ادعى الربوبية كفرعون فانه لتكبره قال أنا ربكم الأعلى اذ استنكف ان يكون عبداً لله لذلك قال تعالى « ان الذين يستنكفون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » وقال تعالى « ان يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » وقال تعالى « واذ قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » والتكبر على الرسل والانبياء عليهم السلام يكون من حيث استعزاز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثلاً وذلك تارة يصرف عن فكر ذلك المتكبر الاستبصار فيبقى في ظلمات الجهل ويمتنع عن الانقياد للحق وهو يظن انه محق برأيه الاخرق وطوراً يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق الذي جاء به الرسل ليتواضع لهم كما حكى الله عن قوهم « أنؤمن ببشر مثلاً » وقولهم « ان أنتم الا بشر مثلاً ولئن أطعتم بشراً مثلكم انكم اذن لخاسرون » وقوله « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو ترى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً » وقالوا « لولا أنزل عليه ملك » وقال فرعون فيما أخبر الله عنه « أو جاء معه الملائكة مقربين » وقال الله تعالى « واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق » وهكذا تكبر فرعون على الله وعلى رساله جميعاً . قال بعض المفسرين قال له موسى آمن وراك ملكك قال حتى أشاور هامان فشاور هامان فقال هامان بينما أنت رب تعبد اذ صرت عبداً تعبد . فاستنكف عن عبادة الله وعن اتباع النبي موسى عليه السلام كبراً وعتواً

وقالت قريش فيما أخبر الله عنهم « لولا أنزل هذا الرجل من القرينتين عظيم » قال بعض المفسرين عظيم القرينتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي اذ قالوا غلام يقيم وكيف بعثه الله الينا ؟ قال تعالى « أهم يقسمون رحمة ربك » وقال الله تعالى « ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » أي استحقاقاً لهم واستبعاداً لتقديمهم . وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله كيف نجلس

اليك وعندك هؤلاء وأشاروا الى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقيرهم وتكبروا عن مجالستهم فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ثُمَّ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ تَعْجِبِهِمْ حِينَمَا دَخَلُوا جَهَنَّمَ إِذْ لَمْ يَرَوْا الَّذِينَ أَزْدَرَوْهُمْ « فَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ » قِيلَ يَعْنُونَ عِمَارًا وَبِلَالًا وَصَهْبِيًّا وَالْمَقْدَادَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ

ثُمَّ كَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ مِنْ مَنَعَهُمْ تَكْبَرَهُمْ عَنِ التَّفَكُّرِ وَالْمَعْرِفَةِ فَجَهِلُوا كَوْنَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُحَمَّدًا وَمِنْهُمْ مَنْ عَرَفُوا ذَلِكَ وَمِنْهُمْ السُّكْرُ وَالصَّلْفُ عَنِ الْإِعْتِرَافِ بِنُبُوَّتِهِ وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِ « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » وَقَالَ « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » وَهَذَا النُّوعُ مِنَ التَّكْبَرِ قَرِيبٌ مِنَ التَّكْبَرِ عَلَى اللهِ وَفِي مِثْلِ خُشْيِهِ إِذْ أَنَّهُ تَكَبَّرَ عَلَى قَبُولِ أَمْرِ اللهِ وَالتَّوَاضُّعِ لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَأَمَّا التَّكْبَرُ عَلَى الْعِبَادِ وَذَلِكَ بِأَنْ يَسْتَعْظِمَ الْمُتَكَبِّرُ نَفْسَهُ وَيَسْتَحْقِرُ غَيْرَهُ فَتَأْتِي نَفْسَهُ الْإِنْقِيَادَ إِلَى مَنْ هُوَ أَرْبَعُ مِنْهُ مِنَ النَّاسِ وَتَدْعُوهُ إِلَى التَّرَفِّعِ عَنْهُمْ فَيَزِدُّهُمْ وَيَسْتَصْغِرُهُمْ وَيَأْتِي مِنْ مَسَاوَاهِمٍ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ دُونَ التَّكْبَرِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهُوَ أَيْضًا قَبِيحٌ مِنْ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ السُّكْرَ وَالْإِسْتِزَازَ وَالتَّعْظِيمَ وَالتَّعَالِيَّ لَا يَلِيْقُ إِلَّا بِالْمَلِكِ الْقَادِرِ سُبْحَانَهُ عِزُّ وَجَلُّ فَأَمَّا الْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ فَمَنْ أَيْنَ يَلِيْقُ بِهِ السُّكْرُ وَالصَّلْفُ لَا جَرَمَ أَنْ الْعَبْدُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ ضَعْفٍ إِذَا تَكَبَّرَ فَقَدْ نَازَعَ اللهُ تَعَالَى فِي خَاصِيَّةٍ مِنْ خَاصَاتِهِ نَعَمْ الْفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الْمُنَازَعَةِ وَبَيْنَ مُنَازَعَةِ نَمْرُودَ وَفِرْعَوْنَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ بَيْنَ شَاسِعٍ وَلِسُكْنِهَا مَعَ هَيْئَتِهَا عَلَى تِلْكَ لِأَنْزَالِ قَبِيحَةٍ فِي نَظَرِ الْعَاقِلِ الْمُتَأَمِّلِ

وَالْوَجْهُ الثَّانِي الَّذِي تَعْظِمُ بِهِ رِزِيلَةَ السُّكْرِ أَنْ يَدْعُو الْمُتَكَبِّرُ إِلَى مَخَالَفَةِ اللهِ تَعَالَى فِي أَوْامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ فَإِنَّ الْمُتَكَبِّرَ إِذَا سَمِعَ الْحَقَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ اسْتَكْفَرَ عَنْ قَبُولِهِ وَتَشَمَّرَ لِجُحْدِهِ وَمَنْ ذَلِكَ مَا تَرَاهُ مِنَ التَّعَنُّتِ فِي الْمُتَنَازِلِينَ بِأَسْرَارِ الدِّينِ إِلَى أَنْ يَتَجَاحِدَا نَجَاحِدَ الْمُتَكَبِّرِينَ وَمَهْمَا اتَّضَحَ الْحَقُّ عَلَى لِسَانِ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَتَى الْآخَرَ عَنْ قَبُولِهِ وَتَشَمَّرَ لِجُحْدِهِ تَعَنُّتًا وَاحْتِمَالًا لِدَفْعِهِ بِمَا يَسْتَطِيعُ مِنْ إِيْهَامٍ وَتَلْبِيسٍ وَمُغَالَطَةٍ وَهَذَا مِنْ أَخْلَاقِ الْكُفْرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ إِذْ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ » فَكُلٌّ مِنْ يَتَنَازَرُ لِلْغَايَةِ وَالْإِقْحَامِ وَلَا يَغْتَمُ الْحَقَّ إِذَا ظَفَرَ بِهِ فَقَدْ شَارَكَ الْكُفْرَةَ فِي هَذَا الْحَقِّ الْقَبِيحِ وَقَدْ يَحْمَلُ

ذلك على الالفه من قبول الوعظ كما قال الله تعالى « واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم »

« في البواعث على التكبرياء »

علمت ان التكبرياء خلق باطني وأما ما يظهر عنه من الافعال والاخلاق فهي ثمرته ونديجته وينبغي ان تسمى تكبراً ويخص اسم التكبرياء بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير والتكبرياء الباطنية لها موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالتكبرياء كما مر بنا فان المرء اذا أعجب بنفسه أو بعلمه أو بعمله أو بماله أو بسبب من اسبابه استعظم نفسه وتكبر.

وأما الكبر الظاهر فاسبابه في المتكبر والمنكبر عليه وفيما يتعلق بغيرها وسبب التكبر في المنكبر هو العجب في النفس وسبب التنكبر في المتكبر عليه هو الحقد والحسد وسبب التنكبر فيما يتعاقب بغيرها هو الرياء.

أما العجب فقد ذكرنا انه يورث الكبر الباطن الموصل الى التنكبر في الظاهر الاقوال والافعال والاحوال قال بعض الحكماء « من أثبت لنفسه تواضعاً فهو التكبر حقاً » ووجهه ان التواضع لا يكون الا عن رفعة فمعنى أثبت الانسان لنفسه تواضعاً فقد أثبت لها رفعة. وقال بعض العارفين المتبصرين مادام العبد يظن ان في الخلق من هو شر منه فهو متكبر حقه الاحتقار من الناس والازدراء.

وأما الحقد فانه قد يحمل على المتكبر من غير عجب كأنني يكبر على من يرى انه مثله أو قوته ولكن قد غضب بسبب سابق فأورثه الغضب حقداً ورسخ في قلبه بنضه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه ان يتواضع له وان كان عنده مستحقاً لتواضع فكم من دنياه لا تطاوعه نفسه على التواضع الاكبر منه لحقده عليه أو بنضه له ويحمله ذلك على رد الحق اذا جاء من جهته وعلى ان لا يستجله وان كان في حقيقته جليلاً حقداً له وبغضاً وأما الحسد فانه أيضاً يوجب البغض للمحسود وان لم يخف المحسود من أذيته وكذلك الحاسد قد يبغض المحسود فيستكف من التواضع له ولو كان في ذلك خيره كعلم علم أو استفادة مال أو غير ذلك تكبراً وبغياً فهو يمرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بانه أهل لان يتواضع له لعلمه أو فضله.

وأما الرياء فهو أيضاً يدع إلى التكبر حتى ان الرجل لينظر من يعلم انه أفضل منه فيكون باعته على التكبر الرياء المجرّد ولو خلا معه وأمن الاشتهار لتواضع له وما تكبر عليه

اعترافاً منه بفضله
 ومن هذا القبيل من ينتمي الى نسب شريف كذباً فإنه يعلم من نفسه انه كاذب
 في دعواه لكنه قد ادعى الشرف رياءً وتكبر به على من نسبه دون النسب الذي ادعاه
 واعلم أن التكبر لا يخفى على صاحبه كالصفرة على الوجه والشذر في النظر والحيلاء
 في المشي بل وتظهر الكبرياء على المتكبر في رنة صوته وهو يتكلم وميله في مشيته وهو
 يبختر ولسان حاله يقول « يارض اشتدي ما عليك أحد قدي » كما تقول الامامة في
 امثالها وبالاجمال يظهر عليه التكبر في كل حركة وسكنة من حركاته وسكناته
 ومن المتكبرين من يجمع كل مظاهر التكبر ومنهم من يظهر عليه بعضها ويختمني
 البعض الاخر من ذلك ان يحب المتكبر ان يقوم له الناس كلما مر بهم ولكنه لا يقوم
 لاحد أو ان يمشي وخلفه آخرون يتبعون خطواته أو ان يزار ولا يزور أو ان
 يستكف من مجالسة غيره ممن يظنهم أقل منه واذا جالسوه يستكف أن يجلسوا في
 جواره ويطلب ان يكون جلوسهم بين يديه الى غير ذلك من المظاهر التي يظهر بها المتكبر
 أمام مواطنيه مما لا يخفى على من يراقبونه كحجر الطايلسان وتل الشارين وانتهاز
 المجالسين الخ الخ

« اللجاج والتعنت »

ومما جُبل عليه الانسان اللجاج والتعنت في المناظرة والجدال وهو خلق يتركب
 من الكبر والجهل معاً ولذلك قيل اللجاج من القحة والنعجة من قلة الحياء وقلة الحياء
 من قلة المروءة وفي الامثال « لجاج صاحبك فحج »
 والسر في ذلك كله هو أن الانسان يشترك بمناظرة في موضع مع غيره وقد يكون
 جاهلاً ذلك الموضوع فينتج منه خصمه ويأخذه بالحجة فاذا كان غير متكبر رجع للحق
 واعتذر فلا يكون في ذلك تعنتاً وأما اذا كان متكبراً فيأبى عليه كبرياؤه ان يعترف
 بالحق فيتسك بالباطل تعنتاً

ومن هذا القبيل الجدال والجدل يكون فيما يختلف عليه من شتات المسائل السياسية
 والدينية والادبية والصناعية حيث ان كل مسألة تقبل الجدال لاختلاف اتمام ومدارك
 الناس فيما يعرض عليهم من المسائل

فان كان المتجادلون طلاب حقائق انتهى الجدال على سلام وعمت الفائدة وان كان
 فبهم من في نفسه كبر و صلف يفضي الامر الى التعنت والاستبداد بالرأي وينتهي

الجدال غالباً بين مثل هؤلاء الى خصام وشقاق وسوء تفاهم ويفضي الى التعيير واظهار العيوب والمطاعن القبيحة

والباعث على الخصام في الجدال هو رغبة المرء باظهار علمه وفضله وتهجمه على اظهار نقص الغير وهما شهوتان باطنيتان في النفس قويتان فيها فاظهار الفضل من قبيل تزكية النفس وهي من مقتضى ما في العبيد من الطغيان ودعوى العلو والكبرياء وهي من صفات الربوبية وأما الرغبة في تقيص الاخرين فهو من مقتضى طبع السببية في الانسان حيث يرغب أن يبطش بغيره ويمزقه تمزيقاً

وهاتان الصفتان مهلكتان وهما تقويان بالمرابطة على الجدل فاذا اعتاده الانسان وساعدته عليه قوة حافظته وشغشقة لسانه فأثني عليه الناس لاجل ذلك وصاف لهم قبولاً حسناً ووجد من وراء ذلك اعزازاً اجتمع عليه سلطان الغضب والكبرياء والرياء وحب الجاه والتعزز بالنضل وآحاد هذه الصفات المهلكة تشق مجاهدتها فكيف بمجموعها وفي ذلك قلنا :

وجاهد اذا جادلت غيرك رغبةً باظهار حق بدنع الغي بالمهدي
وحاذر اذا ما حجبك الخصم ان تكن على العنت في اخفاء حق لند هذا
وكن بالذي ما أنت تجهل علمه كمستر شدي أو ما تعلمت مرشداً
بذاك تنجو من هوان تكبر وتكسب اعجاب الامام مؤكداً
وقال شاعرنا الانطاكي يوماً وقد ضاق صدره عن محاجج مبتدئ :
علام تنالي برأيك جهلاً فتأني الصحيح وترضى الخطأ
فقف يا ابن ودي معي ههنا فما انا راض بنقل الخطأ
« علو الهمة »

ومن خواص ذوي النفوس الروحانية علو الهمة وهو خلق مختص بالانسان فقط وأما سائر الحيوان فلا أثر لعلو الهمة فيه وذلك اذ يتحرى كل نوع منها الفمل بقدر ما في طبيعه وعلى مدى استطاعته وقد قال الله عز وجل « لا يكلف الله نفساً الا وسعها » وقال أمير المؤمنين عليه السلام « قدر الرجل على قدر همته ، وصدقه على قدر مروئته ، وشجاعته على قدر أنفته ، وعفته على قدر غيرته » وعلى هذا فالحر الكريم لا يقنع من شرف الدنيا مما انبسط له بل يطلب المزيد وينظر الى ما هو أسنى وأسمى وأرفع منزلة ومن الشواهد لهذا المعنى أن موسى الكليم عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام

عند ما كلم الله سبحانه سأله النظر اليه أي انه ما اكتفى بشرف مخاطبة الحضرة الالهية بل طمع الى ما وراء ذلك من النظر الى الانوار القدسية استدلالاً على أن الحرّ الكريم لا يقنع بمنزلة، مما كانت عالية وقد حاز عليها الأوطم بما هو فوقها وأشرف منها فكان نفسه أشبه بشعلة نار تأتي الأ أن تشع وترتفع وقد قال في ثلثها أبو الطيب المتنبّي:

إذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرامها الاجسام

وقال أيضاً :

لولا المشقة ساد الناس كلهم فالجود يفقر والاقدام قتال

وقلنا في هذا الباب :

من هان هان عليه أن يعيش بلا جاه وعلم وما غير محترم
ومن سمت نفسه لا يرتضي أبداً هوناً وهل يرتضيه صاحب الهمم
فعيش عزيزاً نديهاً وافر الكرم أو مت شرباً حميداً ذكر والشيم

وقال شاعرنا الانطاكّي :

لا تشفقوا لشبابي أن يضيع سدىً دون المادي إذا ما عزّ مطالبها
فانفس ان عظمت أعيت مطالبها وأتعبت رهبها من حيث يتعبها

فعلوا الهمة خلق موجود في كل انسان الا أن الموانع التي تمنعه عن مقصوده تخيفه من عواقب الامور وقد قيل لابي مسلم الخراساني في صباه نراك تنظر طويلاً الى السماء كأنك تسترق السمع أو ترتفع نزول الوحي عليك قال لا هذا ولاذاك ولكن لي همة عالية ونفس تتطلع الى المعالي نأنا بين عيش كعيش الهمج الرطاع وحال متناهية في الارتفاع فقالوا له ما الذي يشفي علتك ويروي غلتك قال الملك قالوا فاطلب الملك قال الملك لا يطلب هكذا قالوا فما صنع وأنت تذب حمرات وتكاد تموت كمدأ قال سأجعل بعض عقلي جهلاً وأطرب به مالا يطلب الا بالجهل وأحرس بالباقي بالبحرس الا بالقل فأعيش بين تدبير ضدين فان الخمول أخو المدم والشهرة أخذت الوجود تقول وبمثل هذه الهمة العالية بلغ أبو مسلم ما بلغه من بعيد الامال ونقل الخلافة من بني أمية الى بني العباس بسعيه اذ لم يعرف الكلال

« الحياء والخبجل »

ومن ثمرات الروحانية الحياء والخبجل وهما من خصائص الانسان لا يوجدان في غيره من الحيوان وأول ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان الحياء قال بعض الحكماء

« الحياء انقباض النفس عن القبائح » وهذا أحسن تعريف له ومتى قصد به الانقباض عن الجرأة فهو ممدوح بالصبيان والنساء وأما اذا كان انقباضاً عن القبائح فهو ممدوح لكل انسان

وأما الخجل فخيرة تلحق النفس لفرط الحياء وتكسبها عن الاقدام والجرأة وهو محمود في النساء والصبيان ويذم في الرجال وقد قيل في الامثال « الحياء للرجال يكسب الفقر والمحمول »

و ضد الخجل الفحمة وهي مدمومة بكل انسان وتعريفها جريرة المرء على غيره بالحق وبالباطل وحققتها لحاج النفس في تعاطي القبائح وقد قال في ذلك الشاعر :

صلاية الوجه لم تغلب على أحدٍ الا تكامل فيه الشر واجتمعما
وقلنا في هذا الخلق لواقعة حال :

عجبت لمن يلقى الانام بلا حياء ويذكر فيما بينهم شر ما عمل
نخوراً بأثام أتاها سفاهة وجاء يباهي الناس فيها بلا خجل
ألا ان من يأتي انفجور يسرها عن الناس خوف اللوم والهون ان عقل (١)
والحياء خلق مركب من جين وثقة فلا يكون المستحي فاسقاً ولا الفاسق مستحياً
لتنافي اجتماع العفة والفسق وقلمما يكون الشجاع مستحياً والمستحي شجاعا لتنافي
الجين والشجاعة

وأسباب الحياء كثيرة وأشدّها تأثيراً في الانسان سببان هما الامل والاستمظام أما الامل فقد قيل من أمل أحداً هابه قال الباقر عليه السلام « من أمل رجلاً هابه ومن

(١) ارنجل عظمة مولانا الشيخ المعز حفظه الله هذه الايات في أحد مجالسه حيث وفد عليه أحد اشرف بغداد وأخذ يقص على مسامعه الكريمة الكثير من الاثام التي آتاها في زيارته أوروبا وكان عظمته برحابة صدره يسمع حديث نزيله وهو غير راض طبعاً عنها حتى اذا انصرف مال الينا وقال أندرون ما كنت أفكر والرجل يقص قصته ?? قننا لا قال كنت أنظم أبيات ورواها فعجبنا لبداهة عظمته ولما رمى اليه بانشادها لنا نحن عبيده فقد أراد عظمته حفظه الله أن يظهر لنا انه لم يكن راضياً عن حديث نزيله وأن يؤدبنا أيضاً بها اذ أن عظمته كان ولا يزال خير مؤدب لنا على هذا النحو أي انه أطال الله بقاءه ينهز كل فرصة لتثقيف عقولنا بالمواعظ الواقعية من غير أن يواجهنا بشديد النصح مباشرة وهذه الميزة هي من خصائص عظمته التي امتاز بها

قصر عن شيء غابه « وقال الهيثم « ربما يبلغني عن الرجل يفتاني فاذا ذكر استغفاني عنه فيهن علي ذلك « وأما الاستعظام فان الانسان متى ما استعظم أحداً استحي منه ولولم يكن بحاجة اليه فيكبر في نفسه أن يطلع على عيوبه ولذلك لا يستحي من الحيوان الغير الناطق ولا من الاطفال الذين لا يميزون ولكنه يستحي من الملك أكثر مما يستحي من الصعولك ومن العالم أكثر مما يستحي من الجاهل ومن الجماعة أكثر مما يستحي من الرد

والذين يستحي منهم الانسان ثلاثة هم البشر ونفسه والله عز وجل أما البشر فهم أكثر من يستحي منهم الانسان وذلك خوف تشهيرهم به فيحطون من قدره في ذكر سيئاته ثم يستحي من نفسه وذلك اذا كان له ضمير حي يربنحه على سيئاته أما اذا لم يكن له ضمير حي يوبنحه فلا يستحي منها وأما حياؤه من الله فهو اذا كان ذا دين يرجو الثواب ويخاف العقاب أما اذا كان ضعيف الايمان فلا يستحي من الله فيما يفعل من الموبقات في الخفاء قال رسول الله صلى الله عليه وآله « استحيوا من الله حق الحياء » وقال سبحانه وتعالى « ألم تعلم بان الله يرى » على ان العبد اذا علم ان ربه يراه استحي من ارتكاب الذنب ورثله بعض العلماء عما يتولد منه الحياء من الله تعالى فقال « ان يرى العبد آلاء الله ونعمه عليه ويرى تنصيره في شكره » فان قال قائل فما معنى قول النبي صلى الله عليه وعلى آله « من لا حياء له لا ايمان له » قلنا له ان الحياء أول ما يظهر من امارة العقل في الانسان والايمان آخر ما يظهر منها ومن الخصال أن يحصل على المرتبة الاخيرة من امارة العقل من غير أن يحصل على المرتبة الاولى

ومن ثمرات الخجل الحصر في المنطق فان كثيراً ما يحصل ذلك للانسان اذا تكلم في جمع من الناس أو وقف خطيباً بينهم

روى أبو الحسن المائني قال سعد ابن لبيد بن أرطاة المنبر فلما رأى الناس حصر فقال الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويستقيهم . وصعد روح بن حاتم المنبر فلما رأى الناس قد رشقوه بأبصارهم وصرخوا اسماعهم نحووه قال نكسوا رؤوسكم وغطوا أبصاركم فان المنبر أول مركب صعب فإذا يسر الله عز وجل فتح قفلاً ثم زل . وخطب مصعب ابن حيان أخيراً مقاتل بن حيان خطبة نكاح فحصر فقال لفتوا موتاكم لا اله الا الله فقالت أم الجارية عجل الله موتك ألهذا دعوناك ؟

ومن ثمرات الحياء المنع من القبيح فقد جعله الله في الانسان

عمسا تنزع اليه نفسه من الموبقات فلا يكون كالبهيمة ومن كساه الحياء ثوبه لم ير الناس
عبيه قال الشاعر :

لانسال المرء عن خلافه في وجهه شاهر من الخبر
وقال آخر :

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها الا الحياء
اذا رزق الفتى وجهها وقاحاً تغلب في الامور كما يشاء
وقلنا لواقعة حال :

لا تبعجوا لفلان في مساوئه ألم تروه وماء الوجه ند نضبا
من لا حياء له لا دين يمنعه عن المساوي فيأتي الشر وانثلبا
وقال شاعرنا الانطاكي لواقعة حال : (١)

دعسه على بادي سفاهته يسب الصالحين بلا هدى وحياء
أو ترنجي من مثله خيراً وها هو عاكف جهراً على الصهباء
« العفة »

ومن ثمرات الروحانية العفة فمن غلبت روحانيته عليه كان غفياً بطبيعته زاهداً
بالشهوات على أنواعها ومعنى العفة بالحصر هو ان يعف الانسان عمسا في يد الغير من مال
وجاه وعرض وكلها محمودة وأمجدها التوقف عن الزناه

وصف اعرابي امرأة طرفها فقال مازال القمر يرينها فلما غاب ارتنيه فنيل فما
كان ينسكما قال أقرب ما أحل الله مما حرم إشارة في غير بأس ودنو من غير مساس
وأشد الرضي الموسوي رضي الله عنه :

بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى يلفنا الشوق من فرع الى قدم
وبات باسم ذاك الثغر يوضح لي مواقع اللم في داج من الظلم
وأحسن منه مطابقة لهذا المقام قوله رحمه الله :

خلونا نكنات عفة وتعففاً وقد رنعت في الحي منا الموانع

(١) كنت مرّة في حفلة عرس في البصرة فاذا بسفيه من ذوي اليسار قد امتلا
رأسه بيخار العقار فجعل يتطاول على الصالحين الاخير حاول أحدهم ان يسكته بصفعة
كف فاعترضته بهذين البيتين وفي اليوم التالي نمي الخبر لعظمة ولي النعم روجي فداه
فمره من عبده هذا التوسط الذي حال دون اتساع الشر في صنع ذلك الجاهل الغر

سلوا مضجعي عني وعنهما فانتا
وقلنا في هذا المعنى :

أتنتني وقد أرخى الظلام سدوله
وبتنا كما شاء الغرام على هوى
والم يك لي غير العفاف رقيب
والم أجن من ذنب عليه أتوب
وقال شاعرنا الانطاكى :

خلوت بجمل لا أخاف مراقباً
ضممت بها قدأ لقد أخجل القنا
بليلة أنس لبت طالت مدى الدهر
يميل علي والهوى بيننا عذري
وأحييتها حتى الصباح على صفا
وليس بنا غير التعفف والطهر
وشعر العرب في هذا الباب كثير
وعندي ان أكثر الشعراء يدعون العفاف
دعوى لكيلا يدخلوا تحت حد الزناء أو أنهم في كل واد يهيمون ويقولون مالا يفعلون
والله اعلم

ومن نوادر ما يروى ان خارجياً نزل يوماً على بعض اخوانه مستتراً من الحجاج
فمشخص المضيف لبعض حاجاته وقال لزوجته يا ضيا أوصيك خيراً بضيفي هذا وكانت
من أحسن النساء وجهاً فلما عاد بعد شهر قال لها كيف كان ضيفك؟ قالت ما اشغله
بالعمى عن كل شيء وكان الضيف قد أطبق جفنيه فلم ينظر الى المرأة ولا الى منزلها
الى ان عاد زوجها

ومثل هذا ما يروى لمجنون ليلي العامرية انه اجتمع معها ندخل زوجها عليهما بقعة
فادخلت المجنون ما بين جلدها وثوبها الى أن خرج زوجها فأخرجته فسئل المجنون بعد
ذلك ما رأيت من محاسن ليلي؟ فقال والله دخلت أعمى وخرجت أعمى
«الوفاء والصدق»

ومن ثمرات الروحانية الوفاء وهو ملكة نفسانية تنشأ من لزوم العهد كما ينبغي
والبقاء عليه ما طال العهد والصدق ملكة تحصل من لزوم الاقوال المطابقة للواقع
والرغبة في تجنب الاكاذيب وهما فضيلتان داخلتان تحت فضيلة العفة ملازمتان لها
قال الشاعر :

كمال الفضيلة صدق الحديث
وستر القبيح عن الشامتينا
وقلنا في الصدق :

تجنب الكذب واعلم انه سبب
الى الهوان وكره الله والناس

ولا لزم الصدق تظفر في معزته ولا تهببت على همم : رسواس

وقلنا في الوفاء :

كن كالسموأل في حسن الوفاء اذا رمت الفخار وحب الناس والشرفا
وأيما كرم الاخلاق أجمعها شهيم لآخوانه بالملكومات وفي
وقال شاعرنا الانطاكي :

علمتني يا عميد الناس أجمعهم حسن الوفاء وصدق القول والعمل
لما رأيتك في صدق المقال مع الـ وفاء قد بت فينا مضرب المثل (١)

وقال الاحنف بن قيس « خصلتان لا يجتمعان في انسان الكذب والمروءة »
فان المروءة تبهجة روحانية ومن ثمراتها الصدق والوفاء والحياء والعفة فلا يمكن ان
تكون مع اضدادها وأهمها الكذب على حد قول الشاعر :

لي خيلة فيمن يسمم وليس في الكذاب حيلة
من كان بمخلق ما يقو ل خيلتي فيه قلبه

وبعد فكل خلق حسن فهو من نتائج المروءة والمروءة نتيجة الروحانية المودعة
في الانسان فيقوى كل خلق حسن في الانسان بقوة روحانيته وبضعف بضعفها
ومن ثمرات المروءة الايثار على النفس مع الحاجة قال الله تعالى « ويؤثرون على
أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » قيل أن هذه الآية الشريفة نزلت في رجل من الانصار
أضاف رجلاً نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يجد عنده شيئاً فسار به الى
منزله ووضع بين يديه طعاماً وأمر امرأته باطناء السراج وجعل يمد يده مع الضيف
يوحمه انه يأكل معه وهو لا يأكل حتى استوفى الضيف كفاؤه فلما أصبح قال رسول
الله صلى الله عليه وآله « لقد أعجب الله عز وجل من صنيعكم مع ضيفكم » وقيل في
سبب نزولها انه أهدي لبعض الصحابة رأس مشوي وكان مجهوداً فوجه به الى رجال

(٨) أنشدت عظمة، وولاي المعز من نجلاً هذين البيتين في مجلس جرى فيه ذكر أحد
ولاية البصرة بمعرته العلية بمعرض ذم وكان ذلك الوالي في بدء عهده من المنتمين
لعظمته المتجيبين اليه ثم لجهل منه وحماقة بطبعه قلب لعظمته ظهر الجحش فكان ذلك
وبلا عليه أما عظمة مولانا أعزه الله فأبى ان ينسى تودد ذلك الوالي لعرشه وكان يأبى
دائماً رجم ذمه وهو يقول « ان الحسنات يذهبن السيئات » فأنا لا أنسى لذلك
الوالي تودده اليّ وان خطاه الاخير قد لاقى فيه جزاءه فحسبه ما لقي وعلينا أن نعفو

فتداولته تسعة أنفس ثم عاد الى الاول فنزلت هذه الآية بسبب ذلك
وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بني النضير للانصار
« ان شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة وان
شئتم كانت لكم ولاموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة » فقالت الانصار « بل نقسم
لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها » فنزلت هذه الآية
وقيل نزلت في سبعة عطشوا في يوم أحد فخفي بئاء يكفي أحدهم فقال واحد منهم
فأول فلان وهذا أحاله على الثاني حتى طيف به على السبعة وما تواظبوا ولم يشرب
واحد منهم فأنى الله سبحانه عليهم

وقيل نزلت في رجل جاء رسول الله صلى الله عليه وآله فقال أطمعني فاني جائع
فبعث الى أهله فلم يكن عندهم شيء فقال من يضيفه هذه الليلة فأضافه رجل من الانصار
وأنى به الى منزله ولم يكن عنده قوت صبيانه فباتوا جوعاً وجعل المضيف يمزق لسانه
لضيف رسول الله فظن الضيف انه يأكل معه فلما أصبحا غدوا الى رسول الله فنظر
الى الانصاري وتبسم وتلا هذه الآية

هذا ما قيل والصحيح أن الذي أضاف الضيف وترك صبيته ينامون على الطوى
وأطفا السراج هاعلي وفاطمة عليهما السلام ذلك ما رواه ثقات المحدثين وكبار فسرى القرآن
وأشبه هذه الحوادث في العرب كثيرة وهم أهل البر والكرم يؤثرون ضيوفهم على
أنفسهم ولو كانوا على خصاصة ولو أردنا أن نستقصي الروايات والتخصص من هذا التذييل
لشاق بنا المجال بل لنا وللقصص فان كل من زور العرب ويتجول في ديارهم يرى
من المروءة والايثار على النفس ما لا يراه في العالم أجمع

ومن الطرف ما جاء عن الايثار على النفس حديث حذيفة المدوي قال انطلقت يوم
الربيع أطلب ابن عم لي ومعني شيء من ماء وأنا أقول ان كان به رمسق سقيته منه
ومسحت وجهه بالباقي فلما وجدته أشرت اليه أن أسقه فقوال لي ابن عمي انم واذا
برجل يقول أه فأشار اليه هشام أن انطلق اليه ففونه فاذا هو قد مات فرجعت الى
هشام فاذا هو أيضاً قد مات نقول وانها لمروءة محمودة ونفى الله الجميع الى التعلي بها

﴿ الخاتمة ﴾

هذا ما أوردناه عن القوى الشهوية والغضبية والروحانية ونحسبه كافياً لتقريب
حقائقها من الافهام واننا نختم هذا المورد في بيان أمرين أولهما فيما يعم النفس البشرية

ولا اختصاص له بقوة من القوى الثلاثية والثاني في بيان ما يؤثر في نفس الانسان وهي أمور سبعة ستأتي مفصلة ان شاء الله تعالى وهاتين ذانبدأ في بيان الامر الاول ونفرعه تقريباً يجمع بين الفائدة والفكاهة على النحو الذي رآه الفارسي الكرم
« الطبع والتطبع »

قال بعضهم ان الاخلاق لا تتغير اذا كانت طبعاً في الانسان لا تطبعاً واستدل على ذلك بأمرين أحدهما أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر فكما أن الصورة الظاهرة الحقيقية لا يمكن تغييرها فلا بصير القبيح جميلاً والنصير طويلاً وكذلك الخلق الباطن يستحيل تغييره ولا سيما اذا كان خالقاً بغير تخلق وطبعاً بتطبع

والثاني أن حسن الخلق يتمع الشهوة والنضب وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع ولذلك اذا لم يكن للانسان من داخله خلق حسن يحول دون غضبه وشهوته فالاشتغال في تأديبه تضيق للزمان بغير فائدة على حد قول الشاعر :

لا تنتهي النفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

فالملطوب اذن من الانسان أن يتطبع على نفسه خط التماذي في طاب الخلوذط العاجلة من نفسه اما أن يتطبع عليه غيره بوظفه وتأنيبه فذلك ضرب من ضروب المحال ولا تريد بهذا نكران فائدة الوصايا والوظف والنصح كلا فان هذه وتلك وجدت لمعاونة الانسان على ردع نفسه وتلطيف شروبه بتبنيها اليها وعليها يترتب الحسن والقبح والثواب والعقاب ولذلك قيل « من أنذر فقد أعذر » وقال الله تعالى « وذكروا ان نعمت الذكري »

وأما ما نذهب اليه من تغيير الخلق وعدمه فالي ما يذهب اليه جالينوس من القول بالتفصيل بان الناس على ثلاثة أقسام قسم طبع على الخير فلا يتغير طبعه الى الشر وقسم طبع على الشر وهؤلاء كثيرون ولا يتغير طبعهم الى الخير ما دامت النفس أمارة بالسوء وقسم ثالث طبع أصحابه بين الخير والشر وهؤلاء اذا حسنت تربيتهم وكثر نصحتهم وارشادهم ووعظهم رجونا الخير من تقويم أودهم واصلاح ما فسد من أخلاقهم ومن شواهد هذا المذهب ما نقل عن ارستطاليس حكيم الروم قال « نقل الطباع من ردي الاطباع شديد الامتناع » وأخذ المتنبى هذا المعنى فنظمه بقوله :

براد من القلب نسيانكم
 وقلنا نحن أيضاً في هذا المعنى :
 وجارية أوفيتها الحب صادقاً
 فهل خلق فيها النور ولا ترى
 وقال ارسططاليس « تثير الافعال التي هي غير مطبوعة أشد انقلاباً من الريح
 الهبوب » ونظم المتنبي هذا المعنى بقوله :
 واسرع أفعالا أردت تغييراً
 وله في هذا المعنى أيضاً :
 كل امرئ راجع يوماً لشيمته
 وان نخرق أخلاقاً الى حين
 وله أيضاً :
 ومن يتدع ما ليس من خيم نفسه
 وقال صالح بن عبد القدوس :
 والشيخ لا يترك أخلاقه
 اذا ارعوى عاد الى جهله
 وقلنا في واقعة حال :
 لانلوموا خائناً ملكه
 فطبعه قد ساقه للخنا
 وقيل سأل بعض الملوك وزيره هل الادب يغلب الطبع أم الطبع يغلب على الادب
 فقال الوزير بل الطبع فوق التطبع ثم ان الملك اراد افحام وزيره فاستدعى مائدة
 (١) وسبب نظم هذين البيتين وأنا في خدمة عظمة مولانا ولي النعم الشيخ خزعل
 خان المعظم هو أن رجلاً ربي في نعمة عظمته وعاش في ظله عهداً طويلاً ثم اغراه عدو ليثم
 فانضم اليه وانقلب على ولي نعمتنا ونعمته انقلاباً أصابه شره ورجع بعد حين مستغفراً
 لحظيرة ولي النعم فقابلته عظمته كما دته بالرحمة والغفران وأبى أن يذكر له خيائته ولو على
 مجرى العتاب ترفعاً من عظمته ومبالغة بكرم أخلاقه حفظه الله وكانت حاشية ولي النعم
 حفظه الله تسكت من لوم هذا الانسان بل شبه الانسان وكان مولانا كلما سمع من يعرض
 بهذا الرجل يسكته الى أن كثر المرصون فأنشدنا عظمته في أحد مجالسه الزاهرة هذين
 البيتين الدالين على غاية الغايات في مكارم الاخلاق

وآبى الطباع على الناقل

وبالغت في اكرامها وهي نافرته

تناسب في أخلاقها المتناشرة

وقال ارسططاليس « تثير الافعال التي هي غير مطبوعة أشد انقلاباً من الريح

الهبوب » ونظم المتنبي هذا المعنى بقوله :

واسرع أفعالا أردت تغييراً

وله في هذا المعنى أيضاً :

كل امرئ راجع يوماً لشيمته

وان نخرق أخلاقاً الى حين

ومن يتدع ما ليس من خيم نفسه

وقال صالح بن عبد القدوس :

والشيخ لا يترك أخلاقه

اذا ارعوى عاد الى جهله

وقلنا في واقعة حال :

لانلوموا خائناً ملكه

فطبعه قد ساقه للخنا

وقيل سأل بعض الملوك وزيره هل الادب يغلب الطبع أم الطبع يغلب على الادب

فقال الوزير بل الطبع فوق التطبع ثم ان الملك اراد افحام وزيره فاستدعى مائدة

(١) وسبب نظم هذين البيتين وأنا في خدمة عظمة مولانا ولي النعم الشيخ خزعل

خان المعظم هو أن رجلاً ربي في نعمة عظمته وعاش في ظله عهداً طويلاً ثم اغراه عدو ليثم

فانضم اليه وانقلب على ولي نعمتنا ونعمته انقلاباً أصابه شره ورجع بعد حين مستغفراً

لحظيرة ولي النعم فقابلته عظمته كما دته بالرحمة والغفران وأبى أن يذكر له خيائته ولو على

مجرى العتاب ترفعاً من عظمته ومبالغة بكرم أخلاقه حفظه الله وكانت حاشية ولي النعم

حفظه الله تسكت من لوم هذا الانسان بل شبه الانسان وكان مولانا كلما سمع من يعرض

بهذا الرجل يسكته الى أن كثر المرصون فأنشدنا عظمته في أحد مجالسه الزاهرة هذين

البيتين الدالين على غاية الغايات في مكارم الاخلاق

الشراب وأحضر سنابير بأيديها الشموع المضاءة فوقفت حوله وكانت قد تطبعت على ذلك وقال للوزير أنظر خطأك في قولك الطبع يغلب الادب فقال الوزير أمهاني يامولاي الى الليلة التالية قال أمهنتك فلما كانت الليلة التالية جي بمائدة الشراب وأقبلت السنابير بشموعها وفي الحال أفلت الوزير من كنه فأراً كان قد أحضرها معه فلما رأته السنابير رمت الشموع وتبعته الفأرحتى كاد البيت ببحرق فقال الوزير أنظر أيها الملك كيف ان الطبع يغلب الادب وأنشد :

إذا كان الطباع طباع سوء
فلا أدب يفيد ولا أديب
وقال أحد الشعراء :

ظلمت امرءاً كلفته غير طبعه
وهل كانت الاخلاق الاغرازا
وقال شاعرنا الانطاكي :

طبعت على الوفاء فلست أنسى
جميلة ما جفت دلاً ولها
فان أوفيت في ودي فطبع
بنفسي اني أشقى وأهوى

وعن حماد الراوية قال كانت عتبة بنت عفيف وهي أم حاتم أعظم الناس سخاءاً وأكثرهم عطاءاً فلما أسرفت على نفسها وأضر بها جودها حبسها اخوها في بيت سنة يطعمونها قوتها ولا يمكنونها من مالها وكانت موسرة ثم أخرجوها بعد السنة وهم يظنون انها قد بلغ بها الادب ودفعوا اليها صرة من مالها فأتتها امرأة من هوازن فأعطتها الصرة وأنشدت :

لعمرى ليوماً عضتني الدهر عضّة
فأليت ان لا أمتع الدهر جائعاً
فقولوا لمن قد لامني اليوم فاعفني
وان أنت لم تفعل فعوض الاصابعا
فما مآرون اليوم الا طبيعة
فكيف بتركي يا ابن أمي الطبايعا

وقيل لما مات حاتم الطائي أراد أخوه أن يتشبه به في الجود فقالت له أمه لا تعب بما لاتاله فقال وما يعني وقد كاشقبي من أمي وأبي قالت اني لما ولدته كنت اذا أردت رضاعه أتي وامتنع حتى آتبه بمن يشاركه في الثدي الاخر وكنت أنت اذا أرضعتك ودخل علينا صغير بكيت حتى يخرج وما أحسن ما قاله المتنبي الماماً بهذا المعنى :

وكل بري طرق الشجاعة والثدى
ولكن طبع النفس للنفس قائد
وقال أمير المؤمنين عليه السلام « اذا قوي والد في عمله حركته ولايته أعلى حسب ما هو مركزه في طبعه من الخير والشر » وأنت تعلم ان الطبع يبعث على الخير والشر

ولكن المانع لظهورها في الانسان أما الضعف وعدم القدرة أو الخوف من تحمل التبعة كما قال أبو الطيب المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فان تجرد
ذا عفة فلعله لا يظلم
وكاقلنا :

اذا شمت من في طبعه الخير ساكتاً
وشمت الذي في طبعه الشر ساكتاً
فذاك لضف أو تخوف محنة
لقد ركا طبع الفقى فيه كامنا
وقال أمير المؤمنين « اذا كان في رجل خلة رائعة فانتظروا منه اخوانها فقد تكون
فلنة » مثال ذلك ان ترى انساناً بسيطاً وقد صدرت عنه خلة تروحك وتعجبك اما لحسنها
أو لقبحها فلا تعجل بالحكم عليه بل انتظر منه اخوانها لان طبيعته الباطنية التي حر كنهه
على عمل ما أعجبك أو راعك لا بد أن تخرجك الى فعل ما يناسبها ماذا الا فيكون عمله
المفرد اما بالصدفة أو بدافع مخصوص قد يكون ضد طبيعته

وقد يصادف الانسان أن يعمل عملاً على غير استعداد منه قبيحاً كان أو حسناً فاذا
وجد ما يشجعه على مثل عمله صار له ذلك العمل عادة اما تعود عليه باخيراً أو بالشر من
ذلك ماروي عن الاخنف انه حلم يوماً على سفينة تجرأ عليه فصبه فقيل له في ذلك فتبسم
وقال دعوه فاني قتته بحلمي وسيقتل نفسه بجراته فلما كان بعد أيام تجرأ ذلك السفينة
على زياد وهو أمير البصرة وظن انه كالأخنف يقابله بالحلم فساء فأله اذ أمر في الحال بقطع
لسانه ويده

ومما تقدم يظهر بوضوح أمران أولهما ان الطبع غير قابل للتغيير والثاني ان الطبع
باعث على أفعال الخير والشر ما لم يمنعه مانع من ضعف أو خوف ناشئ عن عقل أو شرع
« الافعال الظاهرة تدل على الاخلاق الباطنة »

ولابد لنا من القول هنا بان الافعال الظاهرة تدل على الاخلاق الباطنة وذلك لان
الانسان مادام عاقلاً مدركاً فهو بطبيعة الحال لا يأتي أي فعل كان بغير أن يستحسنه
تصوره ويتفق مع طبعه واذا كان التصور الذي هو نتيجة الطبع خفياً في داخل الانسان
مما لا يمكن الاطلاع عليه كان الحكم عليه مما يصدر عنه من الافعال ان خيراً فخير وان
شراً فشر

قال أمير المؤمنين عليه السلام « اذا أردت أن تعرف طبع الرجل فاستشره فانك
تقت من رأيه على عدله أو جوره أو خيره أو شره » وقال الشاعر :

قد يُستدلُّ بظاهره عن باطنه حيث الدخان فتمَّ موقف نار
وهذا مأخوذ من قولهم « لا دخان بغير نار » وقولهم « ما الدخان على النار وما
العجاج على الريح بأدلَّ من ظاهر الانسان على باطنه » وفي ذلك قلنا :
واذا جهلت خلائق الخلق الالى يتظاهرون بغيره ونجاده
فانظر لما فعلوا من الاحسان في ما قد مضى واحكم بكل سداد
وقال أحد الشعراء :

ومها تكن عند امرء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم
وقال أمير المؤمنين ما أضر أحدكم شيئاً الا ظهر على فلتات لسانه وصفحات وجهه
وذلك لان اللسان هو دليل الجنان والوجه هو مرآة الباطن فهما مكر الرجل باخفاء
باطنه واظهار غير ما في نفسه لا بد وان تمَّ عليه فلتة من فلتات لسانه أو لغة من لغات
وجهه لان العقل هو الذي يتصرف بدهائه في اظهار غير ما في الباطن فاذا اشتغل في
موضوع آخر سها عن ضبط ما أخفى فانفضح وهذا هو السر في كشف كثير من الجرائم
واقتراح كثير من سراير المرأين الخادعين

وقد يتمُّ الوجه عن خلائق صاحبه وهو ما يسونه بعلم الفراسة أي معرفة خلائق
الرجل من النظر الى جبينه وعينه وأنفه وفمه وبده الخ وقال الشاعر مشيراً الى هذا :
لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد عن الخبر
وقال آخر :

وفي عينك ترجمة أراها تدلُّ على الضغائن والحقود
وأخلاق عهدت اللين فيها غدت وكأنها زبر الحديد
وقد عاهدتني بخلاف هذا وقال الله أو فوا بالعهود
وليمض أدماء الشعراء :

وهو طلع من نفسه ما يمره عليه من اللفظ الخفي دليل
إذا القلب لم يبد الذي في ضميره ففي اللفظ والالفاظ منه رسول
وقد أحسن ابن المعمر في هذا الباب بقوله :

تفقد مساقط لفظ المررب فان العيون وجوه القلوب
وطالع بوادره في الكلام فانك تجني ثمار العيوب

وقال شاعرنا الانطاكى :

لا تجهدي النفس في التزليل كاذبة فقد صنيت لعدائي ولو امني

اني قرأت بعينيك السلو فلا يجديك من بعدهذا اليوم ابهامي

وقال صادق لهشام في جملة قول له « لان الله تعالى لم يدل على الباطن الخفي من العقل الا بظاهر منه وناطق عنه فليعلم الباطن من الظاهر كما يعلم من حمرة الوجه وافتاح العروق وغلظ الصوت وشدة الغضب ارادة الانتقام ومن اصفرار الوجه وتضاؤل البدن وتحريك الفرائص وشدة الحوف كل ذلك لتناسب بين النفس والبدن بحيث يصل أثر أحدهما الى الآخر » كذلك تعلم الصفات النفسانية والكمالات الروحانية والعلوم والعقائد الراسخة القلبية من الاعمال والافعال الصادرة عن الاعضاء الظاهرة والسر في ذلك هو ان الاخلاق الباطنة تم عليها الافعال الظاهرة كدلالة الأثر على المؤثر أما علم الفراسة وقد سبقت الاشارة اليه فهو عبارة عن الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن فقد روي في الأثر « ان الطرش في الكرام ، والهوج في الطوال ، والكياسة في الفصار ، وحسن الخلق في الحول ، والكبر في العور ، والبهت في العميان ، والذكاء في الحرص »

وقيل انه مكتوب في التوراة « تسع خصال في تسع رجال : الشؤم في الاسور ، واللجاجة في الاحول ، والنفلة في الطويل ، والفتنة في النصير ، والكياسة في الكوسج ، والتكبر في الاعرج ، والشطارة في الاحدب ، والحبث في الاشقر » نقول وهذا لم نقف له على أثر في التوراة ولكننا رأينا بعضه في المشاهدات وقد نظم بعضهم آيات بحذر بها الناس من تسعة رجال قال :

توق رعاك الله تسعاً من البشر فصحبهم تفضي الى البؤس والضرر

وهم أحول مع أعور ثم أحدب كذا كوسج يتلو نشاطاً من الكدر

وايك والانف الطويل وأصغر فانها بيت الحيانة والخطر

كذا غائر الصدغين خارج جبهة كذا أزرق العينين فالخذر الخذر

توقاهم تحيا سليماً من الردى وباعدهم اذا الفراسة والنظر

وكانوا يقولون عظم الجبين يدل على البله وعرضه يدل على قلة العقل وصفه يدل على لطف الحركة فاذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد والعين المتوسطة في حجها دليل الفطنة وحسن الخلق والمروءة والتي يطول نحرها تدل على الحمق والتي يكسر طرفها

تدل على خفة وطيش والشعر في الاذن يدل على جودة السمع والاذن الكبيرة المنتصبة
تدل على حمق وهذيان الى آخر ما قبل من هذا القبيل مما رآه في كتب علم الفراسة
وبعضه يصدق والبعض لا يصدق

« في العادة »

قد عرفت فيما تقدم أن سبب وجود المملكات في الانسان شيان أحدهما الطبع
والآخر التطبع أو العادة فالطبيعة هي ما يقتضيهما أصل المزاج وأما العادة فهي حاصلة
بسبب التكرار والمزاولة للاعمال حتى تكون خلقاً يمسر زواله فقد قيل « العادة طبيعة
خامسة » وقالوا ان المملكات تحصل بتتابع الفعل وتكراره لان الفعل يتبع أولاً وتعود
منه الذات صفة ثم تتكرر فتكون حالاً ومعنى الحال انها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار
فتكون ملكة أي صفة راسخة وقالوا ان المملكات اذا استقرت ورسخت في انسان
أصبحت طبيعة وجبته فيه وقال ابن خلدون في مقدمة تاريخه « الانسان ابن عوائده
وملوفاته لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي ألفه من الاحوال حتى صار ملكة وخلقاً وعادة
ينزل منه منزلة الطبيعة والجبته » ومن الكلمات التي تعزى الى أمير المؤمنين عليه السلام
« العادات قهورات، من اعتاد شيئاً في سره وخلوته فضحه في جهره وعلايته » والقول
في العادة كالفعل في الطبع فكما ان الطبع لا يمكن تغييره كذلك العادة يعسر تبديلها
والتحوص عنها وكما أن الطبيعة بائنة على الافعال كذلك العادة سائقة الى الاعمال
قال الشاعر :

اذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى فان فطام النفس عنه شديد
ومن أمثال العرب « عادة السوء شر من المفرم » ومعناه من عودته شيئاً ثم منعه
عنه كنت أشد عليه من المفرم وقيل معناه أن المفرم اذا أدبته حقه فارقك وعادة السوء لا تفارق
صاحبها بل تكمن فيه طبعاً ثابتاً وقال الشاعر في ذلك :

من عود الناس احساناً وتكرمة لا يعتبن على من جاء في الطلب

ومنه قلنا :

عودوها الدلال اذا صار خلقاً ليس عنه في حبه تحول

فتصبر أخا الهوى وتعلل بالتلافي وفي الصدود تحمل

وخليق بصها يتحمل وخليق لحسها تتدليل

ومحال تغيير عادة نفس زاولها هيات ليس تبدل

ومن ألف شيئاً فتموّد عليه صوب عليه تركه من ذلك حبّ الحياة حتى ترى المقعد
الاعمى الكثير الاوجاع الشديد المتربة لو عرضت عليه الموت ليستربح من اسقامه ومتاعبه
لاباه ونفر منه وقد قال المنبي :

الف هنا الهواه أوقع في الآ؛ تمس ان الحمام مرّ المذاق

وقال آخر في العادة :

ولكن فظام النفس أثقل محملاً من الصخرة الصماء حين ترومها

وقال غيره :

لا تنني بعد ان أكرمتني فشديدٌ عادة منتزعة

وقال شاعرنا الانطاكى :

مولاي قد عودتني أن التقيد لك برحب صدك باسماً مسرورا

فجزعت حين رأيت وجهك عابساً بالله قبل ما أوجب التفسير

أجريت ذنباً أم أتيت أئيمّة هب قد أتيتها ألت غفوراً (١)

ومن أمثال العرب « اذا تموّد الستور كشف القدور فاعلم أنه لا يصر عنها »
وبالجملة فالنزوع عن العادة شديد واسنا نقول مستحيل ولذلك كان أكثر العقلاء
يحذرون الناس من الاستمرار على العادات القبيحة وبحضونهم على اعتياد العادات
الحسنة ومما يروى أن عيسى عليه السلام لقي خنزيراً على الطريق فقال له اذهب بسلام
فقبل له اتقول هذا خنزير فقال ابي أخاف أن أعود لسانى النطق بالسوء ومن هذا
القبيل قال بعضهم :

عود لسانك صدق القول تنجو به ان اللسان متى عودته اعتادا

ومن ثمرات العادة تهوين الامر الذي يعتاد عليه مها كان شاقاً على النفس فان
العادة والممارسة للاعمال الشاقة تزيد في القوى كما ترى في السالمين والفلاحين وغيرهم

(١) من بيمزات عظمة مولانا السيد دار اقدس حفظه الله ظهوره للناس دائماً أبداً
طلق أسارير الوجه باسم الثغر حتى أن النظر الى وجهه المنير يبعث السرور والانشراح
للمتعمين بمشاهدته العلية فدخلت على حضرته يوماً فوجدته على غير عادته مقطباً
عابساً فجزعت حاسباً انه ولا سمح الله غاضبٌ عليّ وأنا كما أعلم « حياتي في رضاء »
فارتجلت بين يديه هذه الايات وأنا فرق ففقهه عظمته ضاحكاً وقال لا هذا ولا
ذاك ولكن أردت ممازحتك لما أعلمه من اخلاصك فخدمت الله على ذلك كثيراً

من أهل المهن المتعبه ومن عمراتها أيضاً ألفه ما تنفر منه الطباع كمن تعودت خوض الحروب
 فلا يستفزع سفك دماء البشر وفي ذلك يقول المتنبي :
 اذا اعتاد الفتى خوض المنايا فاهون ما يمر به الوحول
 وكذلك اذا اعتاد الفتى الامزة من الناس واكرامهم صعب عليه الهوان حتى يرى
 الموت أسهل منه خلافاً لمن تعود الهوان فالله حتى أصبح كما قال المتنبي :
 من يهن يسهل الهوان عليه ما للجرح بميت ايلام
 قال بعض الحكماء « لا تكثر معاتبة اخوانك فيهون عليهم سخطك » ومن تأثير
 العادة ما روي في تفسير قوله تعالى « استجود عليهم الشيطان » قالوا في تفسيرها وسئل
 الشيطان أي ذنب اذا فعله ابن آدم استجود عليه؟ قال اذا أطاعني المرة الاولى . أقول
 وذلك لان الانسان قبل اطاعة ابليس لا يلبث يستعظم المعصية فاذا فعلها المرة الاولى
 أغرتة نفسه بالثانية وهكذا حتى لا يبالي . من ذلك المقامر والزاني والسارق الخ وقد
 قال أمير المؤمنين عليه السلام « ما زنا غيور قط » وذلك لان من اعتاد الزنا حتى صار
 دربته وعادته وألفته نفسه لا بد أن يهون عليه أمر الزنا حتى يئنه مباحاً أو في حكم المباح
 لان من تدرب على شيء سهل عليه أتياه وكما يسهل عليه أتياه وزوال قبجه من نفسه
 لم يعظم عليه أتياه من أهله وبناته فتمسقط غيرته وهذا يشاهد بكثرة في البلاد التي كثرت
 فيها الخرية الشخصية وبطلت الآداب الدينية حتى صار الزنا في أهلها عادة . ألوثة
 ومن قبيل العادة ما قالوا في تفسير العجب بأنه حيرة تعرض للانسان لقصوره عن
 معرفة سبب الاشياء أو عن معرفة كيفية تأثيرها فيه أو عدم الاعتياد على رؤية الاشياء
 أو سماعها مثال ذلك ان الانسان اذا رأى خلية نحل ولم يكن شاهداً من قبل كثرت
 حيرته لعدم معرفته فاعلمها فلو علم أنها من عمل النحل لتحيراً أيضاً من حيث ان ذلك
 الحيوان الضعيف يستطيع احداث المسدسات المتساوية الاضلاع التي يعجز عن مثلها
 المهندس الحاذق من الفرجات المسطرة ويتساها من أين لها هذا الشمع الذي اتخذت منه
 بيوتها المتساوية التي لا تخالف بعضها بعضاً كأنها أفرغت في قالب واحد ومن أين لها هذا العسل
 الذي أودعته فيها ذخيرة للشتاء وكيف عرفت ان الشتاء يأتيها وأنه ينفد فيه الغذاء وكيف
 اهتدت الى تغذية خزانة العسل بنفسه رقيق ليكون الشمع محيطاً بالعسل من جميع جوانبه
 فلا ينشفه الهواء ويظل طرياً فهذا معنى العجب والحيرة وكل ما في العالم بهذه المثابة الا ان
 الانسان يتعود على النظر الى هذه الخوارق منذ صباه فيألفها وتزول حيرته بها بحكم

الالفة والاعتقاد ألا ترى الانسان ينظر الى هذه الافلاك وهي داعية الى الدهشة فلا يندهش حتى اذا رأى ما لم يتعود على رؤياه كحيوان غريب الحلقة أو اختراع جديد من اختراعات الفرنجة المستحدثة فيأخذ بتسميحه الله عجباً واندهاشاً

ومن قبيل حكم العادة ان الاتقياء من المسلمين اذا رأوا مسلماً أفطر في يوم من شهر رمضان أنكروا ذلك عليه انكاراً ورموه بالكفر والزندقة وقد يشاهدون من يخرج الصلاة عن أوقاتها ولا تنفر طباعهم منه نفرتهم ممن أفطر مع ان صلاة واحدة يقتضي تركها الكفر عند قوم وحز الرقبة عند آخرين وترك صوم رمضان كله لا يقتضي مثل ذلك وما السبب في استنكار افطار الصائم وعدم استنكار مهمل الصلاة الا ان الصلاة تنكّر والتساهل فيها بين الناس مما يكثر فيهن أمرها على القلب للكثرة المشاهدة خلافاً للصوم الذي يكون شهراً واحداً في السنة

وكذلك يُستنكر على الفقيه ان يلبس ثوباً من حرير أو خاتماً من ذهب أو ان يشرب من اناء فضي أو ذهبي ولا ينكر عليه ان يتصدر المجالس باغتياح الناس والغيبة أشد من الزنا فكيف لا تنكر أشد من لبس الحرير واستعمال الذهب والسكن كثرة جماع الغيبة ومشاهدة المغتابين اسقط وقها في القلوب وهون على النفوس أمرها

ومن ثمرات العادة تلبثها على اللسان بل وسائر الاعضاء فكل من اعتاد فناً من الفنون الادبية غلبت عليه قوائمه واستعملها في أقواله وكتاباته نظماً كانت أو نثراً وغلب على تخيلاته في الماني التي يوردها ألا ترى أبا الفتح البستي ومقاطيعه المشهورة في الاداب والحكم كيف تغلب ألفاظ المنجمين فيها وهذا يظهر جلياً للتأقيد المتأمل في كتابات الكتاب وقصائد الشعراء

حكى ان بعض الاطباء كان في خدمة أحد الملوك في غزوة فعند ما انتصر أمر الطبيب ان يبشر بنصرته وزيره فكاتب «أما بعد فقد كنا مع العدو في حلقة كدائرة البهارستان حتى لو رميت مبضعاً لما وقع الاعلى رأس مقاتل فلم يكن الا نبضة أو نبضتين حتى لحق العدو بحر ان عظيم فهلك الجميع بسما دتك يا معتدل المزاج» ومن هذا القبيل ما روي عن ابن سينا متغزلاً :

تصدى بعد صدّ اللوصال وغازلني بسالفتي غزال
وأبدي من محبته ثانياً تراها كاللهالي في الياالي
بوجه لا يزال يدور فيه على قطب الهوى فلك الجمال

بحاسنه هيولى كلّ حسن ومغناطيس أئدة الرجال
 وقريب من هذا قول رياضي وهو محتضر اللهم يا من هو قطر الدائرة ونهاية العدد
 والجذر الاصم اقبضني اليك زاوية قائمة واحشرنني على خط مستقيم
 ويحكى ان صاحب سلاح أحد الملوك وصائغاً وصاحب بقرة ومعلم صبية رافقوا
 على طريق فركبوا مركب الجدد وواصلوا سير النهار بسير الليل فيينا هم في وحشة الظلام
 ومقاساة خوف أهواله آنسهم البدر بوجهه الكريم وأضاء لهم كل مظلم بهم ففاض كل
 منهم بوصفه فشبهه السلاحى بالترس المذهب برفع عند الملك والصائغ بالسبيكة من
 البريز والبقار بالجين الايض يخرج من قلبه طرياً والمعلم برغيف أحمر يصل اليه من
 بيت ذي مروة من أحد آباء صيته

وبالجملة فلكل صنف من الناس أمثال تشاكلهم فلا تجد لكامل الا مثلاً كاملاً
 ولا لساقط الا مثلاً ساقطاً وبذلك يعرف شعر الملوك وأبناء الامارة من شعر السوق
 اذ كل أناء ينضح بما فيه والسر في ذلك هو العادات المتماكة في النفوس المتمكنة منها
 فمن تشابه الساقطة للشيء المريب قول الضوبرى :

إذا ما كنت ذا بول صحيح ألا فاضرب به وجه الطيب
 والمعنى في البيت صحيح فان البول هو ميزان الصحة في عرف الطب الحديث
 ولكن التعبير تشتمز منه الاسماع

وانصرف سيف الدولة بن حمدان من حرب وهو منتصر على تديره فدخل عليه
 الشعراء يهنئونه وفيهم رجل من أهل الشام فانشده من قصيدة :
 وكانوا كفاروسوسوا خلف حائط وكنت كسنور عليهم تسقف
 فأمر بطرده من المجلس وقال قاتله الله جعلني سنوراً وجعل اعدائي فأراً وكلا
 التشبيهين قبيح ومدح رجل المهلب فقال :

نعم أمير الرفقة المهلب أبيض وضاح كنبس الحلب
 وربما ألف المتخصص ملاً عامياً أو تشبيهاً ريكياً لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة
 الارازل فيسترسل في ضربه مثلاً فيصير به مثلاً كالذي حكى عن الاصمعي أن الرشيد
 سأله يوماً عن أنساب بعض العرب فقال على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين فقال له
 الفضل بن الربيع اسقط الله جنبك أتخطب أمير المؤمنين بمنى هذا الخطاب؟ فكان
 الفضل بن الربيع مع قلة علمه اسلم بما يستعمل من الكلام في محاوراة الخلفاء

الاصمعي الذي هو واحد تصره وقربح دهره في الرواية
 وخلاصة الامران الامثال أو التشبيهات هي تابعة للاحوال والعادات والظروف
 فيجب ان يتنبه اليها الاديب

وورد عن اعرابي اختصم الى قاض فقال ايها القاضي ان خصمي وان عملج الى
 الباطل فانه عن الحق لقطوف . وقال المبرد قيل لطيفي كم اتين في اتين ؟ فقال اربعة
 أرغفة وقال طينلي انتظرت فلاناً مقدار ما يأكل الانسان رغيفاً

ومن ثمرات العادة وتأثيراتها ما يروى عن بقراط انه قال يداوي كل عليل بعقاقير
 أرضه لان الطبيعة تطاع بهوائها وتزعج الى غذاؤها وقال افلاطون غذاء الطبيعة من
 أرضها من أنفع أدويتها وقال جالينوس يتروح العليل بنسيم أرضه كما تنبت الحبة بيل
 القطار وأصل ذلك العادة والالفة وما ولد عليه الانسان وما نشأ فيه وقال بعض الاذكياء:
 والنفس مولعة بما عودتها فدع الطبيب وعد الى المعتاد

روي عن سيور ذي الاكتاف انه اعتل يوماً وكان في أسر الروم فقالت له بنت
 ملكهم وقد عشقته ما تشتهي ؟ قال شربة من ماء دجلة وشعة من تراب اصطخر فاتته
 بعد أيام بماء وقبضة من تراب وقالت هذا من ماء دجلة وتربة من أرضك فشرب واشتم
 بلوهم فنقه من علته وللوهم تأثير لا ينكره أحد
 « الطبع سراق »

روى الشيخ في الالهالي عن الصادق « من جالس الاحمق يوشك ان يتخلق
 باخلاقه » وقال سلطان المنكلمين في كتاب الاخلاق « ليس شيء أشد تأثيراً في النفس
 من الجليس » وقال في رسالة آداب المتعلمين « اياك والمناظرة مع غير مستقيم الطبع فان
 الطبع سراق والمحاورة مؤثرة والاخلاق معدية » وقال المحقق الملا أحمد النيرافي في
 كتاب معراج السعادة « ان في ابن آدم دواعي الخير ودواعي الشر وانما صاحبه يميل
 به الى أحدهما » وقال فيه أيضاً « وصحبة كل أحد توجب الانصاف بأوصافه والتخلق
 باخلاقه » وكان بعض العقلاء يقول « ليس شيء أفتق لقلب الانسان من مخالطة الصالحين
 والنظر الى أعمالهم وليس شيء أضر على القلب من مخالطة الفاسقين والنظر الى أفعالهم »
 ولهذا قيل:

صاحب أخا أدب تحظى بصحبته فالطبع مكتسب من كل مصحوب
 كالريح آخذة مما تمر به نتناً من النتن أو طيباً من الطيب

وقال آخر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بلقارن يقتدي

وقال غيره :

إذا كنت في قوم فعاشر خيارهم ولا تصحب الاردي فتدري مع الردي
وقلنا فيما املاه علينا الفكر على سبيل النصيحة :

حاذر بُني رجال السوء اهمُّ قد يسابونك من آدابك الحسنات
ولازم الفضلاء الصالحين اذا أردت ان تكسب الاخلاق والفظنا

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال « بحشر المرء على دين خليله
فليظن أحدكم من يخال » وقال بعض الحكماء لولده « يا بني احذر مقارنة ذوي
الطباع المرذولة لئلا يسرق طبعك من طباعهم وانت لا تشعر »

والسرُّ في سرقة الطباع وانتقال عدواها بين الصحبة هو التعود عليها واثتلاف
النظر اليها حتى تنتقل من الاستحسان الى الالتزام ألا ترى الانسان يألف الميسر أو
المسكر لكثرة مصاحبته من يسكرون أو يقامرون بعد ان كان تقياً صالحاً يستهجن
هذا وذلك وينادي بهما رجس من عمل الشيطان وكذلك كم من الفسقة والفجار تابوا
وتاب الله عليهم بصحبة الابرار والاخيار؟؟ ألا أن سرقة الطباع مما لا جدال فيه

وكما تكون سرقة الطباع بين الافراد من الناس تكون أيضاً بين الامم قال
الاصمعي « جاور أهل الشام الروم فأخذوا عنهم خصلتين قلة الغيرة والثؤم وجاور أهل
البصرة الخزر فأخذوا عنهم خصلتين الزنا وقلة الوفاء وجاور أهل الكوفة السواد
فأخذوا عنهم خصلتين السخاء والغيرة » تقول وحكم الاصمعي على أهل هذه المقاطعات
في أيامه ونحن أوردناها هنا للاستشهاد فقط

وروى شاعرنا عبد المسيح بك انطاكي عن أهل مصر وما كسبوه من الاخلاق بعد
هبوط الفرنجة بلادهم ما أثر تأثيراً كبيراً على أخلاقهم العربية وكذلك روى عن أهل
تونس والجزائر والشام لهذا العهدما يظهر معه بكل جلاء بأن الاخلاق تسرق والطباع
تعدى وكذلك روى لنا التاريخ عن تأثير العجم فالترك في دولة بني العباس والايشذ عن
هذه القاعدة وقلنا في هذا المعنى نخاطب ولدنا جاسب: (١)

(١) هو المرقدار أرفع سمو الشيخ جاسب خان كبير أنجال عظمة ولانا ولي النعم
المرقدار أقدس المعظم وعامله على المحمرة وهو كالامراء اخوانه من نوابغ الامراء الذين

أجاسب حاذر جوار التميم وصحبة أهل الخنى والفساد
ولأزم ببشر ذوي الحزم أهل الزكا والمعالي وأهل الرشاد
فإن الطباع لتدي وعدوى الـ طباع تضيق النهى والسداد
ومصاحبة العاجز تكسب النشيط العجز والحيان يجعل الشجاع جبناً والشحيح
ترك الكريم شحيحاً وفي ذلك قال ابن زيد الخوارزمي :

عدوى البعيد إلى الجايد سريعة والجرير يوضع في الرماد فيخمد
وبالجملة فسارقة الطابع من المعاشرة أمر ظاهر لا يحتاج إلى برهان (١)
وأما صحبة المنشاكلين بالعبع فإنها تزيد في طباعهما خيراً كانت أم شراً لأن ما يعمله
الإنسان لو وحده يتضائف إذا كان معه شريك فيه يشجعه عليه

وقال الحكماء لا يتأني تهذيب النفس إلا بمفارقة قرنائه السوء وعدم استماع قصصهم
الفاسدة وقالوا إذا كان المرء بطبعه شريراً فإن صحبة الاختيار تفوهه وبالعكس إذا كان

تقرُّ بهم أعين الأمانة حاز على رضاء عظيمة، مولاه ومولانا والده العظيم ومحبوب من عموم
قبائل عربستان لشهائمه وشجاعته وكرمه ومكارم أخلاقه وتقائه بالاخلاص للعرش
النابي الخزعلي حتى يتول فيه كل من عرفه «من شابه أباه ما ظلم» ولعظمة مولانا أعزّه
الله ثمانية أشبال غيره وكل منهم فرق في سماء الكمالات وشهاب في أفق الجود وفيهم قد قلت :

بدورٌ لشمس المكرمات وأنجمه لافق العلى من نور خزعل نورها
تلالي بأنوار الذكاء وتنجلي بدوراً فيجلى الداحيات سفورها

(١) ومما يجب أن يذكر هنا والتي بالشيء بذكر أنني كنت يوماً في بغداد ضيفاً على
سمو مولاي السيد عبد الرحمن أنندي القادري السكيلائي نقيب نقباء السادة الاشراف وبينما
كنت في مجلس يتصدره سماحته وإذا بأحد الحاضرين ذكر جناب الحاج محمد علي رئيس
تجار الحمرة ووزير عظيمة مولانا ولي النعم وروى ما عليه حضرته من الوداعة ولطف المعاشرة
ورقة الطبع وصادق بعض الحاضرين على ذلك فقلت لا تتمجبوا إذا رأيتم كل من لاذ بعظمة
مولاي السرदार أقدس الشيخ خزعل خان على مثل هذه الاخلاق الراضية فإن ملازمتنا
عظمته وصحبتنا له على جليل فضله يجعل طباعنا مسروقة من طبعه وأخلاقنا منبتقة من
أخلاقه وجعلت أحدثهم عن عظمتهم مولانا وما خلق الله فيه من الشرائل العالية والشمائل
الرضية مما كانوا لا يجهلونهم وكان في المجلس أحد السادات من آل السكيلائي وقد ناله
ألحظ زيارة عظمتهم فكان يصادق على كل كلمة أقولها والله ما فات الا الحق

المرء خيراً فصحة الاشرار تفسده وقل الهمزاني :

اياك صحة من تبدلك صحبته بالخير شراً وبالاخلاق أخلاقاً
 قلما والبرد فاش من طبيعته بصحة النار يعطي المس احراقاً
 وجاء في الاخبار أن الولد تكون نجابته وحسن أخلاقه وإيمانه وصفاته الحميدة
 والذميمة مضافة الى الوالدين والاعمام والاخوان فالسائذة فالاصحاب الجلساء كل ذلك
 لطول الصحة ودوام المعاشرة كما هو مشاهد للعيان
 « التأسى بالامثال »

ومما جبت عليه النفوس حب المائلة والاقترناء بالغير وهذا هو التأسى الذي أودعه
 الله في النفوس ليهون عليها ملقى كرات الحدثنان فإن الانسان عند ما تصيبه مصيبة يذكر
 من أصيب بمنزلها وأعظم منها وقد يكون فوقه قدراً وثروة فتَهون عليه مصيبته
 قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله تهويناً له أمر الموت « انك ميت وانهم ميتون »
 وقال سبحانه وتعالى « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » أي في مصابه وما
 مني به يوم أخذ من الكفار ومن فقد أولاده عليهم صلوات الله وفي ذلك من تهوين
 المصائب على الناس ما فيه لعلمهم أنهم دون رسول الله قدراً وكرامة عند الله والناس
 وفسر بعض العلماء قوله تعالى « وان ينفمكم اليوم اذا ظلمتم أنكم في العذاب
 مشتركون » قال انه لا يهون على أحد من أهل النار عذابه وان تأسى بغيره من المذنبين لان الله
 تعالى جعل التأسى نافعاً لأهل الدنيا ولم يجعله نافعاً لأهل النار مبالغة في تعذيبهم ونفياً
 لراحة تصل اليهم أقول وامل المراد أنه لما كان من شأن أكثر الناس التأسى بغيرهم
 فيتهاونون بالمعاصي بالنظر الى أمثالهم ويقولون بأنهم اذا كانوا في النار معذبين يهون علينا
 الخطب اذا شاركناهم بما هم فيه فرد الله عليهم بأن التأسى لا ينفعكم يوماً ثم اذ شدة العذاب
 تذهلكم عن الانتفات الى غيركم

ومن التأسى حديث أبي حمزة الثمالي مع الامام زين العابدين لما دخل عليه ووجده
 يبكي على ما جرى عليهم يوم الطف اذ قال أبو حمزة « ياسيدي ان القتل لكم عادة وكرامتكم
 من الشهادة ألم يقتل جدك أمير المؤمنين ألم تر جنازة عمك الحسن » الى آخر الحديث
 كل ذلك كان بقوله تسلية له من باب التأسى ومن التأسى قول الخنساء في أخيها صخر:

ألا يانفس لا تنسبه حتى أفارق عبشتي وأزور رمسي
 ولولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي

ولا يكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالناسي
وقال آخر :
ولولا الأسي ما عشت في الناس ساعة
وقال آخر :
وهوّن وجدي عن خليلي أني
وقال آخر :

وما يؤديني إلى الصبر والمزا
تردد فكري في عموم المصائب
وقال عاشق يشناق إلى عشيقته النائبة :

نكاد حين تاجيكم ضامرنا
يقضي علينا الأسي لولا تأسينا
وقال شاعرنا الانطاكي يعزّي أحد الولاة وقد عزل من ولايته بعد أن طغى وتكبر :
عزلوك لا تجزع فكل منصب
لا بد ما طال المدى معزول
وطنيت في حكم الولاية فاعتبر
بالعزل دولات الرجال تدول
وتأس أن حسن التأسى بالولا
ة السابقين وذكركم مملول
وإذا بلغت ولاية فاجهد بان
تبقى بها ما فيه يحلو القول
والله ما أنا شامت لكن كثير
ر شامتوك و من أسي قليل

ومن أمثال العرب (التكلّي تحب التكلّي) وذلك لأنها تأسى بها فيخفّ عليها وقع
المصائب وتشاركها بالجزع والبكاء، والاكتئاب

وروي عن الاسكندر انه لما شعر بدنو أجله كتب إلى أمه بعددّها إلى سماع الخطب
فيه فقال « يا أماه إذا بلغت كتابي فأولمي وليمة شائفة أدعي لها من لم تلمّ به مصيبة من
مصائب هذه الحياة » قيل فلما بلغها الكتاب أولت وليمتها وأرسلت المنادين ينادون
في الناس أن من لم ينكب بنكبة فليقتصد أمّ الاسكندر ويشاركها في وليمتها فلم يحضر الوليمة
أحد فقالت ما بال الناس مع تقدنا بهم بالدعوة قد تخلّفوا عنا فقيل لها أمرت أن
لا يحضروا لئلا تنك من أصابته مصيبة وما في الناس من هو كذلك فدفقت كفاً بكف وقالت
ويلاه قد مات الاسكندر وما طاب مني في كتابه ما طاب إلا لينبي اليّ نفسه فقالوا لها
الامر كذلك فقالت « يا اسكندر ما أشبهه أو أخرك بأوائلك أردت والله ان تعزيني عنك
التعزية البالغة بالناسي بمصائب الناس »

والتأسي لا يختص بالموث فتمطبل في كل مصيبة من مصائب الحياة كالفقر والمرض والهجر وغير ذلك وكل ما كان المتأسي به قريباً من الزمان والمكان والشكل والصناعة وغير ذلك من أسباب الممانلة كان أشد تأميراً وأعظم تهويناً للاصراهم
حكى أن عبد الله بن كرزبلا المنبر في البصرة خائباً فحصر عن الكلام وكان خطيباً مصقماً فشق عليه ذلك فقال له زياد بن أبيه وكان خلفه أبا الامير لانجزع نلواقت على المنبر طامة من ترى أصابهم ما أصابك فلما كانت الجمعة تأخر عبد الله بن عامر وقال زياد للناس ان الامير اليوم متوشك المزاج ثم أشار الى رجل من وجود أمراء القبائل بأن يصعد المنبر فلما صعد حصر فقال الحمد لله الذي برزق دولاً وبقي ساكناً فنزلوه وأصعدوا آخر من الوجوه فلما استوى قائماً قابل بوجهه اناس فوقت بينه على صلعة رجل فقال أيها الناس ان هذا الاصبع قد منعي الكلام اللهم ان هذه الصلعة أنزلوه وقلوا لوازع اليشكري قم الى المنبر فتكلم فلما صعد ورأى الناس قال أيها الناس اني كنت اليوم كارهاً لحضور الجمعة ولكن امرأني سمعتني على اتيانها وأنا أشهدكم انها طالق فنزلوه وهم يسخرون من صفاته فقال زياد له بدالاً من كرزبلا كيف رأيت فقم الآن واخطب في الناس فتمرتي همه في ذلك وتأسي بغيره ونال المنبر فطرب الاسماع

بخيال نفيس

وأما حب الممانلة والافتداء فمن شواهد قول علي بن مقلة :

وإذا رأيت فتى بأعلى قمة في شامخ من عزة المسترفع

قالت لي النفس العروف بفضلا ما كان أولاني بهذا الموضع

وقلنا في حب الممانلة :

لي همزة لا ترضى دن السهى من مجلس تتوي به وتقيم

لوشمت من جاز المالك بفضله لا جزته والناظرون وجوم

وفي الحديث « لا تنظروا الى من فوقكم وانظروا الى من دونكم فانه أجدر

أن لا زدروا نعمة الله عليكم » اشارة الى ما في جبهة الانسان من حب الممانلة وقال أبو

الفتح البستي :

من شاء عيشاً رحيباً يستتب به في دينه ثم في دنياه اقبالا

فليظرن الى من فوقه أدباً وليظرن الى من دونه حالا

واعلم ان حب النفس الممانلة والافتداء بالغير هو السبب السكلي في مسارقة الطبايع

وصيرورتها الى الفساد عند مشاهدة المعاصي والمفاسد فان الانسان اذا اكثر من مشاهدة
الكبائر من غيره ألفها واستسهل من نفسه اتيان الصفائر بجانبها ولذلك يزدي الناظر
الى الاغنياء نعمة الله عليه فتؤثر مجالستهم فيه لاحتقار ما عنده وتؤثر مجالسته الفقراء
في نفسه لاستعظام ما توفيق اليه من النعم وكذلك النظر الى المطيعين والعصاة
وللمجاورة تأثير خفي فالفاخر اذا صحب تقياً وهو ينظر الى رهبته الله ومداومته
العبادة والصلاح يستحي من أصراره على الزجور ولا بد أن يتوب وكذلك الكسلان
ينشط بماملة الشيطان وهلم جراً

قال جعفر بن سليمان مهما فترت في العمل نظرت الى محمد بن واسع واقباله على
الطاعة فيرجع اليّ نشاطي في العبادة وفارقني الكسل

وعلى هذا فن يقصر نظره على ملاحظة أحوال النبي صلى الله عليه وآله وأهل
بيته في العبادة والنزاهة عن الدنيا فلا يزال ينظر الى نفسه بعين الاستصغار والى عبادته
بعين الاستحقار وما دام يرى نفسه مقصراً فلا يخلو من داعية الاجتهاد رغبة في
الاستكمال واستتماماً للاقتداء

ومن انظر الى الاحوال الغالبة على أهل الزمان واعراضهم عن الله واقبالهم على
الدنيا واعتيادهم المعاصي استعظم أمر نفسه بإدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه ويكفي
في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلاً عن مشاهدتهما وفي هذه النقطة تتضح
الحكمة من قوله صلى الله عليه وآله « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة » وهو كناية
عن انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستتكاف عما هو
ملايس له من القصور والتقصير . والمفهوم من خفي هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم
من عكسه وهو ان عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة لان كثرة ذكركم تهون على الطبع
أمر المعاصي ويذعن السامع للدليل اليها فيكون ذكركم موجباً لعنة واذا كان هذا ذكر
الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم بل قد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه
وآله حيث قال « مثل المجلس السوء كمثل الكبر ان لم يحرقك بشرره علق بك من
ريحه » فكما ان الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به فكذلك يسهل الفساد على النفس
وهو لا يشعر بها . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله « مثل المجلس مثل صاحب
المسك ان لم يهب لك منه نجد ريحه » ولهذا ينبغي لمن عرف من عالم زلة ان لا يحكيها
لان حكايتها تهون على السامعين أمر تلك الزلة ويسقط من قلوبهم استعظامهم للاقدام

عليها فيكون ذلك سبباً لتهوين تلك المعصية فإن الراوي مها شنع بتلك الزلة لا يذيل تشذيمه سوء القدوة للسامع فيقول في نفسه كيف يستبعد هذا منا وكاننا مضطرون الى مثله حتى العلماء والعباد ولكن لو ظل معتقداً ان مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق. معتبر لشق عليه الاقدام على مثله فاذا كان السماع هذا تأثيره فلما شاهدت اعظم تأثيراً في تهوين الامر برفع الموانع عن ميل النفس للشهوات وارتكاب المحظورات

« ميل النفس لشكلها »

ومما جُلبت عليه النفوس ميلها لشكلها وانسها بجنسها قال بعض البلغاء « من شأن الاجناس أن تتواصل ومن عادة الاشكال أن تتوأم والشيء يتقلقل الى معدنه ويحن الى عنصره فاذا صادف منبته ولاقى عنصره وشج بعروقه وشيك بفروعه وتمسك على الاقامة وثبت ثبوت الطينة » وقال النبي صلى الله عليه وآله « لو أن مؤمناً دخل الى مجلس فيه مئة منافق ومؤمن واحد لجاء حتى يجلس اليه ولو أن منافقاً دخل الى مجلس فيه مئة مؤمن ومنافق واحد لجاء حتى يجلس اليه » وهذا من قبيل شبه الشيء منجذب اليه أو كما قيل « ان الطيور على أشكالها تقع »

قيل أن أناساً قدموا مكة المشرفة فقالوا قدمنا بلادكم فعرقنا خياركم من أشراركم في يومين قيل كيف؟ قالوا لحق خيارنا بخياركم وأشرارنا بأشراركم فألف كل شكله (١) ومن هذا قال بعض البلغاء :

تخير أخاً في الله تصحبه ساعة فبكل أمره بصبوالي من يجانسه

وقلنا في ذلك:

إذا جهلت امرءاً ما كنت تعرفه وقد أتاك غريب الدار والوطن

فأصبر قليلاً ليختار الصحاب له من ميله بعد أن يأوي الى سكن

(١) وطالما رأينا عظمة السر داراً أقدس حفظه الله بحكم على ضيوف البصرة وحكامها بعد وصولهم اليها بأيام معدودات لطول اختباره البصريين فاذا قيل له قدم فلان البصرة سؤال ونزل عند من والتف على من ?? فيقال لعظمته على فلان وفلان فيقول ان أخلاقه كذا وكذا فيكون كذلك ولسعة اختبار عظمته للناس بفراسسته وبعد مواقع نظره ترى عقلاء البصريين يرجعون الى رأيه الارشد في كل نازل يبدهم فيأمنون بذلك مقبلة المحنة في عشرته اذا كان شريراً أو يفتنمون صحبته اذا كان خبيراً كريماً

ان النفوس لارواح مجنّدة تأوي لأشكالها بالسر والعلن وروى أن امرأة مهزارة من أهل طيبة على ساكنها الصلاة والسلام قصدت مكة كرمها الله فدخلت على أحد أزواج النبي وأخذت تضحكها بهزيانها فسألها أين نزلت فذكرت لها صاحبها فإذا هي مهزارة مثلها فقالت صدق الله ورسوله سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول «الارواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»

والسر في ائتلاف الارواح ومخالفتها هو ان النفوس تأنس لمن يشاكلها في طباعها وأخلاقها وتنكر من يخالفها فيهما بحيث لا يطيب العيش الا بين المتجانسين الا ترى الكريم لا يأنس بصحبة الذميمة وان تعاملت اقل من زمن تصبر وكذلك يقال في جميع اصناف الناس المتخالفين في طبائعهم وهذا الخلق لا يختص بالانسان بل يشاركه فيه الحيوان قال بعض الحكماء «كل انسان مع شكله كما ان كل طير مع جنسه» وكان مالك بن دينار يقول «لا يتفق اثنان في عشرة الا وفي أحدهما وصف من الاخر فان أشكال الناس كما شكل الطير ولا يتفق نوعان منها في الطيران الا لمناسبة بينهما وروى عنه انه يوماً رأى حجلة مع غراب فعجب من اتفاقهما وليس من شكل واحد فلما مشيا أمامه اذا بهما أعرجان فقال «من ههنا اتفقا»

والخلاصة فكل انسان يأنس الى شكله كما ان كل طير يأنس الى جنسه وفي الاثر: انه لما مات بعض الخلفاء جمعت الروم ملوكها وقالوا الان يشتغل المسلمون ببعضهم ببعض فلننبر الى بلادهم ونفتحها وكان فيهم ذو عقل وسداد رأى قنهام فلما أصبحوا غدوا عليه فأمر باحضار كلبين عظيمين أعدهما ثم حرش بينهما فهارشا حتى سالت دماؤهما فلما بلغا الغاية في الخصام فتح باب يد عنده وأرسل على الكلبين ذئباً قد أعدّه فلما أبصره تركا ما كانا عليه وتأنف قلباهما ووثبا على الذئب فقتلاه فأقبل ذلك الرجل على الجمع من الروم وقال مثلكم على المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب فلا يزال الهرج بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم فتأنف قلوبهم على قتاله فقبلوا قوله واتصحووا به اه وقد قال أرسطو ليس في هذا المعنى «الاشكال لاحقة باشكالها كما ان الاضداد مبادئة لاضدادها» ومنه أخذ المتنبي قوله:

وأشبهنا بدنينانا الطعام وشبه الشيء منجذب اليه
واعلم كان المشاكلة موجبة للإلانة فعدمها مفض الى النفرة وروى في كتاب أنيس

العقلاء انه كان من عادة ملوك الفرس اذا غضب أحدهم على عالم حبسه مع جاهل نقول وهذا شر أنواع العذاب وروي ان الرشيد غضب يوماً على ثمامة بن الأبرش وكان عالماً متبحراً فسله الى خادم له يقال له ياسر وكان يحسن اليه ويتأدب في حضرته ويعظمه حتى سمعه ثمامة مرة يقرأ (ويل يومئذ للمكذبين) وفتح الذال فقال له ثمامة ويلاك ان المكذبين هم الانبياء فقال له ياسر كان يقال عنك انك زنديق ولم أصدق أشتم الانبياء يا ثمامة؟ ثم انه أعرض عنه وهجره وتركه فلما رضى الرشيد منه وردّه الى مجلسه سأله يوماً ما أشد الاشياء؟ قال عالم بحري عليه كلام من جاهل ثم أخبره بقصته مع ياسر خادمه فضحك الرشيد من ذلك

ومن هذا قيل اذا أردت أن تعذب عالماً فاقرن به جاهلاً أقول ان ما اثره العقلاء لا يهلا عذاب للروح على أن عذاب البدن بالسياط أهون من عذاب الروح بمعاشرة الجهلاء وقد قلوا في الامثال العامية (عشرة البهيم مع الفهيم داء عقيم) وقال الشاعر:

ومن البليّة نذل من لا يرعوي عن غيبه وخطاب من لا يفهم

وقنا في هذا المعنى:

ما سرّني من رزايا الدهر جاحجة شكوت منها الى ربّ السما لمي
الأ مصاحبة الجهال فهي بلا شك لتدعو الى الاملال والسقم

وقال بعضهم:

اذا غلب الشقاء على سفيه تنطع من مخالفة الفقيه
فنزلة السفيه من الفقيه كنزلة الفقيه من السفيه
فمنا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهده منه فيه

وقال بعض الحكماء اني لارحم الحكيم اذا اضطرّ لمجاورة السفيه فلا شيء أشدّ عليه من ذلك لانه يدرك بفعله تدبير الاشياء فيحتال على كثير من الامور الا ردّ السفيه عن جهله فهو يتعذب بكل ما يصنع وينكر كل ما يرى منه ويسمع (١)

سأل بعض الحكماء ما بال الرجل الثقيل أثقل على الطبع من الحمل الثقيل فقال لان الحمل الثقيل تشارك الروح الجسد في حمله فيتعاونوا أما الرجل الثقيل فلا تتحمله الا الروح فيثقل عليها

(١) حدث مرة ان مرّ جاهل متفاهة بالمحبرة فقصد رحاب عظمة الشيخ المعز حياها الله كعادة كل من يمرّ بهذا البلد وادعى العلم والفضل نطلبه عظامته لمجلسه الادبي

وفي الحديث ان سليمان عليه السلام لما تفقد الهدد ولم يره قال «لا عذبته عذاباً شديداً أو لياتيني بسُلطان مبين» فلما آذاه بالحجة دفع عنه العذاب الشديد وقال لا بد من تأديبه حتى لا نجراً الطيور على مثل فعله فأمر به فخبس مع الحداة في قفص واحد فلما نظر الهدد الى كثافة طبعها ورقة طبعه وحسن منظره وقبح منظرها كان عليه ذلك عذاب روي شديداً فطلب من سليمان أن يخرج به من ذلك القفص ويعذبه أشد عذاب الطيور فسأل عليه السلام عن عذاب الطيور فقالوا أن الطائر اذا زنا اجتمعت عليه الطيور وتفت ريشه بناقيرها حتى يصير قطعة لحم، لمقاة ويكون حاله هذا شديداً حتى ينبت له الریش ففعلوا بالهدد ما قالوه وسكان عليه أسهل من اجتماعه مع الحداة التي لا تلامه في طبعها وجنسها

ولما اتصلت بدمور بنت بجدل الكلبيّة أم يزيد بن معاوية بماوية وكانت ذات جمال باهر وحسن عام أعجب بها معاوية وهيا لها قصراً مشرفاً على النوبة وزينه بأنواع الزخارف ووضع فيه من أواني الفضة والذهب ما يباهيه ونقل اليه من الديباج الرومي الملون والمواشي ما هو لائق به ثم أسكنها مع وصائفها كما، مثل الحور العين فلبست يوماً أغر ثيابها وتزينت وتطيبت بما أتد لها من الحلبي والجوهر الذي لا يوجد مثله ثم جلست في روضتها وحوطها الوصائف فنظرت الى الغوطة وأشجارها ونجاوب الطير الذي يحق في هذا الصر ان يدعى سوق عكاظ وكان موق هذه الحواشي متشرفاً بحضور ذلك المجلس الزاهي ولما دار لنا الابحاث الادبية وجدنا صاحبنا جهل من دابة أ.ا. عظمة مولانا وليّ النعم فان أخلاقه الكريمة تأتي ان يواجه أحداً بما يكره ولو كان حقاً ونحن على رأي القائل «الناس على دين ملوكهم» نتحملنا هذا الاحق طول مجلسنا ولما انصرفنا سار الرجل الى دار الضيافة وكان ليلاً إذ أخذ اخواننا الادباء اللائذين بخدمة عظمة الشيخ غائباً فأرسل عظامته اليه في الصباح ان «ضيفنا لان (ويريد به الجاهل المتناقض) قد قصدنا فوجب حقه علينا وهو من العلم والفضل على ما سترى فيجب أن تصحبه في زيارة المحمرة» ففعل ذلك الاديب كأمير مولاه وفي المساء جاءنا اديبا وهو غاضب وقال لوليّ النعم، ما ذنبك اليك حتى حكمت عليّ بهذا العتاب الصارم بصحبة هذا الجاهل؟؟ فضحك عظمته وقال ذنبك انك تخلفت عنا البارحة فصحبناه دونك وحفظنا لك حقلك من صحبته وضحكنا جميعاً من هذه التكلفة اهلينة أ.ا. فنيب فانعم مولانا عليه حسب عادته المبرورة مع جميع قاصديه وصره شاكراً داعياً

في أوكارها وشممت نسيم الازهار وروائح الرياحين والنوار فذكرت نخبداً وحننت الى
أرابها وأناسها ونذكرت مسقط رأسها نبككت وتهدت ففانات لها بعض وصيفاتها
ما يبكيك وأنت في ملك يضاهي ملك بلقيس ؟ تنفست الصمداء وأنشدت :

ليبت تخفق الأرياح فيه أحب الي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقرت عيني أحب الي من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي أحب الي من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فنج أحب الي من نقر الدفوف
وكاب يذبح الطراق دوني أحب الي من قط ألوف
وبكرت يتبع الاضغان صعب أحب الي من بقل رفوف
وخرق من بني عمي نحيف أحب الي من علاج عنوف

فلما دخل معاوية قصت عليه الوصيفة بما قالت ميسور وقيل انه سمعها وهي تنشد
أبياتها فقال مارضيت ابنة بجذل حتى جعلتني تلجأ عندي فأهي طالق ثلاثا مروها فلناخذ
جميع ما في النصر فم لها ثم سيرها الى أهلها بنجد وكانت حاملا بيزيد فولدته بالبادية
وأرضعه سنتين ثم أخذه معاوية منها بعد ذلك

« جهل الأشياء »

قال الله تعالى « واذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا انك قديم » وقال بعض الاذكياء:

ومن يك ذا نم مرر مريض يرى مرراً به الماء الزلالا

وقال شاعرنا الانطاكي :

عادوا الاعراب عن جهل بفضاهم وانما الناس أعداء لما جهلوا
لو أنهم عرفوا نيتنا ندهوا على معاداتنا في كل ما نلوا
وما لهم غيرنا عند الشدائد ان صاح الفير وخاضوا الحرب واقتلوا
قولوا لهم انصفوا الاعراب واقربوا منهم والاضاع السعي والامل

وقال أمير المؤمنين عليه السلام « من جهل شيئاً عاداه » وقال أيضاً « الناس
أعداء ما جهلوا » وهو من جوامع كلمه وقال الله تعالى « بل كذبوا بما لم يحيطوا
بعلمه » وقلنا في هذا المعنى :

جهلونا فأغضبونا وباتوا في رزايا يشكون منها الزمانا

لنت شعري أمادروا بعد طول ال مهد معنا أن لا محب سوانا

وقال ابن ذريرد:
 جهلت فعاديت العلوم وأهلها كذاك يميب العلم من هو جاهله
 وقال بعض الاساطين لابنه « يا بني عليك بكل نوع من العلم في زمنه فان المرء
 عدو ما جهل »

وقال أحد الشعراء في مثل هذا :

تفنن وخذ من كل علم فأنما يفوق امرئ في كل فن له علم
 فانك حرب للذي أنت جاهل به ولعلم أنت تتقنه سلم
 والعملة في أن الانسان عدو ما يجهد هي أنه يرى نفسه بين عارفي ذلك منتقاصاً
 فيستشمر باهانة ذلك النقص فيضمر العداوة لمسببه ولذلك قيل « والجاهلون لاهل
 العلم أعداء »

« رضى الناس لا يدرك »

قال بعض الاساطين لبعض أصحابه « والله ما أقول لك الا نصحي أنه ليس الى
 السلامة من الناس سبيل فانظر ما ذا ينفعك فاعمله » وقال الشاعر :
 من راقب الناس مات غمّاً وفاز باللذة الجسور
 وقلنا في هذا المعنى :

سر في طريقك في الخيرات تسلكها واعرض عن الناس لا يرضيهم عمل
 هيات لو كان ينجو من ملائمتهم ناجح نجاً منهم الاقطاب والرسول
 وقال يوماً أحد العلماء لتلميذه له أعمل كذا وكذا فقال يا أستاذ لا أستطيع خوف
 ملائمة الناس فالتفت الشيخ الى أصحابه وقال « لا يفوز عبد بسؤله الا اذا كان أحد
 اثنين أما رجل تسقط الناس من عينيه فلا يرى في الدنيا الا خالفه واما رجل سقطت
 نفسه من عينيه فلا يبالي بأية حارة يراه الناس » وقال بعض العلماء « ان الاتيان بما
 تستح منه جميع الطباع ليس في قدرة البشر » ولبعض العقلاء
 لو كنت كالتمدح في التقرير ممدداً لغالت الناس هذا غير معتدل

وقال شاعرنا الانطاكي :

ولست بطابع ارضاء كل الأ نام ولم يكن ذا مستطابا
 فان أرضيت في عملي الهني وأرضيت الضير فلن أراعا
 وحكي أن بعض العرفاء أراد أن يمظ ابنه ويملمه عدم الاهتمام بأقوال الناس

نفرج به را كبين على دابة فقال بعض الناس انظروا الى هذين كيف ركبا على هذه الدابة وهي لا تطيق حملهما فنزل الولد وتي الوالد را كبا فمرا باخرين فقالوا انظروا قسرة قلب هذا الرجل كيف هو راكب وابنه يمشي وكان الولد اولى منه بالركوب فنزل الوالد وركب الولد ومرا باخرين فقالوا انظروا الى هذا الولد ما اقل آدبه ابوه يمشي وهو راكب فنزل الولد ايضا ومشي على اقدمهما وجعلا يجرا ان الدابة جريا فمرا باخرين فقالوا ما اقل عقل هذين يمشان على اقدمهما والدابة لا راكب عليها فقال الرجل لولده انظر الى هذا الامر واعتبر به فانه لا يسلم احد من السنة الناس بها عمل وقال احد الشعراء :

ان كنت منبسطاً سموك مسخرة او كنت منقبضاً قالوا به ثقل
وان تصاحبهم قالوا به طمع وان نجائبهم قالوا به ملل

وقال آخر :

وما احدث من السن الناس سالم ولو انه ذاك النبي المطهر
فلو كان متداياً يقولون اهو ج وان كان مفضلاً يقولون مبنذر
وان كان سكيئاً يقولون ابيكم وان كان منطيقاً يقولون مهذر
وان كان صواماً وبالليل قائماً يقولون زواراً براني ويمكر
فلا تحننل بالناس في الذم وانثا ولا تحش غير الله والله اكبر

وحكي عن موسى عليه السلام انه قال الهي اسالك ان لا يقال في ما ليس في فوحى الله اليه ذلك شي ما فعلته لنفسي فكيف افعله بك ؟ وفي هذا المعنى ما ينسب الى امير المؤمنين عليه السلام قوله :

قد قيل ان الاله ذو ولد وقيل ان الرسول قد كهنا
ما نجا الله والرسول معاً من اسان الورى فكيف انا

ومن كلام له عليه السلام « فان اقل تقول حرص وان اسكت تقول جزع من الموت » اشارة الى عدم ضبط السنة الناس في حقه عليه السلام سواء طلب حقه او سكت عنه كما قال الصادق عليه السلام « رضى الناس لا يملك والسنتم لا تضبط ألم ينسبون الى النبي يوم بدر انه صلى الله عليه وآله أخذ لنفسه من الزم فعايفة حمراء حتى أظهره الله على القطيفة وبرأ نبيه من الخيانة وأزل في كتابه « وما كان لبي أن يغل »
وفصل الخطاب في هذا الباب ان تعلم ان الله تعالى خلق الخلائق اجمعين وأنعم

عليهم بأنواع النعم فأكمل حواسهم وخلق فيهم الشهوات ثم أفاض عليهم نعمه وأكمل لهم اللذات وبمدها فما قدروا الله حق قدره ولا عظموه حق عظمتهم بل قالوا فيه ما لا يليق به ووضعوه بما يستحيل عليه وأضافوا إليه ما يتدسس عنه فمنهم من قال هو ثالث ثلاثة ومنهم من قال له زوجة ومنهم من قال له ابن ومنهم من قال له بنات ومنهم من يحسبه ومنهم من يشبهه ومنهم من أنكره بتاتا والعياذ بالله الى غير ذلك وهو سبحانه مع ذلك يحييهم ويرزقهم ويصح أجسامهم وحواسهم فمعاصيهم اليه صاعدة وبركاته عليهم نازلة قل كل يعمل على شاكلته وينفق مما عنده

وبالجملة فإن رضاء الناس غاية لا تدرك فاشتغال المرء باصلاح نفسه أولى والاستهانة باختلاف آرائهم في أعماله أصلح وقد قال الشاعر :

أما الناس في اختلاف عقول مثلما الناس في اختلاف وجوه

« بين اللؤم والكرم »

لا بد للإنسان من أن يكون لئيمًا أو كريماً أو وسطاً بينهما تبعاً لمواطنته الداخلية وطبائعه الفرززية التي تحنه على الخير أو الشر أو بينهما
واللؤم يشتد في من غلبت عليه القوى البهيمية بحيث يرى كل ما في العالم لا يساوي بجانبه من ملاذه قلامة ظفر والكرم يكون فيمن غلبت عليه القوى الروحية فيعلم أنه إنسان ووجد في هذه الدنيا ليكون عضواً نافعاً للإنسانية وأما ما بينهما فكالوسط كمن لا يضر ولا ينفع وقد كفى الناس شره أو كمن يكون نفعه مثل شره باعتدال وقد ذهب بعضهم الى أن طبيعة الخير أصل في فطرة الانسان ولكن مخالطة الاشرار وممارسة الشهوات تحوله الى الشر وقال غيرهم بل أن الشر أصل في فطرة الانسان والخير يمتاده اعتياداً بالتأديب والتعام

وفي رأي جالينوس أن الناس فيهم الخير بطبعه وفيهم الشر بطبعه وفيهم المتوسط بين هذا وذلك وقال عن الاول ان كان كل الناس اختياراً بطبعهم وإنما يتنقلون الى الشر بالقدوة السيئة والعشيرة الفاسدة فمن الضرورة أن يكونوا قد تلقوا الشر عن أسانذتهم وهؤلاء تلقوه عن تقدمهم الى أن فصل لطائفة من الناس كانوا أشراراً بطبيعتهم والعكس بالعكس وفي قوله هذا أفسد المذهبين الذين تقدم ذكرهما من تأصيل الشر والخير في عامة الناس الى أن قال لا بد أن يكون في الناس عاطفتان متباينتان عاطفة خير وعاطفة شر فإن تغلبت الاولى على الثانية بالتعليم والقدوة كان الانسان خيراً وان تغلبت الثانية على

الاولى كان الانسان شريراً وقال بعد ذلك انا اشاهد عياناً طائفة من الناس منصرفاً الى الخير وهذه لا تسكون شريرة وأخرى منصرفاً الى الشر وهذه لا تسكون خيرية الا انها القسم الاكثر وطائفة ثالثة وسط بين هذه وتلك وهذه التي يمكن اصلاحها وافسادها تبساً للوسط الذي تعيش فيه

هذا رأي جالينوس واليه ذهبنا وحجتنا فيه هو ان الانسان له عواطف وعقل وأما عواطفه تتدبوه الى الشر لانها تطالب ملاذها وأما عقله فيدعوه الى الخير لانه يدرك فيه فساد الشرور فمن تغلب عواطفه على عقله كان شريراً ومن تغلب عقله على عواطفه كان خيراً أعلى ان من الناس من تتوازن قوتها عقله وعواطفه وهؤلاء هم الوسط بين الاختيار والاشرار وهؤلاء الذين تفيدهم الموعظة الحسنة وتضر بهم القدوة السيئة ومن كان شريراً فهو لثيم لا تنفعه معاشره الصالحين ولا تفيد عظة الواعظين

ومن يك ذاق مر مريض يرى مرأ به الماء الزلالا
ومن كان خيراً فهو كريم وهذا لا يؤثر عليه معاشره الفاسدين واغراء الائمة الفاسقين واعلم ان الذي خبت لا يخرج الا نكداً وربما ازداد خبثاً اذا صادف من الناس من يشجعه على لؤمه كالبحيل اذا سمع من يمدح الاقتصاد في الاتفاق وذم الاسراف وهو يميل بطبعه الى رذيلة البخل فيفرط فيها وهلم جرا وقد يروى الشر فيه بتعريف المذومات كالدهاء والجريرة والشره والظلم فيكون حاله في ذلك حال الغافل فاذا ذكر بشي منها اتقه اليه وعمل به على حسب استعداده الطبيعي والعكس بالعكس وقد قال الشاعر:

طربنا بتعريض العذول بذكركم فنحن بوادر والعذول بواد

وكتبراً ما حصلت هذه الرذائل في النفس الشريرة من تعريف الاستاذ أو مطالعة كتاب لان النفس تأخذ من كل شيء وتجمعه وفق مرادها وطبق هواها ويكون تنبيهاً لهوى واغراءً للنفس الامارة لرذائلها وخبثها فيستحيل المحمود مسذوماً كما يستحيل لذيق الطعام بعد ازدراره الى الفساد ومن هذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام « لا تغلوا اولاد السفلة اللم فانهم اذا تعوه طربوا معالي الامور فاذا نالوها انوا بمذلة الاشراف » أقول والعلم لا يقتضي ذلك لسكن النبات تابع لارضه ومن أرسل رائد الطرف الى حيث النهضات الهوجاء الحديثة يتضح له صدق هذا القول ويتمثل بالشاعر الذي يقول
ومذ أصبحت أذناً بنا أروساً لنا
غدونا بحكم الطبع نمشي الى الوراء
حكى أن امرأة كانت ترضع لبن عم لها ركأت تضررة من صحبته وراغبه في

فما فرقت فآرست تفتش على عالم يدبر لها حيلة للفراق فتوقفت بعد الجهد الى وضع
 من لم يثيم الطبع فدبر لها أن تسعى انها ارتسدت عن الاسلام وتحنفي الى أن تنقضي
 عدتها فتصل الى الحاكم الشرعي وتعرف بصدور ذلك منها وانها تابت ورجعت الى
 الحق وأخذت على هذه الحيلة أجراً أما المرأة ففعلت ما أمرها به ولو كان هذا العالم غير
 وضع النفس لعمل على اصلاح الحال بين الزوجين بما يرضي الله ورسوله فيكسب الثواب
 في الدارين ولم يعس على الفسق الفاسقين ومما ينسب الى أمير المؤمنين عليه السلام في
 هذا الباب قوله :

من لم يكن عنصره طيباً لم يخرج الطيب من فيه
 كل امرئ يشبهه فعله وينضح الكوز بما فيه
 ومن كلامه عليه السلام « احذروا صولة السكريم اذا جاع والاثيم اذا شبع » ومن
 المعنى الاول ما قيل :

لا يصبر الحرُّ نحت ضمير وانما يصبر الحمار
 ومن المعنى الثاني قول أبي الطيب المنبجي :
 اذا أنت أكرمت السكريم ملكته وان أنت أكرمت الاثيم تمرّدا
 ومن هذا قيل في الامثال « اتق شرّاً من أحسنت اليه » وقلنا في واقعة حال ضمّنين
 هذا المثل المأثور :

كم من كريم وقد نال الاذية ثم كان يكرههم لؤماً وكفراناً
 لو لم يكن خطأ فينا بكارنا لما لقيتم على الاحسان انساناً
 ولبعض الشعراء :
 وأخش الاذى عند اكرام الاثيم كما تخشى الاذى ان أهنت الحرّ في حقل
 وقال شاعرنا الانطاكي :

كم وكم قد نالني شرُّ الاذى من ثم بعد اشفاقي عليه
 كان ذنبي عنده رقتي به عند ما احتاج فأحسنت اليه
 حكى أن رجلاً ذنب الطباع سافل الاخلاق سافر الى بغداد فاشتدّ به فاقته حتى
 احتاج الى القوت فمرّ على بائع زلاية فوقف قبالة دكانه والمسكنة بادية عليه فاشفق عليه
 الزلاية وأحسن اليه مما عنده وبينما كان يأكل منهم واذا محتسب المدينة مرّ بالاسواق
 يفنّش الموازين وينظر في المأكول حسنها وفاسدها ويحذّر الناس من أنواع النش فعند

ما بلغ الزلايبي كان ذلك اليتيم قد شبع وبقيت لديه بقية من الزلايبي فمجنها بيده وقال
للمحتسب نصرك الله على هذا الزلايبي أنظر ما صنعت له لغش الناس فأخذ المحتسب صاحب
الزلايبي وضربه ضرباً موجعاً وغرّقه بيده الممل وبعد أن مضى المحتسب التفت الزلايبي
الى ذلك اليتيم وقال له ما ذنبي معك وقد أشفقت عليك فأطعمتك وأنت جاثع حسبة لله
تعالى ألا قاتل الله كفران النعمة وصدق من قال « اتق شر من أحسنت اليه »

ووجد على صنم مكتوب حرام على النفس الخبيثة أن تخرج من هذه الدنيا حتى
تسيء الى من أحسن اليها . وكل من أكرم الناس يحفظ كثيراً من قصص هؤلاء الثام بما
يجري معهم في كل يوم

وقيل « الكريم يلين اذا استعطف واليتيم يقسو اذا لوطف » وقيل « احسانك الى
الحر بحرّكه على المكائنة واحسانك الى النذل يئسه على الطمع فيك »

واذا عرفت أن الاحسان الى اليتيم يدعو للاساءة الى من أحسن اليه فاعلم أنه خليق
به الاهانة والاهمال . كما يقول الشاعر :

أهن عامراً تكرم عليه فانما أخو عامر من مسه بهوان

ومن هذا القبيل ما حكاه شاعرنا عبد المسيح بك انطاكي من محفوظاته قال حكى
عن أحد الخلفاء أنه بينما كان يتجوّل في البرية طاباً للصيد وجد بجزر إحدى القرى
صيدة حسنة اسهوت به بجمالها فسألها عن بلدها وأبها ثم عاد الى بغداد وفي اليوم التالي
أرسل كبيراً من رجال بطاقته لايها يخطبها لنفسه فله اوصل رسول الخليفة لوالد تلك الفتاة
وكان من صعاليك أهل القرية حينئذ تحية الندّ للندّ وتلطف بإبلاغه ارادة الخليفة من
الرغبة بخطبة ابنته فأم طبعه ورجع الى خيسته وكبر عليه أن يعامل بالاطف ورفض
طلب الخليفة على ما فيه من الشرف العظيم له ولييته فعاد الرسول وأخبر مولاه بما
سمع ورأى فاستشاط غضبه وأمر بزيادة الخراج على تلك القرية بما يرهق أهلها فلما
بلغهم أمر الخليفة بزيادة الخراج بادر وجوههم الى دار الخليفة فرأوا من رجال بطاقته
من أبلغهم بسرّ غضب الخليفة فقالوا ليس الذنب على ذلك الصعلوك برفض نعمة أمير
المؤمنين بفرانه بابنته بل الذنب على الرسول الذي أكرمه واليتيم بتمرد بالاكرام فاذا
أمر الخليفة فليرسل معنا رسوله لتريه كيف يخطب بنات هؤلاء الثام فنقل الخبر الى
الخليفة وكان شغفه بتلك القروية بالغاً حدّه فأمر بالخال أحد أعوانه بالسفر مع وجوه
القرية لاجتياز الصبية له عروساً فصاروا حتى وصلوا الى القرية فنزلوا في دار أحد

وأرسلوا وراء أبي الصبية حتى إذا ما حضر بادروه بالسب والاهانة وصفوه صفعات مؤلمات فقال وما ذنبي؟ قالوا كيف أبيت تزويج ابنتك من الخليفة؟ فقال أنها جارية في مطبخه ولكن لم يأتني من يفهمني المقصود بمثل ما فهمته منكم فضحك رسول الخليفة بجواب ذلك الصعلوك وعاد بالجارية فأصبحت محظية الملوك
وفي أمثال العرب « إن الهوان للثيم مرأمة » أي مرحة وقيل « لا يصاح الثيم لمعروف ولا يصدق في ود ولا يستقيم الا عن فرق أو حاجة فاذا استغنى أو ذهبت حدثه عاد إليه جوهره وظهر بكل وضوح طبعه »

ومما يتضيه طبع الثيم القدح في الناس واغتيالهم ففي مشور الحكم « اللثيم اذا غاب غاب واذا حضر اغتاب » وقال بعضهم لا تخرج النية الا من نفس مميبة (١)
وقال عباس الاسدي ما الضاري على فريسته بأسرع من الدني في عرض المري أقول والغيبة لا تختص بالثيم فان العلن بأعراض الناس والاشتغال بذكر مساوهم صفة مجبولة في طبع الانسان داخلة في حكم النفس السببية من ذلك ما قيل لاسماعيل بن حماد بن أبي خليفة أي اللحمان أطيب لحم الانسان أم لحم الحيوان قال لحوم الناس هي والله أطيب من لحوم الدجاج والدجاج وقد عني بلحوم الناس اغتيالهم
قال بعضهم بت أية في البصرة مع رفاق لي فلما كان وقت السحر حر كم واحد وهو يقول كم هذا النوم أنواكم عن أعراض الناس طويلاً
وقيل لشاعر وصله بعض الرؤساء وأزم عليه ما صنع بك الامير؟ قال ما وفت نعمته باسائه التي بمعنى لذة اثلب وحلاوة الشكوى (٢)

(١) ومن المعلوم أن الغيبة تكثر في مجالس الملوك لكثرة تراحم الناس على كسب رضاهم بافساد بعضهم على بعض ولا يخرج عن هذه القاعدة على ما اعلم الا مجلس عظمة مولانا المزي الشيخ خزعل خان حفظه الله فانه ليس أيضاً لا يسمع لمفتاب حديثاً ولا سيما على أحد عبيده المخلصين ولكن ينهر المفتاب حتى لا يعود الى اغتيال صاحبه ولذلك ترانا نحن ماضين أعيان عظمتهم بالفقه وصفاء وقد اجتمعت قلوبنا على حبه ولايم، بنا جميعاً الا التفاني بخدمة باخلاص علماً منا أن في هذا وحده كسب رضاه حياؤه الله

(٢) وما هذا الامير الاعظمة مولانا المعري الذي يأتي أن يجري لسان في مجالسه الطاهرة بمناب الناس وذكّر معايبهم والشكوى منهم على ما سبق القول في الحاشية السابقة والنائل معروف منا ولسكننا نكنم اسمه اتباعاً لسنة، ولانا المراد أقدس والناس على دين ملوكهم

والغيبة والظعن في الناس ما سوى خبث الطباع أسباب منها التشفي وذلك أن يغضب رجل على آخر فيتشفي منه بذكر مثالبه بالحق وبالباطل وإذا لم يستطع الناعب أن يتشفى بثلب من غضب عليه بعرضه وشرفه واضطراً إلى السكوت عنه يحتقن الغضب في باطنه فيصبح حقداً ثابتاً فيكون سبباً دائماً لذكرى المساوي وعلى هذا فالحمق والغبط من البراءة العظيمة على الغيبة

ومنها الحسد وهو أن بعضهم يحسدون من يثني عليه الناس ويحبونه ويكرمونه فيتمنون زوال تلك النعمة عنه ولا يجدون سبيلاً إلى ذلك إلا بالتدح والتشهير فبه ليكف الناس عن اكرامه واثناء عليه

ومنها موافقة الاقران ومجاملة الرفقاء فإذا كان نذر من الناس في مجلس يتفاكحون بالاعراض فلا يرى الواحد منهم إلا موافقة أقرانه ومجاملتهم بالتصديق على ما يقولون خوفاً من أن يستئثروا مجلسه وينفروا من صحبته وقد ينظر أن هذا من حسن المعاشرة أو من آداب مجاملة الاصحاب فيخوض معهم في ذكرى المثالب والايوب وهذا يكثر في مجالس الاكابر حيث يضطر المتصقون بهم من الاصاغر إلى موافقتهم في كل ما يقولون ومن لطائف ما يروى من هذا القبيل أن كبيراً من الناس بينما كان يطلق فيه في الثلب والسب دخل عليه واحد من المائصقين به فسمعه يسب بعضهم فأخذ هو أيتها بالسب فقال له أحد الحاضرين همساً لمن تسب يا فلان؟ قال الذي يسبه إلا غا

ومنها أن يندسب إلى رجل شيء يريد أن يتبرأ منه ولا يجد مناصاً لتبرئته إلا بدسب ذلك الشيء إلى غيره حقاً كان أو باطلاً وإذا كانت المهمة ثابتة عليه بهم غيره بالاشترائك بها ليمهد بذلك العذر لنفسه

ومنها ارادة التصنع والمباهاة فينعص غيره ليرفع نفسه من قبيل «وبضدها تتميز الاشياء»

﴿ الامر الثاني من امري الخاتمة ﴾

(في بيان ما يؤثر في نفس الانسان)

تتمل النفوس البشرية من أمور ثمانية وهي الطمع والعين والاعتقاد والوهم وتأثير الكلام وتأثير الشعر والنظير والتفاؤل ويتبع ذلك ثلاثة أمور لها تأثير وان لم يكن بالنفوس وهي اللسان والمسكان

« الطمع »

أن الطمع يؤثر في النفوس أعظم تأثير فقد جاء في الحديث « ان الصناعات الزلاء التي

لا تثبت عليها أقدم العلماء تنحصر في الطمع « وفي الامثال « تقطع أعناق الرجال المطامع »
ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام « الطمع رق مؤبد » وقال الشاعر :
تعذب وعش حرأولائك طامعاً فما قطع الاعناق الا المطامع
وقلنا في الطمع :

وكم طامع قد ضاع ا في يمينه وما فاز فيما فيه قد كان طامعاً
حسب الفتى حسن الناعة بالذي لديه وأهنا الناس من بات قانعاً

ومن المأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله « احتج الى من شئت تكن أسيره
واستغن عن من شئت تكن نظيره وأنعم على من شئت تكن أميره » وأرسل شجاع بن
عقان الى أبي ذر الثقاري كيداً من الدرام مع عبد له وقال له ان قبل هذا فأنت حر
فأبى الغلام بالسكيس الى أبي ذر وألح عليه في قبوله فلم يقبل فقال له أقبه فان فيه تنقي
فقال نعم ولكن فيه رقي

وحكي عن عمرو بن العاص انه قال معاوية يوماً ما أشد حبك للمائة لأم لا أحبه
وأنا استعبد به مثلك وأتباع به دينك ومرهتك ???

وقيل ان الحجاج بن يوسف أرسل الى مالك بن دينار وجيب الاعمى واستدعى
بمال وقسمه شطرين فأعطى مالك بن دينار نصفه فأخذه وأعطى جيب الاعمى نصفه
فردده وانصرفاً فمر جيب بمالك بن دينار وهو يتشم المال على الفقراء فقال له يا جيب
لاجل ذمك قبلنا المال فقال له جيب دع هذا الكلام ولكني أسألك بالله العظيم أن
تخبرني أيما أحب اليك الحجاج اليوم أو قبل اليوم فقال مالك أما اذا حلفتني بالله فهو اليوم
أحب الي فقال جيب من هذا تركنا ماله فلا خير في شيء بحجب الي الحجاج

ومن ذلك ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله « سببت النفوس على حب
من أحسن اليها » وروي ان أحد الفضاة طلب من المهدي أن يغميه من القضاء فقال
ما السبب؟ قال تقدم الي خصمان منذ شهرين ولم أحكم بينهما رجاء أن يصطلحا فوقف
احدهما على بائع الرطب واتقى رطباً لم يوجد مثله ورشى بواني على أن يدخل الرطب
علي فلما وضع الطبق بين يدي أنكرت وطردته ورددت الطبق فلما قد اليوم مع خصمه
لم يتساوا في قلبي ولا عيني يا أمير المؤمنين فقلت في نفسي هذا حالي ولم أقبل هديته
فكيف لو قبلت؟ وقد فسدت الناس واني أخاف أن أهلك فأقاني أقالك الله من انصائب
فأقاله وهو آسف

وقال المأمون لأحمد بن يوسف أن أصحاب الصدقات تظلموا منك فتال والله
 يأمر المؤمنين ما رضي أصحاب الصدقات عن رسول الله حتى أنزل الله تعالى عليهم
 «وممنهم من ينزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون»
 فكيف برضون علي؟ فضحك المأمون وقال انظر في أحوالهم
 وجاء في الحديث أن عابداً عبد الله دهرأ طويلاً فقيل له إن ههنا شجرة يربدها
 قوم من دون الله فغضب لذلك وأخذ فأسه وتصد الشجرة ليقطعها فاستقبله ابليس في
 صورة شيخ وقال له أيها العابد أي ثمرة لك في قطع الشجرة وأنت تتفرغ للعبادة؟ فقال
 قطع الشجرة خير من العبادة فقال ابليس لأدعك تقطعها فتماسكا وأخذها البابد وصرعه
 على الأرض وقعد على صدره فقال ابليس اطلعتني حتى أكلت فقام عنه وقال ابليس
 إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا فاعبد ربك وما عليك من غير ذلك قال العابد لا بد لي من
 قطعها ثم تقاطلا ثانية نصرعه البابد وقعد على صدره وعجز ابليس عن التماس منه فقال
 هل لك أمر يفصل بيني وبينك وهو خير لك وأنتع؟ قال وما هو؟ قال اطلعتني حتى أقول لك
 فأطلقه فقال ابليس أنت رجل فقير وأنت كل على الناس ويجب أن تفضل على أخوانك
 فارجع عن هذا الأمر ولك علي أن أجعل في كل ليلة عند رأسك دينارين إذا أصبحت
 أخذتهما وأنفقتهما على نفسك وأخوانك وهو أنتع لك من قطع الشجرة التي يفرس الناس
 مكانها غيرها ولا يضرهم قلبها شيئاً ولا ينفع أخوانك المؤمنين قطعها فتنكر العابد قايلاً ثم
 قال صدق الشيخ إن الله لم يأمرني بقطع هذه الشجرة حتى أكون آتماً بتركها وما قاله
 الشيخ «وبريد ابليس» أكثر نعمة فعاذه على الوفاء بذلك ورجع العابد فرحاً إلى عبده
 فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذا في غده ثم أصبح في اليوم الثالث لم
 ير شيئاً فغضب فأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله ابليس في صورة الشيخ وقال إلى أين؟
 قال إلى قطع الشجرة فقال كذبت والله ما أنت قادر على ذلك ولا سبيل لك إليها فتناول
 العابد ليقطعها كما فعل أول مرة فقال ابليس هيات وتناول به بيده نصرعه فاذا هو كالمصفور
 بين يديه وقعد ابليس على صدره وقال يا هذا لتنتهين عن هذا الأمر أو لاذبحك فتظار
 العابد فاذا لا طاقة له به فقال يا هذا غلبتني نخل عني وأخبرتني كيف غلبتك أولاً وغلبتني
 الآن فقال كان غضبك لله أولاً وكانت نيتك الآخرة فلو قامت الخلائق لردك واجتهدوا في
 منعك وصدك لما ظفروا بك ولا قاموا بحربك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا
 فصرتك وهكذا خسر العابد في طمعه دنياه وأخراه معاً

ومن باب تأثير الطمع في النفوس ما ذكره ابن شهر آشوب انه خرج من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يوم حنين خالد السدوسي ونادي من يبايعني على الموت فأجابته تسعة آلاف فقاتلوا حتى بلغوا فسطاط معاوية فهرب معاوية فنهبوا فسطاطه وأتقدم معاوية اليه يا خالد لك عندي امرة خراسان متى ظفرت فاقصر ويحك عن فعالك هذه فنسكل خالد عنها فقتل أصحابه في وجهه وحاربوا الى الليل وظفروا دونه

والباعث على الممع شيء من الشره وقلة الأتقة فلا يقنع الانسان بما أوتي وان كان كثيراً لشره ولا يستكف مما منع وان كان حقيراً لقلته أنفته وهذه حال من لا يري لنفسه قدراً ويرى المال أعظم خطراً فيرى بذلك النفس أهون الامرين واجلها لها فيها وليس ان كان المال عنده أجل ونفسه عليه أقل أقل اصغاءاً لنا نيب ولا قبراً لنا ديب وروي ان رجلاً قال يا رسول الله أوصني قال عليك بالناس مما في أيدي الناس واياك والطمع فانه فقر حاضر الى آخر الحديث وقال بعض الشعراء :

ومن كانت الدنيا مناه وهمه سبته المن واستبدته المطامع

ولا يتخلص الانسان من شرور الطمع الا باحد أمرين أما اليأس أو القناعة ولكل منهما بحث يطول سيرد معنا في موضع آخر من هذا الكتاب

« العين أو النظرة »

قال أمير المؤمنين « العين حق والرقي حق والسحر حق والغال حق والطيرة ليست بحق والعدوى ليست بحق » الى آخر الحديث وقال عليه السلام في حديث آخر « العين حق ولا تأمنها منك على نفسك ولا منك على غيرك فاذا خفت شيئاً من ذلك فقل ما شاء الله لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » وعنه « من أعجبه شيئاً من أخيه فليبارك عليه فان للعين حقاً » وقال « لو كان شيء يسبق القدر لم يمت العين » وقال « مآل الناس لشيء طربى له الا وقد خبياً له الدهر يرم سوء »

أدخل على النبي صلى الله عليه وآله بابني جعفر بن أبي طالب وهما ضارطان فقال مالي أراهما ضارعين؟ قالوا تسرع اليهما العين فقال استرقوا لهما . وفي هذا الحديث وأما له دلالة على تأثير العين وأنها مؤثرة باعتبار أن النفس القوية بأصل خفتها تقوى على التأثير في غيرها فينقل منها ما هو أضعف منها من النفوس الساذجة ولهذا لا تؤثر العين في كل أحد وان هذا التأثير يندفع بالرقية بالاسماء والآيات لما هو مقرر أن الفيض متوقف على أسبابه

ومن تأثير الدين ما ذكره بعض العلماء أن نبياً من الانبياء استكثر قومه يوماً فأمات الله منهم مئة ألف في ليلة واحدة فلما أصبح شكى الى الله من ذلك فقال الله تعالى له انك لما استكثرتهم عنهم فماتوا؟ فقال يارب فكيف أحصيتهم قال تقول حصيتكم بالحصى الفيرم الذي لا يموت أبداً ودفعت عنكم السوء بلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم قال صاحب الكتاب وهكذا السنة في الرجل اذا رأى نفسه سليمة وأحواله معتدلة يقول في نفسه ذلك

وحكى بعض الثقات عن يروق به ان جماعة كانوا يخرجون الى الجبال لصيد الوعول والوحوش بالبندق (التفك) فقال رجل من الاكراد انا اخرج معكم غداً الى الصيد فخرج معهم فقالوا له اين آلة الصيد؟ قال هي معي وستنظرونها فلما بلغوا الجبل رأوا وعلا على قمته فقال انظر واكيف أصيد؟؟ وجلس ينظر الى الوعل ويشتبهه ويستعظم سحته وقرونه وعظمه فوثب الوعل من صخرة الى أخرى فاخطأ الصخرة ووقع من أعلى الجبل فانكرت يده ورجله فأخذه وذبحه. فقالوا له اخرج من بيننا فانا نخاف من عينك ذأخر جوه

وقال بعض العلماء «كان علماء الفرس والهند وأطباء اليونانيين ودهاة العرب وأهل التجربة من نازلة الامصار وخذاق المتكلمين يكرهون الاكل أمام الحيوانات المفترسة خوف أن يصابوا بعيونها لما فيها من الهم والشره ولما ينحل عند ذلك من أجوانها من البخار الرديء ويفصل من عيونها مما اذا خالط الانسان نقصت رية تلبه وأفسده. وكانوا يكرهون قيام الخدام بالمذاب والاشربة على رؤوسهم خوفاً من أعينهم عندما يمدقون وهم اكل. وكانوا يأمررون بأشباههم قبل أن يأكلوا. وكانوا يقولون في الكلب والسنور أما أن يطرد أو يشغل بما يطرح له

وجاء في كتاب هذا العالم أيضاً ما نصه «كان عندنا عيسانان (يعني رجلين عيونهم ما صيابة) فمر أحدهما بحوض من الحجارة فقال تالله ما رأيت الى اليوم حوضاً أحسن منه فاندع فلقطين. فمر عليه اثنان فقالوا عليك لعلمنا ضررت أهلك نيك تطاير أربع فلق» وللحكاه في تعابيل ذلك قول لا بأس به قالوا هذا عائد الى نفس العاين وذلك لان الهيولى مطيعة للانفس متأثرة بها الا ترى أن نفوس الافلاك تؤثر فيها بتناقب الصورة عليها والنفوس البشرية من جوهر نفوس الافلاك وشديدة الشبه بها الا ان نسبتها اليها نسبة المراج الى الشمس فليست عامة التأثير بل تأثيرها في أغلب الاحيان في بدنها

خاصة ولهذا تشتد حرارة دم الانسان عند غضبه ويستمد جسمه للوقوع عند ما تصور النفس صورة من تحب وان كان بعيداً عنها وعلى هذا فتصور النفس قد أصبح مؤثراً فيها هو خارج عنها لانها ليست حالة في البدن عندهم فلا يستبعد وجود نفس لها جوهر مخصوص يخالف غيره من جواهر النفوس تؤثر في غير بدنها . ولهذا يقال ان طائفة من أهل الهند والمهم البراهمة يتنلون بالروح . نقول ومن هذا القبيل الاصابة بالعين وهو ان تستحسن النفس صورة مخصوصة وتمعجب منها وتكرن تلك النفس خيئة جداً فينفعل جداً جسم تلك الصورة . طبعاً لتلك النفس كما ينفعل البدن بالسم

« تنبيه » ولا بد لنا من الاشارة هنا الى مذهب علماء الفرنيجة المصري الملقين بالطيبين في مسألة اصابة العين وما شاكلها مما لا يجدون له حلاً طبيياً فان هؤلاء العلماء لا يسلون بما لم يقفوا له على سبب ظاهر محسوس ولذلك ينكرون تأثير العين وكل ما هو من نوعها فاذا حجبتهم بألوف الحوادث المشاعدة والتي تشهد يومياً وباجماع الناس حتى أهل الفرنيجة على اصابة العين قالوا لك عن اعتقاد الناس هذا أنهم واممون واذا توسعوا قالوا نعم انه بحري حوادث يتوهم الناس أنها من تأثير «العين» ولكن لا بد ان تكون لها أسباب مازاله سرها غامضاً وما كان هذا منهم عناداً ضد المشاهد المحسوس ولكن للمحافظة على المبدأ الذي اتخذوه لانفسهم وهو ان لا يسلوا بأمر ما لم تتضح لهم أسبابه بصورة محسوسة ولكن بما ان العلم المصري لا يزال ناقصاً جداً وفي كل يوم يكتشف العلماء الطبييون ما كانوا يجهلون في أمسهم حتى أصبحوا يشتغلون بالارواح وعلاقتها بالاجسام البعيدة والقريبة فلا بد لهم من يوم يحيى يعترفون فيه بما يعتقدونه الناس أجمع من تأثير اصابة العين وحينئذ يوضحونها بأسبابها والله أعلم

« الاعتقاد »

قال محمد بن زكريا ينبغي للطبيب ان يبشر أبداً بالشفاء وان كان غير واثق منه فان المزاج تابع لاعراض النفس . وروي انه عند ما ضرب الفضل بن يحيى مثنى سوط جبهته اليه بالطبيب ايمالجه فقال احب به ضرب خمسين سوطاً فليل له بل مثنى سوط قال الطبيب لا اظن هذا الا أثر خمسين سوطاً وأخذ يمالج المريض حتى اذا ما نبت لحمه قال انحنظ قولتي هذا أثر خمسين سوطاً قال نعم قال والله لو ضربت ألف سوط لما كان بأثرها أشد مما كنت عليه وانما قلت ما قلت لتقوي نفسك فتبينني على علاجها وقيل ان صاحب شيروان عبد الله خان كان رجلاً تركياً فأصابه يوماً القولنج فرأى

الطبيب محمود عماد الدين أن يحقنه وكان طبيباً حاذقاً فسأله عبد الله خان عن الحقنة وكيف تكون فأخذ بوصفها بقوله أن يوضع في الاست أنبوبة فقال الخان غاضباً باست من؟ وكان فاسقاً فتأكأ نخاف الطبيب مغبة غضبه وقال في استي أنا فسكن ما به وأمر الطبيب أن يُحقن فرضي الطبيب بذلك حقناً لدمه وانفق أن عبد الله خان بري من علته فأجازه وتأثير الاعتقاد على النفس لا يكاد ينكره أحد وإن لم يسلم به علماء الفرنجة الطبيميون المصريون حتى نقلوا لنا بان طائفة من أطباء أمريكا أخذوا يطيبون مرضاهم من طريق الاقتناع بان يدخل الطبيب عند مريضه ويأخذ باقتناعه بكل ما أوتي من ذلاقة لسان بانه غير مريض ولا يزال به حتى يعتقد بنفسه الصحة ثقة بطيبه فيد في « الوهم »

جاء في نهج البلاغة ان سُئل أمير المؤمنين عليه السلام بأي شيء غابت الاقران فقال ما لقيت أحداً الا وأعاني على نفسه يومي وذلك لتمكن هيته من القلوب قال الشارح ابن أبي الحديد قالت الحكماء « الوهم يؤثر » وهذا حق ألا ترى العليل اذا تقرر في وهمه انه مرضاً قاتلاً ربما هلك بالوهم؟ وكذا من تلسعه حية ويقع في خياله أنها قاتنته فانه لا يكاد يسلم منها . وقد ضربوا لذلك مثلاً بلماشي على جزع . شرف على مهواة فان توهمه بقرب سقوطه يورثه الاضطراب وقد بسقطه والافشيتة على الجزع وهو منصوب على المهواة كشيته عليه وهو ملقى على الارض لافرق بينهما الا الوهم والاشفاق والحذر فكذلك الذين بارزوا اعلياً من الابطال لما كان قد طار صيته واجتمعت الكلمة على انه ما بارزه أحد الا كان مقتولا غلب الوهم عايمهم فقصرت أنفسهم عن مقاومته وانخذلت أيديهم عن مناهضته وكان عليه السلام في الغاية القصوى من الشجاعة والاقدام يقتحم عليهم فيقتلهم

أقول هذا تعليل ابن أبي الحديد وهو في نظري موضع بحث فقد يكون للوهم تأثير على النفوس فيضعفها ولكن ما لا شك فيه ان أمير المؤمنين سيدنا علي عليه السلام ما كان له من يقاويه وظالما فشل الكثيرون الذين حاولوا التسطي عليه وانباء قوته عليه السلام وغلبته بها لقد شهدت بها ملائكة السماء الذين ناشدوه قائلين :

لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي

ولقد اعتقد علماء أوروبا وأمريكا المصريين بتأثير الوهم وانه يقتل بعد ان أحرروا التجاريب الكثيرة ورووا لنا أن بعض المحققين في أميركا أرادوا أن يتمحنوا تأثير

الوهم فجاءوا بجنان محكوم عليه بالاعدام وأومروه انهم سيقتلونه نصداً وأجلسوه على كرسي وغطوا وجهه وعينيه وكشفوا عن زنده وجاء أحدهم فأمر على زنده مبضعه وهو يومه انه جرحه وجعل الثاني يدفع عليه ماءً أحراراً يمثل حرارة الدم ايها ما له بأن دمه أخذ يتدفق بينما كان الثالث ماسكاً بنضه وهو يقول بين حين وآخر لقد خفف النبض ونفذ الدم وازال كذلك الى عشرة دقائق ثم قال ماسك يده في انقضائها انه مات ثم كشفوا عن وجه الجاني فاذا هو قد مات بومه فعلاً وأشبه هذه الحوادث في اختباراتهم كثير أقرت واما على تأثير الوهم في الانسان ما أصبح بده حقيقة راهنة

والاصل في تأثير الوهم ما قرره من أن الاحوال الجسدية تنابعة للاحوال النفسية فتأثر بمؤثراتها حتى يصبح النخيل حقيقة أو شبه حقيقة

واعلم أن تأثير الوهم لا يختص بالانسان وحده بل يؤثر في سائر الحيوانات حتى قيل أن الهرم في جملة حيله على اصطياذ الفأر يستعمل التوهيم فاذا كانت الفأرة في السقف والهرم في الارض تلاعبت لها ووثبت من الارض توهمها انها تقدر على الوصول اليها فنسد ذلك يغلب الوهم من الفأرة فتتحلل عزائمها وتمتعل حواسها فتقع على الارض فتصيدها

وللوهم آثار عجيبة يكاد العنل ينكرها لولا المشاهدات وقد حدثني من أتق به أنه خرج لزيارة الحرم الشهيد وبات مع جماعة من أصحابه هناك فيبيناهم جالسون اذ سقطت حية من السقف ووقعت على رجل منهم كان نائماً ثم انسابت الى حفرة وبهد ذلك استيقظ الرجل فقال اني شعرت بثقل مررت علي فقبل له تصارعنا فوقنا عليك ثم ان رجلاً لم يستطع السكتمان فخره بخبر الحية فاخذته الحمي من ساعته وبقي عليلاً ثلاثة أشهر ومات كل ذلك بتأثير الوهم

وللوهم ما هو أغرب من هذا روي أن أميراً نزل بقريه فاحتاج الى مزين يتقص شعره ولم يشأ أن يستدعي اليه مزيناً بل جد في طابه منفرداً حتى اذا ما بلغ دكانه قال له أنا حاجب هذا الامير الذي قد نزل بكم فقص شعري فان وجدتك حاذقاً في صفتك جاء الامير وقص شعره واما فعل ذلك خوفاً من أن يعلم المزين بانه الامير فتأخذ هيبته بالوهم فيجرحه

ومن نوادر الوهم ما روي لنا قالوا أن رجلاً توهم بان في رأسه بطيخة وعجز أهله وصحبه من اقناعه بانه واهم بكل طرق الاقناع العقلية وقصد الاطباء نصاروا

يضحكون عليه ويحسبون به مسأاً الى أن وصل الى طيب نبيه فشكا اليه ثقل البطيخة التي في رأسه فظهر الطبيب التصديق وجعل يمس رأسه عليه بيديه وهو يستمع حجب البطيخة ويقول لا بد من استعمال الموضع لازالتها وأمره بالحال أن يعود الى بيته ويستعمل كذا وكذا من العلاج الى صباح اليوم التالي حيث ياتيه بمباضعه ويخرج البطيخة من رأسه فرجع الواهم الى بيته وقال لاهله أرايتم كيف أني كنت على حق وان الطبيب فلان عرف موضع البطيخة من رأسي وأنه في صباح الغد سيخرجها بمبضه وأخذ في استعمال العلاج الذي وصفه له وفي صباح اليوم التالي جاء الطبيب بمباضه وأمر الواهم فاضطجع على فراشة وأعطاه مخدراً فنام ثم جرحه جرحاً بسيطاً وكان أعده بطيخة معه فوضعا بجانب رأسه ونهيه وهو مربوط الرأس فاذ رأى البطيخة بجانب رأسه المربوط باللفائف البيضاء شني من وهمه

وهكذا لا دواء لشفاء الوهم الا مسارة الموهوم بما يتوهم وايهاه بزوال ما كان فيه من الوهم بالطرق التي يزول بها لو كان اياه حقيقة لا وهماً وهذا وحده يمكن شفاء داء الوهم الذي يعترى الكثيرين ويسميه الاطباء « نورستانيا »

وقد يغلب الوهم على الانسان فيظن الاشياء على حسب الغالب على طبعه وعند ذلك يرتكب ما لا ينبغي بدون أن يتروى من ذلك ما رواه شهاب الدين أحمد الطفاشي في كتاب مرشد اليب أن رجلاً من المنزلة حتى جنابة فاخذ جنود الحاكم يجرونه فاجتمع الناس عليه وكان فيهم امرأة فضولية فسألت عن خبره فقيل أنه معتزلي حتى جنابة فخلعت نعلها وجعلت تصنعه به فقيل لها لم تصنعه ولست عالمة بامره ؟ قالت أليس يزل عن النساء والعزل مكره شرعاً تضحك الجماعة من قولها وما سبق الى وهمها قال المؤخرون لما مدح النحاس بن فروخ بقصيدته التي أولها « بات ساهي الطرف والشوق يلح » ولم يكن له حفظ توهم انه عناء وعرض بهجائه في قوله :

كل عيش ينقضى ألم يكن مع مليس ما لذاك العيش مالح

لان ابن فروخ كان أعور ذم المنظر فاعرض عنه ومنعه الجازة وكذلك لما أنشد ذو الرمة عبد الملك قوله « ما بال عينك منها الماء ينسكب » وكان يعين عبد الملك مرض لانزال عينه تدب منه سبق الى وهمه انه يمرض فيه فقال وما سواك عن هذا يا جاهل ؟ وأمر باخراجه وكذلك فعل هشام ابنه بابي المنجم لما أنشد : صفراء قد كادت ولما تفعل كأنها في الافق عين الاحول

وكان هشام إنما يعرف بالاحول فسبق الى وهمه انه عرض به فامر بطرده
وقد تظهر المحبات بتسليط الوهم على الناس من ذلك ما روي عن النبي سليمان
عليه السلام ان جاءه أحدهم وشكى له سرقة أوزة فنادى سليمان الناس الى صلاة جامعة
ثم خطب فيهم وقال في جملة قوله وأحدكم يسرق أوزة جاره ثم يدخل المسجد والريش
على رأسه فسح رجل رأسه فقال سليمان خذوه فانه صاحبكم
ومن هذا القبيل ما روي عن رجل واسمه موسى كان قد سرق شيئاً ووضعها في
يمينه ودخل المسجد يصلي فتلا الامام قوله تعالى « وما تلك بيمينك يا موسى » فرمى
الرجل ما سرقه وهروا خارجاً وهو يقول لا شك أنه ساحر
ومن هذا القبيل أيضاً قولهم في مثل مشهور « كصاحب البعرة » والنقصه أن
رجلاً كان له ظئفة في قوم فجمعهم ليستبرههم فاخذ بعرة وقال اني ارمي ببعرتي هذه
صاحب ظئفي فجنل له أحدهم وقال لا ترمي ببعرتك فاخصم على نفسه وهذا المثل
يضرب لكل من يظهر على نفسه ما لم يطلع عليه الناس من أعمالهم ومثله قولهم « يكاد
الريب أن يقول خذوني » لأنه يزعم أن الناس مضطلعون على دخيلته
ونقل قطب الدين الراوندي بسند صحيح أن رجلاً أخذ مع ابنه أحد غلماناه الى
الكوكة فتخاضعا في الطريق فضرب الابن الغلام فذكل هذا عنه وسبه حتى ادعى انه
وهو ابن سيده مملوكه وتحاكما الى أمير المؤمنين فقال لفتنبر ألقب في الحائط فتبين ثم
قال لكل منهما أدخل رأسك في هذا الثقب وقال لفتنبر علي بالسيف سيف رسول الله
صلى الله عليه وآله وعجل ضرب رقبة العبد منهما قال فأخرج الغلام رأسه مبادراً
ومك الحرة صابراً فعرف حينئذ الخائفة من هو الغلام وأدبه على ما صنع ثم رده الى
مولاه بعد أن قال له لئن عدت لاقطعن يديك
وحكى أن رجلاً اشترى يوماً سمكة وقال لاهله اصلحوه ونام فأكل عياله السمك
ولما خيرا يده فلما انتهى قال هاتوا السمك تاو اقد اكلته قال لا قالوا بلى ثم يدك فشد بها
وقال صدقتم ولكن كأي ما شبت لاني لا أزال أشعر بالجوع
وقال الجاحظ كان رجل يرفي الاضراس ساخرأ بالناس ليا خذ أموالهم وكان يقول
للذي يرقه اياك أن يخطر على قلبك الليلة ذكر الفرد فيرجع الوجود الى ضررك فتببت
وجماً فيذهب الوجود وهو يعالج أن لا يذكر الفرد والوهم بصوره له فيحسب ان
عدم شفائه لذكوره الفرد وفي اليوم التالي يرجع الى الدجال شاكياً فيقول له لعلك

ذكرت الفرد فيقول نعم فيقول من ثم لم تفعلك الرقية
 وذكر أبو الفرج بن الجوزي في كتاب الاذكياء عن داود بن رشيد قال قلت
 لهشيم بن عدي بماذا استحق سعيد بن عبد الرحمن ولاية القضاء من المهدي وأزله منه
 تلك المنزلة الرفيعة؟ قال ان خبره نظريف اعلم انه أتى الى باب الخليفة فوافى حاجب
 الربيع وقال له استاذن لي على أمير المؤمنين المهدي فاني قد رأيت له رؤيا صالحة وأحييت
 أن أذكرها له فقال له الربيع ان الناس لا يصدقون أحلامهم فكيف يصدقون أحلام
 غيرهم فاحتل بحيلة غير هذه فقال له ان لم تخبره بذلك أسأل من يوصلني اليه دونك وأخبره
 اني سألتك الاذن فلم تقبل فخاف الربيع الوشاية ودخل على المهدي وقال له انكم أطمعتم
 الناس بانفسكم وقد احتالوا لكم بكل ضرب من الحيل فقال المهدي هذا صنع الملوك فماذا؟
 قال رجل بالباب يزعم انه رأى لأمير المؤمنين رؤيا صالحة وقد أحب أن يتصها عليك
 فقال المهدي ويحك يا ربيع اني أرى الرؤيا لتتحي فلا تصح فكيف اذا رآها لي من ليله
 وفتعها؟ قال لقد قلت له مثل هذا فلم يقبل قال فهات الرجل فخرج وأدخل عاياه سعيد
 بن عبد الرحمن وكان صبيح الوجه حسناً جميلاً له هيئة ووقار ولحية منسدلة ولسان
 فصيح حاد فقال المهدي هات بارك الله عليك ما رأيت فقال يا أمير المؤمنين رأيت آت
 أتاني في المنام فقال لي أخبر أمير المؤمنين انه يعيش في الخلافة مدة ثلاثين سنة وآية
 ذلك بري ليلته هذه في منامه انه يتقلب ياقوتين يديده ثم يمدده فيجده ثلاثين ياقوته وكانها
 قد وهبت له فقال المهدي ما أحسن ما رأيت ونحن نمتحن ذلك في هذه الليلة فان كان الامر
 على ما ذكرته أعطيناك كلما تريد وان كان بخلاف ذلك لا نعاقبك لعلنا ان الرؤيا ربما
 صدقت وربما اختلفت قال سعيد فماذا أصنع أنا الساعة اذا سرت الى منزلي صفر اليدين؟
 وقد علموا اني كنت عند أمير المؤمنين فقال له المهدي وكيف نصنع؟ قال تعجل لي يا أمير
 المؤمنين بما أحب وأحلف لك بالطلاق اني كنت صادقاً في رؤياي فامر له بشرة آلاف
 درهم وأمر أن يؤخذ منه كفيل فخذ نظره فرأى غلاماً حسن الوجه واقفاً على رأس
 المهدي فقال هذا الغلام يكفلي فقال له المهدي أنت تكفله فاحمر وجه الغلام خجلاً
 وقال نعم فاستاذن سعيد وانصرف وفي صباح اليوم التالي أرسل المهدي فاستدعى سعيداً
 فلما مثل بين يديه ووقع نظره عليه قال سعيد هل رأى أمير المؤمنين شيئاً فتلجأ للمهدي
 في جوابه فبادره سعيد قائلاً امر اني طالق لن لم تكن رأيت ماذا كرت لك فقال المهدي
 ويحك ما أجراك على الحلف قال لعلمي يقيناً اني أحلف صادقاً فقال المهدي بوالله قد

رأيت ذلك يقيناً قال له سعيد الله أكبر أنجز لي ما وعدتني قال حياً لله وكرامة فامر له المهدي بثلاثة آلاف دينار وعشرة نخوت ثياب وثلاث مراكب من أحسن دوابه فاخذ ذلك وانصرف فبعمه ذلك الغلام الذي كفله وقال اسالك بالله العليم هل كان لهذه الرؤيا حقيقة فقال له سعيد والله لو لا انك واجب الحق علي لما قد اوليتني من احسانك حيث تكفلت بي لما كنت اخبرتك والله ما رأيت شيئاً ولا اصل لهذه الرؤيا فقال وكيف ذلك؟ وقد رأى امير المؤمنين جميع ما ذكرته له فقال له هذا من الخوارق السكبار التي لا تتوجه لها امثالكم اعلم واكرم اني لما ذكرت له الرؤيا اشتغل فسكره وتعاق خاطره بها فلما نام خيّل له ما كان في قلبه مما شغل فسكره وتعاق خاطره به فرأى ذلك في منامه لان الانسان اذا نام وفكره مشغول بشيء رآه في النوم فقال له الغلام ركبت نجرأت وحلفت له بالطلاق على صحته؟ قال اني حلفت واحدة وبقيت اثنتان علي فايزيد في المهر عشرة دراهم من الذي حصل لي من نعم امير المؤمنين التي نلتها كفارة لقسمي وارجع الى امرأتي فبهت الخادم من ذكاء الرجل ودهائه وانصرف سعيدو بعد ذلك قرّبه المهدي منه حتى عينه في القضاء.

ومن آثار الوهم غلبتها على الجوارح حتى يظهر أثرها عليها كغلط وشبهة فمن ذلك ما قيل انه دخل رجل على المستبين العباسي وقبّاهه مخزوق فسئل عن ذلك فقال اجتزت بالدرب وكان نيم كلاب لم أره فوطئت فبناه فخرق ذنبي ويريد فوطئت ذنبه فخرق قباني وقيل دخلت امرأة على عمر بن الخطاب وكان حاسر الرأس فدهشت المرأة فالتت ابا غفر حفص الله لك فقال عمر ماتقولين فقالت صامت من فرقتك وأرادت ان تقول اولاً ابا حفص شمر الله لك وثانياً فرقت من صلعتك

ونزل ابن الحمصاس يوماً من الخاقان الوزير في حراقسة وفي يده بياضة كافور فأراد ان يطبخها الى الوزير ويصق في دجله فرمى البياضة في الماء وبصق في وجه الوزير فازتاع الوزير وأزعج ابن الحمصاس وقال والله انهم لقد أخذت وتخطت أردت أن أبصق في وجهك وأرمي بياضة الكانور في الماء فقال وكذلك فعلت يا جاهل تغلط في الفعل وتخطي في الاعتذار

وحكى نسطويه عن حكيم بن عباس الكلبي انه اجتمع عند عبد الملك وفود الناس من قریش والمرب فيئنا هو في المجلس اذ دخل عليهم اعرابي وكان عبد الملك يوجب به فسر عبد الملك وقال هذا يوم سرور وأجلسه الى جانبه ودعا بقوس ورمى عنها

وأعطاها من على يمينه فرمى عنها حتى اذا صارت للاعرابي نزع فيها بقوة فضرط فرمى بها مستحياً فقال عبد الملك دهينا بالاعرابي وكنا نطمع بانسه واني أعلم انه لا يسكن مابه الا الطعام فدعا بالمائدة وقال تقدم يا اعرابي لتضرط وانما اراد لنا كل فقال له الاعرابي قد فعات انا لله واما اليه راجعون فقال عبد الملك لقد امتحنا هذا اليوم والله لأجعلها مذكرة يا غلام انتني بعشرة آلاف دينار فجاء بها فاعطاها للاعرابي فلما صارت له تسلى وانبسط ونسي ما صدر منه وأنشد على الاثر حكيم بن عباس الكلبي

ويضرط ضارط من عبد قيس فيجبوه الامير بها بدورا
فيا لك ضرطة جرت كثيراً ويا لك ضرطة أغنت فقيرا
يود القوم لو ضرطوا جميعاً وكان حياؤهم منها عنيرا
أيقبل ضارط ألفاً بألف فاضرط أصاح الله الاميرا

فتبسم عبد الملك وأجاز حكيم بن عباس بمثلا

« تأثير الكلام »

قال بعض المحققين اعلم أن للكلام تأثيراً في النفس ، كما تظهر آثاره في الحسن ، ولهذا ترى رقيق الشعر ، يفعل ما لا يفعله السحير ، وجليل العبارة ، فيه من الاثارة ، ما يشجع الجبان ، ويفتط الكسلان ، ويسخى البخيل ، ويهز الذليل ، ويسحر الارواح ، ويسخر الاشباح ، ويمطف القلوب : ويؤلف بين المحب والمحبوب : ويصير العدو صديقاً ، وغليظ الفؤاد رقيقاً ، اه قال الشاعر :

حديث لو ان الميت يؤتي ببعضه لأصبح حياً بعد ما ضمه القبر
وقلنا في هذا الباب :

كم من نصيح بحسن القول نال من ال آمال ما لم ينله صاحب المال
فلا تقل عزة الدنيا لجاهلها والذل ذل أديب رب أقال
فكم أديب تعالى في تأدبه ما فوق أهل الننى في ثوبه البالي

وقال الميداني في مجمع الامثال وفد على النبي صلى الله عليه وآله عمرو بن الاثم والزبيرقان بن بدر وقيس بن عاصم فسأل عليه الصلاة والسلام عمرو بن الاثم عن الزبيرقان فقال عمرو مطاع في أذنيه شديد العارضة مانع لما وراء ظهره فقال الزبيرقان يارسول انه ليعلم مني أكثر من هذا ولكنه حسدني فقال عمرو أما والله أنه لزم المروءة ضيق البطن أحق الولد لئيم الحال والله يارسول الله ما كذبت في الاولى ولقد

صدق في الاخرى ولكني رجيت فقلت أحسن ما علمت ورسخت فقلت
أقبح ما وجدت فقال رسول الله « ان من البيان لسحرا » يعني أن بعض البيان يعمل
عمل السحر ومعنى السحر اظهار الباطل في صورة الحق والبيان اجتماع النصيحة والبلاغة
وذكاء القلب مع اللسن وإنما شبه بالسحر لتأثيره على سامعه وسرته قبول القلب له
وكان بعض الاعراب يلزم شجراً ويقول هو نديم فيه ثلاث خصال ان سمع
مني لم يمت علي وان تفلت في وجهه احتمل مني وان عربت عليه لم ينضب فسمع
الرشيد ذلك فقال زهدني هذا الاعرابي بالندماء

ومن المستعذب ما يحكى عن الفضل قال دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد
وعندة جاريته مارية وكانت تحسن الشعر بديها وهي ذات أدب وحسن وجمال فقال
يا فضل قل في هذا الورد فانشدته الجارية مقاطعة الفضل:

كأنه لون خدي حين تدفعي يد الرشيد لامرر يوجب الغسلا

فقال الرشيد قم يا فضل فقد هيئتني هذه المجانبة فقلت وقد أرخيت الستور
وللامثال من الكلام موقع في الاسماع وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل
تبلغ مبلغها ، أو يؤثر تأثيرها ، لان المعاني بها الأمتعة ، والشواهد بها الواضحة ، والنفوس
بها رامقة ، والقلوب بها واثقة ، والعقول لها موافقة ، ولذلك ضرب الله الامثال في
كنايه العزيز وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها الحججة على خلقه لانها في العقول
معقولة وفي القلوب مقبولة وبالجملة فقد جُلبت القلوب على التائر بالامثال وثبتت المعاني
فيها بواسطة كذا الكناية عن الشيء يلزمه فان له في النفس أثر عظيم ولذلك عبر
القرآن بقوله « كن فيكون » عن نهاية القدرة وعبر بقوله عليه السلام « قلب المؤمن
بين أصبعين من أصابع الرحمن » عن سرعة التقلب

« تأثير الشعر »

قال الحكيم بن قنبر

مقالة الذم الى أهلها أسرع من منحدر سائل

قيل كان الرجل من نمر اذا قيل له ممن الرجل ؟ يقول من نمر وأمال بها عنقه
افتخاراً فلما هجاهم جرير بقوله :

فضض الطرف أنك من نمر فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

صار اذا قيل لاحدهم ممن الرجل يقول من بني عامر وما لقيت قبيلة من العرب
بهجو مالقيت نمر بهجو جرير . ومثل هذا ما قاله ابن نفيل في عبد الملك بن عمير القاهي :

إذا كلمته ذات ذلّ حاجة فهم بأن يقضي تنحج أو سعل
قال عبد الملك تركني والله وإن السعلة لتعرض لي في الخلاء فأذكر قوله فأهاب
أن أسعل

ومن تأثر الشعر في النفوس مارواه شاعرنا عبد المسيح بك انطاكيا قال نقل لي
جبرائيل الدلال الشاعر النديم الحلبي المعروف قال اتصل بمنيف باشا وزير المعارف
في الدولة العثمانية «وكان مجلسه مجلس أدب وعلم» عالم من أهل فاس وكان يبرمنا في
مجالسه حتى تضايق الوزير فأظهر التبرّم من هذا الضيف فقال الدلال أنا أ كفيك
الليلة قال ولكن أشرت أن لا تطرده طرداً قال هو كذلك وفي المساء انعقد عقد
الجلس وحضر الرجل ودار الحديث فقال الدلال للرجل هل لك في اعراب بيتين
أشكك عليّ اعرابهما فقال قل فقال :

أنا عالم من أهل فاس يجادل بالصحيح وبالقياس
وما فاس له بلدٌ ولكن فسا يفسو فساء أفوه فاسي

قال الدلال وما كاد صاحبنا يسمع البيتين حتى جمع ما تراخى من جيبه وأسرع
مهرولاً وكان آخر عهدنا به

ومن تأثر الشعر ما حكاه أبو اسحق الصابي في كتاب الناجي قال كان لمعز الدولة
غلام تركي يدعى بكين الجام وكان أمرده وضيء الوجه منهمك في الشرب لا يعرف
الصحو ولا يتأرق الهوى واللعب فلفرط ميل معز الدولة اليه وشدة إعجاب به جعله
قائد سرية جرها لحرب بعض بني حمدان وكان المهلبي يستظرفه ويستحسن صورته
وبرى أنه من عدد الهوى لا من عدد القوى فن قوله فيه:

طفلٌ يرقُ الماء في وجناته ويرقُ عوده
ويكاد من شيبه العذا رى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمقد خمرة سيفاً ومنطقة تؤوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده

فما كان بأسرع من أن دارت الدائرة على هذا القائد وخرج الأمر على ما أشار
اليه الحلبي بن أبي صفرة

وذكر صاحب جمهرة الامثال أن عامر بن مالك ملاعب الأسنه وفد على النعمان
في رهط من بني جعفر بن كلاب فيهم لبيد بن ربيعة فطعن فيهم ربيع بن زياد وذكر

معارهم ولم يزل به حتى صدّه عنهم فرجعوا الى جالهم يتشاورون في أمره فقال لبيد هو
 غلام يحفظ رحلهم اذا غابوا انا صاحبه والله اني جمعتم بيني وبينه لافضضته فقالوا اهج
 هذه البقلة وأشاروا البقلة امامهم رعى التربة فقال هذه التربة لانذكو ناراً، ولا تؤهل
 داراً، ولا تسترحاداً، عودها ضئيل، وفرعها ذليل، وخيرها قليل، أقبح البقول
 مرعى، وأقصرها فرطاً، وأشدّها قلعا، بلدها شاسع، وآكلها جائع، والمقيم عليها
 قانع، فلما أصبحوا غدوا به معهم فوجد الربيع يأكل مع النعمان فذكر الجمعيون
 حاجتهم فاعترض الربيع فقال لبيد:

أكل يوم هاتي مقرعه	يارب هيجبا هي خير من دعه
نحن بزوم البنين الاربعه	سيوف حق وجفان مترعه
ونحن خير عامر بن صعصعه	الضاربون الهام تحت الخيصه
والمطعمون الحفنة المددعه	يا واهب الخير الكثير من سعه
اليك جاوزنا بلاداً مسبهه	نخبر عنها خبراً فاسعه
مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه	فاسته من برص ملعه
وانه يوجل فيها اصبهه	يولجها حتى يوارى أشبعه

كأنا يطلب شيئاً ضيعه

فقال النعمان أ كذلك أنت ياربيع ورفع يده عن الطعام ثم قال قدموا لهذا طعاماً
 وأمر بالربيع فصرف الى أهله فكتب الى النعمان:

لان رحلت جمالي ان لي سعة	ما مثاها سعة عرضاً ولا طولاً
بحيث لو وزنت لهما بأجمعها	لم يدلو اريشة من ريش شعريلا (١)

فأجابه النعمان:

شرد برحلك حيث شئت ولا	تكثر علي ودع عنك الا بطيلا
قد قيل ما قيل ان صدقا وان كذباً	فما احتيالك في قول اذا قيلا

ومثل هذا ما وقع لابي نواس مع أبان اللاحتي على ما ذكر في كتاب طبقات الشعراء
 قال كان أبان اللاحتي شاعراً ظريفاً يمدح البرامكة وكانوا يولونه أمر تفرقة المال على
 الشعراء كلما أرادوا ذلك ففي ذات يوم أمروا له بال تفرقة وكان كثيراً فخطره له بمازحة
 أبي نواس فأرسل درهماً ناقصاً وكتب له اني أعطيت كل شاعر على قدره وهذا مقدارك

(١) شعريلا اسم طائر معروف

فوجد عليه أبو نواس فلما قال أبان قصيدته الحاثية التي بصفت فيها نفسه ويقتضت فيها عند
جعفر بن يحيى وهي:

أنا من حاجة الأمير وكنز	من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتبٌ حاسبٌ أديبٌ خطيبٌ	ناصرٌ راجحٌ على النصاح
شاعرٌ مفلقٌ أخف من الري	شمة مما تكون تحت الجناح
لو رأي الأمير عين مني	سمهرياً كالجلجل الصياح
لحية سبطة وأنفٌ طويلٌ	وانقاداً كشعلة المصباح
لست بالمفرط الطويل ولا بال	مستكين الحيد الدحداح
أبمن الناس طائراً يوم صيد	لغدورٍ دُعيت أم لروح
أبصر الناس بالجوارج والاك	اب والآخر د الصياح الملاح

وبنغ أبو نواس هذه القصيدة فقال والله لأعرفنه نفسه وأنشأ يقول:

ان أولى بخسة الحظ مني	بالمسي بالجلجل الصياح
قبلوا منه حيث خب لديهم	أخرس الصوت غير ذي انصاح
ثم بالريش شبه النفس بال	فة مما يكون عند الجناح
فاذا الشم من شاربخ رضوى	عنده خفة لدى السياح
لم يكن فيك غير شدين مما	قلت من نعمت خلتك الدحداح
لحية سبطة وأنفٌ طويلٌ	وهباء سواهما في الريح
فيك ما تحمل الملوك على الحر	ق وتررى بالسيد الجحجاج
فيك تبه وفيك عجب شديد	وطماخ يفوق كل طماخ

فلما انتهى شعر أبي نواس الى أبان اللاحقي سقط في يده ودلم انه لو بلغ البرامكة
نرات مرتبته عندهم وندم على ما كان منه فبعث الى أبي نواس لانهذها وذاك حكك بعت
اليه لو أعطيتني الدنيا لم يكن بد من اذاعتها فاصبر على حرارة كيهما واعرف الان قدرك
قال فدا سمع جعفر البرمكي شعر أبي نواس في اللاحقي قال والله لقد قد فنجس خصال لا تقبله
السفلة على واحدة منها فكيف تقبله الملوك؟

والحكايات في هذا الباب كثيرة في بيان تأثير الشعر في قائله أو فيمن قيت فيه

« التطير »

جاء في مفتاح دار السعادة « التطير انما يضر من أشفق منه وخاف أما من لم يبال

ولم يعبأ به فلا يضره البتة ولا سيما ان قال عند رؤية ما يتطير به أو سماعه « اللهم لا طير الا طيرك ولا خير الا خيرك ولا اله غيرك اللهم لا ياتي بالحسنات الا أنت ولا يذهب السيئات الا أنت ولا حزل ولا قوة الا بك » وأما من كان معتقداً بالتطير فهو أسرع اليه من السيل الى منحدره لما يفتح له من أبواب الوسوس فيما يسمعه ويراه ويفتح له الشيطان من المناسبات البعيدة والقريبة ما يفسد عليه دينه وينكد عليه عيشه » اهـ

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله « الطيرة على ما تجعلها ان هونها تهونت وان شدتها تشددت وان لم تجعلها شيئاً لم تكن » وقال ابن خلكان من قبيح ما وقع لابن نواس ان جعفر بن يحيى البرمكي بنى داراً استفرغ فيها جهده فلما كملت وانتقل اليها وصفها أبو نواس بقصيدة امتدح فيها جعفر وكان مطلعها :

أربع البلا ان الخشوع لبادي عليك واني لم أخذك ودادي

وجاء في بعضها :

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم بني برمك من را حنين وغادي

فتطير البراءة من هذه القصيدة وقالوا نعت لنا أنفسنا يا أبا نواس فما كانت مدة يسيرة حتى أوقع بهم الرشيد وصحبت الطيرة

وذكر الطبري والخطيب والبغدادي وابن خلكان وغيرهم ان جعفر بن يحيى البرمكي لما بنى قصره وتماهى بنيانه وكل حسنه واستكمل فرشاه وعزم على الانتقال اليه جمع المنجمين لاختيار وقت ينتقل فيه اليه فاختاروا له وقتاً في الليل فخرج في ذلك الوقت والطرق خالية والناس نيام فرأى رجلاً قائماً يقول :

تطير بالنجوم واست تدري ورب النجم يفعل ما يشاء

فتطير ووقف ودعا بالرجل وقال له أعد ما قلت فاعاده فقال ما أردت بهذا ؟ قال ما أردت به معنى من المعاني والسكنه خاطر عرف لي وجاء على لساني فأمر له بدينار وهضى لوجهه وقد تنص عيشه وتنقص سروره فلم يكن الا القليل حتى أوقع بهم الرشيد وبني عبد الله بن زياد داراً عظيمة فر بها مع بعض الاعراب رأى في دهليز صورة أسد وكلب وكبش فقال أسد كالح وكبش ناطح وكلب نابج والله لن يمنع بها صاحبها فلم يلبث عبد الله فيها الا أياماً يسيرة حتى مات

وحكي أن صاحب قرطبة أصابه وجع فامر بعض جواريه ان تغنيه ليأهوه عن

وجعه فغنت :

هذي اليا لمي علمنا أن ستطوينا فشمعينا بقاء المزن واسقينا
فتطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يتم بعد ذلك غير خمسة أيام ثم مات
ومن ذلك لما بنى السفاح داره بالانبار ودخل عبد الله بن الحسن فتمثل حين رأى
السفاح بهذا البيت:

يؤمل أن يعمر عمر نوح وأمر الله يحدث كل ليلة
فتغير وجه السفاح فاعتذر إليه عبد الله بأنه جرى على لسانه فامر عليه أيام حتى مات
ومن عجيب ما يحكي في التطير أن السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب لما
خرج من القاهرة إلى جهات البلاد الشامية أقام ظاهر البهد لتجتمع العساكر وكان
معه طائفة من العلماء والادباء والاعيان فأخذ كل واحد يقول كلمة في وداعه وكان في
الحاضرين معلم اولاده فاخرج رأسه وأشار إلى السلطان وأنشد البيت المشهور :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
فانقبض السلطان وتطير الناس من ذلك وكان الامر على ما قال فإنه لم يمد بعدها
إلى مصر واشتغل بفتوح القدس والمواحل حتى مات
وذكر القليوبي في نوادره قال حدث ابن مكى عن أبيه قال قال لي محمد الامين
في آخر أيامه يا مكى انى والله أحب أن أعقد يوماً قبل ان يحال بيني وبين ملكي فقلت
يا امير المؤمنين افعل فقال اغد علي في غد قال فانصرفت فعدا علي رسول في السحر
فجئت إليه وهو في صحن داره وعليه جبة مزركشة بالقصب تنالق وعمامة مثاها مارايت
شكلها على رأس احد قط ونحته كرسي من ذهب مرصع بالجواهر فدعا لي بكرسي
فجلست عليه عن يساره ثم قال لخدم علي رأسه ادع لي فلانة وفلانة حتى عدت أربع
جوار ما منهن الا وانا اعرف حذوقها وجودة غناها فخرجن وجلسن عن يمينه ثم قال
يا غلام علي برطل فاني برطل وجام بلور مكلل بالجواهر فالنفت إلى التي تليه وقال لها
غني فضربت ضرباً حسناً وغنت بشعر الوليد بن عتبة بن ابي معيط

هم أقتلوه كي تكونوا مكانه كما قتلت كسرى بليل مرأبه
بني هاشم ردوا سلاح أخيك ولا تنهبوه لآئحل مناهبه
قال فرمى بالجمام وسط الدار ثم قال لئنك الله ما هذا؟ قالت والله يا سيدي ما جاء
على لساني غير هذا ثم التفت إلى الغلام وقال له أسقني فانه بجمام مثل الاول فاخذه
وقال للثانية غني فتمنت ما قيل في كليب بن وائل :

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً وأيسر ذنب منك ذرّج بالدم
 فرمى بالحمام من يده فكسره ثم قال يا غلام علي برطل وقال للثالثة غني فغنت:
 أتقتل عمراً لا أبالك شاردأ وترعّم بعد القتل انك هارب
 فلو كنت بالافطار ما فتّ ضربتي وكيف تفوت الحين والندم طالب
 قال فرمى بالحمام وقال يا غلام علي برطل وقال للرابعة غني فغنت:

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسدور بمكة سامر
 بلادٌ ونحو أهلها فإبدنا صروف الليالي والخطوب الزواجر
 قال فالتفت اليّ وقال قد سمعت هذا انه لامر يريد الله عزّ وجلّ قال فما مضت
 أيام حتى رأيت رأسه معلقاً على القصر

وحدثنا شاعرنا عبد المسيح انطاكي قال ان التطير كثير في مصر والمصريون
 يسمونه فالاً ويمتقدون فيه فاذا كان الرجل ذاهباً بحاجته وسمع في طريقه كلمة طيبة
 انتظر الخير فيما هو ذاهب اليه وان سمع كلمة غير طيبة انتظر الشر قال وهذا اعتقاد
 عام يشمل الجميع وتأثيره ظاهر
 وحدثنا أيضاً بانّ التطير تعتقد فيه عامة الفرنجة فهم يتطيرون من عدد ١٣ فلا
 يجلسون للطعام وهم ١٣ نفساً ولا يعملون عملاً هاماً في يوم ١٣ من كل شهر ويكثر
 فيهم في النساء والرجال تعاقب حلية من الفضة أو الذهب وأحياناً مرصعة بالجواهر وعليها
 عدد ١٣ ويلقونها رقية لهذا العدد الذي يتطيرون منه

« النفاؤل »

والنفاؤل كالنطير الا انه يكون بالخير والفرق بينهما التسمية اللفظية وضرور النفاؤل
 كثيرة منها النفاؤل بالاستصباح كأن يخرج الانسان من بيته فاذا رأى أول انسان حسن
 الوجه تفاءل خيراً أو قبيح الوجه تفاءل شراً
 وكذلك النفاؤل بسماع كلمة من فم أحد أو مطلع قصيدة أو نحوه على ما رأيت
 في التطير وهذا بذور خاص شأن أهل مصر
 ومن النفاؤل ما يكون بالاسماء روي أنّ هاشم بن عبد الملك تفاءل باسم نصر بن سياد
 فولاه خراسان وبقي عامه عليها عشر سنوات وتفاءل عامر بن اسماعيل قاتل مروان
 ابن محمد باسم رجل يدعى منصور بن سعد فقال له من أي قبيلة؟ قال من سعد العشيرة
 فاستصعبه وطلب مروان فظفر به فقتله

وتقابل المأمون بنصور بن بسام فكان سبب مكاته عنده
وقيل ان اليد اليسرى كانت تسمى في الاصل العسرى ولكنهم أطلقوا عليها اللفظ
اليسرى تفاؤلاً ومن هذا القبيل تسميتهم الاعمى بالبصير والديغ بالسليم والقطع بالجبر
وفي الحديث قال سعيد بن المسيب بن خزن بن أبي وهب الخزومي قدم جدي
مزن على النبي صلى الله عليه وآله فقال له ما اسمك؟ قال حزن قال رسول الله بل سهل
قال ما كنت لادع اسماً سميتي به أمي قال سعيد فانما نجد تلك الحزونة في أخلاقنا
الى اليوم

وكان النبي صلى الله عليه وآله يحب النفال الصالح والاسم الحسن ويكره الطيرة وكان
يقول «ليس منا من تطير أو تطير له» ويروى انه صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير من
شيء وكان اذا بهت جاملًا سأل عن اسمه فاذا أعجبه سر به وظهر الاستبشار من ذلك
على وجهه الكريم وان كره اسمه ظهرت الكراهية على وجهه وكان اذا دخل قرية
سأل عن اسمها فان أعجبه ظهر على وجهه. وعنه صلى الله عليه وآله انه قال يوماً من
يحاب هذه اللقحة فقام رجل فقال ما اسمك فقال مرة قال اجلس ثم قال ثانية من يحاب
هذه اللقحة؟ فقام رجل فقال ما اسمك؟ قال يعيش فقال صلى الله عليه وآله احلب
وكان صلى الله عليه وآله كثيراً ما يتفاهل بالاسماء ونحوها من الكلمات الطيبة في الحرب
أو السفر أو غيره مما يأتي به من الافعال وأنت تعلم ان اتأسي به سنة

وفي السير انه صلى الله عليه وآله لما خرج الى بدر مرة برجلين فسأل عن اسميهما
فقال أحدهما مسالخ والاخر مخذل فعدل عن طريقتهما وليس هذا من الطيرة التي نهى
عنها عليه الصلاة والسلام بل من باب كراهية الاسم القبيح وكذلك تشاؤمه من اسمه مرة
لانه اسم لابن الشيطان وبه كني ابايس أبا مرة أو لاشتقاقه من المرارة وكذلك
كراهية لمن اسمه حرب وكان صلى الله عليه وآله يكتب الى امرائه اذا أبردتم الي
بريداً أبردوه مع حسن الاسم حسن الوجه ونزل صلى الله عليه وسلم على كاثوم بن
الهدم فصاح بغلام له يا نجيح فقال أنجحت يا كاثوم وسمع صلى الله عليه وآله رجلاً
يقول يا حسن فقال أخذنا فالك من فيك

ومن ظرائف ما يروى عن الاماء ونورده هنا لتفككه ما نقله لنا شاعر ناعبد المسيح
بك انطاكى قال نقل لي أحد الثقات بحلب عن مزين من عامتها قال خرجت مرة للتجول
شرقي حلب فررت بعشار عزة فنزلت على يدت فيسه صبية ناهد فرحبت بي حسب

عوائد العرب وأخذت دابتي فسقتها وأعلفتها ثم جاءني بما تدسّر لطعامي وإذا شاب
عربي دخل علينا ضيفاً فرحبت به الجارية وقالت ما اسم الضيف : قال اسمي بوجهك
قالت مرحباً بحسن ثم قال الشاب وما اسم معزتي؟ أي مضيفتي قالت اسمي بسيفك قال
مرحباً بفتته أما أنا فاعجبت مما قالوا من السكنى اللطيفة ثم مالت اليّ الجارية وقالت
ما اسم معزتي؟ أي ضيفي فقلت والله لا أعرف ما تعرفان أنا اسمي الحاج محمد من محلة
باب الزيرب بجلبب فضحكا وضحكت ثم انصرفت وأنا معجب بذكاه قومي العرب في
باديتهم رجاهاهم في حضارتهم

تمة

« في تأثير اللسان والمكان »

أما تأثير اللسان فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله « ان البلاء موكل بالمنطق »
وروي أن يوسف عليه السلام شكى الى الله طول الحبس فأوحى اليه « يا يوسف
أنت حبست نفسك حيث قلت ربي السجن أحب اليّ ولو قلت العاقبة أحب اليّ
لعوفيت » وحكي أن المؤمل بن أميل الشاعر لما نك يوم الحرّة :
شفّ المؤمل يوم الحرّة النظر ليت المؤملم بخناق له بصر

عربي وأناه آت في منامه فقال هذا ما طابت

وحكي أن نور الدين محمود وهام الدين ركبا في يوم عيد وخرجا للتفرّج فتجاولا
في السكلام ثم قال محمود يامن درى هل نعيش الى مثل هذا اليوم؟ فقال له هام الدين
قل هل نعيش الى آخر الشهر؟ فإن العام كثير قال فاجرى الله على منطلقها ما كان
مقدراً منذ الازل فأت أحدهما قبل تمام الشهر والآخر قبل تمام السنة

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام « ارجاف العامة بالشيء دليل على مقدمات
كونه » أقول ونرى تصديق ذلك في كثير من الامور التي تلهم بها العامة فتقع فعلاً
ولذلك قالوا « السنة الخلق أقلام الحق » وبالاختصار نقول ان تأثير اللسان من الامور
المحسوسة المشاهدة

وأما تأثير المكان فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال « الشؤم في
الدار والمرأة والفرس » وفي لفظ آخر « ان يكون شيء من الشؤم حق ففي الدار
والمرأة والفرس »

وروي أن رجلاً أخبر النبي صلى الله عليه وآله أنهم سكنوا داراً وعددهم كثير

وما لهم وفيه فقل العدو ذهب المال فقال له دعوها فانها ذميمة وأمرهم بالخروج منها
وقال عبد الملك بن عمر السكوفي كنت عند عبد الملك بن مروان بقصر الكوفة
المعروف بدار الامارة حين جيء برأس مصعب بن الزبير فوضع بين يديه فرآني وقد
ارتعت فقال مالك؟ فقلت أعيدك بالله اني كنت بهذا القصر بهذا الموضع مع عبيد الله
ابن زياد فرأيت رأس الحسين بن علي عاينها السلام بين يديه بهذا المكان ثم كنت فيه
مع المختار بن أبي عبيدة الثقفي فرأيت رأس عبد الله بن زياد بين يديه ثم كنت فيه مع
مصعب بن الزبير هذا فرأيت رأس الحمار بين يديه ثم هذا رأس مصعب بين يديك قال
فقام عبد الملك من موضعه وأمر بهدم الطاق الذي كنا فيه

وقيل ان في همدان خاصة وهي ان لا يكون الانسان فيها حزينا ولو كان ذا مصيبة
ويغلب على أهلها الهم والطرب وعدوبة اللسان ولطافة الطبع وحسن الخلق والغالب
على أكثرهم البدهاة وقيل في ذلك

لا تلمني على ركاكة عقلي ان تبقت اني همداني

وقيل في قبرس وهي جزيرة في بلاد الروم قريبة من بيروت انها ذات عجائب
منها ان من حفظ شيئاً بارضها لا ينساه مبالغة بصفاء مناخها بحيث يصفوبه الذهن
فيستعد للحفظ وينسبون الى هذه الجزيرة سقراط وأفلاطون (١)

وبالجملة فلكل مكان تأثير خاص أودعه الله فيه فبعضها محسوس وبعضها غير
محسوس وأنا أعيدك بالله يا ابن ودي ان تظن اني أقول بان هذه التأثيرات للسان أو
المكان أو لغير ذلك بل ذلك ما أودعه الله فيه من قبيل ايداع النار بالزناد

(١) ومن هذا القبيل ما هو معروف في العراق اليوم بأن الحمرة دار الانس
والصفاء ساد هذا الاعتقاد في العراق حتى تسمعه في مصر فالشام في بلاد ما بين النهرين
وذلك ان هذا البلد البهيج في موقعه المؤنس في أهله من يوم ولاية عظمة مولانا الشيخ
خزعل خان المعظم أصبح مقصد القصاد ومورد الوراد فيجد فيه العلماء والشعراء والادباء من
فضل عظمة الامير جرد أو احساناً ويجد فيه التجار والمرزقة بمدل عظمة الامير ما يروج
متاجرهم ويريد في أربابهم ويجد فيه الخائفون أماناً بظل ظليل سعوته حفظه الله ولذلك بات
أهل العراق والشام ومصر أيضاً أذراً أو معسراً أو حزيناً يقولون له «عليك بالحمرة حيث جلاء
السكدر، ورواج المتجر، ومقام الرغد والهناء، وزوال النكد والعناء» فبارك الله بالامير
الذي جعل أمارته مورد الخير والبركات كما قيل «بجوارها تغلو الديار وترخص»

﴿ المورد الثاني ﴾

وهذا المورد يشتمل على مقدمة وخمس رياض وخاتمة
 الروضة الاولى - في فضل العقل وعمراته
 الروضة الثانية - في ذم الجهل والغباوة
 الروضة الثالثة - في الاستدلال بالعقل السليم
 الروضة الرابعة - في الامور الحاجبة للعقل
 الروضة الخامسة - في الامور الكاشفة
 الخاتمة - نظرة اجمالية

﴿ المقدمة ﴾

﴿ في العقل وأحكامه علماً ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله
 الذين شادوا الدين، وبعد فاعلم أن أكثر ما ذكرناه عن أحوال النفس في المورد الاول
 قد أنعم الله به على الحيوان والانسان، اذ للحيوان أيضاً ما للانسان من الشهوة والغضب
 والحواس الظاهرة والباطنة، حتى أن الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته فتهرب منه،
 وهذا ما يسمى الادراك الباطني، وهو في بعض أنواع الحيوان كثير، ولا سيما في الكلب
 الموصوف بالامانة والذكاء، ألا ان الانسان يمتاز عن سائر الحيوان في العقل، وذلك لان
 الشرف وقتئذ يحصر في القوة والحيوان أقوى من الانسان لو لم تغلب عليه بفعله
 ودعائه فيسوده

والعقل هو القوة المدركة في الانسان التي بواسطتها يفكر ويفرق بين الخير والشر
 ويتعلم ويعلم ويخترع وبالاجمال هو المظهر الوحيد الذي يميز الانسان ويجعله بمرتبة عالية
 بين المخلوقات الارضية يقرب فيها من العالم الروحاني

والعقل عبارة عن علم و ارادة، أما العلم فهو معرفة الانسان الامور الدنيوية والاخروية
 وفيها الحقائق التي لا تدرك بالمحسوسات ولذلك لا يشاركها بها الحيوان الاعجم
 فالعلوم الكلية الضرورية التي وان كنا ندرکها بالبداهة هي من خواص العقل
 اذ يحكم الانسان مثلاً بعقله بان الشخص الواحد لا يمكن أن يوجد بشخصيته بمكانين
 في وقت معاً فان هذه القاعدة البسيطة الكافية بذكرها كل انسان بعقله واذا فهمت هذا
 في العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريات أظهر

وأما الإرادة فإنَّ الانسان اذا كان يدرك بعقله عاتبة الامور وما صالح منها وما قد ينبعث من نفسه شوق الى العمل بما أدرك طلباً لمصلحته وتعاطياً لأسبابها بمطلق ارادته وهذه الإرادة تقسم الى عامة وخاصة أما العامة فهي ما يشترك فيها مع الحيوان كإرادة الأكل والشرب والجماع وتكون حينئذٍ ارادة كراهية تبعث اليها الحاجة وأما الإرادة الخاصة فهي الممتازة بها العقل الانساني كالامتناع عن الشهوات المحرمة أو الضارة والنفس تطلبها والمقل يصد عنها

﴿ الروضة الاولى ﴾

« في فضل العقل وثمراته »

العقل أيدك الله سلطان الفرائح ، ومصباح الجوارح ، ومفتاح المصالح ، ورأس العلوم ، وسبب ادراك المعلوم ، ومادة الفهم . روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال « العقل نور في القلب ، يفرق بين الحق والباطل » وأهل العقول هم المخاطبون وهم المكلفون قال الله سبحانه « ان في خالق السموات والارض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الاباب » الى قوله « لايات لقوم يعقلون » وقال عز من قائل « ان في ذلك لايات لأولي النهي » وقال « هل في ذلك قسم لذي حجر » وهذا كثير في كلام الله .

وبالفعل استظهر المرء على كثير مما غاب عنه واستطلع على اكثر مما احتجب عنه مما يمكن عرفانه وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال « لكل شيء دعامة ودعامة عمل المرء عقله فبندر عقله تسكون عبادته لربه أما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير »

وقالت الحكماء « بنور العقل تظهر الحقائق وتنكشف السرائر وتلوح خفيات الامور فيعبد الله تعالى على حقيقة العلم به »

وحكى الاصمعي قال لقد اجتمعت بحدث من اولاد العرب كان يحادثني فامتعني بفصاحة وملاحة فقلت له أيسرك أن يكون لك مئة ألف درهم وأنت أحمق ؟ قال لا والله قلت ولم ؟ قال أخاف أن يجني عليّ حمي جنابة تذهب بمالي ويبقى عليّ حمي « اه فانظر الى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبط بجودة قريحته ما لعله يدق على من هو أكبر منه سناً وأكثر تجربة

ومن كلام لامير المؤمنين عليه السلام « لامل أعود من العقل » وذلك لان الاحق

ذا المال طالما ذهب بماله بحمقه فعاد أحق فقيراً والعاقل الذي لا مان له طالما اكتسب المال بعقله

وخطب رجلان الى ديمارس الحكيم ابنته وكان أحدهما فقيراً والآخر غنياً فزوجها من الفقير فسأله الاسكندر عن ذلك فقال لأن الغني كان أحق فكنت أخاف عليه الفقر والفقير كان عاقلاً فرجوت أن يغني بعقله

وقال بعض الادباء « صديق كل امرء عقله وندوه جهاله » وقال بعض البلغاء « خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل » وقال بعض الشعراء :

يزين الفتى في الناس صحته عقله	وان كان مظهرأ عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله	وان كرمت أعراقه ومناسبه
يعيش الفتى بالمثل في الناس انه	على العقل بجري علمه ونجاربه
وأفضل قسم الله للمرء عقله	فليس من الاشياء شيء يقاربه
اذا اكل الرحمن للمرء عقله	فقد كات أخلاقه ومناقبه

وقتا في العتل :

قد ميز الله بالعقل الانام عن ال
فاجهد بذوير عقل أنت صاحبه
وقال شاعرنا الانطاكى :

قل للذي ضل عن سبل الهدى وغوى
طوعاً لشهوته شأن المجانين
ارجع لعقلك واسترشد به أبداً
أو شاكل العجم في ذل وتهوين

واعلم أن بالعقل تعرف حقائق الامور، وينصل بين الحسنات والسيات، ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام « ما استودع الله امرءاً عقلاً الا لينقذه به يوماً ما » قال الشارح لا بد أن يكون للباري تعالى في ابداع العقل في قلب زيد مثلاً غرض ولا غرض الا أن يستدل به على ما فيه نجاته وخلاصه وذلك هو التكليف فان قصر في النظر وجهل واخطأ الصواب فلا بد أن ينقذه عقله من ورطته من ورطات الدنيا وليس يخلو أحد من ذلك أصلاً لأن كل عاقل لا بد وان يتخلص من مضره سبيلها أن تقال باعمال فسكرته وعقله في الخلاص منها والحاصل أن العقل اما أن ينقذ الانسان في دينه وهو الفلاح والنجاة، اح على الحقيقة أو ينقذه من بعض الممالك الدنيوية على ما فيها من كثرة الإفات وعلى كل حال قد صح قول أمير المؤمنين

وعن أنس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الرجل يكون حسن العقل
العقل كثير الذنوب فقال ما من بشر الا وله ذنوب وخطايا يقتربها فمن كانت سجيته
العقل وغريزته اليقين لم تضره ذنوبه قيل كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال كلما أخطأ لم
يلت أن يتدارك ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة
وجاء أن قوماً أتوا على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة والعبادة
وخصال الخير حتى بالغوا فقال كيف عقله ؟ قالوا يا رسول الله نحبك باجتهاده في العبادة
وضروب الخير وتساءل عن عقله فقال انّ الاحمق يصيب بحمقه أعظم مما يصيبه الفاجر
بفجوره وإنما ترتفع العباد غداً في درجاتهم وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم
فالعقل نفعه في الدنيا والآخرة ظاهر

وحكي أن نصيباً دخل على عبد الله بن مروان فتعدى معه فلما رأى عبد الملك
ظرفه وأدبه قال هل لك بما نتادم عليه فقال يا أمير المؤمنين لو نبي حائل وشعري
مفلقل وخلقى مشوه ولم أبلغ ما بلغت من اكرامك اياي لشرف أبولاء اكرم أم
وأما بلغته بعقلي ولساني فأشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تحول بيني وبين ما بلغت
به هذه المنزلة عندك فأعفاه

وبالجملة فقد أوجب الله الدين بكامله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه وألف بين
خلقه مع اختلاف همهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم . وروى عن رسول
الله صلى الله عليه وآله أنه قال « ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه الى هدى
وبرده عن ردى » وقال المتنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان	هو أوّل وهي الخلق الثاني
وإذا هما اجتمعا لنفس مرّة	بلغت من الملباه كل مكان
ولربما طمن الفتى أقرانه	بالرأي قبل تطاعن الاقران
لولا العقول اكان أدنى ضيغم	أدنى الى شرف من الانسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت	أيدي الحكاة عوالي المران

« تعريف العقل »

عرف العقل بتعاريف عديدة ولتقتصر منها على أحسنها فأما تعريفه بالمعنى الشرعي
فقد روي عن الاشعري عن حمد بن الجبار عن بعض أصحابنا رفعه الى أبي عبد الله قال
قلت له ما العقل ؟ قال ما عبده الرحمن واكتسب به الجنان قال قلت فالذي كان في

معاوية؟ قال تلك هي النكراء تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بعقل
وأما العقل بالمعنى العرفي فهو المعرفة المستعملة في تحرّي النفع وتجنّب الضرر
وبعبارة أخرى ملكة وحاسة في النفس تدعو إلى اختيار النفع واجتناب الشرور والمخار
وبها تقوى النفس على زجر الدواعي الشهوانية والغضبية والوساوس الشيطانية
ولأهل اللغة والمتكلمين في اشتقاق العقل ومعناه أقوال كثيرة قالوا العقل اشتقّ
من عقل الناقة إذا شدوا طفلها مع ذراعها بحبل بمنعها من الشراد فكانه يمنع الإنسان
عن التهادي في سبيل هواه . وقيل اشتقّ من العقل وهو الملقب يقال عقل الوعل إذا
التجأ إلى الجبل الذي يمنعه فكان الإنسان يلتجئ إلى عقله في أحواله
ويقسم العقل إلى قسمين غريزي ومكتسب وهذا مأخوذ عن أمير المؤمنين عليه
السلام فقد نسبوا إليه قوله :

رأيت العقل عقليين فطبعٌ ومسموعٌ

ولا ينفع مسموعٌ إذا لم يك مطبوعٌ

كما لا تنفع الشمس ونور العين ممنوعٌ

ثم إن كل واحد من القسمين يختلف بالشدة والضعف . أما القسم الغريزي فقد
يكون في الناس من لا يحتاج في النظر إلى ترتيب المقدمات بل تنساق النتيجة النظرية إليه
سوقاً من غير احتياج إلى فكر وتدبير ويهتدي ذكاهاً ويهتدي صاحبه ذكياً . وقد يكون
فيهم من هو دون ذلك وقد يكون من هو دون الدون
وأما القسم الثاني فقد يكون في الناس من لا يجدي فيه التعليم بل يكون كالصخرة
الجمادة بلادة وغبابة ومنهم من يكون أقلّ بلادة وجنوح ذهن من ذلك ومنهم
من يكون الوقفة عنده أقلّ فيكون ذا حال متوسطة وبالجملة فاستقراء عقول الناس يشهد
بصحة ذلك

وأصل نقصان العقل المكتسب من نقصان العقل الغريزي كما قال أمير المؤمنين
عليه السلام « ولا ينفع مسموعٌ إذا لم يك مطبوعاً » وقد شاهدنا كثيراً مثل هذا في
أشخاص كثيرين اشتغلوا في العلم الدهر الطويل فلم ينجح معهم العلاج وفارقوا الدنيا
وهم على الغريزة الأولى من السداجة

واعلم إن العقل المكتسب نتيجة العقل الغريزي وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة
وليس له حدّ لانه ينمو ان استعمل وينقص ان أهمل واكتسابه من وجهين اما بالتعليم

وأما بالنجربة وقد قيل في منشور الحكم « من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله » وقيل « لا تدع الايام جاهلا الا أدبته » وقال بعض الحكماء « كفى بالتجارب مؤدباً وبتقلب الايام عظة » وقال بعض البلغاء « التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل » وقال بعض الادباء :

ألم تر ان العقل زين لاهله
ولكن تمام العقل طول التجارب
وقلنا في هذا الموضوع :

لا تظنوا الذكاء والعلم يكفي
ليكون الانسان ذا رأي صائب
ليس يجلو العقول الا زمان
يتقضى ومنه تحبى التجارب
وقال أحد الشعراء :

إذا طال عمر المرء في غير آفة
أفادت له الايام في كرها عقلا
ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام « لم يذهب من مالك ما وعظك » ومثل هذا قولهم « ان المصائب أثمان التجارب » وقيل لعالم فقير بعدان كان غنياً أين مالك ؟ قال أتجرت فيه فابتعت به تجربة الناس والوقت فاستفدت فيه أشرف العوضين ومن المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام :

كلما أدبني الدهر
رأراني نقص عقلي
وإذا ما زددت علماً
زادني علماً بجهلي

وقال شاعرنا الانطاكي :

أما عقل الفتي جوهره
صقلها يجلو سناها فنضي
والتجارب لها مصقلة
يتوخاها أخو الفكر الوضي

واعلم ان من فقدت غريزته أو نقصت لاتبجع فيه التجربة اذك لان التجربة نتيجة الغريزة والغريزة أساس التجربة ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام « أجهل الجهال من عثر بحجر مرتين » وقال رسول الله صلى الله عليه وآله « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » وفي أمثال كليله ودمنه زعموا انه كان أسد في أجمة وكان معه ابن آوى يأكل من فواضل طعامه فصاب الاسد جرب وضعف شديد وجهد فلم يستطع الصيد فقال له ابن آوى ما بانك ياسيد السباع قد تغيرت أحوالك قال ان هذا الجرب قد أجهدني وليس له دواء الا قلب حمار وأذناه قال ابن آوى ما يسر هذا فقد عرفت بمكان كذا حماراً مع نصار يحمل عليه ثيابه وهذا آتيك به ثم دلف الى الحمار فانه وسلم عليه

فقال له مالي أراك مهزولاً؟ قال ما يطعمني صاحبي شيئاً قال وكيف ترضى المقام معه على هذا؟ قال فبالي حيلة في الحرب عنه فلست أتوجه إلى طرف إلا أضربني إنسان فكذلكني واجاعني قال ابن آوى فأنا أدلك على مكان معزول عن الناس لا يمر به إنسان وهو خصب المرعى فيه أتانا لم تر العين منها حسناً وسمناً وهي محتاجة إلى الفحل قال الحمار وما يحبسنا عنها فانطلق بنا إليها فانطلق به ابن آوى ودخل الغابة على الأسد فأخبره بمكان الحمار فخرج إليه فأراد أن يثب عليه فلم يستطع لضعفه وتخلص الحمار منه فأفلت هلعاً على وجهه فلما رأى ابن آوى أن الأسد لم يقدر على الحمار قال أعجزت يا سيد السباع إلى هذا الحد؟ فقال له إن جئتني به مرة أخرى فلن ينجو مني أبداً فمضى ابن آوى إلى الحمار فقال له ما الذي جرى عليك؟ إن الأتان لشدة غلبتها وهيجانها وثبت عليك ولو ثبت لها لانت لك فلما سمع الحمار بذلك الأتان حاجت غلبته ونهق وأخذ يترقبه إلى الأسد فسبته ابن آوى إلى الأسد وألمه بمكانه فقال له استعد فقد خدعتك لك فلا يدركك الضعف في هذه التوبة فإنه إن أفلت فلن يعود معي أبداً فخاش جأش الأسد لتجربته ابن آوى له وخرج إلى موضع الحمار فلما بصر به عاجله بوثة افترسه فيها ثم قال قد ذكرت الأطباء أنه لا يؤكل إلا بعد الغسل والطهر فاحتفظ به حتى أعود فأكل قلبه وأذنيه وأترك ما سوى ذلك قوتاً لك فلما ذهب الأسد ليغتسل عمد ابن آوى إلى الحمار فأكل قلبه وأذنيه رجاء أن يتطير الأسد فلا يأكل منه شيئاً ثم إن الأسد رجع إلى مكانه فقال لابن آوى أين قلب الحمار وأذناه؟ قال ابن آوى ألم تعلم أنه لو كان له قلب وأذنان لم يرجع بعد إن أفلت ونجا من الهلكة؟؟ وفي هذا المثل كفاية للعبرة بأن من كان له قلب وأذنان يجب أن يستفيد مما يمر عليه من التجارب فلا يبدعها تنكر عليه

﴿ الروضة الثانية ﴾

﴿ في ذم الجهل والنباوة ﴾

قالوا «الجهل رأس الفضاخ، ومعدن النباح، ومضمار العثار، وهو الدليل على غلظ الطبع، وجمود الخاطر، وفساد التركيب، واعتلال الذهن، وكذب النفس، وخبث الطاوية» وقال بعض الحكماء «عمى الجهل أشد من عمى العين لأن العمى يتوقع أن يعثر فيما ارتفع من الأرض أو يسقط فيما انخفض منها والجاهل ربما عثر فيما لا يستقبل منه ويقع فيما لا يخرج منه»

كان الخليل بن احمد يحب ان يرى ابن المقفع وكان ابن المقفع يحب ذلك فجمعها عباد بن عباد المهلب فتحدثا ثلاثة ايام بلباليها فقيل للخليل كيف رأيت عبد الله بن المقفع؟ قال ما رأيت مثله عملة أكثر من عقله وقيل لابن المقفع كيف رأيت الخليل؟ قال ما رأيت مثله عملة أكثر من عمله قال المفيرة فصدقا أدنى عقل الخليل الى أن مات أزهدها الناس وجهل ابن المقفع أداه الى أن كتب أماناً لابن عبد الله بن علي فقال فيه ومتى غدر أمير المؤمنين بعبد الله فنساؤه طوالق ودوابه حبس وعبيده أحرار والمسلمون في حل من بيعته فاشتد ذلك على المنصور جداً وبالأخص أمر البيعة فكتب الى سفیان بن معاوية الهلبي أمير البصرة من قبله ليقبله فقتله

وقيل ان اعرابياً ولي قضاء بلد نخطب وقال لا والله انه لا يبيحني ظلم أو مظلوم الا أو جتمها ضرباً فأنصف الناس بعضهم بعضاً وراضوا فيما بينهم ولم يرفعوا اليه أمورهم خوفاً من عقوبته وظلمه وشره وخسافة عقله وضعفه ليه وجهله في عامة الاحكام والجهل يقسم الى قسمين جهل مطبق وهو ان يكون الانسان عدم المعرفة في كل شيء وجهل بسيط أي غير مطبق وهو ان يكون الانسان على معرفة بالامور ولكن يجهل تطبيقها على أعماله وقد رأيت جهل ابن المقفع مع فضله وعلمه وأدبه في كتابه الامان فأفضى جهله الى سفك دمه كما رأيت جهل ذلك الاعرابي في القضاء بحيث توعد الظالم والمظلوم معاً والفرق بين الجهلين ظاهر فتأمل

« الجهل البسيط »

وعلى هذا فكما ينقسم العقل الى غريزي ومكتسب فالجهل أيضاً ينقسم الى بسيط ومركب أما الجهل البسيط فهو نقصان العقل المكتسب وفقدان التجربة ويطلق عليه التغفل ومنه البله وأمثاله وذو الجهل البسيط اذا نهبه منبه الى خطأ انتبه اليه وذلك لسلامة غريزته من ذلك ماتقول العرب في أمثالهم « أبله من باقل » وباقل رجل من ثعلبه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً وحمله وسار به فسئل عن ثمنه ففتح يديه وأخرج لسانه يريد بذلك الدلالة على ثمن الظبي فأقلت الظبي من يده وهرب

ومثل هذا مارووه عن رجل من أهل الشام مضى الى تجار يصنع له باباً فقال اثني بمقدار العرض فقدره بيباعه وفتح يديه وسار الى التجار وهو في عرض الطريق يدفع الناس بصدوره ويقول تنحوا عن (الهنداسة) فدفنه رجل من قفاه فوقه الى

الارض ويدها مبسوطتان فقال الرجل يا أخي اقبضني من ذقتي واقمني حتى لا تخرب الهنداسة
فقبضه من لحيته واقامه

وحدثنا شاعرنا عبدالمسيح بك انطاكي فقال ان أهل سوريا ينسبون الى أهل حمص
وهي بلدين حلب والشام البلاهة ويروون عنهم كثيراً من النكات . من ذلك ان بعض
الحمصيين كانوا يوماً سائرين بزفة عروس فوصلوا الى باب قصير وكانت العروس طويلة
مخاروا في أمرهم وكيف يدخلون العروس فذهب بعضهم الى وجوب هدم الباب وآخرون
الى وجوب قطع رجلي العروس وبينما هم في حيرتهم مر بهم رجل نبيه فقال أنا أ كفيكم
الامر من ودنا من العروس فمسكها من رقبتها وجعل يقول لها اخفضي رأسك قليلاً
فقليلاً الى أن أدخلها الباب فأخذت الناس بالهيلة وعكف الرجال على شكر ذلك
البنية . ومن ذلك أن بعضاً من النسوة كن في قيلولة حرقاً جالسات على نهر العاصي
خارج المدينة وقد أزلن أرجلهن في الماء فاختلط عليهن معرفة كل منهن برجليها
وحرن في أمرهن وما عندن يعرفن كيف يصنمن لتظفر كل منهن برجليها فتعود الى
بيتها وبينما هن في ذلك مر بهن لبيب فعلم ما هن فيه فدنا منهن وكان بيده عصا فقال
لهن اني أضرب أرجلكن فمن شعرت منكن بالالم سحبت رجليها وهكذا كان
فتبعضن وشكرنه على صنيعه . ومن ذلك أن رهطاً من أهل حمص سافروا الى الشام
فوجدوا التماردين وهو نوع معروف من الحلوى يصنعونه في الشام من ثمر المشمش
فسألوا من حولهم كم هي جميلة أشجار التماردين عند ما يكون ثمرها طويلاً يتدلى
فيلعب به الهواء ؟ وأشبه هذه النكات عن أهل حمص كثيرة يتداولها عموم أهالي بلاد الشام

وفيها ميالغات والحقيقة أن الحمصيين كغيرهم من أهل الشام واذكياؤهم كثيرون
ومن ذلك أن هشام بن عبد الملك عرض الجند فتقدم رجل ومعه فرس كلما قدمه
يتأخر فقال له هشام ما هذا ؟ قال يا سيدي انه فاره وقد شبهك ببيطار كان يمالجه فنفر
وتغدى أبو السريال عند سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ ولي عهد أبيه فقدم أمامه
جدياً وقال كل من كليته فانهما يزيدان في الدماغ فقال لو كان كما يقول الامير لكان
رأسه مثل رأس البقل

وأهدى ابن الجصاص الى العباس بن الحسين الوزير نبأً وكتب معه

تقيّات بأن تبقى فأهديت لك النبأ

فكتب له الوزير ما تقيت ولكن تبقرت . وتولى بعض المنفقين التضاء فأرسل

الى من ولاه هدية وأرسل معها مكتوباً مضمونه « بعد السلام على مولانا الواصل
لكم هدية خروفين وسرموجتين الوالي خروف وسرموجه والنائب خروف وسرموجه »
فلما وصل الى الوالي مكتوبه أمر بعزله وتحقيره واخراجه من القرية
ورأى بعض البلهاء بالنجف رجلاً يشكي فكه فقال له أداويك بالكبي فقال له
الرجل من أين علمت ذلك ؟ فقال عندنا حمار قد ورم فكه فكبرته بحديدة فعاياه
الله تعالى فقال انك لتصاح أن تكون بيطاراً

وقيل أن رجلين من طبقة العلم سافرا فنزلا على رجل من الاعراب وكان اسم كل
منهما الشيخ محمد فسأل صاحب المكان أحدهما عن اسمه فقال محمد ثم سأله عن اسم
صاحبه فقال كذلك فجعل صاحب المكان ينادى أحدهما الشيخ محمد والثاني الشيخ كذلك
ومن الحمقى الاخرس بن جعفر بن عمر بن جريث قال له يوماً بحالسوه ما بال
وجهك أصفر هل تشكي شيئاً ؟ فرجع الى أهله لساعته وقال يا بني الحية أنا شاك
ولا تعلمون اطرحوا علي الثياب وابشوا ان الطبيب

وقيل لرجل عند موته قل لا اله الا الله فاعرض فأعادوا عليه فقال لهم أخبروني
عن النعمان بن المنذر ملك الحيرة أقالها عند موته فقيل له وما أنت والنعمان فقال أرغب
لنفسي ما رغبه ذلك الشريف لنفسه

وقال رجل لا كاره اذا زرعت القطن فازرعه محلو جاً وازرع معه شيئاً من الصوف
وسمع بعض المغفلين رجلاً يقرأ بيتاً من قصيدة للمهيار في رثاء الرضي وهو :
بكر النعي بان ردى خير الورى ان كان يصدق فالرضي هو الردى
فغضب المغفل للشريف الرضي وأخذ يشتم الشاعر قائلاً الردى هو وأبوه. ومثل
ذلك أن بعض المغفلين سمع رجلاً ينشد :

وكان بنوعمي يقولون مرحباً فلما رأوني معدماً مات مرحباً
فقال المغفل كذب والله الشاعر فان مرحب قتله علي بن أبي طالب ولم يموتاً
وعن ابن الجوزي قال كان لبعض المغفلين حمار فرض الحمار فنذر ان عوفي حماره
صام عشرة أيام فعوفي وصام فلما انقضى صيامه مات حماره فقال يارب أهكذا تفعل لما
تم صيامي أمت حماري ولكن دع رمضان يأتي فأخذ منه عشرة أيام لا أصومها
وقرأ بعض المغفلين « في بيوت أذن الله » ورفع التاء في بيوت ولم يقرأ ما بعدها
قول الله تعالى « أن ترفع » فقال له بعض الحاضرين يجب أن تحب التاء فقال له المغفل

يا جاهل اذا كان الله تعالى يقول « في بيوت اذن الله ان ترفع » فكيف نجبرها ؟
ومن المعروفين بالحفاقة ونقص العقل معلمو المكاتب وقلما يوجد معلم الا وفيه نقص
وان أعجبك ظاهره . قيل لمعلم من أهل المكاتب ما اسم أم موسى ؟ فقال فارغا فقال له
من أين علمت ذلك قال من قوله تعالى « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً »
وحكي ان معلماً أتاه صبي من صبيانته فقال يا معلم ان في بطن الجبّ صيداً يا معلم في
الماء ولما نظرت اليه أخذتني خبزة كانت في يدي نأني المعلم الى الجبّ ونظر الى الماء وقال
هذا الذي رأيته أنت في الجبّ هو شيخ ذو لحية وليس بصبي ولعله سارق ذلك لان
المعلم رأى شبهه

وحكي أن امرأة غاب ولدها فانت معلماً وقالت تنامل لابني في المصحف فانه قد
طالت غيبته فطاع فآله « حسن مات » فقال لها ابنك حسن قالت نعم فما يدريك بذلك
قال هذا القرآن يقول وحسن مات فصرخت وشقت أثوابها ومضت الى بيتها حزينة
كثييرة فاجتمع عليها أهل الولد فاقاموا مأتماً عليه وبعد مدة عاد الولد وكان ذلك الشؤم
من بلاهة الاستاذ

وقال احمد بن دايل مررت يوماً بمعلم يعلم صبياناً وبين يديه صبي وهو يقول الانجيل
من خلته؟ قال موسى بن عمران قال فالبعير من درر البعرة في أسته؟ قال انه الشيطان
قال أحسنت وأدم من أبوه؟ قال نوح قلت انما نوح من أولاد آدم قال هل تعرفني بادم
وأنا أبو عبد الله المعلم يا صبيان كرفسوه نكر فسوئي وضربوني حتى نهكت قواي فخلقت
ان لا أنف على معلم ما حيت

وقيل لمعلم ابن معلم مالك أحمق؟ قال لو لم أكن أحمق لسكنت ولدزناز نعم ما قال فان
الولد سرُّ أريه

وقال الجاحظ مررت بمعلم وعنده عصا طويلة وأخرى قصيرة وصولجان وطبل
وبوق ثقلت له ما هذه الودة؟ قال عندي صغار في المكتب فأقول لآحدهم اقرأ لوك
فيصفر لي فاضربه بالعصا القصيرة فيتأخر فاضربه بالطويلة فيفر من بين يدي فاضع
الكرة بالصولجان واضربه فاشجه فتقوم الي الصغار كلهم بالالواح فأعلق الطبل في عتقي
والبوق في فمي فاضرب في الطبل وأنفخ في البوق فيسمع الجيران والمسارون ذلك
ويسارعون الى نجدتي

وحكى الجاحظ قال أنت امرأة ان معلم ابنها ونكت عدم طاعته وطابت منه أن

يفزعه وكان المعلم طويل اللحية فأخذ لحيته بفيه وحرك رأسه وحدق بعينه وصاح صيحة أفزعت المرأة فضرطت وقالت إنما قلت لك فزّع الصبي لا تفزّع أمه فقال لها يا حمقاء أما علمت أن العذاب إذا نزل بقوم هلك الصالح والطالح ؟

وحدثنا شاعرنا عبد المسيح بك انطاكي عن الجاحظ صاحب نوادر بلهاء معلمي الكتاب التي أوردنا بعضها فيما تقدم قال قال الجاحظ جمعت من نوادر المعلمين ما أوشك أن يكون كتاباً ضخماً ولكن أفك ما عثرت عليه من نوادرهم هو انني مررت يوماً بكتّاب فدخلته حسب عادتي تحرساً بمعلمه فرحب بي وأكرم منواي ثم تحدّثنا طويلاً فاذا هو على علم ومعرفة فاكثر التردد عليه وأنا أقول في نفسي وليس كل المعلمين من البلاءة على ما كنت أظن بل فيهم العاقل والليدب وخطر يبالي أن أمزق كتابي اكراماً له الى ذات يوم قصدت فيه زيارة ذلك المعلم فوجدت الكتاب مقفلاً والصبيان يلعبون خارجه ويتضاربون فسألهم عن معلمهم فقالوا أنه أصيب بمصيبة يجهلونها فهو حزين ولا يريد أن يتمزى قال الجاحظ فقلت في نفسي يجب أن أدخل عليه فاعزيه فدخلت ووجدته يبكي ويتعجب وقد انزع عمته ونكت لحيته فأخذت أعزيه بما حضرني من الحكم والأمثال والاليات والبرمّ سأله فقلت له هل مات الوالد؟ قال يا ليت قلت أمانت الزوجة قال يا ليت قلت أفقدت الاخ؟ قال يا ليت قلت من اذن جعلت فداك؟ قال حبيبي قلت عظم الله أجرك وغداً تنسلى بغيرها جارية تكون أجمل وأحسن فحدق بي وقال وهل أنا أعرفها قلت اذن ماذا؟ قال منذ أيام مرّ في الطريق ماراً وسمعته ينشد:

يا أمّ عمرو جزاك الله محسنةً رديّ اليّ فؤادي أينما كانا
فعلت أن أمّ عمرو هذه لو لم تكن من جميلات النساء بل أجمل بنات حواء لما قال
فيها الشاعر ما قال وعشقتها واليوم صباحاً مرّ ماراً في الطريق وسمعته ينشد:

لقد ذهب الحمار بأمّ عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار
فعلت أنها ماتت فشقت نياي وقفلت الكتاب وجلست حزينة على ما ترى قال
الجاحظ فلما سمعت هذا عدت الى رأيي الاول بوجوب طبع الكتاب الذي جمعته عن
نوادر المعلمين على أن أثبت هذه النادرة في أوله اه

وعن أمير المؤمنين عليه السلام « لا تستشرف الحاكّة ولا المعلمين فانّ الله سلبهم عقولهم » وذكر العالم الرباني الشيخ كمال الدين هيثم البحراني في توجيهه « ان المعلم

عقله وحواسه متفرقة الى التوجه الى تدبير أمور الصبيان فلم يبق له من العقل والتدبير ما يصرفه في غيرهم وكذلك الحائك بالنسبة الى الخيوط المختلفة وصرف الفكر فيها فلا عجب اذا امتازا بالصقاعة « قال الشاعر:

ان الصقاعة خُصِّصت في سنة
مخائلك ومنجد واسكاف
ومعلم الاولاد أصقع لحية
يتبعه الحلاج والنذاف

« الجهل المركب »

وأما الجهل المركب أو المطبق فهو الحماقة بعينها والفرق بين الجهل البسيط والجهل المركب هو ان الاول اذا نهته الى خطأه انتبه وأما الثاني فكلما تنبهه يزداد حماقة وغياً
سأل رجل بعض المنفلين من أفضل معاوية أم عيسى؟ فقال له ما رأيت أجهل منك ولا سمعت أحداً قاس كاتب الوحي بنبي النصارى

وأني بمضهم الى قصاص بنصراني يريد أن يسلم فقال قوموا عني تريدون أن توفعوا
الخصومة بيني وبين عيسى بن مريم عليه السلام

وسأل بعض القصاص عن لوط عليه السلام فقال كان رجلاً لوطياً نعوذ بالله فانكروا
عليه قوله ولا مه بعضهم واعلمه أن لوطاً نبي مرسل من عند الله الى قوم ذلك الزمان
ليردعهم عن قبيح فعلهم فندم على ما قاله فلما كان ذلك القصاص الغيبي في مجلس آخر
سئل عن فرعون فقال دعونا من حديث الانبياء واسألوا الله السلامة اهتم قوم لا
رايناهم ولا رأونا فكيف تتكلم في أعراضهم .

قال ابن هشام قيل ما فعل أبوك بحماره فقال باعه وجر العين والهاء فقبل له
لماذا جررت باعه؟ فقال ولم جررتهم الحمار؟ فقالوا أنه مجرور بالباء فقال ولم بائكم نجراً
وباني لا تجرُّ إشارة الى الباء في أول باعه

سأل رجل شريحاً ما تقول في رجل مات وخلف أبوه وأخوه؟ فقال شريح قل أباه
وأخاه وقال الرجل كم لاباه وأخاه؟ فقال شريح لا يبه وأخيه فقال سألتك وندمت يا بارد:
وجاء رجل الى سيبويه ليصاح له شعراً فقال أنشدني فأنشد:

ما العيش الا مع الحبيب اذا تلقاك من القريب
اذا تأملت طويلاً أكاد من حبه أموت

فقال سيبويه ويحك البيت الاول آخره باه والثاني آخره تاء كيف يكون هذا؟ فقال
يا سيدنا لا تنقط فلا أحد يدري ما هو فقال سيبويه فاخر الاول مجرور وآخر الثاني

مرفوع فقال الرجل ما أجهدك أنا أقول لك لا تنقطه وأنت تشكاه
وقيل أن رجلاً من أهل الشام عزم على لقاء المأمون فاستشار بعض أصحابه فقال
على أي وجه أصليح أن ألقى أمير المؤمنين؟ قال على الفصاحة قال ليس عندي منها شيء
واني لالحن في كلامي كثيراً قال فعليك بالرفع فإنه أكثر ما يستعمل فدخل على المأمون
وقال السلام عليك ورحمة الله وبركاته ورفع كل هذه الالفاظ فقال يا غلام اصغمه اصغمه
فقال باسم الله ورفع الكلمتين فقال المأمون ويحك من ذلك على هذا الرفع قال وكيف
لا أرفع من رفعه الله فضحك وقضى حاجته (١)

وكان لرجل ولد اسمه حمزه فبينما هو يوماً يمشي مع أبيه إذا برجل يصيح بشاب
يا عبد الله فلم يجبه ذلك الشاب فقال ألم تسمع؟ فقال يا عم كلنا عبيد الله فأبي عبد تعني؟
فالتفت أبو حمزه لابنه وقال ألا تنظر إلى بلاغة هذا الشاب؟ فلما كان الند إذا برجل
ينادي يا حمزه فقال حمزه ابن الاعرابي كلنا حمليز الله فأبي حمزه تعني؟ فسمع أبو جوابه
وقال ليس يعينك الرجل يا من أخذ الله ذكر أبيه

وحكي مثل ذلك عن بعض الأدباء قال إن رجلاً من أقاربه جاءه زاراً في أصفهان
قال فأتيت به إلى الحمام وفيه خلق كثير ثم انه شرط في ذلك الحمام فضحك عليه فقال
يا أخي نحن نضرب باللسان العربي وهؤلاء أعجم لا يفهمون لغتنا كما نحن لانفهم لغتهم

(١) ومن هذا القبيل ما رواه لي أحد أتباع عظمة مولاي السرदार أقدس وأثبتته
في كتابي « الدرر الحسان » قال الراوي جاءنا يوماً اعرابي متسولاً فاتي المرحوم
الحاج الميرزا حمزه خان الذي كان في حياته من كبار المقربين من ولي النعم فسأله ان
يدخله عليه فقال له ان مولانا روجي فداء عند ظنك فيه كثير البذلجم الندى ولكن
احسانه موقوف على العلماء والادباء والشعراء فهل أنت عالم؟ قال لا قال فهل أنت أديب؟
قال لا قال فهل أنت شاعر؟ قال لا قال على الأقل الا تحفظ شيئاً من الشعر تنشده؟
قال لا قال كيف اذن تقدم من عظمته وبأي وسيلة تبغ شيئاً من كرمه؟ قال والله لا أعرف
غير اني قصده وهو أبو العرب فقال الميرزا رحمه الله لا بأس عليك فانا أساعدك وبعد قليل
يخرج عظمته واكون بخدمته فادخل علينا وادّع أنك شاعر تريد أن تنشده قصيدة
فتها في مدحه وعظمته لفرط وداعته يغلب عليه أن لا يسمع ما قيل في مدحه تواضاً
فيحمن اليك من غير أن يستشرك فاشكره الاعرابي على هذه المنه وبعد قليل خرج عظمة
الشيخ خزعل خان من الحرم لجلسه وازدحم الناس حوله بين عبيد وقوف في الخدمة

هذا والجهل المركب أو المطبق لاعلاج له اذ القول في العقل كالقول في الطبع
فكما ان من طبع على الشرّ وغلبت شهوانيته على روحانيته لا تتغير طباعه الشريرة الى
طباع الخير كذلك كل من نقصت غريزته أو فقدت لا يرفع التعليم عنه جهلاً ولا يزيد
التجربة عقلاً واعلم ان الحماسة تلد بالغريرة ولا تتغير وأنشد بعضهم :

وعلاج الأبد ان أيسر خطباً حين تعتل من علاج العقول
وروي عن المسيح عليه السلام « عاجلت الأكمه والأبرص فأبرأتها وعالجت
الاحمق فأعياي » وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال :

لكل داء دواء يستطب به الا الحماسة أعيت من يداويها
وقلنا في واقعة حال :

ألومه ولقد اخطا وأرجع في لومي وقائده حمق عزيزي
لو كان يدرك ما آذى مصالحه فهل يلام سفيهه طبعه الغي
وقال شاعرنا الانطاكي :

قالوا فلان أبق شارداً وكان في أوطانه محترماً

وأعوان ينتظرون الأوار وأرباب حوائج يظلمون قضاءها وكان في جملتهم ذلك الاعرابي
فتقدم من وليّ النعم روجي فداءه وسلم بتحية الامارة وقال حياً الله أبا جاسب فقد
امتدحتك بشعري قال حفظه الله حسبك يا أبا العرب فقد قبلنا مديحك ومال ليأمر
أحد أعوانه بالجائزة فاعترض الميرزا رحمه الله وقال ألا نسبح ما قال الاعرابي ؟ فقال
عظمتيه بدعته المشهورة حسناً هات أيها الشاعر فماذا قلت فينا ؟ فخجل الاعرابي
واضطرب وقال والله يا بولاي لست بشاعر ولا افرق بين الشعر والشعر وإنما جئتك
متسوياً كالكالوف من العرب الذين يسعون اليك في كل يوم فلا تخيب منهم سائلاً
فلقيني هذا الخبيث وحملني على هذا الكذب حتى اسود وجهي سوداً اللهوجه فضحك
سوءه وضحك من في المجلس وامر له عظمة وليّ النعم بجائزة سنوية وأنشد

واني لاهل الشعر عون لانه يدون اشئنات المفاخر للعرب
اجازي عليه أهله مع دعائه ومن قد رواه أوله مال واتسب
ويبقي به نتج القسراج رائج وداري عكاظ للمعارف والادب
وعندي مقامات المعارف تزدهي بأربابها من كل معنى ومضطلب
وعندي دراري الشعر صيغت فلانداً ملائمة تسمى بمنتثر الذهب

فقلت هذا حقه ساقه للذل لولا حقه لم يُضم -
واعلم زادك الله علماً انه اذا انضم الى الجهل المركب عجب انساني فذاك هو
الداء العضال واذا شيب هذا الموجب يعض معارف سطحية تلقاها صاحبها على غير
ثقة عن طريق السماع فهو المصيبة العظمى على سامعيه ومعاشره ولا خلاص من
ابرامه الا بالفرار منه

قال بعضهم لئن اصاحب أحق أحب الي من مصاحبة نصف أحق قيل ومن هو
النصف أحق؟ قال الجاهل المتعاقل الذي يظن نفسه يدري وهو لا يدري
ومن الحكايات العجيبة أن بعض الاطباء دخل على مريض وجس نبضه وشاهد
تفسرته فقال له لعلك تناولت شيئاً من الفواكه مع صدر فروج فقال نعم فقال الطبيب
لا ترجع تأكلهما فانهما يضرانك فمعجب الناس من حذق الطبيب وكان لذلك الطبيب
ابن فقال ياأبت كيف عرفت ان المريض تناول الفاكهة والفروج؟ قال يا بني ما عرفت
ذلك بالطب وحده بل بالطب والنراة فقال له كيف عرفت بالنراة؟ فقال اني لما
دخلت دار المريض رأيت على سطح الدار سقطة الفاكهة ثم رأيت في وجه المريض
انتفاخاً وفي النبض ليناً وفي النفسرة غلظاً وحفاة وعلمت ان الفاكهة اذا حضرت عند
المريض لا يصبر عنها فظهر لي من هذه الشواهد انه تناول الفاكهة وماجزمت بها
بل قلت لعلك أكلت وقبل ان ادخل الدار رأيت على الباب ريش الفروج وفي النبض
امتلاء وفي الرسوب غلظاً فعلمت ان الفروج لا يأكله الا المريض غالباً فظهر لي
بهذه الشواهد انه أكل جنح فروج وصدرها ومع ذلك ما جزمت به بل قلت لعلك
فعلت هذا فسمع ابنه هذا الكلام وأحب ان يظهر بحذق مثل حذق أبيه فدخل بعد أيام
على مريض وجس نبضه وشاهد تفسرته وقال لعلك أكلت لحم حمار فقال المريض
حاشا وكلا كيف يؤكل لحم الحمار أيها الطبيب ففجّل ابن الطبيب وخرج او نمي الخبر
الى ابيه فسأله كيف خطر لك ان مريضك أكل لحم حمار؟ فقال لاني رأيت في دارهم
برذعة فعلمت انها لا تكون الا للحمار ثم قلت لو كان الحمار حياً لكانت برذعته على
ظهره وجزمت انه لم يكن حياً لان البرذعة كانت على الارض وقلت في نفسي لا بد انهم
ذبحوه وأكلوه فقال أبوه لو كان شيء من هذه المقدمات صحيحاً لرجوت فيك
النجابة ولكن مقدماتك كلها فاسدة وطبع النجابة فيك محال
وحكي ان بعضهم ضمّ ولده الى رسال ليعلمه فبقي عنده مدة حتى علمه أصول الرمل

فجاء والده وسأل الاستاذ عن ابنه فقال علمته فامتحنه فقبض الاب على نملة وضم يده عليها وقال لولده اعرف ما في يدي فحسب ولده وقال في يدك حيوان أسود اللون مخروز من وسطه فقال له ما هو ؟ فقال الولد لعله جاموسة فلما رأى الوالد خطأ ابنه مع دلالة الفراغ على صحة حسابه أولاً لم يعلمه فقال انما أنا أعلمه علماً ولكن لا اعطيه نقلاً وقيل ان أحد الملوك خرج مع وزيره لزيارة فمراً على فلاح يحرث الارض وقد اسود قفاه من الشمس وتشتتت قدمه من الحنا وشدة البرد وهو في حالة مكربة فقال الملك لوزيره ما حال هذا الرجل ؟ فقال هذا من فلاحي الرساتيق ينشأ الشخص منهم على الزنب والنصب وقلة الدين والجهل فيصير في هذه الحالة فقال الملك لوزيره ارى اننا اذا أخذناه وعلمناه الأدب وشغلناه بالعلم يتغير عما هو عليه ؟ فقال الوزير كلا أيها الملك فقال الملك لست مصيباً ولا بد من اخذه وتعليمه وبالغلى اخذ الفلاح وانهم عليه وأرصد له من يعله وبشفه فبقي على ذلك بضع سنوات حتى برع في كل فن من فنون النظم والأدب فا حضره الملك يوماً بمشهد من وزيره وقال له ألا ترى أن فراستك قد أخطأت في هذا الفلاح ؟ فقال الوزير امتحنه أيها الملك فقال الملك للفلاح بلغني أنك تشقت في غرائب العلوم فبأي شيء ؟ قال الرمل والجفر والحساب وغير ذلك مما تحب ولي ملكة في استخراج ما في الضمائر قال فنزع الملك خاتمه وضم عليه يده وقال انظر ما في يدي فضرب الفلاح رءوسه اشكالا وقال في يدك شيء مدور قال نعم قال وهو خلي الورط قال صدقت فما هو ؟ فسكت الفلاح ساعة ثم قال أظن والله أعلم انه حجر طاحون فضحك الوزير وغضب الملك وسلب عن الفلاح نعمته وردّه الى حاله الاولى

وحكي أن بعض الملوك قال لصاحب خيله قدم الفرس الابيض فقال له الوزير لا تقبل الفرس الابيض فانه عيب ويزري جهده اسم لونه بهيبة الملوك ولكن قل الفرس الأشهب فلما أحضر السباط قال لصاحب سباطه قدم الصحن الاشهب فقال له الوزير قل أيها الملك ما نيت فإني في تقريرك حيلة. قال المتنبي :

ومن البليّة عدل من لا يرعوي عن غيبه وخطاب من لا يفهم

وقلنا في مثل ذلك :

وأصعب ما لا فيته نصح أحق

فبني تفيبه الخطأ الذي هو عند أرباب الذكا كان واضحا

مخاطبة الجهال شرٌّ مصائب الحكيم اذا ماراح ييدي الوضائحا
ومن أمثال كليله ودمنه ان جماعة من القروذ كانت تسكن جبلاً فالتفت في ليلة
باردة ذات أمطار ورياح ناراً تصطلي بها فلم تجد شيئاً فرأت براءة تطير كأنها شرار نار
جمعت حشيشاً وألقته عليها وجملت تنفخ طعماً بايقاد النار وكان بقربها طائر على شجرة
ينظر اليها فجعل يناديها ويقول لا تبعي فان الذي تريه ليس بنار ثم انه عزم على الاقتراب
منها لينهاها عما هي فيه فرأ به رجيل وقال له لا تلمس تقويم مالا يستقيم فان العود
الذي لا ينحني لا يعمل منه القوس فابى الطائر أن يطيعه وتقدم الى القردة ليعرفها أن
البراعة ليست بنار فتناولته بعضها ومات من ساعته

ومن حمقى العرب وجهالهم كلاب بن سعد خرج اخوته يشتررون خيلاً فخرج معهم
فجاء بمجل يقوده فقيل له ما هذا فقال فرس اشترته قالوا يامان هذه بقرة اما ترى
قرنها؟ فرجع الى منزله فقطع قرنها ثم قال لهم قد أعدتها فرساً فما تريدون بعد
فضحكوا من حماقته ودعي بعد ذلك أولاده باسم بني فارس البقرة

﴿ الروضة الثالثة ﴾

(الاستدلال بالعقل السام)

للاستدلال بالعقل السليم ثلاثة أمور القياس والاستقراء والتمثيل لان الاستدلال
اما أن يكون بكلي على جزئي أو بجزئي على كلي وهو الاستقراء أو جزئي على جزئي
وهو التمثيل ويتبعها قسم رابع وهو الاولية القطعية والاستدلال في جميع هذه الاقسام
بواسطة العلة وهو القدر المشترك بين الاصل المقيس عليه والفرق المقيس كما سترى

﴿ القياس ﴾

ان الاستدلال بالقياس امان يكون بالمعلول على العلة أو بالعلة على المعلول والاول كما
نقل انه خرج أمير ومعه رجل ذو ذكاه وبنهاها يتغذيان قال ان رجل للامير اركب فقد
أدركنا العدو قال كيف ولا أرى أحداً؟ قال اركب عاجلاً فان الامر أسرع مما تحسب
فركب واذا بالعشير قد ثار وطلعت عليهم الخيل سراعا فعجب الامير وقال كيف علمت
ذلك؟ قال لما رأيت الوحش مقبلة علينا ومن شأن الوحوش الهرب منا فعلمت انها لم
تدع عاداتها الا لا مرمزعج قد دهمها

وذكر الجاحظان اياس بن معاوية نظر الى أصدع في الارض وقال تحت هذا دابة
فنظروا فاذا حية فقيل له من أين علمت هذا؟ قال رأيت ما بين الاجرتين ندياً دون جميع

تلك الرحبة فعلمت ان نحتها شيئاً يتنفس
 وأما الاستدلال بالعلة على المعلول أو المؤثر على كمية الأثر وكيفية ذلك كما يقال
 في الامثال ان أسداً أراد أن يفترس ثوراً فلم يقدر عليه اشدته ففضى اليه متملقاً قائلاً
 فديتك اني قد صدت خروفاً سميناً واشتهي أن تأكل عندي في هذه الليلة منه فأجابه
 الثور الى ذلك فلما وصل الى العرين ونظر الى ما بداخله وجد أن الاسد أعدّ حطباً كثيراً
 فولى هارباً فقال له الاسد مالك وليت بعد مجيئك الى هنا فقال له الثور لاني علمت أن
 هذا الحطب لشئ ما هو أكبر من الخروف

ومن ذلك في الاستدلال على الكمية ما ذكره ابن الجوزي في الاذكياء باسناده الى
 أمير المؤمنين عليه السلام قال لما سار رسول الله صلى الله عليه وآله الى بدر وجدنا
 عندها رجلين أحدهما من قريش والآخر مولى لعقبة بن أبي معيط فاما القرشي فأفلت
 وأما مولى عقبة فأخذناه وجعلنا نقول له كم القوم؟ فيقول والله كثير عددهم شديد بأسهم
 فشهد النبي صلى الله عليه وآله أن يخبره كم هم فأبى ثم أن النبي سأله كم ينحرون من الجزر؟
 فقال عشر السكّل يوم فقال القوم ألف رجل لان كل جزور لمئة

ومن ذلك ما نقل أن أحمد بن طولون رأى حملاً يحمل صندوقاً وهو يضطرب
 تحته فقال لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنق الحمل وأنا أرى أن
 عنقه بارزة وما هذا الا من خرف ما يحمل فأمر بحط الصندوق فوجد فيه جارية قد
 قتلت وفضأت ارباً فقال أصدقني عن حالها فقال أربعة نفر في الدار الفلانية أعطوني
 هذه الدنانير وأمروني بحمل هذه المقتولة فضرب الحمل مئتي نحي وأمر بقتل الاربعة (١)
 وذكر ابن الجوزي في الاذكياء عن احمد بن طولون صاحب مصر أنه جلس يوماً
 في منزله يأكل مع ندمائه فرأى سائلاً عليه ثوب خلق فوضع يده في رغبته ودجاجة
 وقطعة لحم وفالزوج وأمر بعض الغلمان بمناولته فأخذ الغلام ذلك وذهب به الى السائل
 ورجع فذكر انه ما هش ولا بش فقال ابن طولون للغلام اثنتي به فأحضره بين يديه
 واستنطقه فأحسن الجواب ولم يضطرب من هيئته فقال له أحضر لي الكنب التي معك

(١) ومثل هذا ما حدث منذ سنوات في الاهواز وذلك أن جناب سردار ارفع
 الشيخ جاسب خان حاكم الاهواز السابق وكبير أملاك سردار أقدس المعز حفظه الله
 بلغه في صباح يوم وجود قتييل على شطّ قارون فاسرع الى الجنة وأرسل نظرة صادقة اليها
 ثم أمر بدفنها وأرسل غلماناً يتجسسون القضاة الى أن عثروا على أحدهم مصاباً بجرح في يده

وأصدقني عن بعث بك فقد صحّ عندي أنك صاحب خبر وأحضر الشياطينه يديه فاعترف له بذلك فقال بعض من حضر هذا والله السحر فقال أحمد ما هو به حر ولكنه قياس صحيح وفراسة راجحة وذلك اني لما رأيت سوء حاله وجهت اليه بطعام يشره الى أكله الشبعان فما هسّ ولا بشّ ولا مدّ يده اليه فأحضرته وخاطبته فتناقاني بقوة جأش وجواب حاضر فلما رأيت رثانة حاله وقوة جأشه وسرعة جوابه علمت أنه صاحب خبر ومرّ اياس ليلة بقاء فقال أسمع صوت كلب غريب فقيل له كيف عرفته قال بنحو وع صوته وشدة نباح الكلاب الاخرى

قال الجاحظ وحجّ اياس فسمع نباح كلب فقال هذا الكلب مشدود ثم سمع نباحه فقال قد أرسل فانهوا الى المساء فسألوه فكان كما قال فقيل له من أين علمت؟ قال كان نباحه وهو موثق يسمع من مكان واحد ثم صار يقرب مرة ويبتدأ اخرى فعلمت أنه انطلق ومن النوادر المنقولة عن ذكاء اياس انه رأى اعتلاف بعير فقال هذا بعير أعور فنظر وافكان كما قال فقيل له من أين عرفت؟ قال لأنني وجدت اعتلافه من جهة واحدة قالوا ومن نوادر ذكائه انه رأى يوماً يأكلون ثمراً ويلقون النوى متفرقاً فرأى الذباب يجتمعن في موضع من الثمر ولا يقربن موضعاً آخر فقال اياس ان في هذا الموضع حية فنظر وافوجدوا الامر كما قال فقيل له من أين علمت؟ قال رأيت الذباب لا يقربن هذا الموضع فقلت يجتمعن ربح سم ولله حية. ونظر الى ديك ينقر ولا يقرب فقال هذا الديك هرم لان الشاب اذا وجد حياً نقره وقرقر لتجتمع الدجاج عايه. ورأى جارية في مسجد وعلى يدها طبق مغطى بمنديل فقال تحمل جراداً فكان كما قال فسئل فقال رأيت الطبق خفيفاً على يديها؟

فقبضوا عليه واستاقوه اليه فأخذ باستدراجه الى الاقرار فأقر بجريته واعترف بشركائه ونالهم القصاص جميعاً وذاعت هذه الحادثة وشاعت ونقلتها الجرائد مثنية على ذكاء سمو الشيخ السردار ارفع وكان سره هذا الاكتشاف المدهش هو أن جنابه رأى الحنة مقطعة ارباً تقطيع من يحسن التصابة فرجح بل أكد بانها جنابة للقصابين فيها يد. ومن هنا وضع خطة استدلاله فتجسس باظهار الجريمة نجاحاً كبيراً أظهر فيه نجابته وكسب به رضاه مولانا ومولاه عظيمة أليه الشيخ المعز أعزه الله وتناء العالم المتمدين الشيخ السردار ارفع المحترم. وله من حوادث الذكاء كثير مثل هذا في اكتشاف الجرائم التي تحدث في المحمرة اليوم وهو حاكها ولذلك بهابه المجرمون مثلاً يرهون سطوته

واعلم أن الاستدلال بانواعه دليل على شدة النباهة ووفرة الذكاء وهو أصلح ما يكون للرجال المنوط بهم حفظ الامن العام كالبوليس في عرف التمدن الحاضر وذلك لان الجناة كالصوص والقتلة والمزورين لا يأتون جرائمهم الا في عالم الخفاء ويجهدون ما أمكنهم حتى لا يبقوا أثراً لجرائمهم يستدل به عليهم وكلما كان البوليس أو الحاكم أبرع في الاستدلال كلما توفى الى كشف الجرائم توصلوا لاستتباب الامان في البلد الذي يحافظون على الامن فيه (١)

(١) ومن المعروف في العراق بجملته نباهة عظمة شيخنا المعز اعزه الله في توفد خاطره بالاستدلال على الجناة وكشف جرائمهم وطلما أبدى من المدهشات في ذلك ما يحير العقول وأنت لا تجهل بأن الجرائم في بلاد بادية كما مارة عربستان أعمر بكشف أسرارها منها في البلاد المتحضرة حيث العيوان والارصاد كثيرة وحيث وفرة العمران تكثر من ترك الآثار

وإذا أردنا أن نورد القصص والنوادر عن استدالات عظمة مولانا السردار أرفع في كشف الجرائم لاحتجنا الى مجلد ضخيم ونكتفي هنا بالإشارة الى أن كثيراً ما يحدث جرائم في ولاية البصرة ويتعذر على البوليس اظهار المجرمين فتتسلح حكومة البصرة الى عظمته من يحدته بظروف الجريمة ويستجد بسدي رأيه في الاستدلال وتصح آراؤه في ذلك وعلى سبيل الفكاهة أو ردحادثه حدثت في الحمرة وكنت في خدمة تولى النعم وقتئذ فاني بينما كنت ذات يوم في التصريح الحزلي العالي في القبيلة وإذا بأحد الخدام يقصدني بكتاب يقول صاحبه قد بعث اليك ففتحتة فإذا هو من رجل اسمه داود وهو يهودي ويقول انه من أهالي بغداد وبينما كان مسافراً من الحمرة الى البصرة ومعه ثمانون ليرة مجيدية وهو المباع الذي جمعه بحياته بطولها وإذا على بعد ساعة من القصر العامر خرج اليه بعض عبيد مولانا وسلبوه امعه وأنه يريد أن يعرض ظلامته على ولي النعم فمنعه الحجاب من ذلك وإذا سمع بوجودي في الخدمة رأى أن يوسطني لدى عظمته أما أنا فلما استلمت التحرير دهشت ولكن قلت ربما يكون الامر صحيحاً وسألت الخادم عن صاحب الكتاب فقال أنه بجوار الديوانية أي دار الضيافة الحزلية وهي بعد خمس عشرة دقيقة عن القصر العامر فأسرعت اليها وإذا بداود شاب في نحو الخامسة والعشرين من عمره وعندما رأيته مقبلاً عليه أسرع اليّ يريد أن يتراحم عليّ قديماً وكان يبكي بكاءً مرّاً بنوع لا يشك الرأي الا أنه منفجع بماله ثم قصّ عليّ بالتفصيل ما حرره بحملته بجريره وأشرنا اليه فقلت

ويستدل على وقوع الشيء على خلاف ما هو عليه ظاهراً بأمرين أما بمخالفته العادة أو مخالفته الضرورة العقلية فأما الأمر الأول فإن الشيء إذا وقع على خلاف عادته دل على أن له علته وباعثاً مسببين عن أمر آخر كما نقل أن نبلي الاخيلية دخات يوماً على عبد الملك بن مروان وقد أسنت فقال لهما ما رأى توبة منك حتى عشقك؟ قالت ما رأى الناس منك حتى جعلوك خائفة فضحك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها ثم التفت الى نبلي فقال أنشدنا بالنبلي بعض ما أنشد فيك توبة قالت نعم هو الذي يقول :

ولماذا لم تعرض ظلامتك على وليّ النعم؟ وعظمته في كل يوم يشرف على رعاياه في هذه الدار
وأشرت الى الديوانية قال ان الحرس يمنعوني ولا شك أنهم مشركون في السرقة فقلت
ربما ولو كنت في ذلك على نهاية الاستغراب لعلمي علم اليقين بأن حرس ولي النعم من
أشرف الناس خلقاً وأطهرهم ذمّة وانتظرت ربّما أشرق الانوار الخزعلية في صاعه الديوانية
فدخات على الحضرة وقبات أنامل عظمته وعرضت على مسامعه الشريفة ظلامه الرجل
فتكدر عظمته وقال في الحال انترني به وبهد قليل دخل علينا وسأل في الحضرة الرواية
التي مشأها معي وأخذ يقصّ القصة على المسامع العلية وعظمته مولانا مصغ الى ان انتهى فقال
له عظمته هل تعرف الذين خرجوا الى سرقك قال أعرفهم وجهاً لوجه وأخذ يشخصهم
قال ومن أين عرفت أنهم من رجالي أو خدمي؟ قال هكذا قيل لي قال حسناً فقبل أن
نبدأ بالتحقيق مع من تهم يجب أن نسألك هل في المحمرة من يعرف أنك عنده اخرجت
منها قاصداً البصرة كان معك نقداً ثمانون ليرة عثمانية؟ قال نعم قال سمّ شهودك لترسل
ونستدعيهم بالحال فسمى بعض أسماء من قومه قال عظمته سنستدعيهم بالحال ولكن اذا لم يشهدوا
بصحة ما تقول فسيكون جزاؤك شديداً لانك تهم الأبرياء قال هذا وحده نظره
بالرجل فبقي الرجل مصرّ على قوله ولكن ظهر الاضطراب على وجهه فأشار عظمته اليّ
بأن استلي معه الحديث وخرجت الرجل وقات له ان مولانا خرج ليبحث باستحضار
شهودك فاذا حضروا وشهدوا بأن المبلغ الذي تذكره كان معك وفقدته فعلا في مساء
البارحة فستقبضه في الحال بن الخزينة الخزعلية العامرة ولكن اذا كنت كاذباً؟؟ فوقع على
يدي يتبلمها وهو يقول أرجوك أرجوك أرجوك قلت ماذا؟ قال أن تستخلص لي المبلغ بغير
شهود قلت هذا لا يمكن قال لاني ظننت بأنني في حيلتي هذه أحصل على الغرض الذي أسعى
اليه فأت وما هو غرضك؟ قال نعمة من عظمته الشيخ على شهرته بالكرم أسافر بها الى
مصر فأت ويل أمك وهل بمثل هذا الكذب تطمع بنيل نعمة ولي النعم؟ قال ظننت

وكنيت اذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رايتني منها النداء سفورها
فقال لها ما الذي رابه من سفورك؟ قالت يا امير المؤمنين كان كثيراً ما يلتم بنا فأرسل
لي يوماً اني آتيك وفتن الحبي فأرصدوا له فلما أتاني سفرت له فعلم ان ذلك لشراً فلم يزد
على التسليم والرجوع فقال عبد الملك لله درك يا ليلى
وحكي أن الهذلي حج مع المنصور وكان قد وعده بجائزة ونعمي فمرّ بمعابيت عاتكة
وكان من عادة الهذلي انه لا يكلم الخليفة الا جواباً عما يسأله فلما مرّ بببيت عاتكة قال
يا امير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي قال فيه الاحوص :

يا بيت عاتكة الذي أتغزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل
قال فانكر منه المنصور ذلك لانه خلاف عاداته وتكلم من غير أن يسأل فلما رجع
المنصور استدعى بديوان الاحوص ونظر في تلك القصيدة الى آخرها ليعلم ما أراد
الهذلي فاذا فيها

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق اللسان يقول ما لا يفعل
فعلم أنه أشار الى هذا البيت وتذكر ما وعده به من الجائزة فامر بأبجازها
وأرسالها له في الحال واعتذر اليه من النسيان
وكان الكسائي بعاسم الامين ولد الرشيد وكان من عاداته انه اذا غلظ لا يمارضه وانما
يضرب بعصاه على الارض فيقتبه الامين وبرايع فكره فيقرأ صواباً فقرأ ذات يوم
قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا
تفعلون » فضرب الكسائي بعصاه على الارض فسكت الامين وراجع فكره فلم يظهر له

ذلك قلت ولكن بعض الظن اثم ثم اني خرجت لولا نار قصصت عليه ما سمعت فقال اني
عرفت كذبه منذ دخل علي بالرغم من اتقانه الحيلة وذلك لعلمي أولاً بنزاهة رجالي
وثانياً لانه يستحيل أن يحدث جنابة سرقة في أطراف المحمرة ومع ذلك بالامكان أن
يتسلى عليه غير رجالي من العرب قرب البصرة ولكن يهودياً مثله على ما هو معروف
عنهم من الحرص لا يسافر بثمانين ليرة نقداً من غير أن يعلم حاكم المحمرة فيرسل معه
من يوصله الى البصرة آمناً وعلى كل حال فاذا اعترف بكذبه أصفح عنه وهكذا اعترف
الرجل وبشفاعتي نال الصنح و فوقه هبة من هبات ولي النعم
وما هذه الحادثة بشيء بجانب الحوادث الكبرى المعروفة عن نباهة وني النعم في
الاستدلال والسكني أثبتنا هنا لانها جرت بحضوري

غلط ولا نسيان فاستمر في القراءة فلما فرغ ذهب الى أبيه الرشيد وقال هل وعدت الكسائي بشيء ولم تف به؟ قال بعد ان فكر قليلا نعم ومن أخبرك بذلك؟ قال اتفق لي معه كيت وكيت فاستحسن الرشيد من ولده هذا الذكاء وانجز للكسائي وعده (١) وأما الامر الثاني وهو مخالفة الضرورة العقلية فانه أيضاً دليل عدم مطابقة الظاهر للواقع ومن ذلك ما جاء في كتاب كليله ودمنه عن بعضهم انه قال نزلت مرة على رجل فتمشينا ثم فرس لي وذهب مع زوجته الى فراشهما فناما وكان بيني وبينهما خص من قصب فسمعت الرجل يقول في آخر الليل لامرأته أريد أن أدعوك رهناء لياكلوا عندنا فاصنعي لهم طعاماً فقالت المرأة كيف تدعو الناس الى طعامك وليس في بيتك فضل عن عيالك وأنت رجل لا تبقي شيئاً ولا تدخره قال الرجل لا تندمي على شيء أطمئناه وأنفقناه فان الجمع والادخار وخيم العاقبة فقالت المرأة نعم ما قلت وعندنا من الارز والسمسم ما يكفي ستة أنفار او سبعة فانا غادية على اصطناع الطعام فدع من أحببت وأخذت المرأة حين أصبحت سمسماً ففشرته وبسطته في الشمس ليحفف وقالت لغلام لها أطرده الطير والكلاب وتفرضت المرأة لصنعها وتغافل الغلام عن السمسم فجاء كلب وعاث فيه فاستقذرت المرأة وكرهت أن تصنع منه طعاماً وذهبت به الى

(١) ومثل هذا ما جرى لنا مع حضرة السردار أجل الشيخ عبد الحميد خان ثاني أبحال عظمة مولانا المعز حياؤه الله فان سموه دخل منذ عشرة أعوام الى غرفتي في القصر الخزعلي العامر زائراً وكان لا يتجاوز الثانية عشرة من ربيع عمره الزاهر وجلس الى ما حولي من كتب وأوراق وجعل يقلب فيها فددت يدي الى أحد الكتب وفتحت الوجه الذي فيه الشعر المأثور عن مطلقه معاوية

ولبس عباءة وتقر عيني أحب الي من لبس الشفوف

فقرأ سموه الايات الى آخرها وتبسم وقال انها آيات حسنة ثم تفضل سموه بالمطاف علي وانصرف وبعد صلاة المشاء دخل عظمة مولانا المعز قاعة السهرة حيث يرأس مجلسه الادبي واستدعى من في الباب من الادباء والشعراء وعند ما تكامل الجمع قال عظمته أقص عليكم قصة لا تخلو من فكاهة ونباهة فحدثنا بعظمته لنسمع فقال اليوم أرسل الانطاكي بطالبي بوعدني له بعباءة بعد أن تمزقت عباءته منذ يومين. فقلت عفواً مولاي ملها دسيمة فاني لم أذكر هذا لاحد. قال كلا ليس في الامر دسيمة فان عبد الحميد جاءني وذكرني بوعدني قلت مولاي هذا فضل من النجل التجيب فلعله اذ شرفني

السوق فأخذت مقايضة سمسما غير مقشوراً مثلاً بمنزل قال الراوي وأنا واقف في السوق فقال رجل لا خير لامر ما باعت هذه المرأة سمسما مقشوراً بسمسم غير مقشور وحكي أيضاً أن بعض المحتسبين اجتاز يوماً برجل ينادي على الخبيص رطلين بحبة فقال وبحك الدبس يباع رطل بحبة والشيرج رطل بقيراط فكيف تبيع أنت الخبيص رطلين بحبة فقال يا سيدنا ما في الخبيص شيء مما ذكرت قال تبيع اذن كيف شئت ومن ذلك أيضاً ما حكى عن رجل أعمى زوجه امرأة فقالت لو رأيت حسني وبياضي لعجبت فقال اسكتي لو كنت كما تقولين ما تركك المبصرون

« الاستدلال بقرائن الاحوال »

ومما يستدل به قرآن الاحوال والافعال قال ابن الجوزي في الاذكياء استودع رجل رجلاً مالا ثم طلبه فيجده فخاصه الى اياس بن معاوية فقال الطالب اني دفعت المال اليه قال ومن حضرك؟ قال دفعت في مكان لم يحضرنا أحد قال فأي شيء في ذلك

بزيارته وجد عباهني على غير ما يصاح « لمن دئلي يفتخر بأنه مملوك المزم » قال وليس الامر كذلك. قلت بولاي جمعات فذاك اني بريء من المطالبة. فضحك عظمته وقال كدت تضيع الزكوة بلجاجك فاصبر للحديث وقال : ان عبد الحميد زار اليوم عبد المسيح وأخذ ينظر في كتبه ففتح له في كتاب موضع القصيد التي تقول مطلقة معاوية فيها « ولبس عباءة وتقر عيني » فظن الولد هذه الزكوة المستلمة وانكته لم يبد شيئاً مما تظن له الى ان انتهت زيارته فخرج وجاني رأساً وقال لي هل وعدت شاعرك عبد المسيح بك بعباءة قلت نعم منذ ثلاثة أيام وسها عن بالي ان أرسلها له مع الغلام فهل ذكرها لك؟ قال لا ولكن حدث ما هو كيت وكيت فضحكت وأمرت الغلام أن يذهب بالعباءة لعبد المسيح فهل وصلتك يا ولدي؟ قالت نعم وأطال الله بقاءك ثم قال عظمته وان نباهة عبد الحميد في هذه المسألة ذكرني بنباهة الكدائي وقص على مسامعنا الرواية التي يراها القاريء الكريم في المتن

وجناب الشيخ عبد الحميد خان هو اليوم في نحو اثنا عشر عاماً من ربيع عمره وهو يحكم الاهواز باسم عظمة مولانا السردار أقدس وقد أبدى من الذكاء وحسن السياسة في أحكامه ما جعله موضع أعجاب المعجبين وسموه لا يزال في المنزلة التي يعرفها له الناس ويذكرونها شاكرين حفظه الله مع اخوانه الأنجال الانجاب بحمي عظمة مولانا السردار أقدس وجعلهم جميعاً قررة عينيه ونخراً لنا وذخراً

الموضع؟ قال شجرة قال فانطلق الى ذلك الموضع وانظر الشجرة فاعلم الله تعالى يوضح هناك لك ما يتبين به حقك وملكك دفنت مالك عند الشجرة ونسيت فتذكر اذا رايت الشجرة وبعد ان مضى الرجل قال اياس للعطوب اجلس الى ان يرجع خصمك فجلس واياس يقضي بين الناس وينظر اليه ساعة بعد ساعة ثم قال له يا هذا ارى صاحبك بائع موضع الشجرة التي ذكرها؟ قال لا قال يا عدو الله انك لخائن قال افاني اقالك الله فامر من يحفظ به حتى جاء الرجل فقال له اياس قد اقر غريمك بحقك فخذ منه

ومثل هذا ما رواه لنا شاعر ناعبد المسيح بك انطاكي عن صديق نصراني له يدعى بندي هلال قال كان صديقي يتعاطى التجارة في حلب في خان الكرك وكان بحسب تجارته كثير المعاملة مع الصيارف اليهود المنتشرين في مدخل الحان المذكور وحدث غير مرة انهم غلطوا معه بعشر او خمس ليرات فسكان يرجع اليهم من نفسه ويرجعها لهم وفي ذات يوم قبض من احدهم اربعمائة ليرة قيمة تحويل وعند ما وصل الى محله استعاد عدداها فاذا هي تنقص عشر ليرات فرجع الى صاحبه وقال له ان المبلغ الذي قبضته منك وجدته ناقصا عشر ليرات فانكر الصراف ذلك فرجاه ان يعمل حساب صندوقه فوعده خيرا على ان يعود اليه في المساء فعاد اليه فقال له وجدت حساب صندوقي صحيحا فاخذتوكد له بانه قبض المبلغ ناقصا فلم يقبل وكان لابن الهلال صديق من اليهود فقص عليه قصته وهذا لم يشك بصحتها لما سبق له اختيار صاحبه فقال له لا تتكدر وتعال الي عند اذهب الى بيت الدين ويديت الدين عند اليهود هو مجلس الحاخامين وهم بمنزلة المحكمة الشرعية عند المسلمين وبالفعل بكر ابن هلال الى صاحبه اليهودي وذهبا الى الحاخام واتصا عليه القصة فسأل الحاخام اليهودي الوسيط بالعبيرية قائلا وهل انت متأكد من صدق هذا النصراني؟ قال نعم وشهرته عندنا حسنة جدا قال حسنا فاجلسا وامر صاحبه باستدعاء ذلك الصراف وانصرف الى النظر في القضايا المعروضة عليه لان اليهود ينظرون أكثر قضاياهم عند الحاخامين وبعد نحو الساعة وصل الصراف فقال الحاخام بالعبيرية وهو يتظاهر بقراءة كتاب في يده «أنكر» فاجابه الصراف «وانا منكر» قال الحاخام بوجهه الى النصراني وقال له ان الصراف اعترف بالمعشر الليرات فاذهب معه في الحال واستلمها وقال للصراف ان عدت الى مثل هذا فالقصاص عليك كبير

«الاستقراء»

والقسم الثاني من أقسام الاستدلال الاستقراء وهو يتبع جزئيات الشيء وهو نوعان

تام وناقص فالتام هو الاستقراء بالجزئي على الكل ونحو كل جسم متجزئ وهذا دليل
 يقيني يفيد اليقين والناقص هو الاستقراء بأكثر الجزئيات نحو كل حيوان يحرك فكفة
 الاسفل عند المضع وهذا ظني فلا يفيد الا الظن والاستقراء الناقص عند الفقهاء يسمى
 الحاق الفرد بالاعم الاغلب والاستقراء بالجزئي على الجزئي يسمونه قياساً مثال ذلك
 قال الرشيد للهلول أحب أن تكون خليفة قال لا وذلك اني رأيت موت ثلاثة خلفاء
 ولم ير خليفة موت بهلولين . وعنف محمد بن عمرو بن علي بن أبي طالب زيد بن علي
 ابن الحسين لما خرج وحذره القتل وقال له أهل العراق خذلوا آباءك علماً وحسناً
 وحسيناً عليهم السلام وانك مقتول وانهم خاذلون فلم يثن ذلك عزمه حتى كان من أمره ما كان
 وحكي أن بعض الارقاء كان عند مالك يأكل الخناس ويطعمه الخسكار فأنف الرقيق
 من ذلك وطلب البيع فباعه فاشتراه من يأكل الخسكار ويطعمه الخسكار فطلب البيع فباعه
 واشتراه من لا يأكل الا النزر اليسير وما اكتفى ان أجاعه حتى حلق رأسه وجعله منارة
 فأقام عند هذا ولم يطلب البيع فقال له الخناس يوماً لماذا أنت راض بهذه الحياة التعسة؟
 فقال أخاف أن يشتريني في هذه المرة من يضع الفتيلة في عيني بدلاً من السمراج
 وكان عبد الرحمن بن أبي بكر قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن ثعلبة وكانت من أجمل
 نساء قريش وأقامت عنده حتى قتل عنها يوم الطائف فتزوجها بعده عمر بن الخطاب وقتل
 عنها فتزوجها الزبير بن العوام وكان رجلاً غيوراً وكانت تخرج الى المسجد كما دتها مع
 زوجها الاولين فشق عليه ذلك وكان يكره أن ينهها فتمرّض لها ليلة في ظهر المسجد
 وهي لا تعرفه فضرب بيده عجزتها ثم انصرف فقعدت بعد ذلك عن الخروج الى
 المسجد فقال لها يوماً ألا تخرجين يا عاتكة؟ فقالت كنا نخرج اذ الناس ناس وما بهم من
 بأس وأما الان فلا ثم قتل عنها الزبير فتزوجها محمد بن أبي بكر وقتل عنها بمصر فقالت لا
 أزوج بعده أبداً اني لاحسبني لو تزوجت جميع أهل الارض لقتلوا عن آخرهم
 وحكى الاصمعي عن عيسى بن عمر قال وفد أبو الجهم حذيفة على معاوية فقال له والله
 ان لك لشرفاً وحقاً وقرابة يا أبا الجهم وانه لزمنا مؤونة عظيمة وهذه مئة ألف نخذها
 واعذر قال أبو الجهم فقبضتها على مضض وقلت في نفسي ما عسى أن أقول له وهو رجل
 ناء عن بلاد قومه وقد تخلق بأخلاق أهل الشام الجفاة الاغفال فقبلتها على أنه قد قصّر في حقني
 فلما توفي معاوية واستخاف يزيد سرت اليه وافدا وأقت أياماً فقال لي يا أبا الجهم اني
 بحقك وقرابتك وشرفك لعارف وان مع حقك لحقوقي ومؤناً لا نستطيع دفعها وانت

أولى من عذر ابن أخيك وهذه خمسون ألفاً فضمها إليك واعذر فقلت في نفسي غلام حدث نشأ مع غير قومه وسكن غير بلده وهو مع هذا فأبن كلبية فأني خير برحى منه على أنه قصر في حقي وانصرفت فلما استخلف عبد الله بن الزبير قلت في نفسي هذا بقية قريش البطاح فأتيته وافداً وأقت عنده أياماً ثم قال له يا أبا الجهم مهها جهلت فلن أجهدك شرفك وقرايتك وحققك غير أن علينا مؤناً وعزماً وحملات وأموراً يطول شردها ولكن مع ذلك فاني غير محيَّب سفرنا اليها هذه الف درهم خذها واستمن بها على أمورك فقبضتها فرحاً ثم وثبت بين يديه فقلت يا أمير المؤمنين مد الله لقريش في بقائك ولا امتحنها بفقدك فوالله ما زالت بخير ما بقيت لها فقال ابن الزبير جزاك الله عن الرحم خيراً فوالله ما قلت هذا لمعاوية وقد أعطاك مئة ألف درهم فقلت نعم يا أمير المؤمنين من أجل ذلك قلت هذا الآن لاني خفت ان أنت هلكت لا يلبى أمر الناس الا الحنازير وحدثنا شاعرنا انطاكى بك قال روي أن نبيرون ملك رومة المشهور بالظلم كان يتجسس رعاياه ليلا فتي ذات ليلة سمع عجوزاً تدعوه بطول العمر فاستغرب لعنده أن الناس كلهم يتمنون هلاكه لمظالمه فدخل على العجوز وهو منكر وقال لها يا خالة سمعتك تدعين لنبيرون والناس كلهم يدعون عليه قالت نعم فاني أعرف أباه وجدته وكان أبوه شراً من جدته وهو شرٌّ منهما واني لاشفق أن يهلك فيخلفه من هو شرٌّ منه

ومن هذا القبيل قول الشاعر :

كنا اذا جئنا لمن قبلكم
والآن صرنا حين نأتيكم
لا غير الله بكم خشية
من أن ترى من لا يرد السلام

ومن هذا القبيل قول شاعرنا الانطاكى :

كنا وكان الناس من قبلنا
فما اذ قام ابنه بعده
انا ندعو أن يعيش المدى
خوف حفيدٍ منه نلقى النقم

« التمثيل »

والقسم الثالث من أقسام الدلالة العقلية التمثيل وهو الاستدلال بجزئي على حكم جزئي آخر يشاركه في علة الحكم وقيل أنه اثبات حكم في جزئي لوجوده في جزئي آخر لمعنى مشترك بينهما

ومن المعنى الاول ما نقل أن أول من أحدث المروحة هو هرون الرشيد وذلك أنه دخل يوماً على أخيه عليه بنت المهدي في يوم قيظ فاذا هي قد صبغت ثيابها بزعفران وصندل ونشرتها على الحبال لتجف فجلس الرشيد قريباً من الثياب المنشورة فصارت الريح تمر على الثياب فتحمل منها نشراً طيباً فوجد لذلك راحة من الحر واستطاب به فأمر أن يصنع له مثل ذلك . واعلم ان اكثر الاختراعات العصرية في هذا العصر كانت في مثل هذه الصدفة ومن هذا القبيل أيضاً ما نقل عن أبي حنيفة قال ابن الجوزي عن ابن المبارك قال رأيت أبا حنيفة مع رهط في طريق مكة وقد شوي لهم فصل سمين فاشتهوا أن يأكلوه فبخل فلم يجدوا وعاءاً يصبون فيه الحل فتجربوا فرأيت أبا حنيفة قد حفر في ازملة حفرة وصب فيها الحل وأكلوا الشواء به وقالوا له نراك نحسن كل شيء فقال عليكم بشكر الله فان هذه الهمة فضل من الله عليكم

ومن المعنى الثاني ما ذكره ابن الجوزي عن الزهري قال أخبرنا عمارة بن خزيمة الانصاري أن عمه حدثه أن النبي صلى الله عليه وآله اتباع فرساً من اعرابي فاستقبه ليدفع له الثمن وجعل يسرع أما الاعرابي فأبطأ في مشيته وطفق رجال يسامون الاعرابي بفرسه وهم لا يشعرون أن النبي ابتاعه حتى زاد بعضهم بالنم فنادى الاعرابي بالنبي قائلاً ان كنت بتلعاً هذا الفرس فهلهم والابته فقال النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام أليس قد ابتعتك منك ؟ فقال لا فطفق الناس يلوذون بالنبي والاعرابي وهما يتراجمان وطفنق الاعرابي يقول لهم شهيداً يشهداني قد بعتك فقال خزيمة أنا أشهد فقبل النبي عليه وقال بم تشهد ولم تكن معنا ؟ قال بتصديةتك يا رسول الله فجعل النبي شهادة خزيمة بشهادة رجلين

وقال أحد ملوك الهند لبعض العلماء لاي شيء تجوزون الاعنة على معاوية وهو خال المؤمنين ومن جملة كتاب الوحي فقال أعز الله السلطان اذا اتفق لك عسكران يتحاربان وكان مقدم أحدهما علي بن أبي طالب ومقدم الآخر معاوية فتكون مع أيهما ؟ فقال في عسكر أمير المؤمنين علي عليه السلام أقاتل من يقاتله فقال اذا أتى معاوية يضرب أمير المؤمنين بسيفه وقال لك أيها السلطان أقتل معاوية أتقتله أم لا ؟ فقال نعم يجب علي حينئذ أن أضرب عنقه فقال العالم أعز الله السلطان اذا وجب قتله كيف لا يجوز له فضحك السلطان

ومن هذا القبيل ما رواه شاعرنا عبد المسيح بك انطاكي قل قرأت في بعض الاسفار

أن عمر بن عبد العزيز أفضل خلفاء بني أمية بالاجماع أراد ابطال لعن أمير المؤمنين عليه السلام من مساجد الشام ومصر والسكك تهريب أن يصدر أمره في ذلك من غير رضاه ذويه فتحدث فتنة في المسلمين تهلك الحرث والنسل فاستدعى يهودياً اليه وأسراً اليه بما ستقف عليه بعد وفي يوم الجمعة بعد أن صلى عمر بن عبد العزيز بالناس دخل داره وحوله عيون الدولة وأقطاب الامويين فدخل عليهم ذلك اليهودي مسلماً فقال له عمر ماذا تريد؟ قال جئت أخاطب ابنتك يا أمير المؤمنين قال ويل أمك أيها اليهودي الملعون هل مثلك يخاطب ابنة أمير المؤمنين؟ قال جعلت فداك وهل أنت أفضل من نبيكم قال كلا واستغفر الله قال ألم زوج ابنته فاطمة الزهراء من علي بن أبي طالب وهو ملعون عندكم فتظاهر عمر بالغضب وطرد اليهودي ثم قال لمن حوله ما رأيكم في هذا؟ أما كفانا عاراً اعلان هذه اللعنة حتى صار اليهود يعيروننا بها ويظلمون بكراننا بسببها أنها والله علينا سبة الابد ولذلك أصدر أمرني من هذه الساعة بإبطال لعنة علي عليه السلام ووضع النصاص الشديد على من يتوكلها وهكذا كان والحمد لله ولم يجسر احد من الامويين على مقاومته

وقال المنصور الدانقي يوماً لعمر بن عبيد وقد آتته في الخروج مع محمد بن عبد الله بن الحسن: أنت تعلم سره رأيت في هذا الخروج فأتيت صدرتي يدين نزيح بها ما في نفسي فقال له والله لئن استجزرت ان اكذب تقية لاستجزرن ان أحلف تقية فاستحى منه المنصور وقال له: والله أنت أعلم مني وأفقه

وقال أحد الحكماء من نقل لك فقد نقل عنك ومن شهدك فقد شهد عليك ومن تجرأ لك فقد تجرأ عليك وقال مسكين الدارمي في ذم الافراط بالغيرة:

ولست امرأاً لأبرح الدهر قاعداً الى جنب عرسى لا أفارقها شبراً
ولا مقمناً لا أبرح الدهر بيتها لاجعله قبيل المات لها قبراً
ولا حاملاً ظنسي ولا قول قائل على غيرة حتى أحيط به خـبراً
وهبني امرأاً راعيت مادمت شاهداً فكيف اذا ما سرت من يديها شراً
اذا هي لم تحصرن لها في فئانها فليس بمنجيبها بنسائي لها قصراً

وكان جعفي يبيع زيتوناً فأتته اليه امرأة تشتري منه بالدين فقال لها ذوقيه لنعرفيه أطيأ أم رديثاً قالت أنا صاعمة فضاء عن رمضان الماضي قال جعفي فاذهبي عني اذن يا ظالمة أنت تماطين ربك هذا المطال كله ويريدن أن تشتري مني لتماطيني

وقال ابن المعتز وقد سدَّ باب الامل في وجهه:

لا نأسفن من الدنيا على أمل
وقال الشيخ البهائي :

فليس باقيه الأمل ماضيه
بل هو انقضى عمري
وقال آخر :

اذاما المرء قصر ثم مرّت
ولم يلحق بصالحهم فدعه
وقال شاعرنا الانطاكى :

يقولون لي صبراً على مضض النوى
فقات مضى عامٌ وثانٌ وثالثٌ
« الاعتبار بالامثال »
ولا بدّ بعد الصبر من لذة الوصل
فهل من رجاء بعد ذلك في جمل

ومما يلحق بالتمثيل الاعتبار بالامثال قال أمير المؤمنين عليه السلام « أن الامور اذا تشابهت اعتبر آخرها بأولها » وهو حق وذلك لان المقدمات تدل على النتائج والاسباب تكشف عن المسببات واذا كانت السيئات عبارة عن علة ومعلول أو كان بينهما على الأقل تناسب قيل يستدل بحال أحدهما على حال الآخر واذا كان كذلك واشتبهت أمور على العاقل البعيد النظر ولم يعلم طريقة تأويلها فانه يستدل على نتائجها من مقدماتها ويقف على خرائمها من فوائدها كالرعية ذات السلطان الركيك الضعيف السياسة اذا ابتدأت أمور مملكته تضطرب واشتبه على العاقل المفكر الى ماذا سيفضي حال هذه السلطنة في المستقبل فانه يرجع بنتائجها الى مقدماتها ويعلم أنه سيفضي أمر ذلك الملك الى الانحلال والضياع لان بوادر الضعف ظاهرة من أوائل سوء ادارة سلطانه وقال صلى الله عليه وآله « استدلل على ما لم يكن بما قد كان فان الامور أشباه » وكان يقال « اذا شئت ان تنظر الى الدنيا من بعدك انظرها من بعد غيرك » وقالوا « التاريخ يعيد نفسه » وقلنا في مثل هذا المعنى في معرض غزل :

تعلني بالوصل وهي نفورة
فهل بعد ما تطل عهد النوى بنا
وما مرّ في أهل الغرام يدنا
وقال أبو الطيب المنفي :

ذكيّ تظنيه طلبه عينه
برى قلبه في يومه ما يرى غدا

وقال شاعرنا الانطاكي مادحاً

رأيتك تَمْضِي الرَّأْيَ فِي الْمَقْبَلِ الَّذِي
فان لم تكن بألوحى تعرف ما الذي
وقال بعض الاذكياء

يا من رأى أبويه في
هل فيها لك عبرة
ومن الذي طلب انتفا
كل تصبغه المني

وقال بعضهم

أؤمل أن وأحيا في كل ساعة
وما أنا الا لهم غير أن لي

ومن كتاب له عليه السلام الى الحارث الهمداني « اعتبر ما مضى من الدنيا بما بقي
منها فان بعضها يشبه البض وآخرها لاحق بأولها ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة الا اذا

(١) تفضل عظمة مولانا المعز حفظه الله فذكر لهذا العبد المملوك يتبين من سبعة
آيات نظمتها في عظمته على أثر حادثه جرت في العراق وقد تفضل عظمته فقال ان
حادثه كذا سنتهي على وجه كذا وما مضى الشهران الا وانتهت الحادثه على ما قال
عظمته وبلغتني نهايتها قبل أن تباع مسامعه الشريفه فدخلت عليه وأنشدت

أبا جاسب رياصاحب الرأي والحجبي
رأيتك تَمْضِي الرَّأْيَ فِي الْمَقْبَلِ الَّذِي
فان لم تكن بألوحى تعرف ما الذي
تنبأت عما كان منذ ابتدائه
وكان الذي أنبأت عنه كما تما
ذكا، به قد سست ملكك راشداً
فلا زلت بالرأي السديد مؤيداً

فتبسم سموه حفظه الله وقال ما الذي قد كان ؟ فذكرت سموه بالحادثه ونبووه
عظمته عنها منذ بلغتنا أخبارها فقال ليس في الامر غرابة فان المقدمات تدل على النتائج
في نظر القوم المفكرين

بالفت في ايلامه « فان العاقل ليعظن بالادب والبهائم لا تهظ الا بالضرب » وقال عليه السلام « السعيد من وعظ بغيره » أي أن ذا الجلد من اعتبر بما لحق غيره من المكروه فيجتنب الوقوع في مثله

ومن الامثال على السنة الحيوانات ماروي أن أسداً شاخ وضف فلم يقدر على شيء من الوحوش وأراد أن يخال لنفسه في المعيشة فمارض والتي نفسه في بدض الزيران وكان كلما أتاه زار من الوحوش انترسه داخل النار وأكله فأنى الثعلب يوم أو وقف على باب الغار مسلماً عليه وقال كيف حالك يا سيد الوحوش ؟ فقال الاسد مالك لا تدخل بأبا الحصين ؟ فقال له الثعلب يا سيد السباع قد كنت عوات على هذا غير أني أرى عندك آثار أقدام كثيرين قد دخلوا ولا أرى آثار أقدام أحد خرج منهم

ومن الامثال أيضاً أن البازي قال للديك ما أعرف أقل حياءً منك لان أهلاك يربونك من البيضة واذا كبرت لا يدنو منك أحد الا طرت ههنا وههنا وأنا أوخذ من الجبال وبخيطون عيني ويحبونني ويحبسونني في بيت وظلم واذا أطلقوني على الصيد فأصيد وأعود به إليهم فقال الديك تمهل ولا تعذل فانك ما رأيت قط بازياً بشوي على النار في سفود ولكني رأيت كثيراً ديكاً تشوي على سفانيد

« علة الحكم »

والقسم الرابع في أقسام الدلالة القافية الاولية القطعية هو فيما اذا كان وجود علة الحكم في الفرع أقوى من وجودها في الاصل . من ذلك ماروي عن ابليس أنه دخل على فرعون فقال أنت تدعي الربوبية قال نعم قال فبأي حجة ؟ قال بألف ساحر قال فاجهمهم لي فجمعهم وألقوا سحرهم فقال يا فرعون اجبني هل سحرهم أقوى أم سحري ؟ فقال بل سحرك فقال يا فرعون أنا مع هذا لا يرضاني الله أن أكون عبده فكيف يرضاك مع عجزك أن تكون شريكه ؟؟

وقيل دخل ابليس على فرعون لعنه الله فقال له من أنت ؟ قال ابليس قال ما جاء بك ؟ قال جئت متمجباً من حمتك لانك عادت مخلوقاً مثلي (ويريد به آدم عليه السلام) وأبيت السجود لي فطردت ولعنت وأنت تدعي أنك اله ان هذا والله الا الحق والجنون وقال الصفدي قيل ان بعض الفقهاء أصابه قولنج شديد في بعض المساجد فاضطرب وقلق وجعل يقول يا الله ضربة يا الله فسوة حتى أفاق رفاقه فلما كان الصباح أشرف على الهلاك وعان المرث فقال يا الله الجنة فقال له بعض رفاقه ما رأيت أشد حماقة منك منذ الغروب

الى الان تسأله ضرورة ما فرحك بها والان تسأله الجنة؟؟
 وحكي أن قطب الدين بن الراوندي مضى الى محلة اليهود وقال هل تعرفوني أنا
 عالم المسلمين؟ قالوا نعم قال جئت اليكم فان أضفتموني أربعين يوماً صرت الى مذهبكم
 فقالوا جئنا هذا اعتباراً لديننا وأضافوه وهياؤوا له الطعام ما أراد ولما مضت الايام
 الاربعون قال لهم « وأئناها بعشر » فأتموها بعشر ثم قالوا له ادخل في مذهبنا
 فقال هازئاً بهم ياناقصي العقول أنا في مدة خمسين سنة آكل طعام المسلمين والى الان
 ما تحقق اسلامي وتريدون لاجل طعام خمسين يوماً ادخل في دين اليهود؟؟
 وقيل ان البهلول أتى يوماً الى نصر الرشيد فرأى المند والمثكأ حيث يجلس
 مجلس في مكانه لحظة فرآه الخدم وضربوه وسحبوه عن مكان الخليفة فلما خرج
 هرون من الحرم رأى البهلول جالساً يبكي فسأل عن السبب فمقل له جالس في مكانك
 فضر بناه وسحبناه فزجرهم ونهاهم وقال الى البهلول متذافاً وقال له لا تبك فقال يا هرون
 ما بكيت على حالي ولكن أبكي على حالك أنا جلست في مكان لحظة واحدة ففصل لي
 هذا الضرب الشديد فكيف وأنت جالس في هذا المكان كل هذا الزمان الطويل ???
 وأنشد بعض العارفين في هذا المعنى:

غيرت موضع مرقدي يوماً ففارقني السكون
 قبل لي ناول ليلتي في حفرتي انسى يكون

وقال بعض العقلاء

يا عامر الدنيا الممد لها ماذا عملت لدارك الاخرى
 ومهد الفرش الوطيبة لا تغفل فراش الرقدة الكبرى

وقال بعض العارفين لرجل من الاغنياء كيف طلبك للدنيا . فقالا شديد قال فهل
 أدركت منها ما تريد قال لا قال هذه التي صرفت عمرك في طلبها لم تحصل منها على ما
 تريد فكيف التي تطابها؟ وقال بعضهم في هذا المعنى

أراك تطلب دنيا لست تدريها فكيف تدرك أخرى لست تطلبها

وقال بعض الدارين اذا كان أبونا آدم بيد ما قيل له اسكن الجنة أنت وزوجك
 طرد منها على ذنب واحد فقط فكيف نرجو نحن دخولها على كثرة ذنوبنا المتتالية
 القبيحة ?? والله در الغائل

يا غافلاً تزو بعيني راقد ومشاهد للإمر غير مشاهد

تصل الذنوب الى الذنوب وترتجي درك الجنان بها ونور العابد
 ونسيت أن الله أخرج آدمها منها الى الدنيا بذنب واحد
 وقال بعضهم لقد قطعت يدك وهي بعض جوارحك في الدنيا لأجل ربع دينار فلا
 تأمن أن يكون عقابك في الآخرة على هذه الشدة
 وتختلف ثلاثة عن رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة واحدة جرى لهم
 ما سمعنا من شديد النصاص فكيف بمن يقضي عمره في التخلف عنه
 وقيل خالف موسى الخضر عليهما السلام في طريق الصحبة ثلاث مرات فخل الخضر
 عقدة الوصال بينهما قائلاً هذا فراق بيني وبينك ألا تخاف يا ابن لم يف لربه قط أن
 يقول في بعض زلاتك هذا فراق بيني وبينك

﴿ الروضة الرابعة ﴾

﴿ في الامور الحاجبة للعقل ﴾

« توطئة »

اعلم أن محل العقل من الانسان هو القلب وقد استدلوا على ذلك بوجوده ليس
 هنا محل بيانها . فالقلب جار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر
 في العين وقوة الابصار لطيفة تفقد في العمى وتوجد في البصر . والانسان وان اغمض
 جفنيه أو جن عليه الليل حتى لا يعود يرى شيئاً مما حوله فالعلم الحاصل منه في القلب
 جار مجرى قوة ادراك البصر في العين ورؤيته لاعيان الاشياء . وعلى ذلك فملوازنة
 بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه الا أنه لا مناسبة بينهما في
 الشرف فان البصيرة الباطنة هي عين النفس التي هي اللطيفة المدركة وهي كالفارس والبدن
 كالفارس وعمى الفارس أضرم من عمى الفرس بل لا نسبة بين الضمررين
 وقد ناسب الله عز وجل بين البصيرة الباطنية والبصر الظاهر فقال « اكذب الفؤاد
 ما رأى » فسمى ادراك الفؤاد رؤية . وكذلك قوله تعالى « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت
 السموات والارض » وما أراد به الرؤية الظاهرة فان ذلك غير مخصوص براهيم عليه
 السلام حتى يعرض من الحق سبحانه في معرض الامتنان . وكذلك سمى ضد ادراك
 القلب عمى كما قال الله تعالى « فانها لا تسمي الابصار ولكن تسمي القلوب التي في
 الصدور » وقال تعالى « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً »

فإذا عرفت هذا فاعلم أن الامور الحاجبة للبصيرة كثيرة منها ما لا تدخل تحت الاختيار وذلك كالتضاء والقدر وفي الحديث « اذا نزل التندر عمي البصر » وليس المراد بالبصر البصر الظاهر ولكن تعمي القلوب التي في الصدور . وفي الحديث أيضاً « نزلت الامور للمقادير حتى يكون الختف في التدبير » قال بعض المحققين من شراح الحديث ذلها مطاوعتها للقدر بحسب القضاء الالهي وربما كان الهلاك المنقضي منها مقدرأ نجا يعتمده الانسان تديراً صالحاً لجهله بسر القدر . وقال بعض الباغاء

اذا اراد الله امرأ لا مري

وكان ذا عقل وسمع وبصر

أصم أذنيه وأعمى قلبه

وسل منه عقله سل الشعر

حتى اذا أنفذ فيه حكاه

رد عليه عقله ليعتبر

فلا تقل فيما جرى كيف جرى

فكل شيء بقضاء وقدر

ومنها ما تدخل تحت الاختيار بمعنى يمكن علاجها وهي أمور كثيرة فمنها ما تكون حاجبة للعقل عن ادراك المصالح والمفاسد ومنها ما تكون حاجبة له عن النظر في عيوب النفس كما سترى

« البطنة »

فمن حواسب العقل البطنة وهي كثرة الاكل فان كثرة الاغذية تضر الجسم الانساني لما تولده فيه من الفضلات الرديئة والاخلاط الفاسدة المنهفة التي تتصاعد أبخرتها الى الدماغ فتخيم على الحواس وتحدث البلادة والغفلة . قال عمرو بن العاص يوم حكم الحكمان « أ كثروا لابي هومي من الطعام الطيب فوالله ابطن قوم الانقادوا عتوهم أو بعضها وما مضى عزم رجل بات بطينا » نقول وحجاب كثرة الاكل للعقل وتغطيته بالحواس واظلامه للقلب أمر وجداني يعرفه البدوي والقروي والحضري ولذلك ترى الكتبة والشعراء والعلماء يختارون الدرس والتأليف على الجوع وعندهم أفضل الاوقات الصباح حيث يكون الجسم مرتاحاً والطعام مهيناً وما فيصفو الذهن وتقد البصيرة وقلنا في ذلك :

باكر لنظم الشعر حيث الذهن في

صفو ولا أثر بجسمك لتعب

والذهن لا يصفوا اذا ما كنت

بخما ونفسك في طعامك تكسب

ان الحصافة والذكاء كلاهما

واجعل طعامك للحياة ولا الحيا

في بطنه الشره الما كل تستلب

قالى الطعام كذلك يفعل من نجب

ومما يروى عن حكماء الهند وبراهمهم أنهم يستعينون على كشف النبيب بالصيام فهم لا يأكلون الا ما يسد الرمق ويقوم بأود الجسم لكيلا يتداركهم الفناء والهلاك جوعاً ولهم في ذلك قصص قالوا أنهم عودوا أجسامهم الصيام حتى صار أحدهم يقضي الايام بليا لياها ولا يذوق طعاماً وبذلك تكشف عن بصائرهم غشاوة الكثافة الجسمية وتكون أحكامهم على الاشياء قرينة الصواب والسداد. ومن هذا القبيل ما قاله شاعرنا الانطاكي مديلاً بيتاً قديماً

« عجباً لمن يمسى ويصبح لاهياً وبرا مه المأكول والمشروب »

يطفي بظلمته أشعة عقله وذكاؤه بطعامه محجوب

وبالاجمال نقول ان البطنة تجلب الاسقام وتفقد الاحلام وتخسر الافهام وقد قال

رسول الله صلى الله عليه وآله « المعدة بيت الداء والحمية أصل كل دواء »

« الانهماك في المعاصي »

ومن حواجب العقل كثرة الذنوب والانهماك بالمعاصي فانها تمنع صفاء القلب وجلاء النفس اذ ان القلب مثل المرآة وكل حركة من قول أو فعل تقع على النفس تحدث في القلب حدثاً من قولها أو فعلها فان كانت عقلية كانت معينة لها على الكمال وان كانت عصبية أو شهوانية كانت عائفة لها عن ذلك فكل اشتغال بامر دنيوي يحدث في وجه النفس نكتة سوداء كما تحدث النكتة السوداء في وجه المرآة حتى اذا تكاثرت وراكمت اذهبت بهاءها وانفسدت جوهرها وذلك هو الران المذكور في قوله تعالى « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » وفي الحديث « من ترك حجة اسودت قلبه ومن ترك جمعيتين اسودت ثنا قلبه ومن ترك ثلاث جمع اسودت قلبه كله » ومن هنا قال بعض العلماء

شكرت الى وكيع سوء حظي فارتدني الى ترك المعاصي

وأخبرني بان العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

وقلنا في هذا المعنى :

ولا تبق الذنوب لقلب رب ال ذنوب تقطناً وذكا وفيها

فطوبى للذي قسد فر منها وعداً ملاذها أتماً ووهما

وقال شاعرنا الانطاكي :

قالوا تركت مصالح الدنيا وما هو واجب للدين في هذا الهوى

قلت اعذروا صباً أضاع حجاجه في جمل وقولوا عاشق صب غوى

واعلم أن القلب خالق سليم في الاصل وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تقوته
 المسلمة بكدورة ررق وجهه من شبرة الذنوب وظلمتها فلما صي للإيمان كالماء كولات
 المضرة للابدان فلا يزال مجتمع في الباطن مغيرة لمزاج الانسان وهو لا يشعر بها الى أن
 يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك المعاصي وهذا الحجاب مانع للعقل
 عن النظر في أمور الآخرة وفي أمور الدنيا أيضاً حيث أن المنهك بها يصرف بكليته
 اليها فلا يعود ليهم بعلم من أعماله الدنيوية تنفسد دنياه وتسوء حاله
 « غلبة الطبع والعادة »

ومن حواجب العقل غلبة الطبع والمادة فيرى الانسان الاشياء بعين طبعه أو
 عادته لا بعين بصيرته . ومن ذلك ما روي عن يوسف الصديق أنه كان يجوع ويأكل
 من خبز الشعير فقيل له أنجبرع وببيدك خزان الارض فقال أخاف أن أشبع فلا
 أذكر الجائع أي أن تعرّده الشبع يحجب بصيرته عن النظر الى الجائع ليطعمه .
 ومن هذا القبيل ما روي تناولوا ان بعضهم ذكروا لابنة أحد المملوك في سنة غلاء أن
 الناس يتضورون جوعاً فتبسمت وقالت لماذا لا يأكلون قشور البقل اوه؟ وذلك لانها كانت
 معتادة اذا قدمت لها البقل اوه وهي صنف من الحلوي ان تأكل ما فيها من التور والفسق
 وترمي القشور فظننت ان كثيرين يفعلون فعلها وان ما يرمونه من القشور يكفي لاشباع
 الفقراء الجائعين

وحكي أن رجلاً انتصب له ضيعة ثم أرسل الى ردها فاعيدت له بعد مدة فكان
 قبل أن ردت عليه ضيعة اذا قيل له يا فلان كيف الناس؟ فيقول هم بشر بين مظلوم لا
 ينتصر له وظالم لا ينصف فلما استرد ضيعة صار يقول ان الناس بخير قد اعتمد معهم
 الانصاف ورنع عنهم الاحجاف ورد عليهم المنصوب وكشفت عنهم الكروب وفي
 الامثال « ما شكر السوق الا من ربح »

ومر رجل مع عبده له على رجل يضرب بالسياط فسأل العبد وولاه عن جنابة
 الرجل فقال انه مدين بمئة درهم فقال العبد وما قدر المئة درهم حتى يحصل هذا الضرب
 ولا يمطيها فعمل سيده ان عبده عنده مئة درهم فلم يزل به حتى استخرجها منه ثم بعد ذلك
 مر الرجل مع عبده على رجل محبوس على درهمين فقال السيد للعبد هذا محبوس على
 درهمين فقال العبد اذن ماذا يصنع المنلس؟

وقيل دخل لص بيت رجل فأخذ مائة وخرج نصاح الرجل ما نحس هذه الليلة

نقال الالص ليس على كل أحد

ومن هذا القبيل قصة قاضي الخمائة قالوا كان أحد النضاة يملك خمسمائة درهماً
فكلما تقدمت له قضية على اختلاف التضايا يحكم على أحد الفريقين بدفع خمسمائة درهماً
الى غيره فتمى الخبر للخليفة فبحث فوجد ان القاضي يحكم بمامعه غير ناظر الى حالة
الناس يحكم بجهله وعزله وأراح الناس من شره

وقالوا ان ولداً كان ماراً بالسوق فسمع المنادي ينادي الجمل بفلس فاسرع الى
أبيه وقال ألا تشتري جملًا؟ قال انه غال وبعد مدة كان الولد مع أبيه في السوق واذا
بالمنادي ينادي الجمل بمئة دينار فقال الاب انه لرخيص نشترى عشرة فقال الولد يا أبتاه
بالامس كان الجمل بفلس وقلت انه غال واليوم تترخصه بمئة دينار قال لان ائمة دينار
موجوده اليوم أما الفلس فلم يكن موجوداً في الامس ولا جود الا من موجود

ومن امثال العرب قولهم كيف ظنك بجارك؟ قال كظني بنفسي وذلك ان كل أحد
يظن بالناس مثل طريقته ونعمه ان خيراً فخير وان شراً فشر. ومن هذا قول الخنزون:

ونحسب ليلي اني اذ هجرتها	حذار الانادي ان ماني هو انما
ولكن ليلي لا تقي بامانة	فتحسب ليلي اني ساخرتها
وبي من هراها ما لو اني ابته	جماعة أعدائي بكتني عيونها

وقلتا في هذا المعنى :

لا تقس يا مجيد كل السرايا	في نعيم مقاس نفسك وارحم
ان منهم من في النعاسة يشتمى	وكثير من الخلائق يظلم (١)

وقال شاعرنا الانطاكي :

وكم من خلي لا يني في الهوى وقد قضيت الليالي ساهر الجفن باكياً

(١) ارتحل عظمة مولانا المعز هذين البيتين في ذات يوم زار فيه سمو ولده الشيخ
عبد المجيد خان وكنا في خدمة سموه فجاءه من يشكو اليه مظالمه وانه في حاجة الى طعام
وكساء فامر له عظمته بكرمه الخائمي بكسوة ومال وكان سمو الشيخ الصغير حاضر أفعال
أبتاه كيف يشكر هذا الرجل الجوع والعري وهل في الدنيا من يشكوها فاجابه عظمته
أعزه الله بهذين البيتين وكان هذا منذ عشر سنوات مضت حيث كان سمو الشيخ عبد
المجيد في نحو العاشرة من ربيع عمره أما اليوم فسمو قد شب على ما به تقر الابين وتفرح
الانفس من ذكاه وفضل أدامه الله مع أخوانه الانجاب في حمى الشيخ المعز بالسود ودو المعز

ولو عرفوا ما الحبُّ ما شمت منهمُ عدلوا مليماً في الصباية لاجيا
 وكل امرئ من نفسه بثَّ حكمه على اناس لا تحسبه للحقِّ واعيا
 وغاب رجل رجلاً عند بعض الاشراف فقال لقد استدلت على كثرة عيوبك بما
 تكثرت في مجالسك من ذكر عيوب الناس لانَّ طالب العيوب انما يطلبها بقدر ما فيه
 منها . وقال بعضهم في هذا المعنى :

وأجراً من رأيت بظاهر عيبٍ على عيب الرجال ذوي العيوب
 وقال بعض ملوك الهند « المنيء لا يظن بالناس الا سوءاً لانه يراهم بعين طبعه »
 ومثل ذلك ما قاله المنبي :

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونهُ وصدَّق ما يتباده من توهمِ
 وعادى محبيه بقول عداته فأصبح في ليلٍ من الشكِّ مظلمِ
 وقال ارسطو ليس « على قدر بصيرة الانسان ترى الاشياء فالسالم العقل يرى الاشياء
 على حقائقها والنفوس الشريفة ترى الاشياء بطبعها » وقال المنبي

ومن يك دافمٍ سرِّ مريضٍ يرى سرّاً به الماء الزلالا
 فانَّ الاشرار لا يظنون بالناس الا الشرَّ فهما رأيت انساناً يميء الظن بالناس طالباً
 للعيوب فاعلم انه خبيث في الباطن وانَّ خافي خبيثه يترشح منه وانما رأى غيره من حيث
 هو فان المؤمن يطلب المماذير والمناقى يطلب العيوب والمؤمن سليم الصدر في حق
 كافة الخلق

واسلم انه كما يحصل من كثرة الاعتياد على أعمال الشرِّ سوء الظنِّ بالناس كذلك
 يحصل من الاعتياد على أعمال الخير حسن الظنِّ بالناس فقد رووا عن بعض الصالحه
 من العلماء انه سمع بان العسس قبضوا على سارق في ذات ليلة فقال متى ذلك ؟ فقالوا له
 في نصف الليل فقال ويل له متى يصلي صلاة الليل حتى يتفرغ للمرققة ؟ ونظير ذلك
 انَّ قطاع طريق سلبوا يوماً رجلاً صالحاً متعبداً وكان في أثوابه سرورال نجس فقال الصالح
 لمن أخذه انه نجس لاتصلي فيه . وسبب حسن ظنِّ هذا الصالح وذاك الما بد هو اعتيادها
 عمل الخير فيظن ان كلَّ الناس كذلك حتى الاصوص

وفي كلام لامير المؤمنين عليه السلام في ذكر عمرو بن العاص « عجباً لابن النابغة
 يزعم لأهل الشام ان في دغابة واني امرء تلامبة أمارس وأمارس لقد قال باطلا ونطق
 انما أما وشرُّ القول الكذب انه ليقول فيكذب ويمد فيخالف ويسأل فيبخل أما والله

اني ليمعني من اللعب ذكر الموت وانه لينعمه من قول الحق نسيان الآخرة وانه لم يبايع معاوية حتى شرط له أن يؤتية آتية وترضخ له على ترك الدين رضىخسة « قال الشارح اعلم أن الرجل ذا الخلق المخصوص لا يرى الفضيلة في الامسك والبخيل يعيب أهل السماح والجود وينسبهم الى التبذير واطاعة الحزم وكذلك الرجل الجواد يعيب البخلاء وينسبهم الى ضيق النفس وسوء الظن وحب المال والحيان يعتقد أن الفضيلة في الجبن ويعيب الشجاعة ويعتقد كونها حزقا وتغريراً بالنفس كما قال المتنبي يرى الجبناء أن الجبن حزماً والشجاع يعيب الجبان وينسبه الى الضعف ويعتقد أن الجبن ذل ومهانة وهكذا القول في جميع الاخلاق والسجايا المقسمة بين نوع الانسان. ولما كان عمرو بن العاص شديد الغلظة وعر الجانب خشن الملمس دائم العبوس كان يعتقد أن ذلك هو الفضيلة وأن خلافه نقص ولو كان سهلاً طلقاً مطبوعاً على البشاشة وسماحة الخلق لكان يعتقد أن ذلك هو الفضيلة وأن خلافه نقص حتى لو قدرنا أن خلقه حاصل لعلي عليه السلام وخلق علي حاصل له لقال في علي لولا شراسة نيه فهو أخبر عن خلقه ظاناً أن الخلافة لا تصلح الا للشديد الشكبة العظيم الوعورة وهذا كما أشار اليه الامام أبو عبد الله في قوله « ان البموضة تنوعم ان لله تعالى زبائنتين أي قرنين كما لها لانه فيها كمال وعدمه نقص. وقال بعض الفضلاء لما رجعت من حج البيت الحرام سألتني بعض الجهال ما طول قبر ربنا وكيف عرضه؟ وهذا أقصى معرفته بأنه سبحانه مثل غيره يحيي ويموت الى غير ذلك من مراتب الجهل

« الحرص والاماني »

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في وصف الانسان « ان سنج له الرجاء أذله الطمع وان هاج به الطمع قتله الحرص » ومن كلامه أيضاً « الاماني تعمي أعين البصائر » وأنشدنا بعض الادباء بيتاً قديماً مشهوراً وهو :

صاحب الحاجة أعمى لا يرى الا قضاها

وقلنا في تضييق صدر هذا البيت :

اعذروه ان روه لج في كشف المعنى

طالباً فيه الاماني صاحب الحاجة أعمى

وحكي أن عظيماً من أكاسرة الفرس جلس يرم نيروز لدخول الناس اليه وأخذ الناس يقدمون له طرف التحف فحضر الموبذان وهو حاكم الحكام ومعه مندبيل

مشدود على شيء فوضعه بين يدي كسرى وحله فاذا فيه خيمة كبيرة فقال ما هذا؟ فقال
 انني كنت قد خرجت الى مكان الزهرة فرأيت بازيماً قد تبع دراجة فجاءت الدراجة الى
 أجرة قد وقعت فيها النار فألقت نفسها في الاجرة فهلكت فدخل البازي من حرصه
 خلفها فاحترق وأنا أراه فوقفت مفكراً في حاله وما فعله به حرصه ثم أخذته وقد صار
 خيمة ورأيت أن هذا من أبلغ المواظظ نعلم منه أن الحرص يقود الى الهلاك والبوار
 وانما ذكرنا هذه الحكاية من باب التمثيل اذ الحرص الموجود في الانسان هو أشد وأعظم
 من حرص الحيوان فكما يسوق الحيوان ويعمي احساسه كذلك يسوق الانسان ويعمي
 بصيرته عن المنافع والمهلك التي يتعرض لها

ويعجبني ما قاله شاعرنا الانطاكي في الحرص وقد عتب عليه بعضهم لاحتفاره
 المال وانفاقه ما تصل اليه يده بغير حساب فقال مرنجلا : (١)
 على م تطاب مني أن أكون على شح اللئام حريصاً غير بذال
 فهل أنا خالد في ذي الحياة لأخ شي الفقر أو عاجز عن اجتنا المال

(١) وهذان البيتان هما من أصل ستة أبيات قنتها ارمنجلا في حضرة عظمة مولانا
 المزمز وأنا في خدمة عظمته الملوكية في اليخت خزعلي سنة ١٩٢١ وذلك أن أحد
 الدساسين خزام الله أراد أن يحط من قدري في عين عظمة مليكي المحبوب فأخذ
 بحضوري ينمني في معرض المدح يذكر ما أنفقته في البصرة على الذين كانوا يتصدونني
 بصفتي العبد المملوك لعظمة مولاي السردار أقدس وكان يظن ذلك المافق أن قوله
 هذا قد يفضب عظمته علي وكان الحال بالعكس اذ أن عظمته حفظ الله سمع قول
 الرجل كعادته برحابة صدر ثم قال متبسماً وهل تظن أن عبد المسيح يجيب سائله وافاه
 وهو من أصحابي المقربين؟ فوقعت هذه الكلمات الغالية على ذلك الخبيث وقع الصاعقة
 وتشجعت أنا فقلت مرنجلا :

على م تطاب منسي أن أكون على	شح اللئام حريصاً غير بذال
فهل أنا خالد في ذي الحياة لأخ	شي الفقر أو عاجز عن اجتنا المال
ألمت ألم اني عبء خزعل لا	أخاف يوماً بأن أمني باقلال
فلست أخشى به الاقدار ما عبت	ولا تضيع به ما عشت آمالي
منه تعلمت بذل المال أنفقه	على عوافيه في حل وترحال
فما هو باخل يوماً علي ولا	أنا أخيب يوماً سؤل سؤالي

« شدة الطمع »

ومن حوажب العقل شدة الطمع وأحسن أمثاله ماروي عن لسان الحيوان رويوا
أن رجلاً صادف قبرة فقالت ما تريد أن تصنع بي؟ قال أذبحك وآكلك قالت والله ما أشفي
من أوام ولا أشبع من جوع ولكن أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلني أما
الواحدة فأعلمك أياها وأنا في يدك وأما الثانية فإذا صرت على الشجرة وأما الثالثة فإذا
صرت على الجبل قال هات الأولى قالت لا تأسف على ما فاتك نخلي سبيلها فلما صارت
على الشجرة قال هات الثانية قالت لا تصدق ما لا يكون انه يكون ثم طارت فصارت
على الجبل فقالت يا شقي لو ذبحني لاخرجت من حوصلي درتين زنة كل واحدة
عشرون مثقالاً قال فعرض على سنه بأسف وتلهف وقال هات الثالثة قالت انك لقد نسبت
الثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ألم أقل لك لا تأسف على ما فاتك ولا تصدق ما لا يكون
انه يكون وأنا لو وزنت دمي ولحمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلي
درتان في كل واحدة عشرون مثقالاً؟ ثم طارت وذهبت وهذا أحسن مثال لطمع الانسان
حتى الذي قد يهيه طمعه عن ادراك الحقائق فيصدق ما لا يكون انه يكون
ونظير هذا ما في كلبه ودمنه وذلك أن سارقاً أتى سطح بيت رجل من الاغنياء
وكان معه جماعة من أصحابه فاستيقظ صاحب المنزل على صوته، أندامه فنبه امرأته
الى ذلك وقال لها رويداً اني لاحسب الاصوص علوا البيت فاية ظنني بصوت يسمعونه
وقرني ألا تخبرني أبها الرجل عن أموالك هذه الكثيرة وكنوزك العظيمة؟ فإذا نهيتك
عن هذا السؤال فألحني عليّ بالاستفسار ففعلت المرأة ذلك وسألته كما أمرها وأنصت
الاصوص الى سماع قولها فكان الزوج يقول لزوجته: أيتها المرأة قد ساقك الغدر الى رزق
واسع كثير فكلي واسكتي ولا تسألني عن أمر ان أخبرتك به لم آمن أن يسمعه أحد فيكون
في ذلك ما أكره وتكرهين ثم قالت المرأة أخبرني أبها الرجل للمعري ما بقربنا أحد
يسمع ونحن في سواد الليل فقال لها فاني أخبرك اني لم أجمع أموالي الا من السرقة قالت
وكيف كان ذلك؟ وما كنت تصنع؟ قال ذلك امل أصبته في السرقة وكان الامر لي يسيراً وانا
آمن أن يبهمني أحد ويرتاب في قال فاذ كر لي ذلك قال كنت أذهب في الليلة المقمرة أنا
وأصحابي حتى أعلو دار أحد الاغنياء الذين مننا فأتتهي الى الكثرة التي يدخل منها
الضوء فارقي بهذه الرقية وهي شولم شولم سبع مرات واعتنق الضوء فلا يحس بوقوعي
أحد فلا أدع، الا ولا متاعاً الا أخذته ثم ارفي بتلك الرقية سبع مرات واعتنق الضوء

فيجذبني فأصعد الى أصحابي فنمضي سالمين آمنين فلما سمع النصوص ذلك قالوا قد ظفروا الليلة بما تريد من المال ثم أنهم أطالوا المسك حتى ظنوا أن صاحب الدار وزوجته قد هجما فقام فاندبهم الى مدخل الضوء وقال شرم شولم سبع مرات ثم اعتنق الضوء لينزل الى أرض المنزل فوقع على أم رأسه منكماً فوثب اليه الرجل هراوته وقال له من أنت؟ قال أنا الذي أعمي بصيرني الطمع فصدقت ما لا يكون أبداً أنه يكون

ونظر طفيلي الى قوم ذاهيين فلم يشك أنهم ذاهبون الى وليمة فتبعهم فاذا هم شعراء يتصدون السلطان بمدائحهم فدخل معهم عليه وبعد أن أنشد كل واحد منهم قصيدته وتناول جائزته قال حاجب السلطان للطفيلي أنشد شرك قال لست بشاعر قال من أنت اذن؟ قال من الغاوين الذين أشار اليهم القرآن « والشعراء يتبعهم الغاؤون » فضحك السلطان وأمر له بجائزة نقول وهذا من الطمع الذي حسنت تايجته وهو نادر وما ذكرناه هنا إلا لاستصلاح حسن بداعة ذلك الطفيلي

ونظر رجل من المتطفلة الى قوم من الزنادقة يساق بهم الى القتل فرأى لهم حياة حسنة وثياباً نقية فظنهم مدعويين الى وليمة فتطفل حتى دخل فيما بينهم فلما وصلوا الى دار الشرطة أخذ صاحب الشرطة باستجوابهم واحداً واحداً حتى وصل الى الطفيلي فقال له أصلحك الله است والله منهم وإنما أنا طفيلي ظننتهم قادمين على طمام فاحتتمهم فقال ليس هذا مما ينبغيك وأمر بضرب عنقه فقال أصلحك الله ان كنت ولا بد فاعلا فر السيف أن يضرب بطني لا عنقي بسينه فانه هو الذي ورطني هذه الورطة فضحك صاحب الشرطة وتحقق من أمره فاذا هو طفيلي نحلي سبيله

ومن أمثال العرب « أطمع من مقهور » والمقهور هو الخاسر في القمار وإنما قيل هذا لان الخاسر في المقامرة يطعم أن يسترد خسارة ليزيدها

ومن الامثال أيضاً « أطمع من أشمب » وأشمب هذا رجل من أهل المدينة اجتمع يوماً عليه غلمان يابثونه وكان مزاحاً ظريفاً مغنياً فاذوه فقال لهم ان في دار بني فلان عرساً فانطلقوا الى هناك فانه أتبع لكم فانطلقوا وتركوه فلما رأهم منطلقين ركضاً قال لعل الذي قلدته حقاً فضى في أثرهم فلم يجد شيئاً وظفر به الغلمان هناك فاذوه . ومن طمعه انه مرّ برجل يمضغ عاكاً فنبهه أكثر من ميل حتى علم أنه علك . ومرّ بمكتب وغلّام يقرأ على الاستاذ « أبي يدعوك » فقال قم بين يدي حفظك الله وحفظ أباك فقال انما كنت أقرأ ورتدي فقال أنكرت فلم تفلح ولا يفلح أبوك . وقانا في الطمع :

وكم طامع قد ضاع ثاقب رأيه ببطمه حتى أضرَّ به النفسا
وقد يتمسدى الامر حتى يسوقه الى الهلك أو يلقي به الجور والنحسا (١)

« الجتمع في الكسب »

ومن حواجب العقل الجتمع في الكسب حلالاً كان أو حراماً وهو من ثمرات التفريط
بالطمع فتعمي بصيرة الجتمع عن النظر الى المفاسد التي يرتكبها بحشمه قال أمير المؤمنين
عليه السلام « أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع »

ومن حوادث هؤلاء الجشعين أن رجلاً كانت عنده امرأة تفجر وتنفق عليه
فطلقها وزوج بغيضة فطلب منها ما كانت تأتي به الاولى ففعلت فجاء يوماً الى بيته
فتدبرت له طعاماً طيباً فقال من أين هذا؟ قال جاءني زبون وحمل اليّ طعاماً وشراباً
وحلواً فأكلنا هنيئاً وشربنا مريئاً

وكان ما كان مما لست أذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر
وهذا نصيبك من فضلات طاماننا فقال اذا تعاطيت هذا فاياك واخباري بتفاصيل
ما يجري فاني غير

وكانت لبعوض الاكابر جارية عفيفة الا أنها كانت تفحش في مجونها فقال لها
مولها اقصري عن هذا الفحش بمحضر من الرجال فقالت أشد من فحشي أخذك
دراهم بسببي وقال الشاعر في مثل هذا الجتمع :

عجبت من شيعي ومن زهده وذكره النار وأهوالها
يكره أن يشرب في فضة ويسرق الفضة ان طالها
وكثيراً ما رأينا في المنسكين بالمبادات واجتناب المكروهات والمحرمات من يش
في ماملاته فيرتكب أعظم ما يجتنب من المحرمات لغشيان الطمع على بصيرته
وقيل أن يحيى مرَّ يوماً بأبي عبد الله التونسي وسلم عليه فقال ما تقول في صلاتي
بهذه الثياب التي عليّ فأغرب الابد في الضحك وقال منلك مثل الكلب يتمعك في

(١) نقول وبينما كنا في المطبعة تراجع اغلاط هاته الصفحة خطرت لنا هذه
الايات في الموضوع قلنا :

وبطمع في رضوان خزعل صحبه فيبلغهم عقواً بعيد المطامع
ويجمع عن جهل بسطوته العدى فيمنهم بالمهلكات الفواجع
وما كل مطاع ينال المنى سوى ال الذي جاءه للمكرمات الهوامع

الحيفة ويتلطح بدمها ويأكل النجس فإذا بال رفع رجله تنزهاً عن البول وأنت بطنك مملوء من الحرام وتسال عن ثيابك فبكي ونزل عن دابته وتجرّد عن ثيابه واقتفى أثر العابد وأقام معه ثلاثة أيام ثم أمره بالاحتطاب فكان يحتطب ويبيع ويأكل من كسبه ويتصدق مما يفضل عنه وكان الناس إذا أتوا الى العابد لطلب الدواء يقول سلوا يحيى فإنه خرج من الدنيا على قدرته عليها

« غلبة الشهوات »

ومن حوажب العقل غلبة الشهوات النفسانية بحيث يستحسن المغلوب من شهواته ما يوصله اليها ويستتبع ما يصده عنها . ومن الامثال على هذا ما قاله الشاعر السكير

ما قال ربك ويل للاولى سكروا بل قال ربك ويل للمصلينا

فانه لرغبته في السكر وعن الصلاة أخذ من الآية على طريق المغالطة النصف الاول

وجعله على رغبة شهواته والآية « ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون »

وقيل لطفيلي أي سورة تعجبك من القرآن قال المائدة قالوا فأي آية منها قال « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا » قالوا ثم ماذا قال « آتنا غذائنا » قالوا ثم ماذا قال « ادخلوها بسلام آمنين » قالوا ثم ماذا قال « وما هم منها بمخرجين » وأنت ترى أنه ما اختار من القرآن الشريف كله الا ما يناسب شهواته

ولزم اعرابي سفيان بن عيينه بسمع منه الحديث فلما أراد السفر قال له يا اعرابي ما الذي أعجبك من حديثنا؟ قال ثلاثة أحاديث أولها عن النبي صلى الله عليه وآله انه كان يحب الحلواء والعسل والثاني أنه قال اذا وضع الفطور وحضرت الصلاة فابدأوا بالفطور والثالث قوله ليس من بني سفيان من سفن . وقال بنان حفظت القرآن كله ثم نسيت الا حرفين وهما « آتنا غذاءنا » وقيل لطفيلي من أشعر الناس؟ قال عبد الله بن المعز لانه قال :

ولم أر ديباجاً ولم أر سندساً بأحسن في دار الكرام من الخبز

وقيل كان أعشى همذان وهو محمد بن عبد الله أسره عليج في بلاد الديلم وكان للعليج بنت فأحبته فسارت اليه ليلاً ومكته من نفسها فأصبح وقد واقعها ثماني مرات فقالت يا معشر المسلمين أهكذا تفعلون بنساءكم؟ فقال نعم قالت بهذا العمل نصرتم ثم قالت أفرأيت ان خلصتك تصطفيني لئلا يذمك؟ قال نعم فلما كان الليل حلت قيوده وأخذت به طريقاً تعرفها وهربت معه

وقد تبين من هذه المقدمة أنّ القوة الشهوية اذا غابت صار العقل مسخرّاً لها في استحسان ما وافق الهوى واستقباح ما خالفه من قول أو فعل ومن ذلك قول المنبي:
 أمّا تنسجج المفالة في القلا ب اذا وانقت هوى في الفؤاد

نقول وحينئذ يستخدها في استنباط الحيل لتوصل الى شهواته وقلنا في هذا المعنى:

وأبلغ ما يؤثر من مقال مقال وفق شهوات النفوس

فلا تحفل بتسجيع القوافي وتزويق السطور على الطروس

وكم عظة تضيق ولو وعها النفوس لما اتنت الف النفوس

والانسان اذا صحّ منه الهوى اهدى الى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول الى الغرض حتى اذا أراد أن يستنزل الطير المخلق في جوف السماء مع بعده منه استنزله واذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه واذا أراد أن يستخرج الذهب والفضة من تحت الجبال استخرجها واذا أراد أن يقتنص الوحوش السارحة في البراري والقفار اقتنصها واذا أراد أن يستخرج السباع والقبيلة وعظيم الحيوانات سخرها واذا أراد أن يأخذ الحيات والافاعي ويبيت بها أخذها واستخرج الترياق من أجوافها وكل ذلك باستنباط الحيل واعداد الالات فسخر الفرس الركوب والكلب للصيد والبازي لاقتناس الطيور والشبكة لصيد الاسماك وما اكتفى بهذا حتى صار يأتمن بما يمد من قبيل الخوارق فسخر البخار والكهرباء والهواء وأظير من القدرة على الطبيعة في هذا العصر الاخير ما لو حدثت به محدث لا باننا لحسبوه هذياناً وما عمل الانسان كل هذا الا لغلبة القوة الشهوية والهوى ولذلك قالوا « همم الرجال تزيل الجبال » وقالوا « الارادة تفعل المعجائب » وبمعنى ذلك اذا انصرف الهوى عن الشيء فترت الهمة عنه وأظهر الرجل اليأس واستمات الامر واستوعز الطريق في أمر لو طلبه برغبة لسكان سهل المنال مرجواً وجملة القول ان الباعث أو المحرك هو الهوى النفساني سواء للشراء أو للخير

ولما غلب على النفوس البشرية حب الدنيا والعاجل من الشهوات توجهت هممهم وعقولهم اليها وانصرفت عن الآخرة وذلك هو الخمران المبين مع أنّ الناقل يجب أن يتأدب بأدب رسول الله صلى الله عليه وآله القائل « اعمل لديك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »

ومن الامثال الطييفة ما رووه قالوا ان حدادا كان عنده كلب دأبه التواني والرقاد

ما دام الحداد تاملاً وإذا رفع العمل وجلس مع أصحابه ليأكلوا استيقظ وجعل يهز ذنبه فقال الحداد يوماً يا كلب السوء ما لي أرى صوت المطارق المزعجة التي تصم الأذان لا تنبهك وحسن المضع الحفي سمعه فيوقفك؟ وكذلك الانسان الذي غلب عليه هواه يتقاعس عن الوعظ الا اذا سمع ما يوافق ميوله . وقال أبو العيناء رأيت جارية مع البخاس وهي تحائف أن لا ترجع لمولاها فسألها السبب فقالت يا سيدي انه يوافقني من قيام ويصلي من جلوس وبشتمني باعراب ويلحن في القراءة فقلت لا أكثر الله مثله في المسكين وخلاصة الامر ان الهوى اذا غلب حجج العقل عن المصالح واستسخره في حاجاته

« غلبة الحب النفساني »

ومن حوажب العقل غلبة الحب النفساني فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله « حبك الشيء يعمي ويصم » أي يعمي عن الرشد ويصم عن الوعظ . وقيل ان الحب عن العذل في صم . وقال الشاعر :

وعين الرضى عن كل عيب كايه
ولكن عين السخط تبدي المساويا
وقال شاعرنا الانطاكي :

انا شر هذا الناس ان كنت ساخطاً
علي وخير الناس ان كنت راضيا
كذلك يبقى الناس كل بعينه
وحب هواه بات فيهم وقاضيا
فمن قد رضوا عنه فذاك أخو حجي
وسواته الكثرى رأوها أياديا
ومن غضبوا يوماً عليه فانما
مأثره الزهرا رأوها مساويا
وقال بعضهم حبك الشيء سر يترك وبين مساويه وبفضك اياه سر يترك وبين محاسنه
ولبعضهم في هذا المعنى :

وحبك الشيء يعمي عن قبائح

ويزعم الاذن ان تصفى الى العذل
وقال حكيم « اذا أبصرت العين الشهوة عمي القلب عن الاختبار » ومن كلام لامير المؤمنين عليه السلام « ومن عشق شيئاً غشى بصره وأمراض قلبه فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع باذن غير سمعية » ومن هذا الباب حب الوطن فان الانسان من فرط حبه لوطنه يراه أنزل من كل وطن سواه . ومن هذا القبيل ما حدثنا به شاعرنا عبد المسيح بك انطاكي قال « ووجدت في باريس وهي عروس الدنيا قروياً من أهالي تلكيف وهي قرية بجوار الموصل فتعرت به فاذا هو راجع لوطنه بعد أن أقام مدة باميركا فجمع

مبلغاً غير يسير من المال فقلت له اني لاعجب من تركك هذه الديار الزاهرة بعد رانها
ورجوعك الى قريتك الحفيرة فنظر اليّ شذراً وقال ان ساعة أفضيها في تلكيف على
هضبة من هضباتها لأحب الى نفسي من كل ما أسمع وأرى. وروى الانطاكي أيضاً قال
« كنت في المؤتمر الذي عقده السوريون في باريس فوقف خطيب من نصارى لبنان
يبين عواطف الوطني الساذج فقال ان قريتي في لبنان من أصغر وأحق القرى اذ لا تباع
أكثر من خمسة عشر يوماً وليس لها ذكر في الجغرافيا ولا هي مصورة في خرائطها
واني اذا حلمت أحلم بها واذا جلست أتصورها فأذوب شوقاً وحنيناً اليها وكلما وقعت
عيني على خريطة لبنان وضعت بقلبي اشارة الى موضعها مع أنني هاجرتها منذ خمسة
عشر عاماً قضيتها بين أوروبا وأمريكا وأصبت نعمة وخيراً ومع ذلك أحسب نفسي
مهاجراً ولا بد لي من العودة اليها يوماً » فتأمل

ومن هذا القبيل ما يروى عن العشاق وهيامهم بنساء لو نظر اليهن ناظر لما وجدهن
أهلاً لذلك التذلة الذي يهلك أصحابه. من ذلك ما روي أن أحد الامراء على عهد ليلي
ومجنونها شاقه ما سمعه من الغزل فيها فاستدعى ليلي اليه ليراها وكانت قصيرة سوداء
بادية القبح فقال مزديراً أنت هي ليلي التي جن قيس في هواها وقال ما قال فيها قالت
لو كان في وجهك عينا قيس لكنت أنا ليلي فاعجب الامير بحبواها الدال على الحكمة
واعلم أن الحب كما يممي ويصم عن مساوي المحبوب فكذلك البغض يعمي ويصم عن محاسن
المبغض على أن الحب والبغض لا يكونان حاجيين للعقل الا اذا تجاوزا حد الاعتدال
« الانانية او من حب الانسان نفسه »

ومن حواجب العقل الانانية وهي محبة الانسان لذاته بحيث يحجب هذا الحب عقله
عن عيوبها . قيل لحكم ما بال الناس لا يرون عيوب أنفسهم كما يرون عيوب غيرهم
فأجاب ان الانسان عاشق لنفسه والداشق لا يرى عيوب المعشوق وقال أحد الشعراء :

أرى كل انسان يرى عيب غيره ويعمي عن العيب الذي هو فيه
وما خير من تخفى عليه عيوبه ويبدو له العيب الذي بأخيه

وقال غيره في هذا المعنى :

فبيح من الانسان ينمى عيوبه ويذكر عيباً في أخيه قد اختفى
فلو كان ذا عقل لما عاب غيره وفيه عيوب لو رآها بها اكنفى

وقلنا في هذا المعنى :

وكم غائب اخوانه بالذي به يرى الناس منه ما يراه بغيره
ولو قصد المرأة ينظر نفسه كفى الناس من شر المقال وخيره
وفي الاثر ان ابا العينا لقي بعض اخوانه في السحر فجعل يتمجب بن بكوره وقال
يا عبد الله اركب في مثل هذا الوقت ؟ فقال الرجل ارى ابا العينا بشار كني في عملي
وينفرد عني بالتعجب منه وانشد ابو ثابت النحوي لبعض الشعراء :

ومطرفه عيناه عز عيب نفسه ولو بان عيب من أخيه لا بصرا
ولو كان ذا عقل وينصف نفسه لا مسك عن عيب الصديق وقصرا
ولبعضهم في هذا الموضوع :

لكل فتى خرج من العيب ممثلي على كذنه منه رمن أهل دهره
فعين عيوب الناس نصب عيونه وعين عيوب النفس من خائب ظهره
وانشد الرياشي :

ألا أيها الاثمى في خليفتي هل النفس فيما كان نك تلوم
فكيف ترى في عين صاحبك القذى وتنسى قذى عينيك وهو عظيم
وقال شاعرنا الانطاكي :

أراني كأسمى العالمين خلائقاً وكل امرئ مثلي بفرط تروره
ولولا الهوى ما كنت نخدعاً بما يراه الورى مني بيادي سفوره
ومعرفة الانسان للنفس حكمة تعز عليه في بسيط شعوره

ومن أمثال كاية ودمنه زعموا أن مدينة أغار عليها الدمود فقتل وسبي وغنم وانطلق
الى بلاد فاتفق أنه كان يوماً مع جندي ممن وقع في قسمته رجل حارث ومعه امرأتان
له وكان هذا الجندي يسيء اليهم في الطعام واللباس فذهب الحارث ذات يوم ومعه امرأته
يحتطبون للجندي وهم عراة فأصابت احدى المرأتين في طريقها خرقة بالية فوضعتها على
سوائها فقالت الاخرى لزوجها ألا تنظر الى هذه الفاعلة كيف لا تستحي وتستتر
عورتها فقال لها زوجها لو بدأت بالنظر الى نفسك وان جسمك عار كاه لما عبرت
صاحبك بما هو بميته فيك . وقال بعضهم :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيبٌ سوانا

ولحِب الانسان لنفسه وعماه عن عيوبها نتائج منها الشعور بثقل النصيحة فان النصيحة

من حيث هي تغيظ القلوب منها وتفر النفوس مها كانت على حق لمخالفتها هوى النفس ولذلك قيل في الامثال « الناصح مكروه » ولا جرم أن تفر النفوس من النصيحة لميلها الى النساد وهي تدعو الى الرشاد ولان النفوس مطبوعة على الاذى والشر والنصيحة تدعو الى الخير والبر . قال ابن مسعود « ما نصحت لاحد قط الا وجدته يفتش في عيوبه وليس ذلك الا لثقل النصيحة على سمعه » وفي أمثال العرب « ان كثير النصيحة يهجم على كثير الغلظة » أي اذا بالغت في النصيحة أهمك ان تسمح له ومن كلام بعض الاذكياء « اذا رأيت انساناً قد أخطأ فلا تصلح خطأه فانه يتعلم منك ويفض ب عليك » وقد وصف الله الكاذبين يعضهم للتاصحين اذ قال تعالى « ولكن لا تحبون الناصحين » وقد آل الامر في عهدنا هذا الى أن أبغض الخلق الينا من ينصح لنا ويعرفنا عيوبنا بل نستل بمناجاة الناصح مثل منابله فنقول له وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت وتشغلنا ال دأوة معه عن الاتفاح بنصحه . ومن هذا تلطف العقلاء في إيصال النصائح والمواعظ الى النفوس البشرية بضرب الامثال كالذي في كليله ودمنه والصادح والباغم ونحوها اذ النصيح الصريح ثقيل على النفس كما عرفت والنفس تميل الى اللهو فوضوا لها المراءظ في حكايات ملهبة لتنبيه البصيرة بها (١)

ومن نتائج محبة النفس والعمي عن عيوبها الظلم وعدم الانصاف كما قال المتنبي :

والظلم من شم النفوس فان نجد ذا عفة فسله لا يعلم

قيل وقنت امرأة قبيحة على عطار ماجن فلما نظر اليها قال « واذا الوسوس حشرت » فقالت « وضرب لنا ملاً ونسي خلفه » قال ابن الجوزي حدثنا أبو الطيب بن هريرة قال كنت مجتازاً بينداد ومخنت مشى وكان حسن البدن فرأته امرأة وقالت لبت علي شحم هذا المخنت فقال لها المخنت مع بغاي فشمته فقال لها كيف ؟ أنا خذين الجيد وتركين الردي؟

(١) وهذا هو دأب سمو مولانا الشيخ المعز حفظه الله فانه عند ما يريد تأديبنا ونصحننا بمخاطبنا دائماً بالامثال والقصص . وكذلك فعل سموه حفظه الله في هذا الكتاب اذ اعتمد على بيان أغراضه الشريفة لنفع العالم الانساني على الحكايات والملح والنوادر الشعرية والامثال المنتخبة على ما ترى وفي هذا من الدليل على ثاقب نظر سموه ما لا يحتاج الى بيان

ومن محاضرات الزاغب قال صبي لمعلمه رأيت في المنام كأنني مطاي بالمنذرة وأنت مطاي بالعسل قال هذا عملك السيء وذلك عملي الصالح. قال الصبي فاسمع نائم الرؤيا وكأني أجلسك وأنت تلجأني فقال له اسكت لعنك الله

ومن كتاب بهجة السرور قال بمض اللوطية خلوت يوماً بغلام حسن في خرابة فاذا شيخ ذو هيئة قد دخل علينا فقال لي يا هذا أما تستحي من الجبار وكيف لا تغلو الاسعار وتقل الأثمار وتيبس الأشجار وتتضب الأمطار وتنجف الأنهار ولم ينزل يربخني حتى قتت رخرجت وركت الغلام ثم جمعت ألثفت خلقي فم أرة يخرج فأنكرت ذلك ورجعت الى الخرابة فاذا الغلام تحت الشيخ فقلت الان ترخص الاسعار وتكثر الأثمار ونهطل الأمطار وتورق الأشجار فقال أنا وان كنت عاصياً أحب منك أن تكون صالحاً

ومن نتائج النظم وعدم الانصاف الماطلة في حقوق الغير ومن أمثال العرب « الاكل سلجان والقضاء ليلان » يضرب لمن يأخذ مال الناس فيسهل عليه فاذا طولب بتعاضد دينه ماطل وصعب عليه الوفاء. ولبعضهم :

وأخوك لا تقرضه شيئاً ان رمت أن تقضي وداده
فالأخذ مثل النكاح حلوة والرذلة صبي كالولاده
وقال آخر في عكس ذلك :

إذا استتمت أو أنكرت خلقاً وسرك بهاده طلب البعاد
فشرده بقرض دريهمات فان الفرض داعية الفساد
« العجب النفساني »

ومن نتائج حب الانسان لنفسه المعجب بها والمعجب اما بالنفس أو بالرأي وكلاهما يحجبان البصيرة فاما المعجب بنفسه فانه اسوأ حالا من الكاذب الذي هو في نهاية البعد عن الفضل ومن الرائي الذي هو اسوأ حالا من الكاذب لان هذين يريان نقص نفسيهما ويحاولان الاخفاء بالرياء والكذب وأما المعجب بنفسه فقد عمي عن عيوبها فتظهر أمام عينيه كالفضائل

قيل للحسن عليه السلام من شر الناس قال من يرى أنه خيرهم وقال أمير المؤمنين عليه السلام « عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله » ومعنى هذه الحكمة هو ان الحاسد لا يزال مجتهداً في اظهار معائب المحسود واخفاء محاسنه فلما كان اعجاب المرء بنفسه

كاشفاً عن نقص عقله كان كالحاسد الذي دأبه اظهار عيوب المحسود ونقصه .
 وكان يقال من رضي عن نفسه كثر السخط عليه وهذا صحيح لان برضائه عنها
 رضاء عن كل عمل يسلمه بهدايتها فيدخله الغرور ويأخذ بانضاب الناس فيسخطون عليه
 وحقبة العجب ظن الانسان بنفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها . ولهذا
 قال بعضهم لرجل رآه كثير الاعجاب بنفسه يسرني ان أكون عند الناس مثلك عند نفسك
 وأن أكون عند نفسي مثلك عند الناس اذن لكنت سعيداً حكيماً
 والمعجب بنفسه هو المعجب برأيه وعمله وعقله ولذلك يمتنع عن الاستفادة من
 الاستشارة والقدوة وقبول النصيحة والاسترشاد فيزداد باستبداده هذا حطة بين الناس
 واحتقاراً . وربما يوجب بالرأى الخطأ ويصر عليه فيخسر به دينه اذا كان متعلقاً بالدين
 أو دنياه اذا كان متعلقاً بالدنيا أو يخسرهما معاً وقد قلنا في هذا المعنى :

قل للذين استبدوا في مذاهبهم عجباً بانفسهم ما استرشدوا أحدا
 ضلتمو السمي لا رأياً ولا أدباً ولا خفراً ولا كسباً ولا رشدا
 « شدة الغضب »

ومن حواجب العقل شدة الغضب بحيث تظلي نيران الغضب ويقوى اضطرابها في
 صدر انسان فقل قد عمي عن النظر الى عواقب ما يأتيه من الاعمال ويتفوه به من الاقوال
 فاذا وعظ لا يسمع بل قد يزداد بالوظظ غضباً واذا سئل أن يستضيء بنور تنله ويرجع
 رشده تعذر عليه ذلك لان معدن الفكر الدماغ وهذا يخيم عليه دخان مظلم يتصاعد
 من ثوران صدر الغاضب بنيران الغضب فما السفينة في ملتطم الامواج عند اضطراب
 الرياح في لجة البحر أحسن حالا وأرجى سلامة من النفس الغاضبة المضطربة اذ في
 السفينة من يحوال لتسكينها وتديرها والنظر اليها وأما القلب ففي الغضب يفقد حيلته
 ويعجز عن سياسة نفسه

قال بعضهم لابنه يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحي في التناير
 المسحورة وأقل الناس غضباً أكثرهم عقلاً فان كان للدنيا كان دهاياً ومكراً وان كان
 للأخرة كان حليماً وعلماً . وقلنا في مثل هذا :

ان الغضوب اذا في صدره اتقدت نار النغيظ قل جنّ الفتي غضباً
 وكم أضاع حقوقاً لاتضيع وكم قدأورث النفس ذلاً عندما اضطربا
 وأعقل الناس من بالحلم يقبل الـ مكروه حتى يرى في دفعه سبياً

لا يبلغ المجد إلا من يقابل أحداً من الزمان بصدر بأورى رجا
وقيل « الغضب عدو العقل » وقيل أيضاً « الغضب غول العقل » وقال ابن المقفع
« اذا حاججت فلا تغضب » فان الغضب يقطع عنك الحججة ويظهر عليك الخصم واحذر
الغضب ممن يحملك عليه فانه يثبت لك الخواطر مانع من التثبت نقول واحذر حين تظهر
العصبية خصمك حين يمرض عليك ويدعم قوله بالحجة فان ذلك يهيج العصبية فتخاف
كلامك وتضيع بهجة معانيه
« الحجاج والخلاف »

ومما ينبغي الحذره بحاجبية الغضب حاجبية اللجاج والخلاف . قال أمير المؤمنين عليه
السلام « اللجاج تسل الرأي » وهذا مشتق من قوله « لا رأي لمن لا يطاع » وقال
عليه السلام « الخلاف يهدم الرأي »

وكان يقال « اللجاج يشحن الزجاج ويشير العجاج » وكان يقال أيضاً « اهدى
رأي الرجل ما نقد حكمه فاذا خولف فسد » ومن كلام افلاطون « اللجاج عسر
انطباع العقول في النفس وذلك اما لفرط حدة تكون في الانسان واما لغاظ طبع
فلا ينقاد صاحبه للرأي » وكان أمير المؤمنين في وصيته للحسن عليهما السلام « اياك
وان تجرح بك مطية اللجاج »

نقول وكل ما مر بك من حجب العقل هو نتيجة الافراط في احوال النفس فتأمل

﴿ الروضة الخامسة ﴾

(في الامور الكاشفة)

« توطئة »

الامور الكاشفة للنفس عن المصالح والمفاسد هي كثيرة ومنها ما تكشف عن مساوىء
النفس ومفاسدها ومنها ما تكشف عن حسن الافعال وقبحها وتنفصل منها في هذه
الروضة ما يسهل المقام على أن تقيس على ما سنذكره ما لم نذكر على سبيل القياس
الصحيح بالعقل الرجيح
« السنة الناس »

فمن الامور الكاشفة السنة الناس اذ قد عرفت ان الانسان يعنى عن عيوبه
ولسكنه يتعرض لأن يكون بكل عمل يأتيه بين مادم وقادح فاذا كان ذا بصيرة استفاد

من المدح والقدح معاً كما قال الشاعر :

والعداوات كالمودات في النسا من يستفيد الحكيم من عقابها
قال أمير المؤمنين « المرأة التي ينظر الانسان فيها الى أخلاقه هي الناس لانهم يرى
محاسنه من أصدقائه منهم ومساوئه من أعدائه فيهم » وفي الحديث قال رجل يا رسول
الله كيف لي أن أعلم اذا أحسنت أو أسأت قال اذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت
فقد أحسنت وإذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت واعلم أن لسان العدو أكثر
كشفاً من لسان الصديق لان الصديق قد يكون مداعماً فيخفي عنك عيوبك . صدق
رسول الله صلى الله عليه وآله . وقلنا في مثل هذا :

ان رمت تعرف يا كريم بل فقه لك صالح ومنزلة عن لوم

فأصخ الى ما قيل فيه فأنما ال احسان ما يجني ثناء القوم (١)

وقال أمير المؤمنين عليه السلام « أعداء الرجل قد يكونون خيراً من اخوانه »
وذلك لانهم يهدونه الى عيوبه فيجتنبها ويخاف شياتهم به فيضبط نعمته ويتحرز من
زوالها بغاية جهده قالنا قل هو ما يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة أعدائه فان عين
المنخط تبدي المساوي، ولعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن يذكركه بعيوبه أكثر من
انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه الا أن الطبع الانساني

(١) كنت يوماً في خدمة ولي النعم عظمة الشيخ المعز المفتح واذا بجانب الشيخ
عبد الكريم خامس أنجال ولي النعم داخل علينا فوقف بين يدي أبيه وقال أبتاه أرى
العلمان بخاترتي يبعض أعمالتي وأنا أحسبني مصيباً وقص على مسامحة الشريفة بعض
الأعمال التي أوجبت التخطئة فطفق عظمته بفصاحته يبين لسهو ونجها ما يسترشد به بأعماله
ليكون مصيباً فقال « بني لا تستبدر أبك، وكن دائماً محاذراً اتيان ما لا يليق بأعمالك،
واجعل ميزان أعمالك ما فسد منها واحسن، رأي من حولك فيها، فاذا قالوا انك أخطأت
فالقول قولهم، لانهم كثرة وأنت فرد، ولا يمكن أن يكون الرأي الفذ أكثر اصابة من الآراء
الجمعة، وبهذا وحده تصبح حسن الأعمال، محمود الفعال، محبوباً من الناس، ما عليك فيما تأتيه
من باس » واختم عظمته هذه الكلمات الدرية بالبيتين المثبتين في المتن
وسمو الشيخ عبد الكريم هو اليوم في نحو العشرين من ربيع عمره وهو كاخوانه
الامراء الانجاب ذكاه وأدباً وفضلاً أدامهم الله جميعاً قررة لعين المجد والجلال ولا زالوا
بالعيش الوارف في حمى عظمة مولانا ومولاهم المعز الوارف الظلال

مجبور على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ولكن البصير لا يتأخر عن الانتفاع بقول أعدائه فان مساويه لا بد وان تنتشر على ألسنتهم . وقد قلنا في هذا المعنى :

وشاك شكاً أقوال أعدائه به
أقول أحمدوا الأعداء أنهم لقد
عظ النفس فيما قد روه وخلفهم
وقد أحسن الشاعر بقوله :

عدائي لهم فضلٌ عليّ ومنةٌ
همٌ يبخسوا عن زلتني فاجتنبها
فلا أذهب الرحمن عنى الأعداء
وهم نافسوني فاكتسبت المعالي

وبالاجمال نقول ان من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال اما أن يكون قد صدق في ما قال وقصد به النصح والشفقة واما أن يكون صادقاً لكن قصده الأيذاء والتعنت واما أن يكون كاذباً فهذه ثلاث حالات فان كان صادقاً وقصده النصح فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه بل ينبغي أن تتقاه منته فان من أهدى اليك عيوبك فقد أرشدك الى المهلك حتى تنقيه فينبغي أن تفرح برشاده وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك ان قدرت عليها فأما انما لك لسبب نصحه وكرهه لك له وذمك لياه فانه غاية الجهل . وان كان قصده التعنت كما في الحالة الثانية فان انتفعت بقوله اذ أرشدك الى عيبك ان كنت جاهلاً به أو ذكرك عيبك ان كنت غافلاً عنه أو قبحه في عينك لينبعت فيك الحرص على ازالته ان كنت مستحسناً له نسك ذلك من أسباب سعادتك وقد اسفدته من العداوة . واعلم أن جميع مساوي الاخلاق مهلكة في الآخرة والانسان انما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن تغتنم الانتصاح مما يقولون وأما التعنت الذي هو القصد الاول من عدوك في ذمك فخباية منه على نفسه وهو نعمة منه عليك فلا تغضب لقول انتفعت به وعاد الضرر على قائله

(١) والسبب الذي من أجله نظام عظمة مولانا الشيخ المعز هذه الايات هو ان أحد غلمانه جاءه يشكو بعض الغلمان وقد نالوا منه في حضرة ولي النعم وكما سبق القول أن عظمته يأبى أن يسمع في المخلصين قولاً فلما جاءه ذلك الغلام شاكياً أنشده تلك الايات تطيباً لحاظره وكنت وقتئذ في الخدمة فأصلحت بين الغلامين وانصرفنا للدعاء بطول عمر عظمة مليكننا المحبوب

وقال شاعرنا الانطاكى بهذا المعنى :

لم أدر لا أدري وأنت تدمني أن كنت تقصدني بنصح أو هوان
 أن كان نصحاً اني لك شاكر أو كان لؤماً ما جرى فيه اللسان
 أنا أستفيد من الذي قد قلته ولأنت في حاليه مذموم مهان
 أن النصيحة لا تصادف واعياً الا اذا جابت بأقوال حسان

وأما الحالة الثالثة وهو أن يفترى عليك عدوك بما أنت براء منه عند الله تعالى فينبغي أن لا تتركه ذلك ولا تشتغل بذمه بل تفكر في أنك ان خلوت من ذلك الميب فلا تخلو من أمثاله وأشباهه وماستره الله من عيوبك أكثر فاشكر الله تعالى اذ لم يطلع عدوك على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت منه بريء ليكذبه الناس وقد قال في ذلك شاعرنا الانطاكى

أبظن أعدائي بأن الكذب في ذمي يحط القدر بي عند الكرام
 خابت ظنونهم فان راموا لي الا ذلال فليرووا الصحيح من المذام
 أنا مثل كل الناس لي شيم لقد حمدت واخرى حق لي عتها الملام
 سبحان من أعمى عيونهم عن ال سواى وقد كذبوا لأنهم لثام
 « تنزيل النفس منزلة الغير »

ومن الامور الكاشفة تنزيل النفس منزلة الغير أو أن ينسب الانسان ما فعله أو يريد أن يفعله الى غيره فينكشف له حينئذ الصالح من الفاسد اذ قد عرفت مما قدمناه أن الانسان تخفى عليه عيوبه وتكشف له عيوب غيره فاذا نسب فعله الى غيره تبين له قبحه من حسنه . قال أمير المؤمنين « كفالك أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك » وقال عليه السلام « السعيد من وعظ بغيره والشقي من انعظ به غيره » وقد أخذ هذا بعض الشعراء فقال :

ان السعيد له من غيره عظة وفي التجاريب تحكيم ومعتبر
 وقتنا في هذا المعنى :

وأسمع الناس من تلقاه متعظاً بغيره في رزاياه ومخنته
 وأنحس الناس من تعمى نواظره فلا يرى عبرة في نفس زلته
 وقال الحسن البصري لرجل حضر جنازة « آراهو رجع الى الدنيا لعمل صالحاً
 قال لهم « قال فان لم يكن هو فكن أنت المتخط » وقيل لبعض الحكماء بمن تعلمت العقل

قال ممن لا عقل له كنت أرى الجاهل يفعل الشيء فيضره فأجنب مثل فعله نقول وهذا منتهى الحكمة . وقيل لبعض السكرماء كيف اكتسبت مكارم الاخلاق والتأدب مع الاضياف ؟ فقال كانت الاسفار نحو جني الى أن أفد على الناس فما استحسنته من اخلاقهم اتبعتها وما استقبحت اجتنبتها . وقال طاهر بن الحسين :

إذا أعجبتك خصال امرء فكأنه تكن مثل ما يعجبك
فليس على الفضل والمكرامات إذا جئتها حاجبٌ بحجبك

وقلنا في هذا المعنى :

تخلق بأخلاق الكريم تلقتنا خلألق وأعرض عن خلألق ذي لؤم
وخذ عبرة من كمن امرئ تشبهه إذا كنت رجو أن تعيش على غم
والخلاصة ينبغي للعاقل أن يحالظ الناس فكل ما رآه مذموماً منهم فليطالب به نفسه ويتفقدده فإن المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى فما يتصف به واحد من الاقران لا ينفك القرن الاخر عن الانصاف به أو بأعظم منه أو بشيء منه فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه الغير به وناهيك بهذا تأديباً فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب . ومما روى عن عيسى عليه السلام انه سئل من أدبك ؟ قال ما أدبني أحد رأيت جهل الجاهل شيئاً فاجتنبته وأخذ هذا المعنى شاعرنا الانطاكى فقال :

تأدبت من جهل الجهور وخبئه وقول أورى فيه: عوه أخا جهل
وراقبت من باهوا بشهواتهم وما هم نيه من يؤس المعيشة والذل
حفاظت في نفسي على لعمرة التقى مخافة أن يسطو الجنون على عقلي

« تنزيل الغير منزلة النفس »

ومن كراشف الامور تنزيل الغير منزلة النفس قال أمير المؤمنين عليه السلام « اجمل لنفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك فأحب لغيرك ما تحب لنفسك ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم وأحسن كما تحب أن يحسن اليك واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ولا تقل للناس الا تحب أن يقال لك » وقال عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام « كما يريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا انتم بهم »

ومن لطيف الاخبار التي تنطبق على موضوعنا مارووه عن معلم أنوشروان ملك

فارس قالوا لما ترعرع أنوشروان وقرب موعد تركه معلمه ضربه ضرباً مؤلماً بغير ذنب وحمله نُدجاً إلى أن كادت كفه تسقط فلما صار إليه الملك طلب معلمه فلما حضر أحضر له النطع والسياف فقال أتقتلني ظالماً؟ قال ضربتني وحملتني النالج ظالماً يوم كذا قال خذ العذر قال هات قال أما الضرب فإني أردت أنك تعرف طعمه فإذا ضربت فترحم فقال خلصت منها فالنالج؟ قال لانك في بلاده فربما خرجت بالضعفاء إلى صيد أو حرب في نالج فترفق قال وخلصت من الثانية ولكن لماذا انتهزت فرصة ذنب ارتكبه فتفتص مني عليه فتجمع بين العدل والتعليم؟ قال حتى تعرف مرارة الظلم فلا تظلم أحداً فاستحسن أنوشروان ذلك وأجازه وأدنى مجلسه منه بعد أن كان ناقماً عليه (١)

ومن كتاب رشد اليب لمواصلة الحبيب أن أيمن بن فالك الاسدي كان شيخاً كبيراً أعور وأبرص وكان له امرأة من بني كلب ذات حسن وبهاء وكانت أشد حباً لنفسها من بعلمها فسألتها يوماً أن تحبينني؟ قالت نعم قال بالله عليك أن تقولي الحق قالت لقد سألتني بعظيم وأكره أن أصدقك فتغضب فقال لا أغضب فأصدقيني قالت له لو كنت عجوزاً شمطاء برصاء وعوراء هل كنت تحبيني قال لكنت أطلقك في الحال فقالت له أنت أحببت ذلك

وحدثت بعض الشيوخ قال خرجت إلى بعض أحياء العرب فرأيت امرأة ذات حسن فائق رشيقاً القد أسيلة الحد فوقعت في نفسي فقلت يا هذه إن كان لك زوج فبارك الله لك وبورك لكل منكها بصاحبها فقالت أخاطب أنت؟ قلت لها نعم قالت لقد كثرت الشيب في رأسي أفتقبل على ذلك؟ قال فلما سمعت قولها ثبتت عنان فرسي راجعاً عنها فقالت على رسلك لا ذكرك لك شيئاً فوقفت وقلت ماذا تريدن؟ قالت أني لم أبلغ العشرين بعد ولكنني أحببت أن أعلمك أني أكرهه منك ما تكرهه في ثم ولت عني وهي تنشد:

أرى شيب الرجال من الغواني بموضع شيبهن من الرجال

(١) ما حكم عظمة مولانا الشيخ المعز على مذنب في يوم بضرب أو سجن إلا وجاءنا حفظه الله في مسائه وقص علينا هذه القصة وأشفعها بقوله دقت كثيراً في التثبت من جريمته حتى لا يكون مظلوماً وأوصيت سجاناً به خيراً. وطالما سمعناه يتהל إلى الله سبحانه قائلاً اللهم ألهمني العدل في الناس وجنبي موافق الظلم في الاقتصاص وهكذا فليكن الملوك العادلون الرحماء والأئمة

وقال رجل لجارية أراد شراءها لا يريدنك هذا الشيب الذي ترينه فان عندي قرّة عين فتالت الجارية أيسرك أن عندك عجوزاً؟ وقال بعض العقلاء لاصحابه يعمد أحدكم الى ابنته فيزوجها القبيح الذميمة ولا ينتبه الى أمهنّ يحبين ما يحبون . أي أنه اذا زوجها الذميمة كرهت صحبتها وعصت الله فينبغي للماقل أن ينصف الناس من نفسه ولا يأتي اليهم الا بما يحب أن يؤتى به اليه فنفسه مرآة له يستكشف بها ما يحبونه منه وما يكرهون

« مقابلة الشيء بنظيره أو بضده »

ومن الامور الكاشفة مقابلة الشيء بنظيره أو بضده ومن ذلك قالت الحكماء « وبضدها تتميز الاشياء » واعلم هداك الله أنك لا تستطيع أن تحكم على أي شيء جيداً كان أو فاسداً الا اذا قارنته بشيء من نظائره أو اضداده فاذا أردت أن تشتري فرساً مثلاً فقد رى واحداً تعجبك ولكن هذه التي أعجبك لو قارنتها بنظيرة لها تستطيع أن تحكم على حقيقتها ان كانت صالحة أم لا بالنسبة الى ما قارنتها بها . وكذلك تستطيع أن تعرف مزية الشيء من ضده فاذا أردت أن تعرف مزية الثوب الحريري على الثوب الغزلي عليك أن تفرق بين الثوبين وهكذا

وهذا المطلب يكشف عن العقل بكل سهولة وهو من الموازين التي لا تخفي . فعلى الانسان أن يقارن كل ما يريد ابتياعه أو عمله بنظيره أو بضده يسلم من نقد الناس ويكسب حمدهم

ومن قبيل المقارنة على الانسان أن يقارن نفسه بمن هو نظيره في الحسب والمنزلة والادب فاذا رأى هذا النظر بفضله في اكرام الناس وتبجيلهم يجب عليه أن يبحث عما سبب اكرام مناظره دونه ليطلع على ما يجب أن يجتنبه لئلا تسقط منزلته والعكس بالعكس وقد قلنا في هذا المعنى :

ما كنت أعلم قبل معرفتي بمن جهلوا الهوى ان الغرام عناء
حتى رأيتهم وقد حرموا الهنا وبضدها تتميز الاشياء
« الحياء بين الاظهار والكتمان »

ومن الامور الكاشفة الحياء بين الاظهار والكتمان فان كل ما يسبب للمرء حياءً من اظهاره للناس لا يخلو من قبيح قال أمير المؤمنين عليه السلام « احذروا كل عمل يرضاه صاحبه لنفسه ويكرهه لعامة المساهلين واحذروا كل عمل يعمل في السر ويستحي

منه في العلانية واحذر كل عمل اذا سئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه « ومثل هذا قول الشاعر »

لاته عن خاشقٍ وتأتي مثله صار عليك اذا فعلت عظيم
وقال شاعرنا الانطاكي :

أنا أمرنا بترك الخمر جهراً وتشربها ثلاثاً في ثلاث
فذلك منك عين رياء وسفه لعمر الحق نائمة الاثافي

وقال بعض الحكماء لابنه يا بني لا تعمل في السر عملاً تستحي منه في العلانية
وقلنا في مثل ذلك :

أعزيركن حراً شجاعاً طيباً اخلاق محمود الفعالم مهذباً
وانعمل من الافعال ما تعز في اذا رواء الناس عزاً طيباً
وتجنب العمل الذي من ذكره يحمر وجهك بالحياء تجنيا
هذي نصيحة والد خير الزما ن وبات فيه مؤدباً ومؤدباً (١)

وسئل محمد بن علي الباقر رضي الله عنه عن المروءة فقال ان لا تعمل في السر عملاً تستحي منه في العلانية . وكان مالك بن مسمع اذا سار به انسان قال له اظهره فلو كان فيه خير لما كان مكتوماً . وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له يا بني اذا أردت أن تعمل عملاً ففكر في حسنه وقبحه قبل أن تعمله فان كرهت أن يعلم به الناس فلا تعمله فانه لا يكره . لم الناس بشيء الا ما كان قبيحاً . وفي حديث مرفوع « ما أحببت أن تسمعه أذنك فأتية وما كرهت أن تسمعه أذنك فاجتنبه » ومن هذا فعل الطائي الذي نزل به امرى القيس ابن حجر فهم بان يقدر به فأتى الجليل فقال الا ان فلاناً غدر بصاحبه وهو نزيهه فأجابه الصدى بمثل ذلك فقال ما أقبح ما تأثم فردد الصدى قوله فقال الا ان فلاناً وفي فأجابه الصدى بمثل ذلك فقال وما أحسن ما نوفي فردد الصدى قوله فعاد الى بيته ووفى لامر القيس ولم يقدر به

(١) ان سمو الشيخ عبد العزيز هو رابع أئجال عظمة مولانا الشيخ المعز وهو اليوم في نحو الحادية والعشرين من ربيع عمره وهو أخ شقيق لسمو المرادار نع الشيخ جاسب خان ويكاد هذا العزيز النجيب يتقد ذكاه وفضانته ويمتاز بركوب الحيل حتى يقدر المقدرون انه حفظه الله سيكون أول فارس في بلاد العرب ادامه الله مع اخوانه الانجباب بحمي عظمة مولانا المرادار اقدس وأقر عيني عظمتهم ووفقنا لخدمته وخدمتهم بالاخلاص

فاذا عرفت هذا فالعلم ان من خواص عالم الكون ان كل ما كان بيان . قال النبي
صلى الله عليه وآله « ما أسر المرء سريرة الا ألبسه الله زواجرها ان خيراً نخير وان
شراً فشر » وقال المسيح عليه السلام « كل خفي سوف يظهر » وقال بعض الاعراب:
واذا أظهرت أمراً حسناً فليكن أحسن منه ما أسر
فمسر الخير موسوم به ومسر الشر موسوم بشر
وقال شاعرنا الانطاكي :

كن صريح القول لا تظهر بما خالف السر الذي تضمه
واعمل الخير تجد خيراً ولا تطلب الشر الذي تحذره
ان من يعمل هذا صادقاً حق ما بين الوري مفخره

« الاجماع »

ومن الامور الكاشفة للاجماع والاتفاق آراء العقلاء على امر من امور
الدنيا واجماعهم هذا يكشف عن حسن الشيء اذا كان حسناً أو قبحه ان كان قبيحاً وأما
الاجماع الشرعي فانه كاشف عن قول المعصوم عليه السلام واذا عرفت هذا فينبغي للعاقل
ان يؤاخذ نفسه باجتنب ما هو قبيح عند جمهور العقلاء .
من هذا ما روي عن بعض الفضلاء انه قال « دخلت على ابن منارة وبين يديه
كتاب قد صنفه فقلت ما هذا ؟ قال كتاب عملته مدخلاً الى التنورية فقلت ان الناس
ينكرون هذا فلو أضمت الوقت بغيره لكان عملاً أفضل قال ان الناس جهال قلت
وأنت تعارضهم ؟ قال نعم قلت فينبغي لمعارضهم ان يكون جاهلاً عندهم قال هو كذلك
قلت « قد بقيت أنت جاهلاً باجماع الناس والناس جهال بتوكل وحدهك » ومثل هذا
قول الشاعر :

اذا كنت تقضي ان عقلك كامل وان بني حواء غيرك جاهل
وان مفيض العلم صدرك كله فمن ذا الذي يدري بانك اقل
وفي أمثال الثمانيان « اذا كنت بين قوم وأجمعوا على أنك سكران فاذهب ونم اذ
يستحيل اقناعهم بصحوك » وهذا لان الرأي الواحد لا يقاوم الآراء المتجمعة
ويقال الخطأ مع الجماعة خير من الصواب مع الفرقة وان كانت الجماعة لا تخطيء
والفرقة لا تصيب . وقال في ذلك أحد الشعراء :
اذا اجتمع الناس في واحد وخالفهم في الرضا واحد

فقد دلّ اجتماعهم دونه على عقله أنه فاسد
وقلنا في هذا الصدد :
لا تخالب اجماع قومك في ا
أجمعه من عادة أو مقال
فاجتماع الانام هدي صريح
فاعتبره لو كان لب الضلال
وقال العامة في أمثالها « ان كنت بين المور فأعور نفسك » وهذا من الكياسة
وحسن السياسة وقال بعضهم :
إذا انعكس الزمان على لييب
يحسن رأيه ما كان قبها
يماني كل أمر ليس يعني
ويفسد ما رآه الناس صلحا
ومن أقوال شاعرنا الانطاكى :
من رام كسب ولا الانام وحيهم
حتى يكونوا عدة لزمانه
لم ينفرد عنهم برأي لم ينل
اجماعهم في فعله ولسانه
« القدرة الحسنة »

ومن الامور الكاشفة الاقتداء بأعمال العقلاء قال الله تعالى « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة » وروى أنه ذكر عند عمر بن الخطاب حلى الكعبة وكثرتها فقال له قوم لو أخذتها فجهزت بها جيوش المسلمين كان أعظم أجراً وما تصنع الكعبة بالحلي؟ فسأل عمر علياً عليه السلام عن ذلك فقال « ان هذا القرآن أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام والاموات أربعة أموال المسلمين فقسمها بين الورثة في امراض وأموال النبيء فقسمها على مستحقيها وأموال الخمس فوضعها الله حيث وضعها وأموال الصدقات فجعلها الله حيث جعلها وكانت حلى الكعبة يومئذ فيها فتركها الله على حالها وما كان تركها لها نسياناً ولم يخف عنه مكانها فأقرها حيث أقرها الله ورسوله » فقال عمر اولاك لا تضحنا يا علي وترك الحلى بحالها

وصعد الوليد المنبر يوم جمعة فسمع صوت ناقوس فقال ما هذا؟ قالوا البيعة يا أمير المؤمنين فأمر بهدمها فهدمت فباع ذلك ملك الروم فكتب اليه أن هذه البيعة أقرها من كان قبلك فان كانوا أصابوا فقد أخطأت وان تكن أصبت فقد أخطأوا فأمر بأعادة بنائها وكان من تقدم من ملوك اليونان يخشى على الاندلس من البربر فانفقوا وعملوا الطلسمات في أوقات اختاروا رصدها وأودعوا تلك الطلسمات تابوتاً من الرخام وتركوه في بيت في مدينة طابطة ووضعوا على ذلك البيت باباً أحكموا ايصاده وتقدموا الى كل

ملك منهم بعد صاحبه أن يلقي على ذلك الباب قفلاً تا كيداً لحفظ ما في البيت فاستمر أمرهم على ذلك ولما جاء وقت انقراض دولة اليونان ودخول العرب والبربر الى الاندلس وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكاً من الملك الذي عمل هاتيك الطلسمات وكان ملكهم الاخير اسمه لزريق السابع والعشرين فلما جلس على عرش الملك قال لوزرائه وأهل الرأي من رجال دولته قد وقع في نفسي من أمر هذا البيت المقفل بابه بستة وعشرين قفلاً شيء وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه فانه لم يبين عنياً فقالوا أيها الملك صدقت ولكن المصلحة أن تلقي عليه قفلاً كما فعل من تقدمك من الملوك وبما أن آباءك وأجدادك لم يهملوا هذا فالواجب أن لا تهمله أنت فقال ان نفسي تنازعني على فتحه فلا بد من ذلك وكان ذلك الملك مهيباً عنيداً فلم يقدر على معارضته فأمر بفتح البيت فلم ير فيه غير مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر وعليها مكتوب هذه مائدة سليمان بن داود عليه السلام وكان فوقها ذلك التابوت ومفاحه معلق عليه ففتحه فوجد فيه رقاً وكان في جوانب التابوت صور فرسان مصورة باصباغ تصويراً محكماً على أشكال العرب وعليهم الفراء وهم معتمون على ذوائب جعد ومن تحتهم الخيل العربية وبأيديهم القسي العربية وهم مقلدون بالسيوف المحلاة ومعتلون الرماح فأمر بنشر ذلك الرق فاذا فيه « بقى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل الذين تصوروا في التابوت الى الاندلس وذهب الملك من أيدي اليونان ودرست حكمتهم وهذا هو بيت الحكمة » فلما قرأ لزريق ما في الرق ندم على ما فعل ونحى عن انقراض دولته ولم يلبث غير قليل حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق جهزه أحد ملوكه ليفتح بلاد الاندلس ولزريق هذا فهره طارق بن زياد المسير على الاندلس من قبل الوليد بن عبد الملك وقتله وكان النصر للمسلمين ولم تقف هزيمة اليونان على موضع واحد بل كانوا يسلمون بلداً بلداً ومعتقلاً ومعتقلاً

والخلاصة نقول ان الافتداء باعمال العقلاء تؤمن الخطر وتدفع الضرر وتجلب النفع

للشعر وفي ذلك قلنا :

خذ في فعال ذوي النهى	فمن اقتدى لقي المسار
ان اليبس اذا اقتدى	بذوي النهى أمن المضار
وحذار من أعمال أه	ل الطيش والجهل حذار
أبني تلك نصيحتي	اسديكها ولك الخيار

« الاستشارة وقبول النصيحة »

ومن الامور السكاشفة الاستشارة وقبول النصيحة قال بعضهم

وان باب امر عليك التوى فشاور ليبياً ولا تعصه

وقلنا في الاستشارة

ارجع لغيرك واكسب من درايتيه في كل مسألة معروضة النظر

وارجع لرأبك حكاه بما سمعت اذناك تأمن وقوع الشر والضرر

وقال بعض العلماء « اذا أنكرت من عقلك شيئاً فاقدحه بماقل » وقال بزرجهر

« الماقل الحازم اذا أشكل عليه أمر هو بمنزلة من أضع لؤلؤة فجمع ملحول مسقطها

من التراب ثم التمسها حتى وجدها وكذلك العاقل يجمع وحوه الرأي في ما أشكل عليه

ثم يضرب بعضها يعض حتى يستخلص الرأي الا صوب »

وقلوا « اجعل سررك الى واحد ومشورتك الى ألب » ومن شرف المشورة

وعموم نفعها وعلو درجتها وعظم وقعها ان الله سبحانه أمر نبيه صلى الله عليه وآله بها

مع استغنائها عنها فقال عز من قائل « وشاورهم في الامر » وقال تعالى يمدح من وصفهم

في كتابه العزيز بصفات حميدة لا يحوزها الا الموفون والذين استجابوا لربهم وأقاموا

الصلاة « أمرهم شورى بينهم » وكفى ذلك في فضيلة المشورة دليلاً والى نهج فضلها

سيلاً . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله في مواطن كثيرة لأصحابه « أشيروا

علي » وقد شاور صلى الله عليه وآله أصحابه في قصص كثيرة وقضايا متعددة . منها

لما أراد مصالحة عتبة بن حصين والحارث بن عوف حين قصده الاحزاب يوم الحندق

أن يعطيهم ثلث أثمار المدينة ويرجما عنه بمن معها من غطفان فقال صلى الله عليه وآله

حتى أشاور السعود يعني سعد بن معاذ وسعد بن عباد وسعد بن فزارة فشاورهم

فأشاروا أن لا يعطيهم شيئاً فعمل بمشورتهم . ومنها لما نزل بيدر بأدنى ماء هناك قال له

الحباب بن المنذر يا رسول الله أرأيت هذا المنزل انه لمنزل أنزلك الله تعالى ليس لنا

متقدم عنه ولا متأخر أم هو الرأي والحرب والمكيدة فقال بل الرأي والحرب والمكيدة

فقال الحباب ان هذا ليس بمنزل فانهم يارسول الله بالناس حتى تأتي أدنى منزل من

القوم فنزل على مائه ثم تغير ما وراءه من القاب والآبار وتعمل لك حوضاً فتعلاؤه ماء

ثم تقاتل القوم فتشرب ولا يشربون فقال رسول الله لقد أشرت بالرأي ونهضت ومن

معه وساروا حتى أتوا أدنى ماء من القوم فنزلوا عليه وعملوا كما أشار حباب بن المنذر

وفي قوله تعالى « وشاورهم في الامر » فوائد منها الاقتداء به صلى الله عليه وآله في المشورة . ومنها ان حلوم الناس متفاوتة فلا يبعد ان يخطر ببال انسان من المصالح ما لا يخطر ببال الآخر ولا سيما في أمور الدنيا . وعنه صلى الله عليه وسلم « أنتم أعلم بدينكم وأنا أعلم بأخركم » ذكره الرازي في تفسيره الآية . ومنها انه عليه الصلاة والسلام لما شاورهم في الخروج الى أحد فأشاروا عليه بذلك فحصل ما حصل من فرارهم فلم يشاورهم بذلك لتوهموا ان بقاءه من تلك المشورة شيئاً فرفع الله تعالى ذلك التوهم عنه ومنها وهو اهمها وضع أساس الشورى في أحكام المسلمين يوم كانت ملوك الارض بأجمعهم يحكمون الناس بالاستبداد وظلوا كذلك الى نحو مئتي عام من تاريخنا اليوم حيث دخلت الشورى التي وضعها الاسلام أساساً للحكم الذاتي في بلاد أوروبا وبفضلها عمرت ديارهم وأزهر عمرانهم على ما نسبع ونرى . وقتلنا في هذا

شورى الفضا أخذت عن الفران
لوم يقل باريك شاورهم لما
ومن العجائب أن تكون لنا ولم
ويبيت أهل الغرب فيها منسية
وقلنا عند ما اعلن ساكن الجنان السلطان مظفر الدين خان الشورى في دولته

العلية الإيرانية

أمر المظفر أن تذاع بملكه ال
فتبالت في أمره ألباب من
وغدا بذلك عرش كمرى والرعي
فاذا أطال الله في أيامه
واذا تضي فانا أشك بان بطي
اذ لا تسود مبادي الشورى سوى
أو ان تهذب النفوس على الرقي
وجلت ظلام الجهل أنوار المعاني
وتفقه المتفقهون بمر ما
أمن العدالة أن يسود الناس الا
ولهم شريعة أحمد وبها الهدى

شورى التي يقضي بها الاسلام
تدلوا ولكن هابه الظلام
ة حوله تلهو بها الاخصام
قل ساد في هذي الربوع سلام
ب بيده للمصلحين مقام
ان قام فيها عادل قوام
وزقت الألباب والأفهام
رف والعلوم والألأ الاظلام
جاءت بها في آية الاحكام
المسلمين ادارة ونظام
وعليه بنيان النظام يقام

وقدنا نخطب الدولة الفارسية ونهتها بالشورى
يا آل كسرى نتم الشورى بفض ل مظفر خاقانا الملك العظيم
فهنتم فيها فهوا واستعير دوا مجدكم في شرعة الدين القويم (١)
وقال الحكماء « مادة العقل من العقول كجادة الانهار من السيول » ومن كلامهم
ينبغي للعاقل أن يجمع الى عقله عقول العقلاء والى رأيه آراء الحكماء فان الرأي الفذ ربما
(١) مما حير عقول السياسيين في اوروبا وأدهش المهتمين منهم بأمر الشرق على نوع
خاص ما وجدوه في عظمة مليكنا المحبوب الشيخ المزمز أعزه الله من ظهوره بأجمل
مظاهر الشورى في ملكه وزادهم حيرة ودهشة ما بذله حفظه الله من المساعي الطيبة الادبية
والمادية لمعاونة الاحرار الايرانيين في اعلان الشورى ثانية بعد أن ارجع عنها الشاه
المخلوع محمد علي خان وأعاد الى البلاد أحكام الاستبداد
فان ساكن الجنان المرحوم السلطان مظفر الدين خان في أخريات أيامه وبعد أن زار
أوروبا غير مرة صح رأيه على اعلان الشورى في بلاده على شكلها الاوربي فتخوف
العقلاء المفكرون من سوء عقبى اعلانها على هذا الشكل لعدم استعداد الامة لها لعلمهم
ان الطفرة محال وكان في مقدمة المتخوفين عظمة مولانا المراد أقدم على ما رأيت في
الايات المثبتة في المتن وقد حققت الايام صحة نظريته وكان من رأي عظمته الراجح
أن تتخذ الدولة الابراية شكلا للشورى ينطبق على حالة الاهلين فيؤلف السلطان مجلساً
من اكبر عقلاء الامة يستعين بقراراته على حكم البلاد وفي الوقت نفسه تعمل الدولة على
تعميم الزمام والامان في وقت واحد حتى تدرج الامة الفارسية على الحكم الشورى
واذ كان عظمته أعلم الناس بحالة طهران توقع حدوث حركة رجعية هناك بعد وفاة
السلطان مظفر الدين شاه على ما قاله في قصيدته أيضاً وهكذا كان اذ لم يكدم محمد علي
شاه يتربع على دست ملك الاكاسرة حتى بادر فألقى الشورى ورجع الى الاستبداد
القديم وانتشرت الثورة في عرض البلاد وطولها وأسرع الاحرار بالقوة لاسترجاع الدستور
وكان في مقدمة هؤلاء الاحرار الايرانيين قبيلة البختيارية وهؤلاء أهل حرب
وجلاد ونشاط الى العمل وهم بجوار اارة عربستان التي يحكمها نظامه ولانا المراد
أقدس فجاءه زعماء البختياريين طالبين مساعدته الفعلية فشجعهم بظلمته وحبهم المال الوفير
الذي أعلنهم على الوصول الى طهران وما اكتفى بظلمته بهذا بل انتظر ريثما وصلوا الى
أسوار طهران فأرسل عظمته تلغرافاً الى الشاه محمد علي بالمب فيه اعلان الدستور ثانية

ذل وأن العقل الفرد ربما ضل

وقال شبيب بن شيبه أني لا أعرف أثراً يتلاقى به انسانان الاوجب النجح بينهما قبل له وما ذاك؟ قال العقل فان العاقل لا يهلب ما لا يمكن ولا يرد عما يمكن ومن أمثال العرب « علمان خير من علم » وأصله أن رجلاً وابنه سلكا طريقاً فقال الرجل يا بني استبحت لنا عن الطريق فقال أني عالم به فقال يا بني علمان خير من علم وقيل لرجل من بني عبس ما أكثر صوابكم في مباشرة ما تأتونه وبجانبه ما تعرضون عنه قال نحن ألف رجل وفينا رجل واحد حازم ذو رأي ومعرفة فنحن نشاوره في الجليل والحقير ونعمل برأيه فكأنا اذا صدرنا عن رأيه ومشورته في الف حازم وجدير بألف حازم أن يصيبوا . وقال الشاعر

تمسك باهداب المشورة واستعن بحزم نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجمل الشورى عليك فضاضة فريش الخوافي قوة للقوادم

ومن أمثال العرب أول الحزم المشورة وقال بعضهم « المستشير بين خيرين صواب يصيبه أو خطأ يشارك فيه » وهذا من أجود ما قيل في المشورة وقد نظمها شاعرنا الانطاكي فقال :

ما بين خيرين ذو حزم ومشورة قد استشار سواه في الذي عرضا
فان أصاب فخيراً نال بعينه والخير مع غيره قد أخطأ النرضا
وقيل للاحنف بن قيس بأي شيء يكتر صوابك ويقل خطأك فيما تأتبه من الامور
وتباشره من الوقائع قال بالمشورة لذي التجارب ومحض زبدة الاراء . وقال لقمان لابنه
يا بني اجعل عقل غيرك لك في ما تدعوك الحاجة الى فعله فقال ابنه كيف اجعل عقل غيري
لي؟ قال تشاوره في أمرك . وقال اعرابي ما عثرت قط حتى عثر قومي قلوا وكيف
ذلك؟ قال لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم . وقال بعض النبلاء الناس ثلاثة فرجل رجل
ورجل نصف رجل ورجل لا رجل وأما الرجل فذو الرأي والمشورة وأما النصف
الرجل فالذي له رأي ولا يشاور وأما الرجل الذي لبس برجل فالذي ليس له رأي ولا

أو مجرد العرب لصرة اخوانهم البختياريين فأسقط الشاه بيده عند تسلمه هذا التفراف
وخارت عزيمته عن المقاومة وهكذا دخل البختياريون طهران وأعادوا اعلان الدستور
وقد ذكرت هذا الفضل لعظمة مولانا السردار أقدس الجرائد الابرائية والجرائد
الانكليزية وأجمعت جميعها على اعلان حمده والثناء عليه وهذا معروف ومشهور

شاور . وقال بعضهم الرجال ثلاثة رجل ينظر في الامور قبل أن تقع فيصدرها مصادرها
ورجل متوكل لا يتأمل فاذا نزلت به نازلة شاور أصحاب الرأي وقبل قولهم . ورجل
طائر لا يتم راشداً ولا يطبع مرشداً

واعلم أنه قد يكون المستشار أشد رأياً من المستشار ومع ذلك لا يجوز له أن يهمل شوره
اعتداداً بأفضليته عليه ألا ترى النار ولا نسبة بينها وبين زيت زداد به نوراً فلا يقذف
في روعك أنك اذا استشرت سواك ظهر للناس ضعف رأيك أو تفوق سواك عليك كلا
وتم يجب أن تعلم ان الاستشارة لا تكون للافتخار بل لزيادة الاطلاع والتوسع بالاختيار
فقد يكون الاقل منك ادراكاً أفطن في مصاحبتك منك نفسك لما هو معلوم من أن محبة
الذات تعمي البصيرة كما مر بك ولذلك لا تنفطن لما في أمرك من خير أو شر بدافع الحب
الذاتي كما يتفطن اليه من تشاوره ولا ناقة له في أمرك ولا جمل (١)

وبعد ألا ترى ابراهيم الخليل عليه السلام أمر بذبح ولده عزيمة لا شررى فيها فحمله
حسن الادب وعلمه بموقفه في النفوس على الاستشارة فيه فقال يا بني أنى أرى في المنام أنى
أذبحك فانظر ماذا ترى ؟

وفي الحكم المرفوعة « المستشار على طرف النجاح والمستبد تلعب به الرياح » وبالجملة
فكما يجلو البيان المتشابه كذلك يجلو المشورة العمى والحيرة
وقال بعض الحكماء انما خص علم المشورة لان رأي المشير لا هوى فيه ورأي المستشار
مشوب بالهوى أي ان رأي غير ذي الحاجة أسلم وأقرب الى الصواب لخلوص فكر المشير
من كل غرض أو شهوة

وسئل بعض العلماء ما بال العاقل ذو اللب لا تصيب مشورته على نفسه وتقتصر عن

(١) ومن مميزات عظمة مولانا الشيخ المعز أنه حفظه الله يكثر من مشاورة سواه مع
ما عرف فيه من الذكاء والحزم وسداد الرأي بحيث أن الكثيرين من الملوك والامراء
والحكام يرجعون الى رأيه اثناب وبشاورونه في أمورهم حتى صارت المشورة عادة لسواه
في جميع ماتيه مع أن أمره هو الاعلى ورأيه هو الاشد وكل من تقرب من سموه يعرف
ذلك منه وما زال عظامته يشاور في أموره حتى رأيناه وهو خارج من قصره العامر ينادي
بغلاناه ما رأيكم أنا ذاهب لحل كذا وأنت تعلم أن الرأي لعظمته وكناسه عبيد يمتثلون
واسكن تنازله حفظه الله عجيب ورغبته في الاستفادة وهي مصدر الفوائد مدهش فلا عجب
اذا جاءت أعماله كلها قرينة الصواب مقابلة بالاعجاب

أصابة الصواب وادراك المطلوب ومشورة غيره له سائمة مصيبة فقال ان مشورة الانسان
لنفسه ممزوجة بالهوى ومشورة غيره له سائمة من ذلك ولا اصابة مع الهوى . وفي
هذا المعنى قال بعضهم :

اذا عزَّ امرئٌ فاستشر فيه صاحباً وان كنت ذارأي رجيع على الصحب
فاني رأيت العين تجهل نفسها وتدرک ما قد حلَّ في موضع الشهب
وقال الارجاني :

شاور سواك اذا نابتك نائبةٌ يوماً وان كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر دوماً ما نأى ودنا ولا ترى نفسها الا بمرآة
وقلما رغب أحد في المشورة وعمل بها الاغتم وقلما زهد فيها أحد واعرض عنها
الا غرم وندم

حكى المؤرخون أن محمد الامين لما قصده عبد الله بن طاهر بعساكر المسمون
وحصر في بغداد واشتد عليه الامر وضاق في وجهه مذاهب النجاة قال من استشار ذا
رأي ومعرفة وخالفه وقع في ما يكره وندم على التفريط فاني لما شعرت بتغير أخي علي
أحضرت الشيخ أبا الحسن القطيفي وكان ذا رأي ومعرفة بموارد الحوادث ومصادرها
فحدثته في أخي المأمون وما الذي يجب أن اعتمده حتى يتسع في يدي وأطلعته على
حقيقة الحال واستشرته في كيفية العمل في ذلك فقال لي ان استعجلت لم ننتفع من
رأي ولا فعل وان تمهت وقبلت مشورتي وعملت بما أقوله تمسكت من أخيك وبلغت
ما تأمله وذلك أن تدعو حجاج خراسان اذا قاموا بغداد ونجاس لهم مجلساً عاماً
وتقول لهم ان أخي كتب الي يمدحكم ويظهر حسن طاعتكم وجميل انقيادكم وحميد
مذاهبكم ونجزهم خيراً ثم تقول لهم قد أطلقت عنكم الخراج سنة واثت تعلم يا أمير
المؤمنين أن أخاك في خراسان وهي بلاد رجال بلا مال وليس له في رد قولك حيلة
وسيناله في ذلك خلل عظيم ثم ينتفض عليه أكثر أمره . ثم انك تفعل في السنة المقبلة
مثل ذلك وتسقط عنهم خراج سنتين فان لم يوث في السنة الثالثة بأخيك بوفاق فاضرب
عنقي ان كنت حياً قال الامين نخالفته وما قبلت مشورته وعجلت الي خلع المأمون
وعقدت الأمر لابني حتى وقع ما وقع ومن خالف المشير ندم على التقصير
وقال أمير المؤمنين عليه السلام « من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركهم
في عقولهم »

واعلم أن من ترك المشورة وعدل عنها فلم يظفر بمحاجته صار هدفاً لسهام الالاميين ومضنة في افواه العاذلين والمنزل لملك بن عمرو بن عوف وذلك ان اخاه ليث بن عمرو تزوج امرأة تدعى حجارة بنت فلان نتجمل المنجعة بها فنهاه مالك وقال اني اخاف عليك من بعض اجلاف العرب فابى الاصفاء وسار باهله وماله فلم يلبث الا يسيراً حتى رجع وقد سلب أهله وماله

وقد قيل ما أعرض أحد عن قبول قول المشير الا واستنشى اليأس والندم على التقصير ومن بعض كتب الهند من أمهل وأعرض عن الاخوان عند المشاورة وعن الاطباء عند المرض وعن الفقهاء عند الشبهة أخطأ منافع الرأي وازداد في ما وقع فيه تورطاً وحمل الزور على منكيه

واعلم أن من استشار ذوي الرأي والمعرفة في فعل ما عناه فقبل المشورة منهم واقتدى بآرائهم فيها ولم يبدل عنها وعن قويم نهجها قل أن يخفق مسعاه ويفوت مطلبه فان أعجزه القدر فهو معذور غير ملوم

وحكي عن الخليفة المنصور أنه كان قد صدر من عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس أمور مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة ولا تتجاوز عنها سياسة الملك فخبسه عنده ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن علي وكان والياً على الكوفة ما أفسد عقيدته فيه وأوحشه منه وصرف وجهه إليه عنه فتألم المنصور من ذلك وساء ظنه وتأرق جفنه وقل أمنه وتزايد خوفه وحزنه فأدبه فكرته الى أمر دبره وكنمه عن جميع حاشيته وسرّه واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى اليه وأجراه على عادة اكرامه ثم أخرج من كان في حضرته وأقبل على عيسى وقال له يا ابن العم اني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ولا أرى سواك مساعداً لي على حمل ثقله فهل أنت في موضع ظني بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي فقال عيسى بن موسى انا عبد أمير المؤمنين وتسمي طوع أوره ونهيه فقال ان عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطاقتهم واعتمد على ما بهضه يبيح دمه وفي قتله صلاح ملكنا نخذه اليك واقتله سرّاً قال ذلك ثم سلمه اليه وعزم المنصور على الحج ضمراً أن ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله أئزمه القصاص وسلمه الى أعمامه اخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصاً فيستريح من الاتين قال عيسى فلما أخذت عمي وأكرهت على قتله رأيت من الرأي أن أشاور في قضيته من له رأي عسى أن اصيب الصواب في ذلك فاحضرت يونس ابن قرة الكاتب وكان لي حسن ظن في

رأيه وعقيدة سالحة في معرفته. فقلت له ان أمير المؤمنين دنع لي عمه عبد الله وأمرني بقتله واخفاء أمره فما رأيك فيه وما تشير به؟ فقال لي يونس أبا الامير احفظ نفسك بحفظ عمك وعم أمير المؤمنين. فاني أرى لك أن تدخله في مكان داخل دارك وتكتم أمره عن كل واحد ممن عندك وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه اليه وتجعل دونه مغالقة وأبواباً. ثم أظهر لامير المؤمنين أنك قتله وأقذت أمره فيه وانتهيت الى العمل بطاعته فكأنني به اذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به وقتلت عمه أمرك باحضاره على رؤوس الاشهاد فان اعترفت أنك قتله بأمره أنكرك أمره لك وأخذك بقتله وقتلك. قال عيسى بن موسى فقبلت مشورة يونس وعملت بها وأظهرت لامير المؤمنين اني أقذت أمره. ثم حج المنصور فلما قدم من حجه وقد استقر في نفسه اني قتلت عمه عبد الله دس الى عمومته اخوة عبد الله وحبهم على أن يسألوه في عبد الله ففعلوا كما أشار في مجلس حافل. فقال ان حقوقكم تقتضي اسعافكم في حاجتكم. فكيف وفيها صلة الرحم والاحسان الى من هو في مقام الوالد؟ ثم أمر باحضار عيسى بن موسى فأحضر لوقته فقال يا عيسى كنت دفعت اليك قبل خروجي الى الحج عمي عبد الله ليكون عندك في منزلك الى حين رجوعي. فقال عيسى قد فعلت يا أمير المؤمنين. فقال المنصور قد سألتني فيه عمومته وقد رأيت الصفح عنه وقضاء حاجتهم وصلة الرحم باجابة سؤالهم فيه فأتنا به الساعة. قال عيسى فقلت يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله والمبادرة الى ذلك؟ قال كذبت لم أمرك بذلك ولو أردت قتله لاسلمته الى من هو بصدد ذلك. ثم أظهر الغيظ وقال لعمومته قد أقر بقتل أخيكم مدعياً اني أمرته بقتله وقد كذب علي. قالوا يا أمير المؤمنين فادفعه الينا لنقتله به ونقتص منه فقال شأنكم به. قال عيسى فأخذوني الى الرحبة واجتمع الناس علي فقام واحد من عمومتي اليّ وسلّ سيقه ليضربني به. فقلت يا عم أفاعل أنت؟ قال أي والله كيف لا أقتلك وقد قتلت أخي. فقلت لهم لا تعجلوا أوردوني لامير المؤمنين فردوني اليه. فقلت له يا أمير المؤمنين انما أردت قتلي بقتل عمك عبد الله والله قد عصمني من دمه وهذا عمك باق حياً سوتاً فان أمرتني بدفعه اليهم دفعته الساعة. فاطرق المنصور وعلم أن ربح فكره صادفت اعصاراً وان انقراده بتدبيره أورثه خساراً ثم رفع رأسه وقال اثنتا به. قضى عيسى وأحضر عبد الله فلما رآه المنصور قال لعمومته اركوه عندي وانصرفوا حتى أرى فيه رأياً. قال عيسى فتركته وانصرفت وانصرف اخوته فسلمت روحي وزالت كرتي وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته والعمل بها.

ثم ان المتصور أسكن عبد الله في بيت قد بني أساسه على الملح. ثم أرسل الماء حوله ليلا فذاب الملح وسقط البيت فمات عبد الله ودفن بمقابر باب الشام
ومن مستحسنت ما يطرب عن بعض ساكني يثرب ما رووه عن الاسلامي انه قال
ركبني دين أنقل كاهلي وطالبني به مستحقوه واشتدت حاجتي الي ما لا بد منه فضاقت
علي الأرض بما رحبت ولم أهتد الي ما اصنع. فشاورت من أتق به من ذوي المودة
والرأي فأشار علي بقصر المهلب بن أبي صفرة بالعراق فقلت له يمنعني ببد الشقة وتيه
المهلب. ثم اني عدت عن ذلك المشير الي استشارة غيره فلا والله ما زادني علي ما ذكره
لي الصديق الاول. فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها فركبت ناقتي وصحبت رفقة
في الطريق وقصدت العراق. فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه وقات له اصلح
الله الامير اني قطعت اليك الدهماء وضربت بأكباد الابل من يثرب فقد أشار علي ذوو
الحجبي والرأي بقصدك لفضاء حاجتي. فقال هل أتيتنا بوسيلة أو قرابة أو عشيرة؟ فقلت لا
ولكن رأيتك لحاجتي اهلا فان قت بها فأنت اهل لذلك وان يحل دونها حائل لم أذم
يومك ولم اياس من غدك. فقال المهلب لحاجبه اذهب به وادفع اليه ما في خزانة ما لنا
الساعة. فأخذني معه فوجد في خزانته ثمانين الف درهم فدفعها الي. فلما رأيت ذلك لم
أملك نفسي فرحاً وسروراً وأعادني اليه مسرعاً فقال هل وصلك ما يقوم بدفع حاجتك؟
فقلت نعم ايها الامير وزيادة. فقال الحمد لله على نحيب سعيك واجتنائك جني مشورتك
وتحقيق ظن من أشار عليك بقصدنا. قال الاسلامي فلما سمعت كلامه وأحرزت
صلته أشدته

يا من على الجود صاغ الله راحته	فليس يحسن غير البذل والجود
عمت عطايك أهل الأرض قاطبة	فأنت والجود مخلوقان من عود
من استشار فباب النجاح منفتح	لديه في مبتغاه غير مسدود (١)

(١) كذلك يفعل عظمة شيخنا المعز في العراق فان كل من تعذر عليه الرزق أو احتاج
الي المعونة أشاروا عليه بالسعي الي رحبات سيمو الشيخ خزعل خان حيث الجود موفور
والصدر رجب والنفر باسم باش والحوائج مقضية. ولم يقتصر جود عظمته أعزه الله على
أهل العراق بل تعداهم الي أهل الشام ومصر بل واهل أوروبا ايضاً. وطالما قصده اصحاب
الحاجة من الفرنجة الذين يقصدون العراق لتاجر فتكسبوا وصناعة فلا يتوقفون فيها فيقدمهم
الافلاس عن الرجوع الي أوطانهم فيشير عليهم المشيرون بقصد رحاب الشيخ المعز فينزلهم عظمته

(شروط المستشار)

ويشترط في المستشار شروط أربعة وهي النصح والشفقة والعقل والتجربة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه « أما بعد فان معصية الناصح الشفيق العالم الجرب تورث الحمرة وتعقب الندامة . نقول وهذه القيود الاربعة يجب أن تكون من صفات المشير حتى تكون اشارته معتبرة في حسن الرأي وواجب قبولها . وقد نظم بعض الادباء في بعضها هذين البيتين :

خصائص من تشاوره ثلاثٌ نخذ منها جميعاً بالوثيقة

وداد خالصٌ ووفور عقلٍ ومعرفةٌ بحالك في الحقيقة

ولعل الناظم جمع النصح والاشفاق في الوداد فتأمل . ولقد خطر لنا ان ننظم في

هذه الشروط فقلنا هذين البيتين :

اذا شاورت شاور رب نصيحٍ واشفاقٍ وتجربةٍ وعلمٍ

لتظفر منه بالغرض الذي قد سميت له بلا ضررٍ وغرمٍ

وانعد الان الى بيان هذه الشروط الاربعة بالتفصيل فتقول :

اما النصح فواجب على المستشار لان الناصح يصدق الفكر ويحض الرأي . ومن

كان غير ناصح فقد يكون رأيه فطيراً فيوقع بالمضرة من حيث يتوخى المنفعة

اما الاشفاق فواجب على المستشار لان الشفقة تدعو الى النصح فتحمل الناصح على

حسن التروي في الامر واهداء الرأي بعد التثبت والاجتهاد . والباعث على هذين اما الدين

وطهارة الوجدان أو محبة المشير . وفي امثال العرب اسمع ممن لا يمجد منك يدأ يعني

اطاب نصيحة من يطلب نفعك كالأبوين ومن لا يستجلب بنصيحك نفعاً الى نفسه بل

الى نفسك . وقال أحد الشعراء في مثل ذلك

اذا ماعرا خطبٌ ورمت رده فشاور فكمنجح هدته مشاوره

وانفع من شاورت من كان ناصحاً شفيقاً فأبصر بعده من تشاوره

أما العلم فواجب على المستشار حتى يكون ملماً بوجه المصلحة في الامر الذي

تستشير فيه . ولذلك يجب الرجوع في كل أمر على الملم بخوافيه لأخذ رأيه فيه . قال

رسول الله صلى الله عليه وآله « استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا » وقال

على الرحب والسمة ويعيدهم لاوطانهم مكرمين . لا جرم ان الله جعل الناس عيالاً على

عظمته ووقفه الى اعالة جميع اللاندين بجاه فالحمد لله على ذلك وأنت حمد لله

عبد الله بن الحسين لابنه محمد « احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحاً كما تحذر
عداوة العدو العاقل فانه كما يوشك أن يقع بك مكر العاقل كذلك يوشك أن يورطك
شور الجاهل » وقنا في هذا :

وكم ناصح رجو لك الخير ناصحاً على نية وضاحة وصفا قلب
ولسكن مجهل قد أضررك نصحه وما كان يرضى أن يسيء بما ينبي
فلا تستشر الا أبا العلم بالذي تشاوره فيه فتنجومن الكرب

أما التجربة فواجبة على المستشار لان العلم النظري لا يكفي ليكون رأي صاحبه
سديداً وشوره صحيحاً اذ أن كل علم لا تنضم اليه التجربة فهو ناقص . وشتان بين
العلم النظري والعلم العملي . وقيل في منثور الحكم « كل شيء محتاج الى العقل والعقل
محتاج الى التجارب » وقال أحد الحكماء « أياك وشارورة رجلين شاب معجب بنفسه
قليل التجارب وكبير قد أخذ منه الدهر كما أخذ من جسمه » . نقول ان الكبير اذا
كان سليم العقل كان كثير التجارب ومشورته أنفع من مشورة سواه ولذلك اشترط الحكم
الاعراض عن مشاوره الكبير شرطاً ضرورياً وهو اذا كان الدهر قد أخذ من عقله
كما أخذ من جسمه أي داخله الحرف . وقال لقمان لابنه « يا بني شاور من جرب
الامور فانه يعطيك من رأيه ما كلفه كثيراً فتأخذ منه عفوياً »

والخلاصة انك اذا عرفت أن طاعة المشير الموصوف بالصفات الاربعة المذكورة مستلزمة
في الاغلب للسرور يحسن ثمرة رأيه والفوز بها فكذلك معصيته في ما يشير عليك أو
الاعراض عن استشارة مثله في أمورك مستلزمة الحسرة مستعقبه الندامة
« الاستخارة »

ومن الامور الكاشفة الاستخارة . وتدل عليها رواية جميل عن الصادق عن آبائه
عليهم السلام . قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله « الامور ثلاثة أمر يسن لك رشده
فاتبعه وأمر بين لك غيبه فاجتنبه وأمر اختلف فيه فردّه الى الله ورسوله » وينبغي
للعاقل أن يقدم الاستخارة في جميع أموره فان ذلك أبعده لوقوع المحذور . قال بعض
العلماء استخبروا ولا تنخبروا فكم من رجل تخبر لنفسه أمراً كان فيه هلاكه . وفي
ذلك قال الشاعر :

وكم من طالب يسعى لشيء وفيه هلاك لو كان يدري
وقال غيره :

كرهت وكان الخير في ما كرهته وأحببت شيئاً كان فيه شياً قتلي
ومن كلام بعض الحكماء رُبَّ مسرَّةٍ هي الداء ومرضٍ هو الشفاء. وإلى هذا نظر
المنبي في قوله :

لعلَّ عتبك محمودٌ عواقبهُ وربما صحَّت الاجسام بالعلل
وهذا مأخوذ من قول ارسطاليس « قد يفسد العضو اصلاح أعضائه ». ومثله
قول البحترى :

وربما كان مكروه الامور الى محبوبها سبباً ما مثله سببُ
وقال غيره :

كم منة لا يستقل بشكرها لله في طيِّ المكاره كامنه
وقال آخر :

كم مرة حدثت بك المكاره خار لك الله وأنت كاره
وقال بعضهم :

كم نعمة مطلوبة لك بين أنياب النوائب
ومسرة قد أقبلت من حيث ترتب المصائب
فاصبر على حدثان ده رك فالامور لها عواقب
ولكل كرب فرجة ولاكل خالصة شوائب

وقلنا في هذا المعنى :

لا تباسنَّ لانسكة نمني بها فلعلها سبباً لموصول النعم
كلاً ولا تفرح بمفجأ نعمة قد تستجر وراءها شر النقم
وارض الذي خار الاله فانه أدرى بتدبير العوالم والام
واليه وجهه بالبرارة والتقى قلباً نقياً واستخره يا ابن م

وهذا كله مأخوذ من قوله تعالى « عسى ان تسكروا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

حكى أن تابداً في بني اسرائيل ضاقت عليه معيشته فخرج الى الصحراء بعبد الله يسأله أن يعطيه شيئاً . فنودي ذات يوم أيها العايد امدد يدك وخذ فمداً يده فوضع فيها درتان كأنهما كوكبان ضياءاً . فجاء بها الى منزله وقال لا رأته قد أمنا الفقير . ثم أنه رأى ذات ليلة في منامه أنه في الجنة وقد رأى فيها قصر أفتقل له هذا قصرك فرأى فيه

أريكتين متقابلتين احدهما من الذهب الاحمر والاخرى من الفضة وسقفها من اللؤلؤ
وقيل له احدهما مقدمك والاخرى مقدم امرأتك. فنظر الى سقفها فاذا فيه موضع خال
مقدار درتين. فقال ما بال هذا الموضع خالياً؟ فقيل له لم يكن خالياً وانما تعجلت أنت في
الدنيا الدرّتين وهذا موضعهما. فانته من منامه باكياً وأخبر امرأته بذلك فقالت له ادع الله
واسأله أن يردّها الى مكانها. فخرج الى الصحراء وهما في كفه فصار يدعو الله
ويتضرع اليه أن يردّها ولم يزل كذلك حتى أخذنا من كفه ونودي أن قد رددناها
الى مكانها فحمد الله تعالى على ذلك وأثنى عليه

وروي أن هلك ابل اعرابي في ذات يوم ففرح وقال ان موتاً نخطاني الى ابلي
لعظيم الزمة

وحكي أن رجلاً في البادية كان له ديك يوقظه الى الصلاة وكاب بحرسه من
الصومس وحمار يحمل عليه الماء وخباء بأوي اليه. فبينما كان متقيماً عن موضعه جاءه
خبر بأن ثعلباً افترس الديك. فقال عسى أن يكون خيراً ان شاء الله تعالى. فجاءه خبر
أن الكلب قد مات. فقال عسى أن يكون خيراً ان شاء الله تعالى. فجاءه خبر أن الذئب
بقر بطن حماره فقال عسى أن يكون خيراً ان شاء الله تعالى. فلما دخل الليل مضى الى
رحله فلما أصبح وجد أحياء قومه قد سبها العدو اسبب صباح الديكة ونباح السكلاب ونهيق
الحمير واءار حله فسلم بفضل هلاك ديكه وكلبه وحماره فكانت الحيرة فيما اختاره الله له
وروي عن بعض الثقات أن رجلاً كان في يده أيام القرعة العسكرية في النجف
الاشرف وكان مدعواً للاقتراع فضايق صدره واستخار ربّه أن يفرّج من النجف فخرجت
الاستخارة نهياً. فاستخار الله على أن يخفي في مكان آخر فخرجت نهياً. ثم استخار الله
على أن يلقي نفسه في بئر فخرجت الاستخارة حسنة فألقى بنفسه الى البئر فانكسرت
رجله. فلما جيء بطلبه ذهب ليختبروا صحته بدنه فوجدوه معطوباً فعوفي من العسكرية
وظهر له عند ذلك مصالحة الاستخارة

ومثل هذا ما روي عن رجل ضل الطريق وعطش فاستخار الله أن يمشي الى جهة
من الجهات فخرجت الاستخارة نهياً ثم استخار على جهة أخرى فجات نهياً وهكذا
استخار على الجهات الاربع فجات نهياً ثم استخار أن يقعد أو ينام فجات نهياً. فاستخار
على الطيران فجات أمراً. فوقف وجعل يهتف بهاءته كهيئة الطيران فلم يلبث ان جاءه
فارسان فأرشداه الى مكان المساء. وسرّ بجيشهما اليه انهما كانا مارين عن بُعد فلما

رأياه مهفهاً بعباءته ظناً أنه يؤمى اليها مستجداً فأسرعا اليه فكان سرّ كشف
كرته الاستخارة

نقول وأشباه هذه الحوادث كثيرة وشرطها أن تكون النية حسنة والقلب منصرفاً
الى الخير . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله « إنما الاعمال بالنيات وإنما لكل
امرى ما نوى »

« هوى النفس »

ومن الامور الكاشفة هوى النفس الامارة . قال بعض الحكماء « اذا عرض
لك أمران ولم يحضرك من ثق بمشورته فاجتنب أقربهما الى هواك » وذلك لان الهوى
عند الحكماء عدو العقل والله درّ القائل :

اذا ما تحسرت في حاجةٍ ولم تدر فيها الخطا والصواب
نخالف هواك فانّ الهوى يقودك قهراً الى ما يباب

لاجرم ان الهوى وهو رغبة النفس في ما يريد بغشى على العقل حتى يتصور القبيح
حسناً وهذا ما يدعو اليه أحد شيطان اما أن يكون للنفس ميل الى ذلك الشيء فيحضي
عنها ما فيه من قبيح فلا تظفر فيه الا الحسن لشدة ميلها . وفي ذلك قال النبي صلى الله
عليه وآله « حبك الشيء بعيني وبصم » أي يعمي عن الرشد ويصم عن الموعدة وقال
علي عليه السلام « الهوى أعمى ومن عشق شيئاً أغشى بصره وأمراض قلبه فهو ينظر
اليه بعين غير صحيحة ويسمع بأذن غير سمعية » وقد قيل أيضاً :

وعين البغض تبرز كل عيبٍ وعين الحب لا تجسد العيوباً

واما أن يشتغل الفكر في تمييز ما اشقبه فيطلب الراحة في اتباع ما استسهل حتى
يظن أن ذلك أوثق أمرية وأحمد حاله اغتراراً بأن الاسهل محمود والاعسر مذموم
فلن يعدم أن يتورط بخداع الهوى وريب المكر في كل مخوف يحذر ومكروه يعسر فان
الهوى أسهل محلاً وأصعب مركباً . ولقد جاء في الحديث « اذا اشتبه عليك امران فخذ
أثقلها عليك ودع أحبهما اليك » وأخذ هذا المعنى بعض العقلاء فقال :

اذا التبس الامران فالخير في الذي تراه اذا كلفته النفس يتقبل

مخائب هواها واطرح ما تريده من اللهو واللذات ان كنت تعقل

وقال بعض الحكماء اذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وان
كان ساكناً فأعجبه السكوت فليتكلم . وقال الاصبغ أوصى رجل رجلاً ودفع الى

الوصي عشرة آلاف درهم وقال اذا بلغ ابني سن الرشد فأعطه ما أحببت منها. فلما
كبر الغلام طالب الوصي بحقه فأبى أن يعطيه غير ألف درهم فقط. فشكا أمره لامير
المؤمنين عليه السلام فطلب الوصي وقال له كم تحب أن تعطي الغلام؟ قال ألف درهم
فقط قال بل اعطه التسعة الآلاف درهم وهي التي أحببت وأبق لنفسك الألف
وحكي عن بعضهم أنه قال اشترينا خروفاً مشوياً من جار لنا لنا كله فقدم علينا
بعض الفقراء فدعونا له لئلا ناكل معنا فأخذ لقمة ووضعها في فيه ثم لفظها واعتزل عنا
وقال قد عرض لي عارض منيعي من الأكل. فقلنا له لا نأكل الا اذا أكلت معنا فقال
أما أنا الفقير فلا أكل وأما أنتم فافعلوا ما تحبون وانصرف. قال الراوي فكر هنا الاكل
لاجله وقلنا اذادعونا من شواه وسألناه عن أصله فلعله يذكر لنا سبباً مكرهاً فدعونا
الشاوي وسألناه ولم يزل به حتى قال انه ميتة وان نفسه حرصت على بيعه لاجل ثمنه
فأطعمناه لسكالب. ثم رأينا الفقير بعد ذلك فسألناه عن سبب امتناعه عن الأكل وقد
يكون جائعاً. فقال والله منذ سنتين ما شرهت نفسي على طعام فلما قدم لي هذا
الشواه شعرت بشره عظيم اليه فعلمت أن له علة فتركت أكله. قلنا صدقت وأجزناه
وقال بعض الاذكياء:

كم حسنت لذة المرء قاتله
من حيث لم يدرك أن السم في الدسم
نخالف النفس والشيطان واعصهما
وان هما محضاك النصح فاعتصم
ولا تطع منها خصما ولا حكماً
فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

وقلنا في مثل هذا:

عارض هواك وكن لنفسك قاهراً
فالنفس آمرة بسوء المقصد
تأمن من الاخطار في هذه الحيا
ة ومن هلاك في الجحيم وتسهل

وقال شاعرنا الانطاكى:

بادر الى استرشاد عقلك في الذي
تهواه نفسك ذاك شأن العاقل
واذا رغبت قضاء أمر تشتهي
ه فاذرن به اقتضاء العاجل
فلرب محبوب لشر عاجل
ولرب مكره خبير آجل
والخير فيما اختاره الرحمن لا
ما اخترت بهوى المشوق الامل
قد يهتدي الانسان للمحق الصر
ح بسويد ما يشقى بالفي باطل

« حال الهوى مع العقل »

ومن قبيل الشيء بالشيء يذكر نستحسن أن نذكر شيئاً عن حال الهوى مع العقل . فاعلم أن الهوى عن الخير صادمٌ وللعقل مضادٌ وطالما أتبع من الاخلاق قبائحها وأظهر من الافعال فضائحها وجعل ستر المروءة مهتوكاً ومدخل الشر مسلوكة . قال عكرمة في قوله تعالى « ولكنكم فتنم أنفسكم » يعني بالشهوات « وربصم » يعني بالتوبة « وارتبم » يعني في أمر الله تعالى « وغرتكم الاماني » يعني بالتسويف « حتى جاء أمر الله » يعني الموت « وغرتم بالله الغرور » أي الشيطان

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام « ان أخوف ما أخاف عليكم اثنان اتباع الهوى وطول الامل . فان اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الامل ينسي الآخرة » وروى عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال « أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك ثم أهلك ثم عياك »

وقال العلماء « العقل كالبعل والنفس كالزوجة والبدن كالبيت فاذا سلب العقل على النفس اشتغلت بالبدن كما تشتغل المرأة المقهورة بمصالح البيت فصلحت الجملة وان غلبت النفس كان سعيها فاسداً كالمرأة التي قهرت زوجها ففسدت في الجملة »

وزعموا ان هذه النفوس في هذا العالم الجسماني وما قد ابتلي به من آفات هذا البدن كرجل حكيم في بلد أو قرية وقد ابتلي بعشق امرأة رعناء فاجر سيئة الخلق وهي في أكثر الاوقات تطالبه بلماً كقول الطيب والمشروب اللذيذ والثياب الفاخرة والمسكن المزخرف والشهوات الزوجية وان ذلك الحكيم من شدة محنته بعظم محبتها وعظم بلائه بصحبها قد صرف كل همه الى ارضاء مطالبها وأكثر عنايته الى اصلاح شأنها وقد نسي أمر نفسه واصلاح شأنه وبلدته وأقاربه الذين نشأ فيهم والنعمة التي كان فيها ولاراحة لهذا الحكيم الا بمفارقة هذه المرأة والنسلي عن حبها ولكنه لا يقوى على ذلك

واعلم ان الهوى الذي هو عدو العقل عبارة عن ارادة النفس الناشئة عن قواها الثلاث الشهوة والغضب وحب الاستعلاء . والشهوة شهواتان شهوة البطن وشهوة الفرج . أما شهوة البطن ففيها اخرج الله آدم وخواء من الجنة اذ نهاهما عن أكل الشجرة فغلبتها شهوتهما على أكلها . وآفة هذه الشهوة التخم وما يتبعه من الامراض الجسمية والعقلية . قال علي عليه السلام « مسكين ابن آدم انه سير بطنه يقول له املاني والافضحتك فاذا ملاه يقول افرغني والافضحتك » وقال الشاعر :

شره النفوس على الجسوم بليّة فتعوزوا من كل نفس تشمره
 ما من فتى شرهت له نفس وان نال الغنى الا رأى ما يكره
 وقال الحكيم اجتنب الشهوة فانها رأس كل مهلكة . ألم تر السباع الضارية والبراة
 العادية كيف تصاد بالشهوة فتصبح بين أيدي الناس أسرى
 وأما شهوة الفرج فأعظم الشهوتين وأعصاهما أمراً فطالما قادت من تغلبت عليه
 الى المهالك وورطته في اضيق المسالك

وهنا لطيفة لا بأس من أيرادها . قيل ان نصرانياً زنى بمسلمة فلما أرادوا أن يقيموا
 عليه الحد أسلم فزوجه بها ثم ختنوه واتفق ان اسلامه كان آخر يوم من صيام التصاري
 وأول يوم من شهر رمضان فصام . فلقبه بعض أصدقائه فسألوه عن حاله فقال لهم ما حال
 من قص رأس ذكره وزوج بفاحشة وصام خمسين وابتلي بثلاثين ثم رفع حبيبه وقال
 مخاطباً ذكره يا مشوم منك صارت وعلى رأسك وقعت

وذكر صاحب كتاب بهجة السرور في غرائب المنظوم والمنثور قال قال المبرد
 حدثني صديق لي قال قصدت كور الاهواز فلما انتهيت اليها ودخلت بين مقابرها اذا
 أنا بسواد في وسط المقابر فتوهمته امرأة حادة . فلما قربت منه اذا هو برجل عليه ثياب
 القضاة وهو بغير سراويل ورأيت ينظر الى ذكره من حبيبه ويضحك فوقفت بحذائه
 متعجباً من صنعه . فقال لي مالك أتدري من أنا ؟ قلت لا قال أنا قاضي هذا البلد قلت
 فما قصتك ؟ قال قصتي عجيبة وهي ان لي زوجة هي ابنة عمي تزوجتها في حدائتي ولها من
 الغيرة علي ما لا يمكنني ان أتفلس معها بشيء ولها علي رقباء وعيون وأنا أجلبها ثم رأيت
 يوماً جارياً عند بعض النحاسين فوقع في قلبي فاشتريتها وأظهرت اني أهديتها اليها
 فأقامت عندها سنين لم أتمكن من النظر اليها فضلاً عن الخلوة بها الا اخلاصاً من بعيد
 حتى كان هذا اليوم لبعض أهل زوجتي عرس في جوار داري فأذنت لها في حضوره
 طمعاً بالوصول الى الجارية والخلوة بها . فخرجت الى مجلس القضاء فجاءني الغلام وأخبرني
 ان زوجتي قد ذهبت الى العرس وخلفت الجارية في الدار . فقمتم فرحاً ودخلت منزلي
 وأغلقت الباب وطلبت الجارية فما وجدتها . فصعدت الى السطح في طلبها وكان بين
 منزلي وبين الدار التي فيها العرس حوص سائر بيننا وبينهم فاذا بزوجتي قد أمرت الجارية
 أن تقف حذاء الحوص منكبة عليه لتلاحظها خوفاً عليها مني . فلم أملك ان رفعت ثياب
 الجارية والنصقت بها فاندفع الحوص ووقع فاذا أنا والجارية والحوص في وسط الدار

فصاحت النساء ووثبن عليّ يصفعني . فوالله لقد صُفعت حتى نسيت اسمي ثم خرجت هارباً وهنّ مع ابنة عمي من ورائي يصفعني الى أن تمكنت من الفرار الى هذا المكان ولا أستطيع أن أرجع الى منزلي حياً وأنا الساعة أنظر الى ذكري قبّحه الله فقد فضحتني فتارة أطمه وأدقّ عنقه وألويه وطوراً أضحك من نفسي مما نزل بي . واني حارّ في أمري ولا أعلم ما الذي سأعمله فهذه قصتي . قال الراوي فضحكت من حديثه وانصرفت عنه

وألطف من هذا مارواه لنا شاعرنا عبدالمسيح بك انطاكي قال: حدث في حلب على عهد واليها جميل باشا وكان والياً قاسياً حازماً مرتشياً أنه كانت قضية لاحد الاعيان على اراضي تبغ قيمتها نحواً من عشرين الف ليرة رفعت في محكمة الحقوق . واذ كان الحق وقتبذ لا يرجع لصاحبه الا بالرشوة رشا الرجل أعضاء محكمة الحقوق وعجز عن ارشاء القاضي لانه كان نزهاً . فمند مابلغ القاضي رشوة الاعضاء داخله الشك في حق الرجل فأبى أن يمضي قرار المحكمة بتسليم الاراضي له . فسار الرجل الى الوالي جميل باشا ورشاه بألف ليرة على أن يجبر القاضي على امضاء الحكم . فاعتزم الوالي فرصة زيارة القاضي له فسأله في عرض الكلام عن قضية الرجل فقال لانزال موقوفة قال أما حكمتم بها ؟ قال الصحيح ان الاعضاء أقروا على ما فيه مصاحته ولكن بلغني أنهم قد ارتشوا منه ولذلك ترجح في نظري بأنه على غير الحق فأوقفت القضية وقررت أن أبتئها موقوفة الى أن تنهي مدني ويأتي القاضي الجديد ويرى رأيه فيها . فأخذ الوالي بحاججه في المسئلة توصلاً لاقتناعه بان حكماً كما كان بأكثرية الآراء غير مستوول عنه القاضي لا أمام الله ولا أمام الناس . فلم يقبل بل ازداد عناداً لعلمه بأن جميل باشا لا يلتزم أمراً ان لم تكن له من ورائه فائدة . وهكذا انصرف القاضي والوالي غضب فأرسل الى ذلك الوجيه وأرجع له الالف ليرة وهو حزين على ارجاعها بعد أن وصلت اليه . وكان ذلك الوجيه أشدّ حزناً على خيبة آماله واعتقد أن قضيته خاسرة وحقوقه ضائعة ولا أمل فيها لانه قال: بعد أن عجز جميل باشا عن اقناع القاضي على ماله من الهيبة والسطوة ما من أحد يستطيع اقناعه ولا شخص السلطان وهكذا رجع الى بيته يئساً مغموماً

وفي اليوم التالي زاره مصادفة رجل من اليهود يدعى عزرا نحجات . وهذا الرجل كان كثير الاختلاط بالوالي والاعيان معروفاً بسبك الحيلة في حل المشكلات فحدثته ذلك الوجيه عن قضيته ويأسه من النجاح . فضحك وقال جعلت فداك لماذا لم تخبرني بها

من قبل؟ قال عجباً؟ الامر الذي عجز عنه جميل باشا هل يستطيع ذلك عمله؟ قال وبكل سهولة: فان الالب الليرة؟ قال انها في كيسها. وأسرع في الحان فاحضرها وسلمها اليه. قال وابن الحكم؟ قال هالك هو وقد أمضاه أعضاء المحكمة ولكنه موقوف على ختم القاضي قال سأعود اليك بعد يومين على الاكثر والقاضي قد ختم الحكم رغم انه

خرج عزرا نجمات من عند ذلك الوجيه والالب ليرة في جيبه. فأسرع الى سوق الصاغة واشترى زوج أقرط من الماس الفاخر بمائة ليرة وأسرع الى بيته فسلم القرط لزوجته وقال اسرعي لدار القاضي وانت تعرفين زوجته الحسناء واحتالي عليها لتقبل منك هذا القرط لقاء ختم هذه الورقة. فأسرعت المرأة لما أمرها به زوجها فدخات بيت القاضي وهو غائب في المحكمة. وبعد ان تبادلت السلام مع زوجته أطلقت لسانها بالثناء على حسنها وجمالها وقدّها واعتدالها حتى ازدادت اعجاباً بنفسها. وفي الاخير أخرجت من جيبها ذلك القرط النفيس وقالت ما أحسنه في أذنك؟ قالت انه حسن وفوق الحسن. ولكن من أين لي أن اشترى مثله وزوجي على ما تلمين عفيف زيه وبالساد يكفي مرتبه لمصروفنا؟ قالت ولكن تقرّطي به لتكمل محاسنك فيه فنزعت زوجة القاضي قرطها ووضعت مكانه قرط اليهودية وسارت أمام المرأة فنظرته يضيء على وجهها المضيء. فتنفست الصعداء وقالت ليتني لي فقالت اليهودية هولك يا هانم فلا تزعيه. قالت ولكن من أين أدفع منه؟ قالت عنه أن يختم مولانا القاضي هذه الورقة قالت ان الامر سهل. قالت كلا ليس سهل وحدثتها عن كل ما كان من تعنت القاضي في ختم الورقة بالرغم من وساطة جميل باشا. قالت ومع ذلك فهو سهل غير أنك متى ما ذهبت الساعة أرسلني واحداً من عندك يقف على باب بيتنا ما وقف الي أن أخرج وأسلمه الورقة. قالت جياً وكرامة وانصرفت راجعة الى البيت حيث بشرت زوجها بالنجاح فأرسل هذا أحد أعوانه الامناه من اليهود لينتظر عند باب القاضي وأمره أن يظل واقفاً ولو الى مطاع الفجر

أما زوجة القاضي فبعد ان خرجت اليهودية من بيتها أسرعت فاستحمت وأصلحت نفسها على أحسن ما يمكن ولبست أجمل ثياب النوم فازدادت بذلك جمالاً وبهاءً وانتظرت موعد رجوع القاضي الى البيت حتى اذا ما دخل استقبلته بتجني ودلال والطيب يفرح من أردانها وأخذت تالطفه وتؤانسّه حتى نسي نفسه وما زالت كذلك الى أن تعثبا ومضيا الى سربرها والقاضي في أشدّ حالات الشوق والهيام. وهناك على

السرير أخرجت الهانم تلك الورقة وقالت اختبئها فانتاظ القاضي وغضب وقال ويل
 أمهم من أشقياء خبثاء. فمن أوصل اليك هذه الورقة؟ قالت أنها وصات وانك تختمها
 لا بحالة. قال كلاً قالت بل تختمها ورجعت عليه تداعبه وتطلب منه بدلال أن يختمها
 فقال حسناً دعيتها للغد. قالت بل هذه الميلة وفي هذه الساعة. وما زالت حتى تغلبت
 عليه وقهرته شهوته فقال في نفسه أني اختبئها الساعة وبعد ان أقضي وطري أعود
 فأمزقها شراً ممزق. وهكذا نهض من فراشه وأحضر الختم يسد مرنجفة وختم تلك
 الورقة ووضعها تحت الوسادة. فتظاهرت المرأة برغبة الخروج خارجاً لقضاء حاجة
 لها وبرشافة اختلست الورقة من غير أن يشعر زوجها وخرجت ففتحت الباب
 وسلمتها الي الرجل الواقف في انتظارها ورجعت مسرورة على أحسن حال الى زوجها.
 وكان ما كان ممّا لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر
 أما القاضي ففي الصباح طلب الورقة فما وجدها فسأل عنها فقالت الهانم ضاحكة
 لقد سلمتها لصاحبها. قال ويالك وأين كان؟ قالت على الباب. قال تعساً لي ان النمس
 أمانة بالسوء

أما اليهودي نحات فقد أسرع الى ذلك الوجيه تحت جنح الظلام ونبهه من فراشه
 وسلمه الحكم محتوماً من القاضي فطار به فرحاً بعد ان قص عليه بكل اسباب طريقة
 نجاحه وما أمهل ان أسرع الى الوالي في الصباح وأراه الحكم. قال وكيف ختمه القاضي
 قال بطريقة كذا فغضب الوالي. وبعد قليل دخل عليه القاضي أسرع جميل باشا ووضع
 يده على كتف القاضي وقال هل عندك من هو أكثر نفوذاً مني فأدرك القاضي أن
 جميل باشا علم بأمر الختم فتبسم وقال نعم. فقال جميل من هو؟ قال التي تضع رجلاها في
 مكان يدك وأنشد:

ليس الشفيح الذي يأتيك مؤتزرا مثل الشفيح الذي يأتيك عريانا

وقال بعضهم:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتته ولم ينهها تاقت الى كل باطل

وساقت اليه الاثم والعار بالذي دعته اليه من حلاوة عاجل

وقال السيد نعمة الله الجزائري كان رجل من القضاة قدم شيراز وكان يقرأ علي
 في العلوم العربية فبقي مدة طويلة فسألته لم لا تسافر الى بلدك؟ فضحك وقال لا أستطيع
 معاشره أهل بلدي لقضية وقمت علي بها فقلت سامي؟ قال ان المتعة في بلادني حرام

وقد غلبت عليّ العزوبة وشبق الجماع وما كنت قادراً على الزواج. فضيت الى خارج القرية فرأيت رجلاً يرعى حيواناتها فشكوت له حالي. قال: في هذه الحيوانات أتان صبور وعينها لي نغزها الى المكان المنخفض واقض حاجتك منها. فاعطيته ما تبسر وأتيت بالحجارة الى ذلك الموضع فأوقفتهما لقضاء الحاجة بعد ان نزعت عميتي وشدت المنزر في عنقها وربطت طرفيه في وسطي خرف انقلاتها. وما كدت أبدأ في عملي حتى رفستني الحجارة وركضت وأخذت تسحبني وراءها على الشوك. فما شمعت الا وأنا في وسط السوق والحجارة تجرني وأنا محلول السراويل والعممة وقد صاح أهل السوق هذا هو القاضي. ثم خلصوني منها وأنا على آخر رمق. وفي ذلك اليوم خرجت الى شيراز خجلاً فهل أطيق الرجوع اليها ??

والطاف من هذه القصة مارواه شاعرنا عبد المسيح بك انطاكي قال كان مكاري في نحو العشرين من عمره يشتغل بنقل الاحمال والرجال على البغال بين اورقا وحلب واسكندرونه. ففي ذات يوم عزل عبد اللطيف باشا من متصرفية اورقا فنقله الى اسكندرونه ليبحر منها الى الاستانة. والظاهر أنه اعتنى كثيراً بخدمة المتصرف الذي سراً من نشاطه وشبابه فطلب منه أن يصحبه الى الاستانة فما رفض بل امتثل مسروراً وخدم التوفيق هذا المكاري فتقدم في الاستانة حيث دخل في سلك الوظائف الى أن بع الوزارة في عهد عبد الحميد. وفي ذات يوم وكان قد بلغ من العمر نحو السبعين وصار عنده مال وجواري وخدم وحشم طاب فراشه للنوم عند الظهر والوقت صيف والحرق على أشده وحارل أن ينام بعد تناول طعام الغذاء فما طرق جفنة السكرى. فنهض من فراشه متناقلاً وأخذ يتنقل في غرف بيته الغرفة بعد الغرفة وجعل يدرج طرفه في هاتيك الاثانات الفاخرة ويرجع بفكره الى عهد نشأته الاولى حيث كان مكارياً فقيراً يتقضي أيامه وراء البغال. وكان ينظر الى هاتيك الجوارى التركيات الحسنان وهذه مكشوفة الساقين وتلك بادية النهدين وأخرى منسدلة الشعر وكل واحدة أجمل من صاحبها وهن نائمات في تلك القبيلة على أبسطة الغرف ومتكأها. وكان صاحبنا الوزير يتقف أمام كل واحدة منهن متحسراً ويقول آه على زمن البغال. ثم بلغ الغيظ مبلغه منه فاخرج ذكره وبال عليهن فجملن بتراً كضن صائحات وهن يحسبن أن سيدهن أصابه مس من الجنون. فاستيقظت الهانم حرم الوزير على صياحهن وسألت عن السبب فقيل لها أن الباشا فعل كبت وكيت فاسرعت اليه فوجدته يضحك وهو

يقول آه على زمن البغال. فسألته عن سرّ تأوّهه وحكاية البغال. فقال لها كنت وأنا في مستقبل العمر مكارياً أسافر بالبغال بين أورفا وحلب واسكندرونه وكنت عند ما أشعر بالحاجة إلى الجماع اجامع احداها مسروراً ثم أسعدني الحظ حتى صرت إلى هذه الزوجة وعندى مثلك ومثل جواريك الحسان ولكني أصبحت عتيماً لا أصلح لشيء ولذلك ترينني آسفاً على زمن البغال وبائلاً على هذا الجمال . فضحكت الهائم من قصته كما ضحك الباشا من نفسه وسبحان مبدل الأحوال والقصارى نقول أن شهوتي الطعام والجماع اذا لم تستعملا بالحكمة انضنا إلى الامراض والاسقام بل وساقنا صاحبها إلى الموت الزؤام. ولله در الطيب الشيخ ابن سينا حيث يقول :

اجعل غذاءك كل يوم مرةً واحذر طعاماً قبل هضم طعام
واحفظ منيئك ما استطعت فانه ماء الحياة براق في الارحام
وقلنا في مثل هذا :

اياك والنهم الكثير من الطعام م فإنه يفضي إلى الاسقام
أقلل جماعة النساء فانها مفنية الاجسام في الارحام
وقال شاعرنا الانطاكى :

ولرب نخمة متخم من أكلةٍ حسنت له قد حرمته ما كلاً
ولرب لذة ساعة مع غادة قد أوصلته للمنيّة عاجلاً
فاقصد ولا تصرف بشهوتك التي توليك من بعد الملاذ شواغلاً
« نمرات مخالفة النفس »

واعلم أن الدنيا والشيطان عدوان خارجيان للانسان وأما النفس فععدو له بين جنبيه. ومن سنة الجهاد « قاتلوا الذين يلونكم » وما مقاتلة المبارز بالحاربة كمقاتلة الكمين الذي يخرج على الانسان من حيث لا يشعر . وأقل ما تفعل النفس مع صاحبها انها تمزق العمر بكفّ التبذير والبطالة . وعلى ذلك فاخل يا صاح مع نفسك سوية ثم انظر هل هي معك أو عليك وبعد ذلك عاملها بما تعامل به عدوك أو صديقك . قال بعض الزهاد « ستون من مرده الشياطين لا يفسدون ما يفسده قرين السوء في لحظة وستون قريناً من قرناء السوء لا يفسدون ما تفسده النفس إلا مسارة بالسوء في لحظة » فتبصر في هذا جيداً تفز بما تبغيه من سعادة هذه الحياة

وخالفة النفس ثمرات نذ كر البعض منها. قال الله سبحانه « ونهي النفس عن الهوى فان الجنة هي الماوى » وقال تمالك « اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » وقال صلى الله عليه وسلم « ما المجاهد الشهيد في سبيل الله أعظم أجراً ممن قدر فعف يسكاد المفيف أن يكون ملكاً من الملائكة » وفي حكمة سليمان بن دواد عليهما وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام « ان الغالب لهواه أعظم من الذي يفتح وحده مدينة » وقال بعضهم :

الحر يمنع نفسه شهواتها والنذل عبد البطن ثم الفرج
فتراه طول زمانه متعباً مستخدماً في الدخول ثم الخرج

وقتنا في مثل ذلك :

عجبي لحرٍ بات عبد ملاذيه ولها يضحى عمره فيضيها
لو كان يعتل لم يبت في ليلته دماء للنفس الظلوم سميها

ويروى ان امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد ان ملك خزان الارض وقعدت على رابية في الطريق يوم موكبه وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفاً من عطاء مملكته « سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية والعبيد ملوكاً بطاعتهم له » فقال يوسف كما أخبر الله عنه « ان من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » ولقد أحسن من قال:

اذا ما دعتك النفس يوماً لحاجة وكان عليها للخلاف طريق
نخائف هراها ما استطعت فأما هواها عدو والخلاف صديق
وقال شاعرنا الانطاكي :

عارض مدى شهوات نفسك ان أردت المجد والاقبال والاسعادا
واقم عليها من تباهة عقلك ال وافي الذكا الحراس والارصادا

وروي ان بعض الملوك مر بسقراط الحكيم وهو نائم فرفسه برجله وقال قم . فاتبه غير مرتاع منه ولا عابيه به فقال الملك أما تعرفني ياسقراط ؟ قال لا ولكني أرى فيك طبع الدواب فهي رفس بارجاها . فغضب الملك وقال ويالك أتقول لي هذا وانت عبدي ؟ فقال سقراط بل أنت عبد عبدي . قال وكيف ذلك قال فان شهوتك قد ملكتك فأصبحت عبداً لها وأنا ملكك شهوتي فأصبحت عبداً لي فأنت إذن عبد عبدي فقال الملك يالك من أحقر أنا الملك وابن الملوك وتحت ساطعي كذا وكذا من الرجال

والاموال . قال أراك تفخر عليّ بما ليس في نفسك وإنما سبيلك أن تفخر عليّ
بنفسك . والافضل أن نزرع كلانا ملابسنا وننزل في هذا الماء ، وأشار الى نهر جار
قربهما ، وحينئذ تتكلم ويظهر من منا الفاضل ومن المفضول . فضحك الملك وانصرف
عنه خجلاً

وقال بعض العلماء « ركب الله تعالى الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم
من شهوة بلا عقل وركب الانسان من كايهما . فمن غلب منهم عقله على شهوته شابه
الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله شابه البهائم » وعلى هذا فالعاقل المدرك من ميز
نفسه وعرف قدره ونظر بعين الحقيقة وأنعم الفكر الصحيح وعلم أن جوارحه
قد ركبت فيها جميع الشهوات وان طباعه قد جبلت فيها صنوف اللذات فلا يقدر على
شرها ولا يتمكن من صرفها وقهرها الا بالمجاهدة لامتلاك الشهوة بنظام التقوى . وما أشد
ذلك وما أصعبه ، الا تنظر الى قول النبي صلى الله عليه وآله « حفت الجنة بالمسكاره
وحفت النار بالشهوات » والتاركون المجاهدة ضد الشهوات هم كالانعام بل أضل
سبيلا ، فان البهيمة لم تخلق فيها المعرفة والقدرة لتستطيع أن نجاهد بهماشهواتها والانسان
قد خلق فيه كلاهما . فاذا لم يترك لها السلطة الكافية لردع شهواته فهو الناقص حقاً
والمدير يقينا ، وقد قال المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس عيباً كمنقص القادرين على التمام

وسئل بعض العباد عن مسافة الطريق الى الله تعالى فقال قدمان : قدم تضعها على
النفس وأخرى تضعها على الدنيا . فسمعه بعض أهل العلم فقال لقد أطال المسافة وإنما
هي قدم واحد تضعها على النفس ثم تصل الى الله

ومن خواص مخالفة النفس تسخير النفوس . وذلك ان من حكم على نفسه ومنعها
من شهواتها الصارعة للشرع والعقل وسخرها في الاقياد للطاعات تسخرت له النفوس
البشرية وغيرها . ومن احتاج الى تسخير النفوس ولم يسخر نفسه لا يطمع في أن تسخر
له بهيمة فضلاً عن نفس انسان كريم . قال الشاعر :

أنطمع أن يطيعك قلب سعدي ونزعم أن قلبك قد عصاكا

ونحن نذيل قول هذا الشاعر :

اذن لصلت سبل الرشد حتما الى ما ليس يدركه نهاكا

الاعص هواك مع سعدي وخالف رغائب ليس تبلغها قواكا

تفر بسعادة الدارين حيث ال هنا والين قصى مشتهاكا
ومن هذا القبيل ما قاله بعض الحكماء « لا تطلب طاعة غيرك ونفسك ممتنعة
عليك » وروي في الاسرائيليات أن رجلاً خطب امرأة من غير بلده فأرسل عبده
ليحملها اليه فراودته نفسه عليها وطالبته بها فجاهدها واستعصم ولم يمد يداً لسيدته
فنبأه الله ببركة تقواه ومخالفة هواه فكان من أنبياء بني اسرائيل
وروي أن امرأة حسناء كانت في سفينة فأنكسرت السفينة وخرجت المرأة على
لوح الى جزيرة في عرض البحر فمشت ساعة وكان هناك رجل يقطع الطريق ويعتدي
على السابلة. فلما رأى المرأة قال لها أنت من الانس أم من الجن؟ وما كاد يتم كلامه حتى
جلس منها مجلس الرجل مع زوجته فارتعدت خوفاً فقال لها من تخافين؟ قالت من الله
تعالى الذي ينظر بنا. قال لها وهل فعلت هذا الفعل قبل الان؟ قالت لا فقام عنها وقال
أنا أحق منك بالتوبة لاني فعلت هذا ما رآه بالاختيار وأنت لا تعصين الله وقد اضطررتك
الى العصيان وها أنا ذا تائب من هذه الساعة. ثم أخذ المرأة وسار معها الى البلد فلقيا في
طريقهما رجلاً عابداً فراقاه. فلما اشتدت حرارة الشمس قال العابد للرجل تعال ندعو
الله أن يظللنا بغمامة نمشي تحتها. فقال له يا أخي ليس لي وجه أبيض عند الله ولا لي
سابقة عمل أرجو بها قبول الدعاء ولكن ادع أنت فقال أدعو أنا وتؤمن أنت على
دعائي. فدعا الراهب وأمن ذلك الرجل فأظلمت سحابة فساروا تحتها فلما بلغوا مفرق
الطريقين تبعت السحابة الرجل وبقي العابد ماشياً تحت الشمس. فرجع العابد اليه
وقال له يا أخي ألم تقل انه ليس لك سابقة صالحة وهذه السحابة قد سارت معك
فأخبرني بما صنعت. فخفي له ما كان من أمره مع المرأة. فقال انه والله لبرّ خليق به ان
تعال من الله الكرامة لاجله

واعلم ان حفظ الفرج مع التمكن يستدعي غاية القوة ونهاية التوفيق. فقد روى
بعض العلماء عن أبي بكر بن عبد الله المزني ان قصاباً أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها
أهلها في حاجة لهم الى قرية أخرى فتبعها القصاب وراودها عن نفسها فقالت له لا تفعل
فاني أشد حباً لك منك لي ولكني أخاف الله قال فأنت تخافينه وأنا لا أخافه فها أنا ذا
تائب من هذه الساعة. وتركها ورجع فأصابه حرٌّ شديد حتى كاد يهلك فاذا هو برسول
لبعض أنبياء بني اسرائيل. فسأله قائلاً ما بك؟ قال الحرّ كاد يقتلني قال تعال حتى ندعو
الله أن تظللنا سحابة الى ان ندخل القرية. قال لبس لي من عمل صالح فدع أنت. قال

حسناً انا ادعو وانت آمن على دعائي. فدعا الرسول وأمن القصاب فأظلتها سحابة حتى انتهيا الى القرية فاخذ القصاب الى مكانه فالت السحابة معه. فقال له الرسول زعمت ان ليس لك عمل صالح وأنا الذي دعوت وانت الذي آمنت فأظلتنا السحابة ثم تبعتك أفلا تخبرني بأمرك؟ فاخبره فقال الرسول ان التائب عند الله بئس احد الناس بمكانه وفي الحديث انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت الى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار. فقالوا انه لا يتجينا من هذه الصخرة الا ان ندعو الله بصالح اعمالنا. فقال رجل منهم اللهم انك تعلم انه كان لي ابوان شيلخان كبيران وكنت لا اغبى قبليهما ولا ادخر مالا فنادى بي طلب الشجر يوماً فلم اذهب اليهما حتى ناما فخلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت ان اغبق قبليهما اهلاً وعيالا فلبثت والقدح في يدي انتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضورون جوعاً حول قدمي فاستيقظا وشربا غبوقهما. اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه. وقال الآخر اللهم انك تعلم انه كانت لي ابنة عم من أحب الناس الي فرأودتها عن نفسها فامتنعت عني حتى امت بها سنة من السنين فجاءتني فاعطيتها مئة وعشرين ديناراً على ان تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى اذا قدرت عليها قالت انق الله ولا تفض الحاتم الا بحته فخرجت من الوقوع عليها وانصرفت عنها وهي من أحب الناس الي وتركت الذهب الذي اعطيتها لها. اللهم ان كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرت الصخرة عنهم غير أنهم لم يستطيعوا الخروج منها. وقال الثالث اللهم انك تعلم اني استأجرت اجراء واعطيتهم اجورهم غير رجل واحد فانه ترك الاجر الذي له وذهبت فأنميت له أجره حتى كثرت له الاموال فجاءني بعد حين وقال يا عبد الله اعطني اجري فقلت كل ما ترى من الابل والنعمة والبقر والرقيق هو من أجرك. فقال يا عبد الله أهزأ بي؟ فقلت لا أستهزى بك نخذه فاستاقه وأخذه كله ولم يترك منه شيئاً اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه. فانفرت الصخرة فخرجوا يمشون. فهذا فضل من تمكن من قضاء شهواته فعمف وقال بعض الصحابة رأيت حداداً وهو يخرج الحديد من النار بيده ويقبله باصابعه. فقلت في نفسي هذا عبد صالح فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام فقلت له ياسيدي بالذي من عليك بهذه المنزلة الا ما دعوت الله لي. فبكي وقال يا أخي ما أبأ

من القوم الذين تزعم ولكن أحدثك بأمرى. فاني كنت كثير المعاصي والذنوب فوقف
على امرأة من أحسن الناس وجهاً فقالت لي هل عندك شيء لله فأخذت قلبي وقلت
لها امضي معي الى البيت فأدفع لك ما يكفيك . فتركتني وذهبت ثم عادت وهي تبكي
وقالت والله لقد أحوجني الوقت الى ان رجعت اليك فأخذتها ومضيت بها الى بيتي ثم
أجلستها وتندمت اليها فاذا هي تضطرب كالسنة في الريح العاصف . فقلت لها مم
تضطربين؟ فقالت خوفاً من الله تعالى ان يرانا على هذه الحالة فان تركتني فلا أحرقك
الله بناره لا في الدنيا ولا في الآخرة . ففقت عنها ودنعت لها ما كان عندي حسية
لله تعالى . فخرجت من عندي وأغمي عليّ فرأيت في النوم امرأة احسن منها فقلت من
أنت؟ قالت انا أم الصبية التي جاءت اليك ولكن يا أخي جزاك الله خيراً ولا أحرقك
الله بناره لا في الدنيا ولا في الآخرة . فانتبهت وأنا فرح مسرور وها أنا ذا من ذلك اليوم
تركت ما كنت عليه من المعاصي ورجعت الى الله تعالى وصارت النار عليّ برداً وسلاماً
واعلم أن مخالفة النفس خواص عظيمة . وقد حدثني أحد الرواة ان اخوين بلغا
في العبادة مبلغاً عالياً وكان احدهما خبازاً والآخر صائغاً فاهدى الخباز الى اخيه الصائغ
ماءً في منخل وأهدى الصائغ لخبه الخباز ناراً في قطنه . فاما الصائغ فانه وضع المنخل
عنده في دكانه حتى اذا كان يوم مرّت جارية جميلة على الخباز فراودها عن نفسها وفي
تلك الساعة نزل الماء من المنخل الذي عند أخيه الصائغ فعلم ان اخاه تغير عما هو عليه
فأتاه فسأله عما صنع فاخبره الخبر ثم قال له لماذا سؤالك؟ قال لان الماء نزل من المنخل
فندم الخباز على فعله وحلف ان لا ينظر الى امرأة اجنبية قط . فهذا تأثير مخالفة
النفس في الدنيا فكيف تأثير ذلك في اليوم الاخير??

وورد في الخبر ان رجلاً من اهل الكفر كان يجتمع عليه الناس في ميدان بغداد
وكان يخبرهم عما أضمره في قلوبهم وعما ادّخروه في بيوتهم . فسمي خبره الى الامام موسى
بن جعفر عليه السلام فأتى اليه متنكراً وأمر من كان معه ان يضم امرأ غريباً
فاظهره ذلك الكافر . فدهش الامام واستدعاه الى خلوة من الناس وسأله قائلاً
ما أتيت من الطاعات حتى أعطيت هذه المرتبة العظيمة وهي من مراتب النبوة؟ فقال
لا عمل لي سوى مخالفة النفس . فقال الامام عليه السلام أعرض الاسلام على نفسك
فتعشى الكافر بثوبه . وتفكر طويلاً ثم قال ان نفسي لا تميل الى الاسلام . فقال الامام
ما أعطيت الا بفضيلة مخالفتها مخالفتها . فقال نعم وأسلم بحسن اسلامه وكان يجلس مجلس

أبي الحسن عليه السلام: نأمر رجلاً أن يضمر شيئاً في نفسه وقال لذلك الرجل: أتعرف ما أضمر؟ ففكر طويلاً ثم قال: كلا، ثم عطف فقال: يا ابن رسول الله، كنت كافراً وما كان يمجزي ما في الضمائر، أما الآن وقد صرت مسلماً، فمعجزت فما سر ذلك يأري؟ فقال عليه السلام: أنك أعطيت ثواب ذلك العمل في الدنيا لكفرتك، حيث لاحظت للكفار في الآخرة، ولكن بعد أن أسلمت، ذخر الله لك جزاء عملك للآخرة، وقطعه عنك في دنياك، لأن الدنيا أقل من أن تكون ثواب عمل المؤمن.

ومن خواص مخالفة النفس ما روي عن ابن أبي الدنيا أنه كان في بني إسرائيل رجلاً بلغته بهما العبادة، أن مشياً على الماء. فبينما هما يمشيان عليه، إذاهما برجل يطير في الهواء، فقالا له: يا عبد الله، بأي شيء أدركت هذه المنزلة؟ فقال: يسير من الدنيا، فقد قطعت نفسي عن الشهوات. وبالجملة، فخالفة النفس لها شأن عظيم، وجميع مصالح الدنيا والآخرة تتوقف عليها. وأما مصالح الآخرة، فتوقفت على تأدية التكليف، وكلها شاقّة على النفس، ومن ذلك سميت تكاليف، وهذه لا يتوقف اليها الإنسان إلا إذا كفر بنفسه، وخالفها في مشتهياتها. وأما مصالح الدنيا، فكذلك أيضاً، إذ منها ما يحتاج للتواضع وحسن الإدارة. وذلك صعب على النفس. ومنها ما يرجع إلى الكد والتعب، وكل ذلك شاق على النفس، إذ النفس من مشتهياتها الكبر والافتخار، وطلب الراحة والذم، والفراغ، ومن لوازمها الجزع والغضب. عند عروض الأسباب المفضية لذلك، والله أعلم.

﴿ الخاتمة ﴾

هذا آخر ما رأينا ضرورة نحرره من الكلام، على انوار العقل ومعلوماته، وعروض الأسباب الحاجية له، والامارات الكاشفة عنه. وقد جئنا على أقوالنا بكثير من الامثال والقصاص، زيادة في التفكّه والتسايه، وتوصلاً إلى التأثير على النفوس وترتيبها في مطالعة ما كتبناه بروية اغتناماً لما فيه من الفوائد.

وخلصة ما نرعى إليه هو أن الإنسان العاقل من الواجب عليه أن يعمل جهده في تعويد نفسه على الابتعاد عن الامور الحاجية للعقل، والتمسك بالامور الكاشفة لتتمو بذلك مداركه، وتتسع معارفه، ويستطيع أن يستخدم عقله إلى ما لا حصر له من فوائد الدنيا والآخرة، بحيث يعيش ما عاش سيدياً ويموت صالحاً شهيداً. ولهذا خلق الله الإنسان وبه ميّزه عن الحيوان والسلام في مسك الختام والحمد لله أولاً وآخراً.

المورد الثالث

﴿ في أحكام العقل ودواعيه وموانعه ومحظوراته ﴾
 (وهذا المورد يشتمل على مقدمة وست رياض وخاتمة)
 المقدمة في ان من شأن العقل النظر الى العواقب
 الروضة الاولى في وجود الدواعي وعدمها
 الروضة الثانية في جهة الشرائط
 الروضة الثالثة في الموانع والمحظورات
 الروضة اربعة في تقدير النفع والضرر
 الروضة الخامسة في ما هو سائط عن درجة اعتبار العقل
 الروضة السادسة في بيان الراجح من المرجوح
 الخاتمة كلمة فيما تقدم

مقدمة

﴿ في ان من شأن العقل النظر الى العواقب ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الذين
 شادوا الدين . وبمد فاعلم ان من غلب عليه العقل فهو لا ينفك عن التفكير في عواقب
 الامور . قال بعض العلماء « ما زال العاقل يشقى بعقله لحسن نظره وصحة تفكيره وما
 زال الجاهل ينعم بجهله لضعف نظره وقلة تفكيره » وقال ارستطا ليس « العاقل
 لا يلازم شهوة الطبع لعلمه بزوالها والجاهل يظن انها خالدة فهو يتلذذ بها ويبقى
 عليها فهذا ينهم بجهله وذلك يشقى بعقله » وأخذ هذا أبو الطيب المتنبي فقال :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
 وأخذه عبد الله بن المعز فقال

وحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا

وقلنا في هذا المعنى :

لا تحسد العاقل في عقله	فانه	والله	مشقيه
بل فاحسد الجاهل في جهله	فانه	والله	مهنيه
ذو العقل يشقى لو يكون له	ملك سليمان	وما فيه	كلمة
اما الجاهل فهانيء أبدأ	لو كان في فقر	وفي يه	كلمة

وقال البحري :

أرى العلم بؤساً في المعيشة للفتى
ولا عبث الا ما جباك به الجهل
فالعاقل لا يزال مهموماً من جهة ما جيل عليه من التفكير في العواقب. ولبعضهم :
ولما تعرض لي زاراً
ولم يك عندي له موعد
سهرت انكباباً على وصله
لعلني به أنه ينفد
وما هذا السهر الا للتفكر الذي هو من عوامل العقل. وقد قال شاعرنا
الانطاكى :

طوبى لمن ترك الهموم بأسرها
وصبا الى رغد المعاش وصفوه
متناسياً في جهله المسفل الذي
يقصيه في أحكامه عن هوه
ان المفكر لا يزال بكرهه
وأخو الجهالة لا يزال يزوهه
وفي كتاب الحيوان انه قيل للبلبل لا نعجب بصغيرك قبل مشاهدة الورد واكنا
نعجب لعدم سكوتك بعد مشاهدته والوصول اليه. فقال أما صغيرى قبل مشاهدة الورد
فمن شوق اليه وأما بعد وصاله فالتمتع به خوف فراقه. ومغزى القصة أن العاقل يجب
أن يفكر قبل الوصول الى أغراضه للحصول عليها وبمد الوصول اليها للمحافظة عليها
وهذا أيضاً شأن العاشق الذي عناه بقوله :

ويبكي ان نأى شوقاً لليلى
ويبكي ان دنا خوف الفراق
وما بكاء العاشق في الحالين الا من نتيجة العقل الذي يدعوه الى التفكير دائماً
بما سيكون. وقال بعضهم :

يمثل ذو العقل في ناسه
فان زلت بغتة لم يرع
رأى الامر يفضي الى آخر
وذو الجهل يأمن أيامه
فان فأجأته صروف القضا
ولو قدّم الحزم في نفسه
مصائبه قبل أن تنزلا
لما كان في نفسه ممثلاً
فصير آخره أولاً
وينسى مصارع من قد خلا
يبيض مصائبه أعولا
لعلمه الصبر عند البلا

وقال أحد الحكماء « ان الناس طائفتان طائفة جاهلة تنظر الى شاهد حال الدنيا
وتستمسك بأمل طول العمر ولا تتفكر في العواقب. وطائفة عاقلة تجعل العواقب أمام أعينها
فتنظر الى ما سيكون وكيف تخرج من الدنيا وتفارقها. وهؤلاء هم العاقلون الذين على

سلامة ايمانهم ينظرون الى ما سيدخل معهم الى قبورهم من دنياهم وما الذي سيركونه الى اعدائهم من بعدهم ويبتاعهم وباله ونكاله

« الفرق بين حكم العقل وحكم النفس »

واعلم أن الانسان اختص بالارادة العقلية دون سائر الحيوان وان شاركته في القوى الغضبية والشهوية . ثم ان الارادة العقلية هي غير الارادة المنبعثة عن الشهوة والغضب فانه اذا أدرك الانسان بعقله عاقبة الامر وطريق الصلاح انبعث فيه من ذاته شوق الى جهة المصلحة والى تعاطي أسبابها والارادة لها وذلك غير ارادة الشهوة التي هي ارادة الحيوان الاعجم . بل يكون على ضد الشهوة فان الشهوة تميل الى لذائذ الأطمعة في حين المرض والعقل يجرد في نفسه زاجراً عنها رغبة في الشفاء

وخلاصة الكلام أن كل مقصود في الذهن اذا كانت الغاية منه مجرد اللذة من دون ملاحظة مصلحة أو مفسدة فهو نفساني . وان كان الغرض منه المصلحة فهو عقلي وحينئذ فالمقصود النفسي هو ما كان لقضاء الشهوة النفسية . والعقلي هو ما كان لجلب نفع أو دفع ضرر بصرف النظر عن ملاحظة تليذ النفس أو عدم تليذها . وعلى ذلك يكون بين المقصود النفسي والعقلي اشتراك من وجه بحيث يجتمعان على ارادة الغذاء واللباس والنوم ونحو ذلك من حاجيات الانسان الضرورية التي يحكم العقل بلزومها والنفس تتليذ بها . وتفريق بما فيه اللذة دون المصلحة كالسكر والتدخين والميسر ونحو ذلك من المحرمات التي تطلبها النفس ويمنعها العقل أو كالكد وراه العلم أو العمل ونحو ذلك مما فيه المصلحة ولكن تأباه النفس لعدم تليذها فيه أو لما تلاقي في سبيله من الكد والجهد . وحينئذ فكل قصد نفسي محض يأباه العقل فهو محرم عقلاً لان الحكم العقلي موضوعه ما كان متصفاً بترتيب المصلحة عليه . وكل عقلي محض تأباه النفس فهو محرم نفساً لحرماتها من لذتها في معاناته . بقي الاعمال المشتركة بين العقل والنفس فان غلب في الانسان هوى النفس كان نفسياً وخرج عن قصد العقل وحكمه . وان غلب فيه قصد العقل كان عقلياً وخرج عن قصد النفس وحكمها وذلك كعلم الطب وتحصيله فانه مشترك بين العقل والنفس لما فيه من لذة الكمال التي تطلبها النفس ولما فيه من رتب المنافع التي يحكم العقل بوجوب تحصيلها وقس على هذا كل ما جمع بين اللذة والفائدة فاذا عرفت هذا فاعلم أن كل أمر فيه مصلحة يحكم العقل بحسنه ووجوب تحصيله من أي سبب كان وفي أي مكان كان وفي أي زمان كان وعلى أي حالة كانت فيظهر

حينئذ . من ذلك ان نحصيل العلم الذي يحكم العقل به ما كان نحصيله لمنفعته فلا يلاحظ فيه هوى النفس أو نقرتها حباً باغتمام المنفعة التي هي غرض العقل الأسمى والتي عليها ترتب المصالح الدنيوية والاخروية

ومما تقدم تبدو جلياً صعوبة الطاعات على النفس لخلوها من اللذة واستقلال العقل بحسنها لما فيها من المصالح ومنه يظهر قوله تعالى « ان النفس لا مارة بالسوء » لأنها لا تطلب غير ملاذها ولو خالفت بذلك العقل . والقدر الجامع بينهما هو ما اجتمعت فيه اللذة والمصلحة ويحكم بنسبته الى احدهما بحسب القصد من نحصيله .

وسن فصل هنا الفوارق بين أحكام النفس التابعة لدواعي قواها الغضبية والشهوية والروحانية وبين حكم العقل التابع للمصالح والمفاسد على ما سترى

« في ان النفس تميل للذنها والعقل لمنفعته »

اعلم ان النفس من طبعها النفرة مما تكره والميل الى ما نشتهي خلافاً للعقل الذي مناط حكمه على المنفعة والمضرة . فان الرجل الحازم ربما أبغض الرجل وكرهه ثم قر به وأدناه أو تقرب منه وتزلف طمعاً بالانتفاع منه أو الأمن من ضرر عداوته ومن ذلك قول الشاعر :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
فيا نكد الدنيا متى أنت مقصر
عدواً له بما من صداقته بد
عن الحر حتى لا يكون له ضد
وقال في مثل هذا شاعرنا الانطاكي :

وأصعب ما طائنته صجبة امرء
أصاحبه قصد انتفاعي بقربه
ونفسي تأتي أن تميل اليه
ولولا انتفاعي ما مررت عليه
وه مثل ذلك رغبة الرجل في الدواء يتعاطاه على بشاعته متكرهاً قصد الانتفاع به ولو خبيروه لما اختارت نفسه الا لذيد الأطعمة

وربما أحب الرجل الرجل حتى عز عليه أن يفارقه لحظة ولكن تفضي عليه مصالحه بإبعاده واقصائه لمصاحبة من المصالح كفارقة الوالد الولد قصد التعلم أو الاتجار أو كاقصاء الملوك بعض حواشيهم سياسة . وربما قضت الظروف باهلاك بعض من يحبون تلافياً لاضرار تحيق بوجودهم كالذي تلدغه الحية في أصبعه فيقطعها ويتبرأ منها أو تدوى يمينه فيبترها ليسلم سائره على حد قول الشاعر :

ألم تر أن المرء تدوى يمينه
فيقطعها عمداً ليسلم سائره

فمن هذا تعلم ان حكم النقل تابع للمصالح والمفاسد وكثيراً ما ينافي شهوات النفس
الراغبة في ملاذها

« في أن النفس تتعجل ملاذها والعقل يخالفها »

قد علمت أن من لوازم النفس الشهوية ميلها الى التعجل بملاذها ولكن العقل
بخلاف ذلك يلاحظ الاصلح . قال أمير المؤمنين عليه السلام « خير الاعمال عند العاقل
أحمدها عاقبة وخيرها عند الجاهل أعجابها نفعاً »

وقال أحد العلماء « يستدل على عقل الماقل بسكونه وسكوتة وحفظ بصره
وحركاته في أما كتبها اللائقة بها ومراتبه العواقب فلا تستفز شهوة عاجلة عقباها
ضرر و تراه ينظر في الفضاة فيتخير الافضل والاحمد عاقبة من مطعم ومشرب وملبس
ومنكح وقول وفعل وكذلك يترك ما يخاف ضرره مهما كانت في ذلك لذته ويستعد لما
يمكن وقوعه » وقلنا في هذا :

ان رمت تدري قدر عقل الفتي وحزمه فانظر الى فعله

لا يطلب الامر الذي يشتهي ان لم يوافق مقتضى عقله

وعنده أفضل أعماله ما دل في الناس على فضله

وروي أن اعرابياً خلا بامرأة فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة قام عنها
مسرعاً فقالت له ولم فقال ان امرأاً باع جنة عرضها السماء والارض بمقدار أصبع من
بين نخذك لعايل معرفة بعلم المساحة

وذكر ابن الجوزي في كتاب الاذكياء قال : هرب رجل من أسد فوقع في بئر
فوقع الاسد خلفه فاذا في البئر دب فقال له الاسد منذ كم يوم لك ههنا ؟ قال منذ
ايام وقد قتلتني الجوع فقال له الاسد أنا وأنت تأكل هذا الانسان وقد شبعنا فقال له
الدب واذا عاودنا الجوع ماذا نصنع ؟ وإنما الرأي أن نحلف له أن لا تؤذيه ليجتال
في خلاص نفسه وخلاصنا فانه على الحيلة أقدر منا فتقدمنا منه وحلفا له فتثبت حتى وجد
أثقاباً استعان بها على الخروج من البئر فتخلص وخلصها وهذا أجمل مثال على وجوب
تفضيل حكم العقل على شهوة النفس

قيل ومثال من استعجل الخير في الدنيا وأعرض عن ثواب الآخرة مثل رجلين
لقطا من الارض حبتى غنّب فأما أحدهما فجعل يمص الحبة تلذذاً بها وأما الآخر فإنه
زرعها فلما كان بعد زمن التقيا فاذا الذي زرع الحبة رآها قد صارت شجرة وكثر ثمرها

والتذُّبها طويلاً فأسف صاحبه على أمجله بلذة زهيدة أعقبها حسرة طويلة هي حسرة
حسد صاحبه وتغيُّبته

« في أن العقل ينافي القوة الغضبية »

قد علمت أن القوة الغضبية تقتضي التشفي والانتقام وأما العقل فبخلاف ذلك
إذ أنه ينظر دائماً إلى الإصلاح وعلى ذلك فالعقل ينافي الغضب لأنه يذهب بصاحبه
عن الحلم . جاء أن أمير المؤمنين عليه السلام عندما ظفر بعمر بن عبدود لم يضربه
مباشرة بل عمهل مدّة والناس ينظرون اليهما ثم ضربه فوشى الوشاة بعلي إلى النبي
عليهما الصلاة والسلام بالسان حذيفة فقال له يا حذيفة إن علياً سيدك سبب وقفته فلما
جاء علي سأل النبي عن ذلك ؟ فقال كان هذا الرجل قد شتم أمي وتفل في وجهي فخشيت
لو أسرعت بضربه أن أضربه لحظ نفسي فتركته حتى سكن ما بني ثم ضربته في الله
وأنا ذا كر قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة »

ومن هنا قالوا ولما كان الغضب يهيج في صدر كل إنسان وجب على السلطان
وعلى كل من يتولى أمور الناس أن لا يعاقبوا أحداً في حال الغضب لكي لا يتعدوا
الواجب من جهة وحتى لا يكون هناك تشفي نفساني من الجهة الأخرى . فإن العاقل
ما تصرف بغضبه على حسب ما تقتضيه المصلحة سواء كان عمله دينياً أو دنيوياً
فيكتمه إذا وجب وبظاهرة إذا وجب وملاحظة المصلحة تنحصر إما في دفع ضرر
أو في جلب نفع أو حفظ مصلحة عامة أو قضاء حاجة المسلمين

فأما عن أطراح الغضب لدفع الضرر فقد قيل «العاقل يصلح عدوه إذا اضطر إليه
وبصانعه ويظهر له وده وبريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بداً ثم
يعجل بالانصراف عنه إذا وجد إلى ذلك سبيلاً » وقيل في ذلك :

أني أحبي عدوي عند رؤيته لا دفع الشر عني بالتحجيات

فأحزم الناس من يلقي أعاديته في جسم حقد وثوب من مودات

وفي بعض كتب الهند : العاقل إذا رجا نفعاً من عدوه أظهر له الصداقة . وقال
بعضهم كان محمد بن الفضل يجالس أعداءه ويلطفهم بلين الكلام ويواكلهم فقيل له
في ذلك فقال لتخمد نار عداوتهم . وقال عقاب بن شيبه التميمي « كنت ردف أبي
فلقيه جرير بن الحطفاة على بغلة فبهاه أبي ولطفه فلما مضى قلت لابي أبعده أن قال
فبنا ما قال تلاطفه ؟ فقال يا بني أتوسّع جرحي ؟ . وكان محمد بن الحنفية يقول قدم

يدفع بالمكروه ما هو أعظم منه
 وأما اطراح الغضب لحفظ مصلحة فقد قيل إن رجلاً أتى بعض الحكماء فشكا إليه
 صديقه وعزم على مقاطعته والانتقام منه فقال له الحكيم أتقهم ما أقول لك فأكلت أم
 يكفئك ما عندك من فورة الغضب التي تشغلك عني؟ فقال أتقهم ما أقول لواع فقال أرجو
 نفعه بحفظ مودته واحتمال خطيئته أم لا؟ فقال بل أرجو فقال أظن مضرته بإبعاده
 وعداوته أم لا؟ فقال بل أظن فقال فاحتمل مؤوته لرجاء منفته واطرح عنك الغضب
 والانتقام لظن حاجتك في قلب الليالي والأيام والله در الفائل :

وان أنت لم تشرب مراراً على القذى ظميت وأي الناس تصفو مشاربه
 ومن كتاب الجواهر السنوية للشيخ محمد الحرّ العاملي برفع الاسناد الى أبي عبد الله
 الصادق أنه قال لما رأى إبراهيم الملاكوت التفت فرأى رجلاً يزني فدعا عليه فمات ثم رأى
 آخر فدعا عليه فمات حتى رأى ثلاثة فدعا عليهم فماتوا فأوحى الله عز وجل اليه يا إبراهيم
 ان دعوتك مجابة فلا تدع على عبادي فاني لو شئت لم أخلقهم، اني خلقت خلقي على
 ثلاثة أصناف عبداً يعبدني لا يشرك بي شيئاً وعبداً يعبد غيري ولن يفروني وعبداً يعبد
 غيري فأخرج من صلبه من يعبدني

ولامت فاطمة أمير المؤمنين عليهما السلام على قعوده عن الخلافة وأطالت تعنيفه وهو
 ساكت حتى أذن المؤذن فلما بانغ الى قوله « أشهد أن محمداً رسول الله » قال لها أنجبين أن
 تزول هذه الشهادة من الدنيا؟ قالت لا قال فلهذا قعودي

ولما قدم معاوية المدينة دخل دار عثمان فقالت عائشة بنت عثمان واأبناء فقال معاوية
 يا ابنة أخي ان الناس أعطونا طاعة واعطيناهم أماناً وأظهروا لنا سكوناً تحت حقد فظاظرنا
 حلماً تحت غضب ومع كل انسان سيفه وهو برى مكانه فان نكثنا بهم نكثوا بنا وما
 ندري علينا تكون الدائرة أم لنا؟ واثن تكوني ابنة عم امير المؤمنين خير من ان تكوني
 امرأة من محرّض المسلمين

وأما حكم العقل باطراح الغضب لجلب المصلحة فيسمى « سعة صدر » وان كان
 للدنيا سمي دهاء ومكراً
 ومما نقل عن دهاء معاوية ما حكى أن أهل الكوفة وفدوا عليه حين خطب
 لابنه يزيد من بعده بالعهد وكان في الكوفيين هاني بن عروة الرادي وكان سيداً في
 قومه فقال يوماً في مسجد دمشق والناس حوله العجب لمعاوية يريد أن يقسرها على

بيعة يزيد وحاله حاله وما ذلك والله بكأن وكان في القوم غلام من قريش جالساً يحمل
الكلمة الى معاوية فقال له أنت سمعت هانياً يقول؟ قال نعم قال فاخرج فأتت حلقته
فاذا خفت الناس عنه فقل له أيها الشيخ قد وصلت كلمتك الى معاوية ولا أحب أن
تكلم بهذا الكلام فأنهم بنو أمية وقد عرفت جرأتهم ولم يدعني الى هذا القول لك
الا النصيحة اشفاقاً عليك وانظر ما يقول فأتيتني به فأقبل الى مجلس هاني فلما خفت
من عنده دنا منه فقص عليه الكلام وأخرجته مخرج النصيحة له فقال هاني والله
يا ابن أخي ما بلغت نصيحتك كلما أسمع وان هذا الكلام لكلام معاوية أعرفه فقال
الفتى وما أنا ومعاوية والله ما يعرفني قال فما عليك اذا لقيته فقل له يقول لك هاني
مالي الى ذلك من سبيل أنهمض يا ابن أخي راشداً فقام الفتى فدخّل على معاوية
فأعلمه فسكت ثم قال معاوية بعد أيام لوفد أهل الكوفة ارفعوا حواجلكم وهاني فيهم
فعرض عليه كتابة فيها ذكر حوائجهم فقال يا هاني ما أراك صنعت شيئاً زد فأم هاني
فلم يدع حاجة عرضت له الا ذكرها ثم عرض عليه الكتاب فقال قصرت فيما طلبت
زد فقام هاني فلم يدع حاجة لقومه ولا لاهل مصره الا عرضها ثم عرض عليه الكتاب
فقال ما صنعت شيئاً زد فقال يا أمير المؤمنين حاجة بقيت قال ما هي؟ قال ان أتولى
أخذ البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين بالمعراق فان افعلت فما زلت لمثل ذلك أهلاً

ومن الكرماء أوس بن حارثة وكان يضرب به المثل في الجود وكان بشر بن
حازم الاسدي أولاً بهجو أوساً وكان أوس نذراً لئن ظفر به ليجرقه فلما تمكن منه
أطلقه وأحسن اليه فدحه بمدة فصائد. وسبب هجاء بشر لاوس هو حكاة المبرد في
الكامل ان أوس بن حارث بن لام الطائي كان سيداً فوفد هو وحاتم الطائي على عمرو
ابن هند وأبوه المنذر بن ماء السماء فدعا أوس فقال له أنت أفضل أم حاتم؟ قال أبيت اللعن لو
ملكني حاتم ووالدني وحمي لجأد بنا في غداة واحدة ثم دعاه حاتم فقال له أنت أفضل أم أوس؟
فقال أبيت اللعن انما ذكرت أوساً ولا أحد ولده أفضل مني وكان النعمان بن المنذر دعا بحلة
وعنده وفود العرب من كل حي فقال احضروا في غد فاني ملبس هذه الحلة أكرمكم فحضر
القوم جميعاً الا أوساً فقيل له لم تتخلف؟ فقال ان كان المراد غيري فأجل الاشياء ان لا أكون
حاجزاً وان كنت أنا المراد فسأطلب ويعرف الناس مكاني فلما جلس النعمان لم ير أوساً فقال
اذهبوا الى أوس فقولوا له احضراً مناً مما خفت فحضر فألبسه الحلة فحسده قوم من أهله فقالوا
للحطيطه أهجه ولك ثلاثمائة ناقة فقال الحطيطه كيف أهجو رجلاً لا أرى في بيتي شيئاً

ولا مالا الا من عنده فقال لهم بشر بن ابي حازم احمده بنى اسدين خزيمه انا اهجوه
لكم فاخذ الابل وفعل فاغار اوس عليها فاكتسبها فجعل بشر لا يستجير حياً الا
ويقول قد اجرتك الامن اوس فلما ظفر به اوس دخل على امه وكان بشر هجاءها
ايضاً مع اوس فقال قد اتينا ببشر الهاجي لي ولك قالت او تطيعني؟ قال نعم قالت ارى
ان رد عليه ماله وتعفو عنه ونحبوه فانه لا يغسل هجاءه الا مدحه فخرج فقال ان امي
سعدى التي كنت هجوها امرت فيك بكذا وكذا فقال لا جرم والله لا مدحت احداً
غيرك حتى اموت فرد عليه ماله واكرمه وأطلقه وجعل بشر يمدح بعد ذلك اوساً
بمكان كل قصيدة هجاء فيها فهجاء بنحو خمس ومدحه بنحو خمس وكان من قوله فيه:

الى اوس بن حارثة بن لامر ليقتضي حاجتي فيمن قضاه

فما وطىء الثرى مثل بن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها

اقول هذه ثمرة الصفيح وبجانبه الغضب والانتقام فلو قتله لحسر مدحه وبقي عليه
هجاؤه الى يوم القيامة اذ لا ثمرة في الانتقام الا التشفي ولا ثمرة للتشفي الا بقاء
المدارات في الصدور الى يوم النشور . وقال في مثل ذلك شاعرنا الاطباكي:

لانفتقم واصفح تفز بولاء من عاداك واتسرك العدو صديقا

والانتقام يؤرث الاحقاد فاه جرها تبت بالمحمدات خليقا

كان لعبد الله بن الزبير ارض مجاورة لارض معاوية فدخل عبيد معاوية ارض
عبد الله بن الزبير وخصبوا منها ما غصبوا فكتب هذا الى معاوية : أما بعد يا معاوية فان
عبيدك غصبوا ارضي فامرهم ان يكفروا عنها والا كان لي ولكم شأن فلما وقف معاوية
على كتابه دفعه الى ابنه يزيد فلما قرأه قال ما ترى يا يزيد؟ قال ارى ان تبث له
حيثاً اوله عنده واخره عندك يا أتيك برأسه فبربحك منه فقال معاوية عندني خير
من ذلك يا بني قال ما هو يا أبت؟ قال علي بدواة وقرطاس فكتب فيه : قد وقفت
على كتاب ابن حواري رسول الله فساءني والله ما ساءك والدنيا وما فيها هينة في حبك
ورضاك وقد كتبت على نفسي سطوراً أشهدت الله فيها وجماعة من المسلمين على أن
الارض والعبيد الذين فيها ملكك فضها الى ارضك وضم العبيد الى عبيدك والسلام . قال
فلما قرأه عبد الله بن الزبير كتب اليه يقول قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين لأعدمني
الله بقاءه ولا أعدمه هذا الرأي الذي أحله هذا الحبل والسلام فلما وقف معاوية على
الكتاب ناوله الى ابنه يزيد فلما قرأه نهل وجهه فرحاً فقال له معاوية يا بني اذا

بليت بشيء من هذا الداء فداؤه بمثل هذا الدواء . هذا قليل من دها معاوية (١)

(١) أما سمة الصدر والدهاء المقرون بالحكمة فخلتان ميمزتان لجناب مولانا معز السلطنة سردار اقدس عظمة الشيخ خزعل خان حفظه الله تعالى ولعظمته من التوادد والحوادث من هذا القبيل الشيء الكثير

فمن سعة صدر عظمته أنه لا يغضب على أحد من خدمه وأعوانه بل يعامل الجميع بمنهى الحلم والشفقة ويقابل اساءتهم بالاحسان وقد قيل يوماً لعظمته في ذلك فقال ان غلماني مني بمنزلة الاولاد البررة من الوالد الرؤوف فان عاملتهم بالشدة قهرتهم على طاعتي وخدمتي فيخدموني باجسامهم ويكرهونني بقلوبهم أما وأنا أعاملهم بالحلم واللين فانهم يخدمونني بقلوبهم وأجسامهم معاً وفوق هذا فما دمت منهم بمنزلة الاب من أبنائه فيجب أن أعاملهم بشفقة الاب فيعاملوني معاملة الابن البار لايه فهذا عظمة مولانا حفظه الله مع غلمانه اما غلمانه فهم شاعرون بحلم مولانا ومولاهم وعطفه عليهم ولذلك ما فيهم الا الذي يتمنى أن يفتيه بنفسه وراهم يتسابقون على عمل ما فيه رضاؤه العالي من غير أن يطلب منهم عملاً فيكل أمر يعلمون أنه يسره يبادرون الى عمله من عند أنفسهم وطالما برهنوا على حبهم الا كيد لعظمته بما فيه الدلالة الساطعة على أنهم مقدرين قدر حلمه وعطفه وشفقته حفظه الله تعالى

ولا يقتصر سعة صدر عظمته على غلمانه فقط بل على الابدن ممن يتحرشون بعظمته بدسيسة البعض من حاسديه وهم كثيرون من قبيل « كل ذي نعمة محسود » فهو يقطع ألسنتهم بحلمه وسباحه حتى يستأصاها من جذورها فكلم من مغرور في الناس أطلق لسانه على عظمته ثم احتاج اليه فلقى منه عطفاً ورحمة واحساناً فعاد شاكر حامداً يوبخ نفسه بنفسه على ما فرط منه مع أن كل هؤلاء المغرورين لا يباؤون قلامة ظفر من اظفاره فضلاً عن أن يستحقوا من لدنه عناية ولو شاء فقي أقل اشارة صدر منه يصبحون هباءً منثوراً فلا يكونون شيئاً مذكوراً ولكن هو صدره الواسع يسع الجميع

هذه اشارة الى سعة صدره وحلمه أما دهاؤه السياسي فقد أبدى فيه من المدهشات ما يخداه التاريخ لعظمته في بطون الاوراق الى يوم القيامة

تولى عظمة السرदार اقدس اماره عربستان وهي ضيقة النطاق وأكثر القبائل العربية الخيمه فيها منتقضة على الامارة فاضطر الى اشهار الحرب عليها لتأديبها واعادتها الى الطاعة تجديداً لما كان الجنان والوالد الكثير الحامد نصره الملك الحاج جابر خان رحمه الله الى

وبالجملة فإنّ ذا العقل يتصرف بفضبه على حسب مصالحه فيكتمه ويظهر ضده من
البشاشة واللباب اذا اقتضت الحال. ومن هذا القبيل قول الشاعر :
كم عايد رجلاً وليس يعود الا لينظر هل يراه يموت
وقيل ايها :

ومستخبر عنا يريد بنا الردى ومستخبرات والعيون سواك
وقلنا في هذا المعنى :

وأغضني عن الاعداء حلماً وحكمة وألقاهم والتغر بالبر باسم
وقد عرفوا أنني أشتت شملهم بيوم الوغى والسهل عندي لقاهم
وما الحلم الا بعد قدرة قادر والأضعف لم يسوغه حازم
ونفسي تأتي أن تكون غضوبة وان غضبت هانت عليها العظام
واعلم أنّ للغضب أحوالاً لا يجوز فيها اخفاؤه والا كان ذلك ضعفاً وخواراً. فن
كلام بعض الحكماء « اذا رجا الحازم نفع العدو أظهر له الصداقة واذا خاف ضرر

واذ كان عظمته خلد الله ملكه وأطال عمره من الدهاء على الجانب الاعظم كان
يشهر الحرب ويدعو جيوشه الجرارة الى القتال ويسير في مقدمتها غازياً محارباً. على انه
كان يبادر الى الصفح والرحمة متى ما شعر من اعدائه بخوار العزيمة والميل الى المسالمة فكان
يبادر الى الصفح ويعامل رؤساء اعدائه بالاحكام والهدايا فيخضعوا لراياته ليس بدافع
الخضوع للقوة فقط بل وبدافع الاعتراف بالجميل وهكذا ملك قلوب جميع القبائل المنتقضة
عليه فأصبحوا له عبيداً وهم احرار. وما زال عظمته أعز الله ملكه على هذا الدهاء وهذه الحكمة
حتى سالمته جميع قبائل عربستان والتفت حول رايته باخلاص وحب أكيد لا
يكونان عادة في نفس المغلوب نحو الغالب

واذ كراني كنت في سنة ١٣٢٩ في خدمة عظمته في الاهواز وقد جرد جيوشه
الظافرة لحرب البختيارية في شوشتر فاجتمع هناك أكثر رجال العشائر وكان فيهم
العدد الاكبر من الروساء الذين حاربهم وقهرهم فوجدت من جبههم واخلاصهم لعظمته
ملا يكاد يصدق وقد كانوا يدعون بطول بقاء عظمتهم مولانا الشيخ المزمز ويقولون جهرة
لولا عظمته لاهلك بعضنا البعض فهو الذي جمع قلوبنا وجعلنا بنعمة الله اخواناً ومن هذا
القول يتضح جلياً فضل عظمته وحسن دهائه في ادارة أمارته التي اتسعت بمحمد الله
هذا الاتساع العظيم حتى عميت اليوم جميع عرب عربستان ولا تزال في نمو ان شاء الله

الصديق أظهر له العداوة ألا ترى صفار البهائم تتبع أدهانها رجاء ألبانها فإذا فطمت انصرفت عنها « وقد قال الشاعر :

وربّ تقطّب من غير بغضٍ وبغضٍ كما من تحت ابتسام

وقال شاعرنا الانطاكى :

تفطن لمن يلقاك واحذر ظواهرأ تغرّك لا تطوي عليها الجوارح

فكم من عدوّ قد يلاقيك باسمها وما هو الا ببغض القلب كاشح

وقال بعض البخلاء فيما لا يتجاوز ما نحن في صده :

وانا لنجفو الضيف من غير عمرة مخافة أن يدري بنا فيعود

وكما ينبغي اظهار الغضب للمصلحة ولو بغير حقد كذلك ينبغي اظهار الحلم والدهاء

للمصلحة ولو بغير رضاء. وهذا هو الدهاء الواجب أن يكون في الزعماء وذوي الرئاسة

أكثر من سوام

« في منافاة العقل للقوة الروحانية »

سبق لنا أن أوضحنا أن دن لوازم الروحانية الانفة وعزة النفس، وقد تصل الى

التكبر الذي هو نتيجة التنالي فيهما. على أن العقل الذي يلاحظ دائما المصلحة دون

العواطف يحكم بضد ما تحكم به القوة الروحانية اذ أن التكبر يمنع من حصول المنافع

المتوقفة على التواضع وكسر النفس في مواطن شتى على حد قول العامة « الارض الواطئة

تشرب ماءها وماء غيرها » وقولهم « الرجال عند أغراضها نساء » ومثل ذلك أيضاً

حب الاستعلاء والانفة من الذل وهي من القوة الروحانية

قال احمد بن حنبل كنت في مجلس أبي يوسف حين أمر ببشر المرسي فبرّوه

يرجله الى أن أخرجه ، ثم رأته في المجلس فقبل له كيف رجعت الى المجلس فقال

لست أضيع حظي من العلم بما فعل بي في الامس

وفي كتاب كليله ودمنه ان من احتمل مشقة برجو نفعها ونحى عن نفسه الانفة

والحمية ووطنها على الصبر حمد غيب رأيه كما صبر الاسود على حمل ملك الضفادع على

ظهره وشبع بذلك وعاش. وذلك على ما زعموا أن أسوداً من الحيات كبر وضعف بصره

ودهبت قوته فلم يستطع صيداً ولم يقدر على طعام وانه انساب يلتبس شيئاً يعيش به

حتى انتهى الى عين كثيرة الضفادع قد كان يأتيها قبل ذلك فيصيب من ضفادعها رزقه

فرمى نفسه قريباً منهم مظهراً الكآبة والحزن. فقال له ضفدع مالي أراك أيها الاسود

كثيباً حزينا قال ومن أخرى بطول الحزن مني إنما كان أكثر معيشتي مما كنت أصيب من الضفادع فابتليت بلاء وحرمت علي الضفادع من أجله حتى أتني إذا التقيت ببعضها لا أقدر على أساكه فانطلق الضفدع الى ملك الضفادع فبشره بما سمع من الاسود فأتى ملك الضفادع الى الاسود فقال له كيف كان أمرك قال سمعت منذ أيام في طلب ضفدع وذلك عند المساء فاضطررت الى الانتحاء الى بيت ناسك ودخلت في أثره في الظلمة وكان في البيت ابن للناسك فاصبت أصبعه فظننت أنها الضفدع لدغته فمات فخرجت هاربا فتبعني الناسك ودعا علي ولعني وقال كما قتلت ابني البريء ظلماً وعدواناً كذلك أدعو عليك أن تذلي وتصير مركباً لملك الضفادع فلا تستطيع أخذها ولا أكل شيء منها الا ما يتصدق عليك به ملكها فأتيت اليك لتركني مقراً بذلك راضياً به فرغب ملك الضفادع في ركوب الاسود وظن أن في ذلك نخراً له وشرفاً ورفعة تدر فرجه واستطاب ذلك فقال له الاسود قد علمت أنها الملك اني محروم فاجعل لي رزقاً أعيش به قال ملك الضفادع لعمري لا بد لك من رزق يقوم بأودك ما دمت مركباً لي وأمر له بصفدين يؤخذان في كل يوم ويدفعان اليه فعاش بذلك ولم يضره خصومه للعدو الذليل بل انتفع بذلك وصار له رزقاً ومعيشة

ويجب أن تعلم أن الغرض من هذا المطلب هو أن لا يتسفل الانسان وينذل نفسه ويهينها في كل مطلب سعيًا وراء مصاحته فإن هذا ليس من العقل في شيء وإنما يجب على الانسان أن يخفف من غلوائه ويخلي بعض خيالاته في تلافي مصالحه بين دفع ضرر وجلب منفعة

الروضة الاولى

(في ان من شأن العقل النظر في العواقب)

« تمهيد »

اعلم أولاً ان الله تعالى لما خلق النفس وركب فيها قوى الغضب والشهوة وغيرها من الاخلاق الباعثة لها على التورط في المهالك وافتحام الاحوال كالطمع والحرص جعل العقل قائداً لها ورقيباً عليها يمنعها عما لا ينبغي ويرغبها في ما ينبغي . ولهذا سمي عقلاً اشتقاقاً من عقال الناقة فهو يعقل النفس ويمنعها من التورط من جهة وينبها في أعمالها الى الشرائط الواجب أن تتبعها من الجهة الثانية ويحذرهما من اتحام الموانع والمحظورات

من الجهة الثالثة

واعلم ان لبعض الاعمال البشرية دواعي قاهرة أو غير قاهرة تسوق الناس اليها كالحاجة أو الانتفاع أو دفع الضرر أو الالتزام أو المناسبة أو مقتضى الحال ول بعضها لا يوجد دواعي وهذه يقبح التكليف بها بنظر العقل خلافاً لتلك فان معاناة مالا حاجة اليه عبث والاهتمام بدفع ما لا يضر سفاهة والنهاس ما لا ينفع جهل والاشتغال بما لا يعني فضول والتسكف لما ليس له شأن جنون فهذه أمور خمسة نرى من الواجب تفصيلها والله الموفق

« معاناة ما لا حاجة اليه »

قيل لامير المؤمنين عليه السلام انك مطلوب فلو اتخذت طرفاً سابقاً فقال عليه السلام اني لا أفر بمن كرت ولا كرت على من فرّ قال بغلة تكفيني . وقال أبو العتاهية في عبد الله بن معن :

فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالاً

وما تصنع بالسيف اذا لم يك قتالاً

قال عبد الله فما لبست سيفي قط ورأيت انساناً يلحظني الاظننت أنه يحفظ قول أبي العتاهية . وقلنا في هذا المعنى :

لا تعب النفس في ما لا يفيد ولا

وأجهد النفس في ما أنت تكسبه

وفي الاثر أن جندياً من جنوده خرج مع أمير المؤمنين عليه السلام الى حرب الكفار فنظر الامير اليه فاذا قوسه بغير سهام فقال ابن نشابك الذي رمى به؟ قال ليس عندي نشاب ولكن أرمي بالنشاب الذي رمى به نحوي فقال لعله لا يرمي أحد اليك نشاباً قال اذن لا حاجة الى الحرب

وحكى ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب مرّ بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا منه الا عبد الله فقال له عمر ما لك لا تهرب مع أصحابك؟ فقال يا أمير المؤمنين لم أكن على ريبة فأخافك ولم يكن الطريق ضيقاً فأوسع لك فأعجب عمر بجوابه ودروي أن المأمون قال ما أعياني جواب أحد قط مثل جواب رجل جاءني زاعماً أنه نبي الله موسى فقلت له ان الله أخبرنا عن موسى عليه السلام أنه يدخل يده في جيبه فيخرجها بيضاء من غير سوء فقال متى فعل ذلك؟ أليس بعد أن لقي فرعون فأعمل

أنت كما عمل فرعون حتى أعمل أنا عمل موسى فأجازه واستتابه
وقبل أيضاً تنبأ رجل وأدعى أنه موسى بن عمران وبلغ خبره الخليفة فأحضره وقال
له من أنت؟ قال موسى بن عمران قال وأين عصاك التي صارت ثعباناً؟ قال قل أنا ربكم
الاعلى كما قال فرعون حتى أصيرها ثعباناً كما فعل موسى فضحك الخليفة وأجازه
والخلاصة أن أحسن الاعمال ما كان له سبب يدعو اليه وأسفه الاعمال ما كان بلا سبب
وقال في ذلك شاعرنا الانطاكى :

عجبت لمن يسمى ويعنى بأمره ولا حاجة تدعو الى ذلك العنا
فما ضره لو كان يعنى بحاجة ويبذل فيها السعي كي يبيع المنى
« في الاهتمام بما لا يضر »

حكى أن رجلاً اسمه دمية كان قبيح الصورة فقيل له في ذلك فقال أنا لا أرى
صورتي إنما التعب على غيري . وقيل

إذا الكلب لا يؤذيك عند نبيحه فدعه الى يوم القيامة ينبح
ومما زعمته العرب على لسان الحيوان: ان ابن آوى دخل بيتاً فأخذ دجاجة فصاحت
المرأة صاحبة البيت «أخذ ابن آوى الدجاجة التي وزنها رطل» فوقف ابن آوى فقال له
رفيقه من بنات آوى مالك ووقفت؟ قال أما تسمع هذه الكاذبة تقول وزن الدجاجة التي
في فمي رطل وهي أقل من أوقية فقال أعطينها وهي عليّ بشرين رطلا
وقلنا لواقعة حال :

دعوا صحف الرقاعة وهي زوي روايات الحفاقة والسفاهة
فقد هزأ الحكميم بناشرها وسفها الأديب على البداهة
وسفه القول يقصر ماتاهي عن التأشير في أهل النباهة (١)

(١) عند ما زرت بغداد في سنة ١٣٢٨ على عهد المرحوم ناظم باشا معاوونه على
نشر الاصلاح بايقانه على حقائق أميال العرب الصادقة للدولة العثمانية أساء بي الظن
وأمر بتفتيش أوراقى في حديث يطول واذ لم يجد عليّ علة يتمسك بها أمر باخراحي
من بغداد فعموم العراق بلا سؤال ولا محاكمة. فهبت بعض الصحف المذففة للطعن بي
تزلفاً الى الوالى شأن ذوي النفوس الصغيرة، فقلت في مقال مالك في الخمر فأنتم بعضهم
الفرصة وأرادوا النيل مني فعرضوا هذه الصحف على مسامع عظمة مولاي وليّ النعم

(في ما لا تقع فيه)

قيل في الاثار « أطلب أربعة من أربعة فاطلب من الموضع الذي تنزل فيه السلامة ومن الصديق الصدوق الزيادة ومن المال الفراغة ومن العلم المنفعة فاذا لم تجد من موضعك السلامة فالسجن خير منه . واذا لم تجد من صاحبك الكرامة فالكلب خير منه . واذا لم تجد من مالك الفراغة فالمدبر خير منه . واذا لم تجد من العلم المنفعة فالموت خير منه . »
فهذه أربعة أمور وليبأنها نقول : أما الموضع الذي لا سلامة فيه فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام ليس بلد بأحق بك من بلد وخير البلاد ما حملك وقال الشاعر :

لا يصدقك عن أمر تحاوله فراق أهل وأحباب وحيران
تلقى بكل ديار ما حلت بها أهلاً بأهل وإخواناً بأخوان
وأحسن منه قول الفرزدق :

وفي الارض عن دار القلي متحوّل

وقال البيطار :

يقولون هذي أم عمرو قرية
ألا انما قرب الحبيب وبعده
ومثل ذلك لبعضهم :

بكل تدأوينا فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار ليس بنافع
وقال المتنبي :

إذا رحلت عن قوم وقد قدروا
وقال شاعرنا الانطاكى :

يلوموني اذ طال هجري ولم أعد
وما علموا اني قد هجرته
الى موطن فيه معاشر اخواني
ولو أنصفوا ما كنت أترك أوطاني

السردار أقدس المعظم ظناً منهم أن مثل هذه الكتابات تؤثر على مكانتي عند ولي نعمتي وأنا عبده المملوك فما كان من عظمته جعلني الله فداه واطال بقاءه الا ورى بها الارض احتقاراً وأنشد هذه الايات فكانت سبباً لرد كيد الكايد بن الى نحوورهم اطل الله بقاءه ولانا وأدام عطفه العالي على عبده الامناء

أضاعوا حقوقي اذها قد نجاهلوا وما علموا في ذادعوني لهجران
 تركتهم بالرغم مني لغيرهم كما تركوني بين حمل واطعان
 وان الفلا رحب وما ضاق رحبه على كل من يسعي بحزم وعرفان
 ومن كان مجهول المسكان بمربع وظل به قلبات يرضى بأهوان (١)
 وأما صاحب الذي لا يرحى اكرامه فقد قيل فيه ونعم ما قيل « خير الناس من
 يرحى خيره ولا يخشى شره ، وشر الناس من يخشى شره ولا يرحى خيره ، وأما من
 لا يرحى خيره ولا يتقى شره فهو خارج عن حكم الانسانية » وتقول العامة في أمثالها
 « ان الصديق اذا لم ينفع صديقه في الدنيا فلا حاجة الى الاتفاف به في الآخرة »
 وقال الشاعر :

اذا كنت لا علم لديك تفسدنا ولا أنت ذودين فترجوك للدين
 ولا أنت ممن يرنحى لسكرهبة عمالنا مثلنا لا مثل شخصك من طين
 وقال الصفدي لو كان لي في اليتيم حكم لهدمت القافيتين وقلت :
 اذا كنت لا علم لديك يفسدنا ولا أنت ذوجود فترجوك للقرى

(١) تركت موطني حلب في سنة ١٨٩٧ مسيحية وبعد ان تجولت في سوريا
 رحلت الى مصر فأقمت فيها الى سنة ١٩٠٠ حيث رجعت لسوريا فاقمت هناك أربعة
 أشهر ثم تركتها راجعاً الى مصر ولم أعد اليها وربما لا أتود أبداً. وحدث أن بعض
 محبي في الوطن المحبوب انتهزوا فرصة وجودي في خدمة ولي نعمتي عظمة الشيخ المعز
 روجي فداه سنة ١٩٠٨ فكتبوا لعظمته يلوموني لهجراني وطني ويلتمسون من
 عظمته أن يصدر أمره الكريم الي بالرجوع من الخدمة بطريق البر الى حلب فانشدت
 عظمته هذه الايات وكان في ذيلها قولي :

انا اليوم في نعمي أجر ذيوها ومجدد واقبال وعيشة هنان
 بخدمة مولاي المعز وظله وخدمته الزهرا التي رفعت شاني
 رأيت به عزاً وفخراً وسؤدداً ومصدر عرفان ومورد احسان
 بنفسي وأمي أنتديه ووالدي وأهلي واصحابي وعنهم أغناني
 فلا أنا ناوور في مئذلة غربة ولا أنا شاك من تراحم اقران
 ومالي رجوى ارنحيتها سوى بأن تعيش عميد العرب في رفعة الشأن
 لنحبي به آمال أمة أحمد ويحي لها ذخراً بوسع سلطان

ولا أنت ممن برنجي لكريمة
عملنا مثالا مثل شخصك من خرا
وقال حكيم « اذا كنت في الدنيا لا تتفع وفي الاخرة لا تشفع ثم ترفعت فأخلق بك
أن تصفع » وقال بعضهم:

يقول أنا الكبير فعظموني
الا تمكثك أمك من كبير
اذا كان الصغير أعم نفعاً
وأجلد عنه نائبة الامور
ولم نجد الكبير يسوم نفع
فما فضل الكبير على الصغير

وقال بعض العقلاء « من لم ينلك الخير في حياته ، فلا تبك عينك عليه يوم وفاته ،
ومن لم يسأل عنك بالغدوات ، ويصلك بالعشيات ، فاعدهه من الاموات » وقال بعض
العلماء « اظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ، ورغب في مودة من لا ينفعه »
وقال بعض البلغاء « ليكن غرضك في اتخاذ الاخذان واصطناع النصحاء تكثير العدة ،
لا تكثير العدد ، وتحصيل النفع ، لا تحصيل الجمع ، فواحد يحصل به المراد ، خير من
ألف تكثر بهم الاعداد » وقال بعضهم « اذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره
ثانية فلعله أن يكون قد نسي فان لم يقضها فكبر عليه خمس تكبيرات وقرأ الموتى يبعثهم الله »
وقلنا في هذا المعنى:

إذا لم اخدم الدين القويما
ولم اشري بمملكتي العلوما
ولم اصنع بذني الدنيا عظيما
فلست العادل الحكيم العظيما
وان لم اورث الملك النعما
ولم اسعف على الدنيا كريما
ولم احمل عن الناس الهوموما
فلست المالك الفطن العزوما
وان أبيت في ملكي ظلوما
ولم اردع باحكامي الانبيا
واهملت اليتيمة واليتيما
فلست السيد السند الحكيم (١)

وقيل ان ابن شبرمة قضى يوماً لبعض اخوانه حاجة كبيرة فجاءه بهدية فقال ما هذا ؟
قال مكافأة ما أسديته اليّ فقال خذ مالك عافاك الله واعلم أنك اذا سألت أخاك حاجة
فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضاً للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعدّه في الموتى

(١) نقول هذا قول عظمة مولانا السردار أقدس برك الله فيه ومتعنا بشريف
وجوده وقد طبقه على افعاله في امارته العامرة على ما يشهد الناس أجمع فهل بعد ذلك
من زيادة لمستزيد ؟ أولاً يحق أن ننشد مع الشاعر :

لنا والد لو كان للناس مثله
أب آخره أثناهم بالمناب

وقد قيل الناس كالشجر فمنها ماله ظلّ وليس له ثمر وهو مثل الذي ينتفع منه في الدنيا دون الآخرة . ومنها ماله ظلّ وثمر وهو مثل الذي ينتفع منه في الدنيا والآخرة ومنها ما ليس له ظلّ ولا ثمر وهو مثل الذي عناء الله تعالى في قوله « يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه المولى ولبئس العشير » وقال بعض الأذكياء :

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهمُ لا يستوون كما لا يستوي الشجر
هذا له ثمرٌ حلوه مذاقته وذلك ليس له طعمٌ ولا ثمرٌ

وقال شاعرنا الانطاكى في الصديق :

إذا لم ترَ عطفاً ووداً ورحمةً وجوداً واحساناً من الحلّ خلفه
وإن صديق الخير من كان دائماً يجدُّ الى خير الصديق بفعله

ومن هذا القبيل المال فان المال وجد لينتفع به الانسان ويمرّ أما اذا لم يجد فيه نفعاً وعزة فهو والعدو سببان وقد قلنا في هذا :

إذا كان مالي لا يخفف كربته عن الناس أو يولى خبيراً ويبذل
فلا كان في صندوقه متكر دساً ولا كان من فيه يشحُّ ويبخل
أرى المال عزاً أن يعزّيه الفقى على الناس بالاحسان اذ يفضّل
والا فان المال هون لمن به اذا سئل الاحسان بأبى ويمطل
وقال أحد الشعراء :

المال مال المرء ما قضيت به الشهوات أو دُفعت به الاحداث
ما كان فيه فاضلاً عن قوته فابعلمن بأنه ميران

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام « أملكك من دنياك ما أصلحت به مشواك »
وأما العلم الذي لا ينفع فقد قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام « أن خير التول ما نفع
» واعلم أنه لا خير في علم لا ينفع ولا ينتفع به وما كان كذلك لا ينبغي تعلمه لأنه ضياع وقت
وتعب فكر من غير مقابل . ومن العلم ما ينفع في الدنيا والآخرة كعلم الدين ومتفرعاته
ومنه ما ينفع للدنيا كالعلوم الأدبية والفنون العصرية وكل هذه تعلمها واجب وبقدر ما يستفيد
منها الانسان يستفيد في دنياه وأخراه . أما العلوم التي لا تنفع ولا يندب صاحبها
لتعلمها فهي كتعلم اللغات المائتة أي التي لا تستعمل أو هي غير معروفة ومثل ذلك تعلم
العلوم القديمة التي أبطلها العلم الحديث ونحو ذلك

ومن منافع العلوم الدينية ان الانسان يعرف كيف يقرب بها الى الله عزّ وجلّ بصالح

عمله كإروى عن أمير المؤمنين عليه السلام إذ قال يوم عيد إنما هو عيد من قبل الله صيامه
وشكر قيامه وكل يوم لا يمضى الله فيه فهو عيد . وقال شارح نهج البلاغة عند تفسيره
هذا القول الرشيد أن المعنى ظاهر وقد نقله بعض المحدثين إلى الغزل فقال :

قالوا أتى العيد فقلت أهلاً إن جاء بالوصل فهو عيد
من ظفرت بالمنى يدها فكل أيامه سمود

وسمع أحد الصوفية هذين البيتين من فم مغني ينشدهما فطرب وصفق وأخذها
بالمعنى الذي عنده . وقد قال شاعر الانطاكى في هذا المعنى :

وما العيد إلا أن أراك بجاني كلانا محبٌ مفرمٌ وودود
أما وهلال الوجه منك قد اختفى فليس هلال العيد عندي عيد

وقال آخر في هذا المعنى .

قالوا أتى العيد والأيام شرققةً وأنت بكِ وكل الناس مسرور
فقلت إن واصل الأحباب كان لنا عيداً والافهدا العيد عاشور

وقلنا في العيد أيضاً :

وما العيد بهنيتي إذا لم أر به رعاياي في بشرٍ وبمن وإيناس
وما أنا في الأضحى أضحي رعيتي وما أنا فيه للرعية بالناسي (١)

وقال النبي صلى الله عليه وآله « لحصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد »
وقال عليه السلام « خير نساءكم الولود الودود » وقال « سوداء ولود خير من
حسناء لا تلد » ومثل هذا ما نقل عن المسيح عليه السلام إذ شبه المرأة العاقرة بالشجرة
التي لا تثمر وقال خير لها أن تقطع وتلقى في النار . وقال موسى عليه السلام مثل
ذلك . وهو إجماع من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام في تفضيل الولود على العاقرة
وأشرف المأمون يوماً من قصره فرأى رجلاً قائماً ومعه خيمة يكتب بها على
حائط قصره فقال لأحد غلمانه أنزل إلى ذلك الرجل وامسك يده واقراً ما كتبه ففعل
الغلام كما أمر سيده وقرأ :

(١) تفضل عظمة مولانا المعز أعزه الله فأنشد هذين البيتين في عام جذب بينما
كانت وفود المهتسين بحضرته يدعون لعظمته بطول العمر وأمر أمين ماله يومئذ
بتوزيع مبالغ كبيرة من المال على المعوزين . فانظر إلى هذه الاخلاق العالية والمواطف
الشريفة من هذا الملك الرؤوف حفظه الله وجعلنا فداه

يا قصر جمع فيك اللؤم والشؤم متى يعيش في أركانك اليوم
يوم يعيش فيك اليوم من فرحي أكون أول من دعاك مرغوم
فقال للرجل أجب أمير المؤمنين فجزع الرجل واشتد به الوجع وقال سألتك
بالله يا غلام لا تذهب بي إليه فقال انه يراك من القصر فأخذه وأوقفه بين يدي المأمون
وقال وجدته كتب كذا وكذا فقال المأمون وبلك ما حملك على هذا ؟ فقال يا أمير المؤمنين
انه لم يخف عنك ما حواه قصرك من خزان الاموال والحلي والحلل والطعام والشراب
والامتعة والفراش والجواهر فررت عليه وأنا في غاية من الجوع والفاقة فوفقت مفكراً
في أمرى وقلت هذا القصر عال عامر وأنا جائع لا فائدة لي منه فلو كان خراباً
ومررت به لم أعدم منه حجراً أو خشبة أو مسباراً أبيعه وأتقوت بثمنه. أو لم يعلم أمير
المؤمنين بقول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرء نصيب ولا حظٌ متى زوالها
وما ذاك من بعض لها غير أنه برجتي سواها فهو يوى انتقالها

فقال المأمون لحازنه أعطه ألف دينار ثم قال هي لك في كل سنة مادام قصرنا عامراً (١)
ودخل أبو دلالة على المنصور فأنشد قصيدة فقال يا أبا دلالة ان أمير المؤمنين
قد أمر لك بكذا وكذا من صلة وكسائك وحملك وأقطعك أربع مائة جريب مثنان عامرة
ومثنان غامرة. فقال أما ما ذكر أمير المؤمنين من الصلة فقد عرفته وعرفت العامر فما
العامر قال الذي لانبات فيه ولاشجر فقال لقد أقطعت أمير المؤمنين أربعة آلاف جريب
غامرة قال ويحك أين ؟ قال فيما بين الحيرة والكوفة فضحك منه وجعلها كلها عامرة
وجاء شيخ عربي يسمى خليفة الى اصفهان وكان رجلاً صالحاً وكان الامراء
يعظمونه والعظماء يكرمونه بالمدح لا غير ويطلبونه الى منازلهم على أنهم ما كانوا يصلونه

(١) روى لنا عظمة مولانا المعز هذه القصة في ذات ليلة وشفعها قائلاً اتنا من
فضل الله فتحنا ديوانيتنا في وجوه الناس لكي لا يدعوا علينا أحد . فقلت مولاي جمعت
فذاك بل ان هذه الديوانية قد سارت الركبان بنباها الى بلاد الغرب فأصبح شكرك
متلواً بكل لسان فمنذ يومين مررت بالديوانية وجعلت اتفقد غرفها المملاي بالضيوف
وبينما أنا كذلك واذا بثلاثة من بلاد الروس قد نزوا فيها واذا كانوا لا يحسنون
العربية تعذر عليهم التفاهم مع عاملك عليها فاستدعاني لترجمة فاذا بهم يحسنون الفرنسية
فأخذت بمخاطبةهم فقالوا لقد نزلنا هذا المسكان منذ الصباح وجاؤنا بنار وشاي وسكر

بشيء يستعين به على حوائجها فأنشد قصيدة فارسية قال في جملة أبياتها :
 هوامم بارد والاب سرداست تواضعهم خليفة خروب مراسست
 واعلم أن قرابة النسب اذا عريت عن مبادلة المنافع فسدت ولذلك قال العرب
 في أمثالهم « رب أخ لم تلده أمك » وقال أمير المؤمنين « لا خير في قرابة من دون
 مودة » وسئل أحد الأذكياء أيما أحب اليك أخوك أم صديقك؟ فقال أخي اذا كان
 صديقي فالقربي محتاج الى مودة والمودة مستغنية عن القربي
 وقال أمير المؤمنين عليه السلام أن أولى الناس بالانبياء أعلمهم بما جاءوا به ثم تلا
 « أن أولى الناس إبراهيم الذين اتبعوه وهذا النبي « الآية ثم قال عليه السلام ان ولي
 محمد من أطاع الله وان بعدت لحنته وان عدو محمد من عصى الله وان قربت قرابته
 ومثل هذا الحديث المرفوع « لا تأتوني بأعمالكم وتأتوني بأنسابتكم ان أكرمكم عند
 الله أتقاكم » وقال أبو فراس الحمداني .

كانت مودة سلمان له نسباً ولم يكن بين نوح وابنه رحم
 وقال شاعرنا الاطاعي :

ليس القرابة ان تنمى الى نسب
 ان القريب الذي يعنى بعترته
 بنافع للذوي القربي على الزمن
 في جلب منفعة أو مدفع الاحن
 وقال أمير المؤمنين عليه السلام « الكرم أعطف من الرحم » وقال مثل هذا

ونحن لا نملك الثمن وما نحن الا فقراء نقصد بغداد عسى أن نجد فيها عملاً يسد الهنذية
 والمسال الذي معنا بالكاد يكفيننا لنصل اليها فقات قروا عيناً أنتم هنا بضيانة أمير
 العرب الاكبر وسيدهم الاشهر قولوا كيف ونحن لا نعرفه؟ قلت انه يضيف الناس ولو
 كانوا لا يعرفونه ولكنكم أن تقيموا هنا ما شاء الله أن تقيموا ومتى أزمعتم على الرحيل
 اشترى لكم تذاكر السفر ونفحكم بالعطايا قالوا وهل يفعل ذلك مع كل الناس ولو
 كانوا من غير جنسه ودينه؟ قلت نعم قالوا اتنا ما عهدنا ذلك في أوروبا بأسرها قلت
 ان الكرم العربي الذي عظمة مولانا الشيخ المعز أفضل مثال له هو من مميزات هذه الامة
 النجبية ففرحوا ودعوا فقال مولانا اذن وجب علينا زيارتهم لتطيب خواطرهم وبالفعل
 شرف عظمته في اليوم التالي الديوانية وزار ضيوفه وفي جملتهم هؤلاء وكنت في الخدمة
 فجعلوا يشكرونه ويثنون عليه وهم يقولون مارأينا مثل هذا في زماننا ولا رآه قومنا
 قلت انه كرم العرب فانشروا نبأه في بلدكم ليعرف قومكم من نحن

أبو تمام لا بن جهم :

ألا يكن نسب يؤلف بيننا أدب أفتناه مقام الوالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد
ومن أمناك العرب « بعد الدار كبعد النسب » أي إذا غاب عنك قريبك فلم ينفعك
فهو كمن لا نسب بينك وبينه . وقال بعض الأدباء :

فما الحُدن إلا من صفا لك ودّه ومن هو ذو نصح وأنت مغيب
وقال آخر :

ولقد وصلت الناس ثم خبرهم وعرفت ما بلغوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تقرب نائياً وإذا المودة أقرب الانساب
وقال آخر :

كم من أخ لك لم يلده أبوكا وأخ أبوه أبوك قد يحفوكا
صاف الكرام إذا أردت إخوانهم وألم بأن أخا الحفاظ أخوكا
كم أخوة لك لم يلدك أبوهم فكأنما آباؤهم ولدوكا
لو جئت نحملهم على مكروههم بنحشى الخيوف بها لما خذلوكا
وقال آخر :

رأيت غريب الدار خيراً وإن نأى من المبعد الودّ القريب المناسب
وكم من أخ لم يدنه لك والد تراه كابن العم عند النوائب
وربّ بعيد حاضر لك نفعه وربّ قريب حاضر مثل غائب
وقال آخر :

أخوك أخو الحب الذي إن دعوته إلى حدّث ألقبته منك دانيا
وليس أخو القربى الذي إن دعوته إلى حدّث ألقبته عنك نائياً
وقال آخر .

تمك بوصول المظهر الوصل واجتنب لوصل سهواه من قريب وشاسع
فذر الودّ أدنى الناس منك قرابة فصله فما ودّ البيد بضائع
ولا تغترر بالودّ من ذي قرابة فما قرب ذي البغض النسب بنافع
فكم من بعيد صادق الودّ مخاص وذو رحم داني القرابة قاطع
وقال أمير المؤمنين عليه السلام « ربّ بعيد أقرب من قريب وقريب أبعد من

بعيد « وقال بعض البلغاء :

لعمرك ما يضرُّ البعد يوماً
إذا دنت القلوب من القلوب
وقلنا في هذا المعنى
إذا لم يكن عطفٌ وحبٌّ ورحمةٌ
فلا خير في القربى ولا خير فيهمُ
وكم من أخ أصفى فؤاداً على الولا
يواليك بالنعى وبالبؤس مخلصاً
وتلقاه في الحالين أفضل صاحب

ومن أمثال العرب ربّ ابن عم ليس بابن عم وهذا يحتمل معنيين أحدهما أن يكون شكاية من الاقارب أي ربّ ابن عم لا ينصرک ولا ينفعک فسكانه ليس بابن عم والثاني انه يريد ربّ انسان من الاجانب عن نسبک بهم بشأنک ويستحي من خذلانک فهو ابن عم معنى وان لم يكن ابن عم نسباً . وقالوا ان اخاک من واساک، وقيل لرجل ممن أنت ؟ قال ممن برني وهو على حسب قول الاعشى

فانّ القريب من يقرب نفسه
لعمر أيبك الخبير لا من تنسباً

وقال بعض البلغاء :

أأذلة کم من أخ لي أودّه
إذا ما التقيتم بربي أكيده
وأخر أحلى في التناوب ناره
يودّ لو اني كنت أول فاقده
عليّ كريم لم يلدني والده
ولكنني من عليه وزايدة
يباعدني في شأنه وأبائه
وأيضاً أودّ الودّ أني فاقده

ومن أمثال العرب « حميم الرجل وأصله » وذلك أن الخناس بن الابقع وكان سيداً في زمانه وأن رجلاً من قومه يقال له كلاب بن قارع وكان في غم له بحميتها فوقع فيها ليث ضار وجعل يحطمها فانبرى كلاب وجثم عليه الاسد فوافق ذلك من رجاله رجلان أحدهما يسمى الخنابر بن مرّة والآخر يقال له الحوشب وكان الخنابر حميم كلاب فاستغاث بهما كلاب فخاد عنه قريبه وخذله وأعان حوشب فحمل على الاسد وعارضه الاسد فأمكن سيفه من جفنيه فرّ بين الاضلاع والسكتفين نحرّاً صريماً وقام كلاب الى حوشب حتى أتى قومه وهو أخذ بيد حوشب يقول هذا حميمي دون الخنابر ثم هلك بعد ذلك فاختم الخنابر وحوشب فقال حوشب أنا قريبه وحميمه فلقد خذلته ونصرته وتطعمته فوصلته وصممت على ندائه فأجيبته واحتكما الى الخنابس وشهد القوم أن الرجل قال هذا حميمي

دون الخنابر فقال الخنابس عند ذلك « حميم الرجل وأصله » وقضى لحوشب بتركته
وصارت كلمته مثلاً

وعلى هذا فينبغي للعاقل أن يقتصر من أقواله وأفعاله على ما يفيد . قيل لأنوشروان
ما الذي لا خير فيه؟ قال من ضررتي ولم ينفع غيري أو ضررتي ولم ينفع غيري ولم أعلم فيه خيراً
وقال ابن حجر :

لا تفعلن شيئاً بغير فائده فأنما من السجايا الفاسده

ولما بشروا هشام بن عبد الملك بالخلافة سجد وسجد من حوله شكراً لله الا
البرش السكبي فقال له هشام ما منعك عن السجود؟ قال اني معك ليلاً ونهاراً وغداً
برتقي الى سماء المجد فلا أعود أراك قال أصعد بك معي فقال الان أسجد عشرين سجدة
وقال الشاعر :

إذا لم أزل في دولة الخلق غبطةً ولم تغشني احسانه ورعايته

فسيان عندي موته وحياته وسيان عندي عزله وولايته

وقال الحسن عليه السلام « لا تأتي رجلاً الا أن ترجو نواله أو تخالف يده أو ترجو
بركته أو تصل رحمًا بينك وبينه . وروى عن الأصمعي قال وجدني أبو عمرو بن العلاء
ماراً في بعض أزقة البصرة فقال الى أين يا أصمعي؟ فقلت لزيارة بعض اخواني فقال
يا أصمعي ان كان لفائدة أو عائدة فخذنا سيرك والافلاوا نشدني في ذلك شعر أليوسف الحلبي :

بأبها الاخوان أو صيكم وصيصة الوالد والوالده

لا تنقلوا الاقدام الا الى من اسكو عندم هو فائده

أما لعلم تستفيدونه أو الكرم عنده مائده

ومن كلام الأصمعي قوله « خير العلم ما اطنأت به الحريق وأخرجت به الغريق »
وروي عن بعض النبهاء انه قال « الجلساء ثلاثة جليس تستفيد منه فالزمه وجليس تفيده
فالزمه وجليس لا تفيده ولا تستفيد منه فاهرب عنه » ول بعضهم في هذا المعنى :

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً سوى الهذيان من قيل وقال

فأقلل من لقاء الناس الا لاخذ العلم أو اصلاح حال

ونقل ان أبا العيناء كان يختلف الى أبي الصقر وكان يمد به المال فقطع عنه العطاء
فانقطع عنه مدة ثم دخل عليه فقال ما أبطأ بك عننا؟ فقال ابنتي قال وكيف ذلك؟ قال
قالت لي كنت تأتينا قبل هذا بالجوائز السنية والحلج الفاخرة والان تأتينا بموهب وأصفر

اليدين بخنسي حين قال من تختلف ؟ فقلت الى أبي صقر قالت أفيرفع مجلدك ؟ قلت لا
 قالت أفيصغى الى حديثك ؟ قلت لا قالت أفنتفع منه لاخرتك ؟ قلت لا قالت يا ابت لم
 تعبد من لا يسمع ولا يبصر ولا يفني عنك شيئاً ؟ فأمر له بجائزة سنينة وكسوة ثمينة
 وقال احمل هذا الى ابنتك لثلاثا تقرّنا بقوارع القرآن ولم يقطع عنه العطاء بعد ذلك
 ودعا الرشيد البهلول ليضحك منه فلما دخل دعا له بمائدة فقدم عليها الخبز وحده
 فولى بهلول هارباً فقيل له الى أين ؟ فقال أجيئكم يوم الاضحى لعلّ عندكم لحمًا
 « النظر الى القول دون القائل »

واعلم أنه تشتط في تحصيل المنافع من النصائح النظر اليها مجردة بصرف النظر عن
 شخصية قائمها فقد قال علي بن الحسين عليهما السلام « لا تحقروا اللؤلؤة النفيسة التي
 تجلب من الامكنة الحسيسة فان أبي حدثني قال سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول « ان
 الكلمة من الحكمة لتلجج في صدر المنافق نزاعاً الى مظاهرها حتى يلفظ بها فيسمعها
 المؤمن فيكون أحق بها وأهلها فيلفقها » والله درّ من قال :

لا تحقرنّ الرأي وهو مطابقٌ حكم الصواب اذا أتى من ناقص
 فالدرّ وهو أجملُ شيء يقنى ما حطّ قيمته هوان الغائص

وحدث بعض العلماء بحديث فقيل له يا شيخ وعمن هذا الحديث ؟ قال وما صنع بعمن
 يا ابن أخي ؟ أما أنت فناتك موعظتنا وقامت عليك صحبتنا . وقال زياد أيها الناس
 ما يمنكم سوء ما ترون منا أن تنتفعوا بأحسن ما تسمعون عنا ؟ وقال بعضهم :

أعمل بعقلي وان قصرت في عملي ينفعك قولي ولا يضرك تقصيري
 وقال آخر

خذ من علومي ولا تنظر الى عملي أجن الثمار واخل الجذع للنار

وقلنا في هذا الموضوع :

بحقك عبد الله كن ناهياً ولا يفرّك ما يبدو على الناس ظاهراً
 فربّ كريم خانة الدهر فأنجلي بأهون ما يجلي العباد مظاهراً
 وربّ لثيم قد تظاهر بالولا فتحسبه اسمى الانام ما ترا
 وربّ مقال قاله اسفه الورى وكان سديداً بالغ النصح فاخرا
 فاضع لقول الحق لو جاء مبطلٌ به وانتم ما نبه تلق المفاخرا

الى القول فانظر دون قائله تفرز باحسن ما ينبغي العقول بالامر (١)

وجاء في مقدمة أقوم المسالك ينبغي تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين من
تأديهم في الاعراض عما يحمد من سيرة القوم غير الموافقة لشرعنا بمجرد ما انتقش في عقولهم
من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتب ينبغي أن يهجر وتاليهم في ذلك يجب
أن تنبذ ولا تذكر حتى أهم يشددون التكبير على من يستحسن شيئاً منها وهذا على
اطلاقه خطأ محض فان الامر اذا كان صادراً من غيرنا وكان صواباً موافقاً للدلالة فلا
وجه لانكاره واهماله بل الواجب الحرص على قبوله واستعماله وكل متمسك بدياته وان
كان يرى غيره ضالاً فذلك لا يمنعه من الاقتداء به في ما يستحسن في نفسه من أعماله
المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الدول الانرجية فانهم ما زالوا يقتدون بغيرهم في كل ما
يروونه حسناً من أعمالهم حتى بالغوا في تقويم نظام دنياهم الى ما هو مشاهد وشأن الناقد
البصير تميز الحق بمسبار النظر في الشيء المعروض عليه قولاً كان أو فعلاً فان وجدته
صواباً قبله واتبعه سواء كان صاحبه من أهل الحق أو من غيرهم فليس بالرجال يعرف
الحق بل بالحق يعرف الرجال والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها «

وتصديقاً لهذا نقول أن سلمان الفارسي لما أشار على رسول الله صلى الله عليه وآله
بان عادة الفرس أن يطوفوا مدنها بخنادق حين يحاصروهم العدو واتقاء هجومه عليهم أخذ
رسول الله برأيه وحفر خندقاً للمدينة في غزوة الاحزاب وعمل فيه بنفسه رغياً للمسلمين
وقال أمير المؤمنين عليه السلام « لا تنظر الى من قال وانظر الى ما قال » واذ اساغ للسلف

(١) أنشد عظمة المزم هذه الايات مخاطباً بها سموّ ولده الهمام الشيخ عبد الله وقد
جاءه يوماً يشكو له مؤدبه فيقول انه يقول لي كيت وكيت وهو يفع لي بالعكس كيت
وكيت فقال سموه يا بني أوصيك أن تنظر الى الاقوال دون الافعال ولا تحتقر بظاها
الرجال فرب درة بمزلة تنال وقل من طبق الانعال على الاقوال وانشده الايات المثبتة
في المتن الدالة على ما لعظمة شيخنا المحبوب من سديد الرأي وبعد مواقع النظر حفظه الله
وسموّ الشيخ عبد الله حفظه الله هو سادس أنجال عظمة مولانا الشيخ المعز الانجاب
وهو اليوم في نحو التاسعة عشرة من ربيع عمره ولكن هذه الحادثة كانت منذ عشرة
اعوام وكان وقتئذ في التاسعة من عمره وقد عهدناه من ذلك الوقت مثال الرزاة
والادب والذكاء كابن الثلاثين أو يزيد ولا عجب في ذلك فهو ابن عظمة المرردار
أقدس وحسب الابن سرأيه أداءه الله مع اخوانه النجباء في حمي أكرم الابه وأعظم الامراء

الصالح أخذ علم المنطق من غير أهل ملتهم وترجمته من اللغة اليونانية لما رأوه من الفنون النافعة لهم حتى قال الغزالي من لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه فأي مانع لنا اليوم من أخذ بعض المعارف التي نرى أنفسنا محتاجين إليها غاية الاحتياج ممن لا يدبر بديننا توصلاً إلى دفع المكاييد وجلب الفوائد

وبعد فأننا نرى كثيرين من الجامدين يقاومون فكرة الاسترشاد بالفرح في أمور هذه الدنيا من علم وعمل وهذا في الواقع مخالف لأصول ديننا الحنيف ولمصالحنا أيضاً فإن الله سبحانه وتعالى يقول « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وهذه الآية الشريفة ترمي بالعلم إلى العلوم الدنيوية والآخرى بحيث لا يمكن أن تتساوى مع الفرنجة في عزهم الدنيوية إن لم تتلق عنهم العلوم العصرية التي أوجبت آراءهم وعزائمهم معاً ولكن يقتضي أن تنقل عنهم من عاداتهم وآدابهم وعلومهم ما لا يخالف ديننا ولا ينافي عاداتنا وكذلك فعل الذين كانوا قبلنا من أمتنا حيث نقلوا علوم الفرس واليونان والسريان وبنوا عليها تمدنهم العربي الذي كان أساساً لتمدن الفرنجة الزاهر اليوم وهكذا الدهر دولات. وقد قال الله تعالى « وتلك الأيام نداولها بين الناس »

﴿ الاشتغال بما لا يعني ﴾

ان الاشتغال بما لا يعني قبيح عقلاً وشرعاً وهو يدل على التقص والفضول قيل كان للاحنف بن قيس جليس كثير الصمت فاستنطقه يوماً فقال أتقدر يا أبا بحر أن تمشي على شرف المسجد فقال الاحنف: سكت ألفاً ونطق خلفاً .
ومرّ بالشعبي سمع على ظهره دنّ خلّ فوضع الدنّ وقال ما كان اسم امرأة ابليس؟ فقال الشعبي ذلك نكاح ما شهدناه

وقال بعض العلماء كنت يوماً في مجاسي وأنا مقبل على تدريس أصحابي إذ دخل عليّ رجل قد ناهز الثمانين أو جاوزها فقال قد قصدتك في مسألة مهمة اخترتك لها فقلت أسأل عافك الله وظننته يسأل عن حادث نزل به فقال أخبرني عن نجم ابليس ونجم آدم ماهما؟ فإنّ هذين لعظام شأنهما لا يسأل عنهما إلا علماء الدين فعجبت وعجب من في مجاسي من سؤاله وبدر إليه قوم منهم بالاستخفاف فكففتهم وقت هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله إلا بجواب مثل سؤاله فاقبلت عليه فقلت يا هذا إن المتجمين ليزعمون أنّ نجوم أهل الأرض لا تعرف إلا بمواليدهم فإن ظفرت بمن يعرف مولد آدم وابلوس فاسأله فحينئذ أقبل عليّ وقال جزاك الله خيراً ثمّ انصرف مسروراً. فلما كان بعد أيام

عاد فقال ما وجدت الى وقتي هذا من يعرف مولد هذين . فانظر الى هؤلاء الناس كيف أبانوا عن نقصهم بالتكلف لما لا يعينهم واهتموا به اهتماماً عظيماً وكان من الحمقى عيسى بن صالح ولاء الرشيد قنسرين . قال بعضهم أتاني رسوله بالليل فامرني بالحضور فتوهمت ان كتاباً جاءه من الخليفة فلما وصلت قال ادخل فوجدته على فراشه فقال اني بت الليلة متفكراً في أمري قلت وما هو أصلح الله الامير؟ قال اشتبهت ان يصيرني الله حورية ويجعل زوجي يوسف الصديق فقال لذلك فكري فقلت فهلا اشتبهت أن يكون زوجك محمداً فإنه سيد الانبياء فقال لا تظن اني لم أفكر في هذا فاني قد فكرت ولكن كرهت أن اغيظ عائشة

ووقف نحوي على قصاب فقال له هذا من الضأن الفتي أم الماعز التي؟ فقال له القصاب هو من خيار الضأن فقال النحوي ذبحت لغرض أم لمرض؟ قال لا عتاش منه أنا وعيالي قال أفكان ذكراً ذا خصيتين أم انثى ذات حلبتين؟ قال كان ذكراً ينطح الحائط فيرميه قال أفكان يبيع الماء مجاً بشفتيه أم يمسه مصاً؟ قال كان يضع خرطومه في الماء ويشرب حتى يروي قال أفكان مرعاه الشيخ والعبيرزان أم العصف والريحان؟ قال كان برعى من نبات الارض قال سنت مديتك وحددت شفرتك وذبحته؟ قال جعلتها لو نزلت على رقية لبرئها أمرع من ملح البصر قال أفبدأت بالبسملة التي هي على وزن فيعلة وقيل على وزن فعلة؟ فقال القصاب لغلامه يا غلام هات الجلد حتى ابقره من وسطه واضعه في عنق هذا القرنان الذي عطلنا عن البيع وقطع رزقنا هذا اليوم فبادر الغلام ليأتيه بالجلد فأنهزم النحوي هارباً وهو يلتفت الى خلفه

وحكي عن الفضل بن الربيع قال قال لي الرشيد يوماً اطلب حججاً ما اسكت من الحجج فقلت ان لي حججاً ما سكونته فقال ابئنه لي فبئته وأكدت عليه بالسكوت وعدم النطق وان يتبها احسن حياة ثم دخلت بعد ذلك على الرشيد فوجدته عبوساً مفضباً فقال يا فضل ان لذلك شأناً وانك لن تر حججك بعد فلم ارد عليه شيئاً ثم سألت فراشاً مختصاً به عن خبره فقال ان حججك لما ابتداء بعمله قال يا امير المؤمنين اسألك عن شيء فقال ما هو؟ قال لم قدمت محمد الامين على المأمون والمأمون اسن منه؟ فقال ارد لك الجواب اذا فرغت فلم يلبث الا يسيراً حتى قال واسألك يا امير المؤمنين عن شيء آخر قال قل فقال لم اخترت الرقة على بغداد وبغداد اطيب هواءً وافضل مناخاً؟ فقال له جوابك عن ذلك اذا فرغت فلما فرغ دعا ممروراً خادمه وقال له لا تشرب

الماء البارديدون ان تقتله فانه يسألني عن امور لو سألتني المنصور عنها ما أحبته قال
الفضل فيينا أنا قاعد اذ دخل أبو دلامه على الرشيد با كياً وقد تواطأ مع ام دلامه على
ان يدخل على الرشيد وينعيها اليه وانها تذهب الى زييده وتعبه اليها فلما رآه الرشيد
با كياً قال له مالك تبكي فقال

وكنا كذا زوجي قضا في مفازة من الامن في عيش رخي وفي رغد
فشر دنا رب الزمان بصرفه ولم أر شيئاً قط أوحش من فرد
ثم أعلن التحجب والعمويل ثم قال يا أمير المؤمنين ماتت أم دلامه وأنا محتاج الى
تجهيزها فأمر له بمال وعزاه . وكانت أم دلامه دخات على زييده وهي با كية فقالت
لها ان أبا دلامه مضى الى سبيله وأنا احتاج الى مال لتجهيزه فاطمأنتها ما طلبت وعزتها
وذهبت وبعد قليل دخل الرشيد على زييده مغضباً من أسئلة الحجام وأخبرها بموت
أم دلامه فضحكت وقالت الان خرجت أم دلامه من عندي لتجهيز أبا دلامه قال
الفضل فخرج الرشيد علي وهو يقهقه بالضحك فعمجت منه دخل غاضباً وخرج
مسروراً فاستخبرته فحكى لي ما جرى فشفت حينئذ بالحجام فاطمأنته بعد ان كانت
منبته قاب قوسين أو أدنى

وحكي عن السندي بن شاهك قال بعث الي المأمون يريداً وأنا بخراسان فطويت
المراحل حتى اتيت بابه وقد هاج بي الدم فوجدته نائماً فأعلمت الحاجب بقصتي وقدمت
اليه عذري وما هاج بي من الدم وانصرفت الى منزلي فقلت احضروا لي الحجام قالوا
له محوم قلت فها تواتوا حجماً غيره لا يكون فضولياً فأتوني به فما هو الا أن دارت يده
على وجهي حتى قال جعلت فداك هذا وجه لا أعرفه فمن أنت؟ قلت السندي بن شاهك
قال ومن أين قدمت؟ فاني أرى أثر السفر عليك قلت من خراسان قال وأي شيء
أقدمك قلت وجه أمير المؤمنين الي يريداً ولكن متى فرغت سأخبرك بالقصّة على
وجزها قال وتعرّفتني المنازل والسكك التي جئت عليها قلت نعم فما هو الا ان فرغ حتى
دخل رسول المأمون ومعه كركي فقال ان أمير المؤمنين يقرؤك السلام وهو يعذرک
في ما هاج بك من الدم وقد أمرك بالتخلف في منزلك الى أن تغدو عليه ان شاء الله
ويقول ما أهدى الينا اليوم غير هذا الكركي فشأنك به قاله فالتفت السندي الى جلسائه
فقال وما يصنع بهذا الكركي؟ فقال الحجام يطبخ سكباجاً قال السندي فليطبخ كما قال
وحلف علي الحجام ان لا يبرح فحضر الغداء فتغذينا قال السندي ثم قلت يعلق الحجام

من العقبين فعلق فقلت له سألتني عن المنازل والسكك التي قدمت عليها وأنا مشغول في ذلك الوقت وهما ناديا أقص عليك الآن فاستمع: أخرجت من خراسان وقت كذا ونزلت كذا يا غلام اوجع فضربه عشرة أسواط ولم يزل يضربه لكل سكة عشرة حتى انتهى الى السبعين سوياً فقال لي الحجام باسيدي سألتك بالله الى أين تريد أن تبلغ؟ قلت الى بغداد قال لست اليها أن تيمنين قلت فأتراك على شرط أن لا تعود الى فضولك قال والله لا أعود أبداً قال فتركته وأمرت له بسبعين ألف درهم فلما دخلت على المأمون أخبرته الخبر قال وددت أنك بلغت به أن تأتي على نفسه الاخير وتريح الناس من ثرثرته وحكي أن سلطان الهند قال لرجل من أنقص الناس عقلاً؟ قال قرأت في الكتب ان من اسمه يحيى ويكون طويل اللحية ومعلم صياني فهو أنقص الناس عقلاً فقال له السلطان فتنش في هذا البلد لعلك تقع على من يجمع فيه هذه الصفات فتمتحنه حتى نرى صحة ما في الكتاب فسار الرجل وأخذ يفتش كما مر السلطان وبعد السعي الكثير وقع على رجل يطابق تلك الصفات فأتى به الى مجلس السلطان فأقعد مع الناس حتى يخرج السلطان فاتفق جلوسه على كرسي مشبك بالخيزران فأدخل احدي خصيتيه في فرجة من فرجه والاخرى في فرجة ثانية وهكذا أصبح لا يستطيع القيام ثم خرج السلطان فنهض الحاضرون وفيهم الرجل الا انه قبض على الكرسي بيديه وحمله واسرع الى السلطان للسلام عليه فقال لماذا تحمل الكرسي؟ فقال كنت جالساً بانتظارك فلاجل تضييع الوقت أدخلت خصيتي في فرجتي من فرج الكرسي وعندما حضرت لم أستطع اخراجها بسرعة فحملت الكرسي وأتيتك فما الذي تريده مني فأرسلت تطالبي؟ فضحك السلطان حتى استلقى على ظهره وقال حسبك فقد تم الامتحان

وكان في بني أسد مجنون يسمى لفدان فرمّ بقوم من تيم الله بن ثعلبة فعبثوا به فقال يا بني تيم والله ما أظن خيراً منكم قالوا وكيف ذلك؟ قال لان بني أسد ليس فيهم مجنون غيري وقد قيدوني وسلسلوني وأما أنتم فكلكم مجانين وليس فيكم مريد وقال المبرد دخلت دار المجانين فوفقت نباه احدهم وأخرجت له لساني فحول وجهه عني الى ناحية أخرى فجئت اليه وفعات مثل ذلك فلما أبرمته رفع رأسه الى السماء وقال انظر يارب من حلوا ومن ربطوا. وقال رجل ليهلول قد أمر الامير لكل مجنون بدرهمين فقال امض وخذ نصيبك لئلا يفوتك. وقلنا في هذا المعنى:

ومن عجيبي ان يرسل المرء قوله جزافاً بلا رجوى استسادة منغمه

واعجب منه أن يعاني مشقة بما لا يفيد الخير أو يجلب السعة
واعجب من هذا وهذا فعائل بلا غاية تحيي على ربهما الضعه
« تطوع الانسان لما لا يدعى اليه »

ومما يلحق بالفصل المتقدم تطوع الانسان لما لا يدعى اليه وهو نوع من الفضول
القبیح قالوا ثلاثة من الافعال هي من علامات الحمق: كثرة الالتفات من غير مناد ولا
متكلم وسرعة الجواب عن انسان والمسؤل غيره والضحك في غير محله . وقيل دخل
فضولي النار فقال الحطب رطب فقيل له: احترق واسكت .

ومن أمثال كليته ودمنه : زعموا ان غديراً كان عنده عشب وكان فيه بطتان وكانت
سلحفاة بجوارها بينها وبينهما مودة وصداقة فاتفق ان غيض ذلك الماء فجاءت البطتان
لوداع السلحفاة وقالت السلام عليك فاتنا ذاهبتان من هذا المكان لسبب نقصان
الماء عنه فقالت انما يعظم نقصان الماء على من كانت مثلي كالسفينه لا أفدر على العيش الا
بالماء فأنتم تقدران على العيش حيث كنتم فاذهبا بي معكما فاتنا لها حباً وكرامة قالت
فكيف السبيل الى حملي؟ قالت ناخذ بطرفي عود وتعلقين بوسطه ونطير بك في الجو
واياك اذا سمعت الناس يتكلمون أن تنطقي ثم أخذتاها فطارتا بها في الجو فقال الناس
عجباً سلحفاة بين بطتين قد حمتاها فلما سمعت السلحفاة ذلك قالت ففأ الله اعينكم
أيها الناس فلما فتحت فاهها بالنطق وقعت على الارض فماتت

وحكي ان طاهر بن الحسين قال لابي عبد الله المرزوي: منذ كم سرت الى العراق
يا أبا عبد الله؟ قال دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم قال يا أبا
عبد الله سألتك عن مسألة فأجبت عن مسألتين

وقال بعض الحكماء ثمانية اذا أهينوا فلا يلوموا غير أنفسهم من يأتي مائدة لم يدع
اليها . والمتأمر على صاحب البيت في بيته . والداخل بين الاتنين في حديث لم يدخله
فيه . والمستخف بالسلطان . والجالس في مجلس ليس له . والمقبل بحديثه على من
لا يسمعه . وطالب الخير من أعدائه . ومن يرجو الفضل من عند اللئام . وأخذ
الشاعر هذا فنظمه بقوله .

لا لوم في واحد منهم اذا صغما	يستوجب الصفع في الدنيا ثمانية
وداخل الدار تطفيلاً بغير دغا	المستخف بسلطان له خطر
وجالس مجلساً عن قدره ارتفعاً	ومنفذ أمره في غير منزله

ومتحفٌ بحديث غير سامعه وداخلٌ بحديث اثنين مندفعاً
وطالب الفضل ممن لا خلاق له ومبتغي الودّ من أعدائه طمعاً
ومن كلام بعض الحكماء لا تقعد حتى تقعد فاذا أفعدت كنت أعزّ مقاماً .
ولا تنطق حتى تستنطق فاذا استنطقت كنت الاعلى كلاماً . وعن أمير المؤمنين عليه
السلام أربع من خصال الجهل من غضب على من لا برضيه . وجلس الى من لا يرضيه .
وتفاقر الى من لا يفتيه . وتكلم في ما لا يعنيه . ولشاعرنا الانطاكي في هذا المعنى :

إذا كنت ذا رأي وحزم وفطنة فلا تك ما بين الأجابة مبتذل
ولا تدنُ ممن ليس يدنيك عن ولا ولا تظهر الاعسار يوماً لمن نخس
ولا تدخلن في شأن غيرك مرّة ولو كنت تبغى الخير في التول والعمل
واياك ان تسمي وتصبح غاضباً على صاحب لا يرتضيك على عجل
تصون بهـذا النفس عن هونها فلا تذلّ وتسمي في مقام به تجبل
واعلم انه لا ينبغي على العاقل أن يشير قبل أن يستشار الا عند مسيس الحاجة ولا
أن يتبرع بالرأي قبل ان يسأل الا عند الاضطرار فمن يتبرع فضولاً بشوره ورأيه
يتهم بالفرض فيطرح قوله وبمتنه . وانما يكون الرأي مقبولاً اذا كان عن رغبة وطالب
أو كان لباعث وسبب

وقال الاخنف ثلاث ما أقولهنّ الا ليعتبر بهنّ معتبر: لا أنلف جليسي بغير ما أحضر
به، ولا أدخل نقبي فيما لا مدخل لي فيه، ولا آتي السلطان أو يرسل اليّ . وقال ايضاً
ما دخلت بين اثنين قط حتى يدخلاني في أمرهما، ولا اجلس الا مجلساً اعلم اني لا اطرد
منه، ولا أقف على باب اخاف ان احجب عن صاحبه .

أقول فاذا عرفت هذا أيها القاريء اللبيب فإلم ان العاقل هو ما اقتصر على ما يعنيه
واجتنب ما لا يعنيه . ومن الامثال قولهم « الحزم حفظ ما وليت وترك ما كفيت »
وقال أبر هلال « لا أعرف شيئاً أشد على الاحق من تركه ما يعنيه واشتغاله بما
لا يعنيه على ان فيما يعني شغلاً عما لا يعني » . قال الشاعر :

يكفي الفتى ما كان من شأنه وتركه ما ليس يعنيه
وقلنا في هذا المعنى :

ان اخا الحزم الذي قد أبي ان يشغل النفس بأمر السوى
ويعتني في أمره راشداً بالعقل لا يسعى بسبل الهوى

وقيل كان في مجلس مالك بن أنس جماعة يأخذون عنه العلم فقال قائل قد حضر
فيل نخرج أصحابه كلهم لرؤيته الا يحيى بن يحيى الليثي الاندلسي فانه لم يخرج فقال له
مالك لم لا نخرج لترى هذا الخلق العجيب فانه لم يكن في بلادك؟ فقال انما جئت من بلدي
لانظر اليك واتعلم من هديك وعلمك ولم أحيى لانظر الى القيل فأعجب مالك به وسماه
عاقل أهل الاندلس

وروا عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه خرج يوماً لاصحابه وهم يتجادلون
ويتخاصمون فغضب عليهم حتى كأنه فقيء بوجهه حب رمان حمرة من الغضب وقال
ألهذا بعثتم أم بهذا أمرتم؟ أن تضربوا كتاب الله ببعضه ببعض انظروا الى ما أمرتم به
فاعملوا وما نهيتم عنه فانتهوا

ومن الامثلة على دخول الانسان في مالا يعنيه ما روي عن لقمان قال دخل على داود
وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك فجعل يتعجب مما رأى فأراد أن يسأله عن
ذلك فمنعته حكيمته فأمسك نفسه فلما فرغ منها داود قام ولبسها ثم قال عليه السلام
نعم الدرع للحرب فقال لقمان الصمت حكمة وقليل فاعله

وقيل للقمان الحكيم ما حكمتك؟ قال لا أسأل عما كفت ولا أتكلف مالا يعنيني
وقال رجل للاحنف بما سدت قومك؟ فقال بتركي من أمرك مالا يعنيني كما عنك من
أمرني مالا يعينك .

وقيل مر بجاسع بن مسعود السلمي بقرية من قرى كerman فسأل أهلها كيف
أميركم؟ فأشاروا اليه اذ رأوه وضحكوا منه وكان ذليلاً وازدروه فلعنهم وقال ان أهلي
لم يريدوا محاسنتي وانما ارادوا المدافعة عني

وحكي أن السلطان محمود كان قبيح الصورة فنظر يوماً في المرأة الى وجهه فغضب
ورمى بها فقال له وزيره ما سبب غضب جلالتك فخسكي له ما أغضبه من رؤية قبيح
صورته في المرأة فقال الوزير ان المقصود من حسن الصورة أن يكون صاحبها محبوباً
من القلوب والسلطان اذا كان حسن السيرة عادلاً في الرعية يكرن محبوباً من قلوب رعاياه
مع انه لا يراه الناس الا نادراً

وقيل لسقراط ان السلام الذي قتلته لاهل مدينة كندا لم يقبلوه فقال لا بهمني أن
يكون مقبولاً وانما بهمني أن يكون صواباً

وأما السبب الباعث على اشتغال الناس بما لا يعنيههم فهو الحرص على معرفة ما لا حاجة

الى معرفته من قبيل حب الاطلاع أو المباشطة بالكلام لقتل الوقت . قال بعض البلغاء

سهوت وغرني أملي وقد قصرت في عملي
ومنزلة خلقت لها جعلت لغيرها شغلي
يظل الدهر يطلبني وينحوني على عجل
وأيامي تقربني وتدنيني الى أجلي

وحكي ان الاسكندر ذهب الى أفلاطون فوجده في مشرق الشمس وقد اسند ظهره الى حائط فقال له الاسكندر هل من حاجة قال حاجتي أن تزيل عني ظلك فقد منعت عني أشعة الشمس . ونجعل ختام هذا الفصل نصيحة أمير المؤمنين عليه السلام وهي « أقصر رأيك على ما يعينك »

« التكنيف لما ليس من الشأن »

يقال في الامثال لكل مقام مقال ولكل زمان دولة ورجال وهذا يخرج عن موضع هذا المقال فان العاقل يجب أن يطبق أعماله على حالتي عمره وحالته ملاحظاً في ذلك قدر نفسه كي لا يهان

واعلم زادك الله علماً ان لكل وقت من الاوقات أدب لازم . ولكل زمن من أزمان العمر عمل راتب حازم . فيجب على الانسان أن يجذب وهو في سن الكهولة ما انتاده في سن الصبوة والشباب من المزاح والضحك والاسترسال في اللعب الى آخر ما يزين الصبي والشباب وينقص في الكهولة التي هي مفتاح سن الكمال . قال بعضهم

يا لابساً ما لا يليق لقد عدلت عن الطريق
ان المفارق زيه بلقت في الدنيا خليق
لا سيما ان كان في أواج صوته غزيق
كيف التظاهر بالعفا فوانت معلوم الفسوق

وفي حديث الاصبح بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام « للمسرف ثلاث علامات : يأكل ما ليس له ويشترى ما ليس له ويلبس ما ليس له » ومعنى هذا القول أن المسرف « يأكل ويشترى ويلبس فوق طاقته فساكنه يأتي هذه الامور الثلاثة وهي ليست له . وفي الدروس المروءة تزيه المرء نفسه عن الدنيا التي لا تليق بأمثاله كالحزء بالناس وكشف العورة التي يتأكد استحباب سترها في الصلاة والاكل في الاسواق والتزيين بما لا يليق الى غير ذلك مما لا يخفى على اللبيب

وليعلم العاقل ان اكل حين من احيان عمره خلقاً ولكل وقت من اوقات دهره عملاً فان مخلوق في كبره بأخلاق الصغر وتعاطى أفعال الفكاهة والبطر استصغره من هو أصغر واحتقره من هو أحقر وقد قال الله سبحانه «ومن يهن الله فليس له من مكرم» وكان المعنى بقول الشاعر :

قل للذي يخرج عن شكله ليرتقي أسباب أوعار
كيف ترجي أن تنال العلى ولم تبال الدهر من عار
من فارق الممهود من زيه فذاك لا كاسي ولا عاري

وقال آخر :

من تردى برداء مارآه لأبيه
سوف يأتيه زمان يتمنى الموت فيه

ومن أمثال العرب « شبّ عمرو عن الطوق » يضرب مثلاً لتزويج الكبير بزي الصغير والمثل لجذيمة الابرش في عمرو بن عدي وكان عدي ينادم جذيمة فعشقتة رقاش أخت جذيمة فلما خشيت الفضيحة قالت اذا سكر الملك فأسأله أن يزوجك مني ففعل فسمح بذلك ودخل عليها من ليلته وأصبح هارياً من جذيمة فلما استبان حملها قال جذيمة :

حدثيني رقاش لا تكذبيني أحرّ حملت أم لهجين
أم لعبد فأنت أهل لعبد أم لدون فأنت أهل لدون

فقال حملت ممن زوجتني منه فولدت عمرو ففقد مرة ثم ظفر به مالك وعقيل القيسيان فأتيا به الى جذيمة فحكهما فسألاه منادته فأجابهما اليها وأرسل عمرأ الى أمه فزينته وألبسته طوقاً فقال جذيمة « شبّ عمرو عن الطوق »

واعلم أن الازياء تختلف باختلاف أصحابها بالمرتبة والعمر والثروة فان عدل الموسر الى زي المعسر كان شحاً وبخلاً وان عدل الرفيع الى زي الوضيع كان مهانة وذلاً وان عدل المعسر الى زي الموسر كان تبذيراً وسرفاً وان عدل الدني الى زي الرفيع كان جهلاً وتخلفاً ولزوم العرف الممهود واعتبار الحد المقصود أدل على العقل وأمنع من الذم ولذلك قالت العامة في أمثالها « كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس » وقال الشاعر :

ان العيون رمتك اذ فاجأتها وعليك من خزّ اللباس لباس
أما الطعام فنكل لنفسك ماتشا والبس لنفسك ما اشتباه الناس

واعلم أن التقليد الاعمى في الملبس والمأكل وأسباب الممايش الاخرى هو الذي يقصم ظهور الناس وهذا اذا كان تأثيره قليلا في بلاد العراق لميل الناس الى البساطة في معاشهم. فان تأثيره عظيم في البلاد التي أخذت قسطها من النمدن الافرنجي فقد حدثنا كثيرون ممن جاسوا بلاد الفرنجة و مصر والشام والهند بان أوساط الناس هناك هم من أتعس الناس اذ يكسبون اليسير ويضطرون الى انفاق الكثير تشبهاً بالاغنياء الموسرين وأصحاب الوجاهة والمكانة ولذلك لارى بينهم الا من يشكودهره . وقال في ذلك شاعرنا الانطاكى :

حالي كما شنت العواذل فاعذروا حال الفقير وقد تظاهر بالغي
رزقي أقل من القليل وعيشتي كالاغنياء ولست أدري من أنا
هذا هو التقليد والموت الزؤا م وانه والله عيش بالعبا
قالوا الظهور وأحسنوا قسم الظهو ر الأترو فديتمو ظهري أنحنى

ويظن الواهمون ان هذا التقليد الاعمى من المروءة أو التجرد أو عزة النفس بحيث يظهر الانسان بين اخوانه انه بنعمة ويسار ويخفي عنهم حقيقة ما هو عليه من الاعسار وقات مثل هؤلاء ان من تعدى طوره وتجاوز قدره كان عرضة لجزء الناس وأبعث على ذمهم له واحتقارهم اياه . وقد قال في ذلك المتنبي :

لا يمجيبك نظيماً حسن بزائه وهل بروق دفيناً جودة الكفن
وقال آخر :

البس لكل حالة لبوسها اما نعيمها واما بوسها
ومن الامثال على التقليد الاعمى ما زعموا أن قرداً رأى نجاراً يشق خشبة بين وتدين وهو راكب عليها فأعجبه ذلك ثم ان النجار ذهب لبعض شأنه فقام القرد وتكلف ما ليس من شغله فركب الخشبة وجعل ظهره قبل الوتد ووجهه قبل الخشبة فتدلت خصيتاه في الشق ونزع الوتد فلزم الشق عليهما فخرم غشياً عليه ثم ان النجار واقاه فرآه على هذه الحال فأقبل عليه يضربه فكان ماتى من النجار من الضرب أشد مما أصابه من الخشبة

ومن أمثال العرب « ذهب الحمار يطلب قرنين فعاد مصلوم الاذنين » قال الثعالبي بزعم العرب في أحاديثها ان حماراً وثوراً كانا على معلف وكان الثور ينطح الحمار فيمنمه طعامه فأصبح الحمار هزولاً فاشكى ذلك الى بعض اخوانه فقال انك لوأكلت كثيراً حتى سميت

نبت لك قرنان فقدرت على مناطقحة الثيران فترصد السمار غفلة أصحاب احدى المزارع
واقبل يا كل من عشبها فأخذ وصلمت أذناه

وقال البيهقي كان لرجل من الاعراب ابنة و غلام فراود الغلام الصبية فوعدهته
ليتها وأعدت له شفرة ووجدتها فلما جاء في المياد بدرته الصبية بشفرتها فزقت أحشاه
وخرج يموي فسمعه مولاة فقال من فعل بك؟ قال ابنتك فدخل عليها وسألها الخبر
فقال يا أبت ان العبد من نوكة يشرب من سقاء لم يركه ومن ورد غير مائه صدر بمنل
دائه فقال لها لاشلل

وقال المبرد كان يسار الكواعب عبداً لانس من بنى الحرث بن سعد بن قضاة
وكان راعياً في ابهام فبعث ببعض نساءهم وكان اسود فخرعته امرأة منهم وواعدته ليوم
فعلم به بعض أصحابه من الرعاة فنهاه عنها وقال له يا يسار كل من لحم الحوار واشرب
من لبن العشار ودع عنك بنات الاحرار . فقال له يسار اني اذا جئت زحكت أراد
ضحكت ولاعبتها فلاعبتني وانبعطت فأتاها في موعدها فقال مكانك حتى أطيبك فعمدت
اليه فبذعت أنفه وصلمت أذنه فرجع الى صاحبه الذي كان قد نهاه فأنكره وقال من أنت وبيك
قال يسار قال فيسار كان له أنف واذنان قال فما ترى ويحك وييض الينين فذهب
قوله مثلاً وسمي يسار الكواعب

ومن أمثالهم على لسان الحيوان ما زعموا من أن خنفسة قالت مرة لنحلة لو أخذتني
معك لست مثلك وأكثر فأجابتها النحلة الى ذلك ولما لم تقدر على وفاء وعدها ضربتها
بمحمتها وفيها هي تموت قالت في نفسها لقد استوجبت ما نالني من السوء فاني لأحسن
عمل الزفت فكيف بالعسل

واعلم أنه كما ينبغي للانسان أن لا يتكاف ما ليس من شأنه كذلك ينبغي أن
لا يكلف غيره ما ليس من شأنه أيضاً والا فقد نادى على نفسه بالنقص
من ذلك أن رجلاً شهد حلقة الشعبي فلما قام قال له اني أجد في قفاي حكياً
أفترى لي أن احتجم؟ فقال الشعبي الحمد لله الذي نقلنا من الفقه الى الحجامة
وحكي أنه تنبأ رجل فجاءوا به الى المأمون فسأله عن معجزته فقال ماشئت وكان
بين يديه قفل فقال خذ هذا القفل فانفتح فقال له أصلحك الله لم أقل لك اني حداد
فضحك المأمون واستتابه وقال الشاعر :

جسد القفل فأراد يمشي مشيها فاجابه ضرباً من العيسال

﴿ الروضة الثانية ﴾

(في جهة الشرائط)

اعلم أن الشروط الواجبة لمعاينة الامور كثيرة والمنتيرة منها هي المعرفة والقدرة
والامكان

« المعرفة »

أما المعرفة فان معاينة الامور بدونها اضرار بالنفس واذلال لها وأنت تعلم أن كل
أمر من الامور حقيرها وجليلها يحتاج الى معرفة لا بد منها وبدونها يكون العمل
ناقصاً وهذا شرب الماء على سهولته اذا لم يكن المرء عارفاً بكيفية تناول الكأس وادائه
من فمه لئلا يثابه ماءً بدون أن يروى كما ترى في الصبي المترعع عند ما يتناول كأس
الماء ويحاول أن يشربه فتتداركه أمه وتعيه على تعلم مسك القدح حتى يتقن عمله هذا
الذي تراه أنت بسيطاً

ومن أمثال العرب « لا تقع في البحر الا وأنت سابح » يضرب لمن يباشر أمراً
لا يحسنه . وفي الاثر نظر حكيم الى معلم رديء الكتابة فقال له لم لا تعلم تلا ميسذك
المصارعة؟ قال لا أحسنها قال هوذا أنت تعلم الكتابة ولا تحسنها وقال بعض الادباء :
ان تكن ناسكا فكن كأويس أو تكن شاعراً فكن كابن هاني
كل من يدعي بما ليس فيه كذبه شواهد الامتحان

ومن الفكاهات ما قيل سمع الحسين بن علي عليه السلام رجلاً على كرمي يقول سلوني
عما دون العرش فقال له الحسين يا هذا شعر لحيتك زوج او فرد؟ فسكت متحيراً ثم قال
أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله أنه زوج لقوله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين »
وقال مقاتل بن سليمان وقد داخله زهو العلم سلوني عما تحت العرش الى اسفل من الثرى
فقام اليه رجل من القوم فقال ما نسألك عما تحت العرش ولا اسفل الثرى ولكن نسألك
عما كان في الارض وذكره الله في كتابه العزيز فأخبرنا عن كلب أهل الكف ما كان
لونه؟ فأخذه . وروي أن مقاتل بن سليمان جلس يوماً فأعجبه نفسه فقال سلوني عما
دون العرش فقال له رجل آدم لما حج من حلق رأسه؟ وقال آخر أمعاء الزملة في
مقدمها أم في موخرها؟ فلم يدر ما يقول ثم قال هذا ليس من عملكم ولكن أعجبني
نفسى قابليت

ودخل اعرابي بلداً يوم جمعه فقبل له أدخل الحمام وانغسل وتطهر فدخل حماماً

فزلفت رجله ووقع فانشج رأسه وسال دمه وهو ينشد
 وقالوا تطهر انه يوم جمعة فرحت من الحمام من غير مطهر
 تزودت منه شجتين بمفرقي بفلسين يا خسران ما كان متجري
 وما محسن الاعراب في السوق مشيها فكيف بأرض من رخام ومرمر
 ومن أمثال كليله ودمنه زعموا أنه كان في بعض المدن طبيب له رفق وعلم وكان ذا
 فطنة فيما يجري على يديه من المعالجات فكبر ذلك الطبيب وضمف بصره وكان لملك
 تلك المدينة ابنة فزوجها لابن أخ له فعرض لها ما يعرض للحوامل من الاوجاع فجيء
 بهذا الطبيب فلما حضر سأل الجارية عن وجهها وما تجد فأخبرته فعرف داءها وقال
 لو كنت أبصر لجمت الادوية على معرفتي بأجناسها ولا أتق في ذلك بأحد غيري وكان
 في المدينة رجل سفيه فبلغه الخبر فأتاهم وادعى علم الطب وأعلمهم انه خبير بمعرفة اخلاط
 الادوية والعقاقير عارف المفردة منها والمركبة فأمره الملك ان يدخل خزانة الادوية
 ليأخذ من أخلاط الدواء حاجته فلما دخل السفينة الخزانة وعرضت عليه الادوية وهو
 لا يدري ما هي ولا له بها معرفة أخذ في جملة ما أخذه منها صرة فيها سم نافع وخلطه
 في الادوية وسقى الجارية منها فماتت لوقتها فلما عرف الملك ذلك دعا بالسفيه فسقاه من
 ذلك الدواء فمات لساعته .

وحدثنا شاعرنا عبد المسيح الانطاكي قال استدعى الشاعر المعروف جبرائيل
 الدلال الحلبي حلاقاً ليحلق لحيته فألمه وجرحه فنظم فيه هذين البيتين
 يابئس حلاق بليت به اذاقني مر العذاب الأليم
 يمينه كالطور نقلاوفي بنانه موسى وخدي الكليم
 وفي البيت الثاني من الاستعارة ما يطرب الالباء . وقلنا في هذا المعنى :
 لا تبشر عملاً نجبه خوف خسران وذل وهوان
 وارجمن في كل أمر للألى يحسنون الصنع عند الامتحان
 كل أمر من أمور الناس في هذه الدنيا له سر يبان

(القدرة)

واعلم أن القدرة على ما تريد من الاعمال شرط لازم لها وبدونها يظهر عجزك
 ويضيع تعبك وما تنفق سدى فانك لو أردت مثلاً أن تشتري حقلاً أو جريباً من
 النخيل يجب أن تنظر الى ما عندك من المال لترى هل في قدرتك مشتري ما تريد

أم لا وكذلك إذا أردت أن تحمل حملاً فانظر إلى نفسك هل تطيق ذلك الحمل أم لا
وهلم جراً

قال رسول الله صلى الله عليه وآله « لا يحل لمؤمن أن يذل نفسه بأن يتعرض
من البلاء إلى ما لا يطيق » وقال أبو أمامة « من آذى الناس بلا سلطان فليصبر على
الهوان » وقيل « من خاصم بغير حجة وقتل بغير نجدة وصارع بغير قوة فقد أعظم
الخطر واكثر الضرر » ومن أمثال العرب قولهم « عند النطاح يغلب الكباش الاجم »
يضرب مثلاً للرجل يمارس الأمور بغير عدتها فيخيب والاجم الذي لا قرن له . ومن
أمثال كليله ودمنه يقال « أن من لا يعرف نفسه وعدوه وقاتل من لا يقوى عليه
حمل نفسه على حتفها » :

ومن أمثال العرب على لسان الحيوان زعموا انه وقع بين السنور والارانب حرب
قضت الارانب إلى الثعالب تسومها الحلف والمعاضدة على السنور فقالت لها لولا انا
عرفناكم ونعلم من تحاربون لفعلنا . ويقال أن الفرزدق مر بالفضل وهو يستقي وينشد
من يساجلني يساجل ما جداً . يملأ الدلو إلى عقد الركب
فزع الفرزدق ثيابه عنه وقال أنا أساجلك قال هذا ثقة بنسبه فقيل له هذا الفضل بن العباس
بن عتبة بن لثب فرده الفرزدق ثيابه عليه وقال ما يساجلك الا كذوبك وقال بعض النبلاء :
هي العنقاء تكبر ان تصادا . فساند من تطيق له غدا

وسأل أحد الابناء أباه وكان حكيماً ما الرفق ؟ قال ان تكون ذا أناة فتلاين الولاية
قال فما الحق قال ؟ ما اداة امامك ومنازاة من يقدر على ضررك . وقالت الحكماء « مغضب
القادر كمجرب السم في نفسه فان هلك فقتيل حرق وان نجح فطابق حرق » . وقالوا
الا استبد بتديرك ولا تستخف بأميرك فمن استبد بتديره ذل ومن استخف بأميره
ذل وقيل . من تعلق بنخصم هو أقوى منه فقد سعى في هلاك نفسه برجله ووضع تراب
لدمار على رأسه بيده . وقال شاعرنا الانطاكي في واقعة حال :

تجاوزت في هذه الحماقة حداها وأنت تسمى ياسفيه سليمان
فهل كنت كفواً للذي دون فضله سيوف ومن حويله صحب وأعوان
وما فيهمو الا المنادي بنفسه ليسلم من في فضله المجد ينصان
فيهنك خذلان ويهنك حطمة وهنك اذلال ويهنك خسران
وكنت كوعلى يضرب الصخر قرنه ويكسره والوعلى مثلك جيوان

وقال الحارث بن همام حين قتل أخوه أبو جهل يوم بدر وآثر الفرار وغيره
على فراره :

الله يعلم ما تركت فتألم حتى علوا كرشى بأشقر مربد
وشممت ريح الموت من تلقائهم موتاً ولا يؤذي عدائي شهدي
ففررت منهم والاحبة فيهمو طمعاً لهم بآياب يوم مفسد
وذكروا ان أحد الاكاسرة كان يسمع حكيم العرب وأقوالهم ويروي أشعارهم
وأمثالهم فلما سمع هذا الشعر قال قاتل الله العرب لقد حسنوا كل شيء بأشعارهم حتى
حسنوا الفرار بهذا القول فلم يعد مكروها كما كان . ومن أمثال العرب « اذا رأيت
الرييح عاصفاً قطامن » أي اذا رأيت الزمان غالباً لك فاخضع له وقال أبو الطعمان
بني اذا ما سامك الضيم قاهر عزير فبعض الذل أوقى وأحرز
ولا تخش من بعض الامور تعزراً فقد يورث الذل الكثير التعزراً
ومن مثله قول صاحب كلية ودنه « لا يرد العدو القوي بمنزلة الخضوع له ومثله
مثل الريح العاصف يسلم منها المشب اليه لها واثنائه معها وتقص فيها الاشجار الضخمة
لاتصابها » وقال بعض الاذكياء :
ومن يتشبث بالعداوة كفه با كبر منه فهو لا شك هالك
وما مثل هذا الامثل النملة الحفيفة التي نبتت لها أجنحة خفيفة فتجر كما دواعي
الطيران فتصوّر أنها أصبحت كالنسور والعقبان وبمجرد ما ترتفع من الترى الى الهواء
تلتقمها عصفورة أو تحطفها أصغر الطيور وقد قال في ذلك الشاعر
اذا ما أراد الله اهلاك نملة سمعت بجناحها الى الطيران
وقال أحد الادباء في هذا المعنى :
يقول لك العقل الذي استوضح الهدى اذا انت لم ترد العدو فداره
وقبل يدالجاني الذي لست واصلا الى قطعها وارقب سقوط جداره
وهذا من قول العامة « اليد التي لا تستطيع ضمها فقبها » وقال آخر في هذا المعنى :
اذا ما عدوك يوماً سها الى حالة لم تطق وضعها
فقبيل ولا تأنن كفه اذا أنت لم تستطع قطعها

تمة

وقلنا في تكليف الناس فوق طاقتها ما نجمله خاتمة لهذا المقال :

بني خذوا للامر عدته ولا هموا بأمر لانطبقون فعله
 فما كلف الانسان من فوق وسعه اذا باشر الفرض الوجيب ونقله
 وما الفضل في الاقوال ان لم يتمها بافعاله من رام يشهر فضله
 وبعد فان الانسان اذا كلف نفسه ما تطيق عجز عن القيام بما تكلف على التحقيق
 وقد قيل ما الحيلة فيما أعبي الا الكف عنه ولا الرأي في مالا ينال الا اليأس منه وقد
 قال الشاعر:

وانزل اذا لم تجد المر تقى سيباً فباسق العود برجو نازل السيل
 ومن أمثال العرب « اذا ادعيت الباطل الحبح بك » يضرب لمن يدعي الباطل
 فيدال منه وأصله ان امرأة من العرب كانت تحت شيخ فرأت شباناً ينتعلون وهم قيام
 فتمننت أن تكون لاحدهم فقالت حبذا المنتعلون من قيام فقال زوجها أنا أتعمل قائماً
 فلما باشر ذلك شرط فقالت المرأة « اذا ادعيت الباطل ألحح بك » أي خصمك
 فضرب قولها مثلاً

ومن أمثالهم « أرق على ظلمك واقدر بدرعك » يقال للرجل الذي يجاوز طوره
 في الامر ومعناه ارفق بنفسك فانك ظالم لا تحمها مالا تطيق وذلك لان الظالم لا يكلف
 بما يكلف به الصحيح وقولهم اقدر بدرعك أي تسكف ما تطيق ونحوه قال الشاعر:

فاعمد لما تقوى فمالك بالذي لا تستطيع من الامور يدان

وقال عمرو بن معدى كرب
 اذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع
 وقال الخليل كان يتردد الى شخص بليد يعلم العروض ولم يعلق بخاطره منه شيء
 فقلت له يوماً قطع هذا البيت « اذا لم تستطع ألح » فشرع في تقطيعه ثم نهض ولم يعد
 فتعجبت من فطنته مع بلادته

ومن أمثال العرب « اشقي من راعي الضأن وهي ثمانين » لان الضأن تنفر من كل
 شيء فيحتاج راعيها الى جمعها في كل وقت خلافاً للابل التي تتعشى فتربض
 واعلم انه كما يقبح التكليف للنفس مالا يستطيع من المشاق كذلك يقبح تكليفها
 لاما يستطيع من الاتفاق قال حبيب بن ثابت ما احتجت الى شيء استقرضه الا واستقرضته
 من نفسي. أراد انه يصبر على نفسه في عمره الى يوم يسره . ومثل هذا قول الشاعر:

واذا غلا شيء علي تركته فيكون ارضخ ما يكون اذا غلا

ولبعضهم في مثل هذا المبنى :

إذا شئت أن تستعرض المسال، نفاقاً
على شهوات النفس في زمن العسر
فسل نفسك الأقرض من كنز صبرها
عليك وانظراً إلى زمن اليسر
فإن فعلت كنت القسي وان أبت
فكلّ منوع بعدها واسع العذر
ومثله أيضاً

لا كلف الله نفساً فوق طاقتها ولا تجود يد إلا بما تجود

وقال شاعرنا الانطاكى يعتذر عن كثرة انفاقه فاجاد :

ما احتيالي ومصر تطلب مني أن اكون بالبذل في مثل حاتم

وقعود بالبيت تطلب مني كل شيء تقول ذلك « لازم »

وصغار لم يعرفوا غير هاتوا للملاهي مع الكسا والمطاعم

وظهور في الناس هذا فلان فاقصدوه لئيل جمّ المغاسم

فاعذروني لا أنفق القرش الا لدواعٍ قهارةٍ ورواغم

واعلم أن العجز وعدم القدرة من الاعذار العقلية والشرعية والعرفية فمن أمثال

العرب « بيتي يبخل لا انا » يريد أن ليس من اخلاقه البخل ولكن ليس في بيته ما

يجبوه به . وقال بعض الاذكياء

يرى المرء أحياناً اذا قلّ ماله من الخير ابواباً فلا يستطيعها

ولم يك ذا بخل ولكن ماله يقصّر عنها والبخيل يضيعها

ومن أمثال العرب قال الجدار للوتد لم تشقني قال سل من يدقني . ومن أمثالهم

على ما زعموه على لسان الحيوان: وقف جدي على سطح فرّ به ذئب فشتمه فقال له

الذئب ليس أنت الذي تشتمني ولكن يشتمني مكانك

ومن الاعذار المقبولة الاضطرار في ما لا مفر منه قال الخطيب في أربعين ان امرأة

شهد عليها الشهود أنهم وجدوها في بعض مياه العرب مع رجل يطأها ليس يبعل لها

فامر عمر برجمها فقالت اللهم أنت تعلم اني بريئة فغضب عمر وقال وتجر حين الشهود

أيضاً فامر أمير المؤمنين عليه السلام ان يسألوها فقالت كان لاهلي ابل فخرجت في ابل

أهلي وحملت معي ماءً ولم يكن في ابي لبني وخرج معي خليط وكان في ابله لبن فنقد

مائي فاستسقيته فابي أن يسقيني حتى أمكنه من تقسي فابيت الى ان كدت أهلك ظمأً

فأمكنته من تقسي خوف الهلكة . فقال عمر الله أكبر فمن اضطر في محضمة غير متجانف

لائم فلا أم عليه

وفي قصص العرب يحكى أن بائعة ابن كانت جميلة فررت يوماً على شاب طائش فأراد أن يواقعها فطلب منها فأبته فاحتال عليها بأن تظاهر بأنه يريد أن يبتاع منها لبناً ولكن بعد أن يفحصه . ففتح نجياً وذاق اللبن ثم قال لها امسكي فم النحوي حتى أخض آخر ، وحاذري ان يندسك اللبن على الارض ثم فتح نجياً ثانياً وفعل كما فعل بالاول . فلما رآها قد أمسكت بكلتا يديها فم النحيين تمكن من مواطأتها قهراً لان خوفها على اللبن وهي فقيرة جعلها تمتثل صاغرة حتى قام عنها وساعدها على سد فم النحيين (القربتين) فضربت العرب مثلاً « أحيير من ذات النحيين » . وفي هذا يقال الضرورات تبيح المحظورات

﴿ الامكان ﴾

ومن شروط اتيان الامور أن تكون في حيز الامكان فان كان الامر ممتعاً أو مستحيلاً فلا معنى للتعني في سبيله والتكلف لاجله ولا عجب اذا كان السعي مثله خائباً

قال أمير المؤمنين عليه السلام « من لا يعرف لا حتى يقال له لا فهو أحق » وقال بعض العقلاء مارددت عن حاجة قط فقيل له وكيف ذلك ؟ فقال لاني لا أطلب المحال ومن أمثال العرب « طلب الأبلق العقوق » يقال أعقت الفرس فهي عقوق ولا يقال حصان معق وذلك اذا حملت والأبلق لا يحمل . وقال رجل لمعاوية افرض لي قال نعم قال ولولدي قال لا قال ولمشيرتي فتتمثل معاوية بقول الشاعر

طلب الأبلق العقوق فلما لم يجده أراد ييض العقوق

وقال رجل لمعاوية زوجني هنداً يعني أمه فقال انها قعدت عن الولد فلا حاجة لها الى الزواج قال نواني ناحية كذا فادار وجهه وتمثل بالبيت المذكور وقيل مات مجوسي وعليه دين وترك ولداً له دار فقال بعض الغرماء وكانوا مسلمين لولده لم لا تبيع دارك وتسدد دين أهلك وتخفف عنه ؟ فقال لهم اذا بعتم داري وقضيت دين الي هل يدخل الجنة فقالوا لا فقال دعوه اذا في النار وأنا في الدار وقال الفضل بن عبدالرحمن لرقية بنت عتبة بن أبي لهب « أنظري لي امرأة معروفة بالنسب ، كريمة الحسب ، فائقة الجمال ، ملبجة الدلال ، ان قعدت أشرفت ، وان قامت أضفت ، وان مشت رقررت ، زرع من يبيد ، وقفر من قريب ، وتسر من عاشرت ،

وتكرم من جاورت ، ودود ولود ، لاتعرف الاهلها ، ولانسر الابعالها ، فقالت له يابن
 العم اخطب هذه من ربك في الآخرة فانك لانجدها في الدنيا
 وقال أبو موسى المكفوف لئن خاس الحمر اطلب لنا حماراً ليس بالصغير المحتقر ، ولا
 بالكبير المشتهر ، ان خلا الطريق تدفق ، وان كثرت الزحام ترفق ، لا يدم في السواري
 ولا يدخل بي تحت البواري ، اذا كثر علفه شكر ، واذا قل عنه صبر ، وان ركبته هام ،
 وان ربه غيري نام ، فقال له النخاس اصبر اعزك الله فعسى الله ان يسخ القاضي حماراً
 فتشتره وتبلغ حاجتك . وكما ان معاناة المحال محال كذلك تكليف الغير بعمل المحال هو
 محال أيضاً . قيل وقف البهلول على رجل وقال اخبرني عن قول الشاعر « واذا نابتك
 منزل فتحول » كيف هو عندك قال جيد قال فاذا كان في الحبس فكيف يتحول فوجم
 الرجل اما بهلول فقال ان الصواب قول غيره

اذا كنت في دار يسؤك أهلها
 ولم تك مكبولاً بها فتحول
 ومن هذا القبيل قول الشاعر :

ألقاه في اليوم مكتوفاً وقاله
 وقتلنا في هذا المعنى
 أياك اياك أن تبذل بالماء

لاتكلف سواك أمراً محالاً
 وتفتان في كل أمر تنيط ال
 لاتطبق اذا تكلفت فعلا
 ناس فيه هل ممكن ذلك أم لا

وهذا كثير ما يحدث من ذوي المراتب العالية لتواهم فيصدرون لهم الاوامر من
 غير أن يتفطنوا ان كان في الامكان تنفيذها أم لا فيقع أركك الاتباع في الاضطراب
 وقد يتعدى الامر الى طرد بعضهم من الخدمة الى أن يفهم الأمر ان ليس الذنب على
 من تهاون في تنفيذ أمره بل الذنب الاكبر على نفس الامر الذي أمر بما هو غير
 قابل التنفيذ (١)

ومما ينبغي الحاقه بهذا الباب قبج التصديق بالمستحيل أو الممتنع وهذا يوصل صاحبه

(١) انظر أيها القارئ الكريم الى هذا الامير الجليل وماله من النظر البعيد في
 شؤون الاجتماع حتى ألم بقريب الامور وبعيدها ووقف على حقائق ما يجري حتى على
 الغلمان والعييد واعبط معي من أتيح لهم ان ينفوا بحضرتهم ويتشرفوا بخدمته ويكونوا
 في حاشيته حيث لهم سيد يعذرهم اذا قصروا ولا يكلفهم فوق وسعهم ليعتذروا اذام الله
 عظمته بدرأ في افق الكمال ووقفه الى الابد من العزة والخيرات

الى الاعتقاد بالالوهام فيحسبها حقائق ويصبح على أثرها كثير الوساوس .
قال بعض العقلاء اذا أردت أن تعرف عقل الرجل في مجلس واحد فخذته في خلال
حديثك بما لا يكون فان أنكره فهو عاقل وان صدق فهو أحمق . ومن وصية لفهمان
لابنه يابني ان المغرور من وثق بثلاثة أشياء الذي يصدق مالا يراه ، والذي يركن الى
من لا يثق به ، والذي يطمع في ما لا يئله . وقال علان الوراق رأيت العتابي يأكل خبزاً
على الطريق فقلت أما تستحي تأكل أمام كل هذه الخلائق ؟ قال أرأيت لو كنت في دار
فيها بقر وأنت جائع أكنت تأكل أمها أم لا فقلت نعم فقال هؤلاء بقر وان شئت
أنتك بالبرهان فانظر . قال هذا وعلا دكان بزاز وجعل يوعظ فاجتمع الناس من حوله فقال
روي من غير وجه ان من بلغ لسانه ارنبة أنفه أدخله الله الجنة فلم يبق أحد الا أخرج
لسانه وهو يحاول إيصاله لارنبة أنفه كما تفعل البقر ثم نزل فقال لصاحبه كيف رأيت ؟
ومن هذا الباب مارواه لنا شاعرنا عبدالمسيح بك أنطاكيا . قال عندنا في مصر بعض
أصحاب الجرائد تتلاعب بنشرياتها على ما تشاء وهي لا تحسب حساباً لقراءتها في كذب
تخلفه أو أفك تلفقه فتصور البياض سواداً والباطل حقاً . قال الانطاكيا فدخلت مصر
وأنا حديث في حرفة الصحافة فوجدت الصحف على هذه الحالة فاجتمعت على بعض
رصفاني وسألتهم أما تخافون تكذيباً وأشهيراً بما تنشرون ؟ قالوا ومن ؟ قلت من الرأي
العام قالوا انك حديث في هذه الصنعة أفظن بوجدشي اسمه رأي عام ان الرأي العام نحن
نكونه بنشر يأتنا على الشكل الذي يزيدة قال الانطاكيا وبعدها قدمت في صنعة الصحافة
انضح لي أن ماقاله الرصفاء هو الحق وظهرت لي عظمة الصحافة وسر نخوف الحكومات
من الصحافيين الذين هم في الحقيقة قادة الرأي العام اه
ومن هذا الباب أيضاً ما حكى من أن رجلاً من جنود السلطان كان كلما دخل حماماً
يدّعي على أهله بالباطل من سرقة ثوب أو مال حتى يفرمهم فاتفق أهل الحمامين على
منعه من الدخول فأتى حماماً وأظهر التوبة والتدم على أن لا يعود الى ما كان عليه
فسمحوا له فدخل وخام ثيابه فأمر صاحب الحمام خادمه أن يسرق بعض ثيابه سوى
سيفه وخنجره ومنطقته . فلما خرج ليلبس ثيابه لم يرها . على أنه لم يتجاسر على الكلام
غير انه تمنطق بمنطقة وشك سيفه وجعل يتجول في الحمام ويقول يا صاحب الحمام أنا
لا أتكلم ولكن أين الانصاف هل جئت الى حمامك على هذه الهيئة فضحك صاحب
الحمام وأعاد له ثيابه

﴿ الروضة النائية ﴾

« في الموانع والمحظورات »

تحدث موانع ومحظورات تستلزم ارتكاب أمور لولاها لما ارتكبت . منها اطراد الامر حتى لا يمكن معه الاستثناء أو التبعيض كما قيل أن همام بن مرة الشيباني أغار على بني أسد وكانت أمه أسدية فجعل يسبي النساء فقالت امرأة منهن أبخالاتك تفعل هذا يا همام فقال كل ذات صدار خالة ووعي بذلك أن النساء سواء في نظره فلو اجتنب نسوة بني أسد لاضطر أن يجتنب غيرهن وبذلك يمتنع عن الغزو
ومن هذه المحظورات استازام تغيير عادة كما روى المبداني في الجمع ان امرأة من بنات بعض الملوك كانت تسمى أرقش فسافر الملك وكان لهم وضع اذا فرغوا دخنوا فيه فاذا أبصره الجند اجتمعوا وان جواربها عبت ليلة فدخن وجاء الجند فلما اجتمعوا قالت لها نصائحها انك ان رددتهم ولم تستعملهم في شيء ودخنت مرة أخرى لم يأتك منهم أحد فأمرتهم فبنوا بناءاً دون دارها فلما جاء الملك سأل عن البناء فأخبروه فقال على أهلها جنت براقش

ومن الموانع لزوم النقص من انكار المنكر مع ارتكابه بعد انكاره ومن الاول ما جاء في الحديث « أحق الناس من أنكر من غيره ما هو بغيره عليه » وقول بعض الحكماء « لا تبكتن أحداً في الظاهر بما تأتيه في الباطن » وقال ابن عباس « اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك » وقال بعض العلماء يا ابن آدم انك لن يكمل عقلك حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصاحبه من نفسك فاذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك وأحب العباد الى الله من كان هكذا
ومن بعض كتب القدماء ليس للحكيم أن يعيب امرءاً بشيء فيه مثله ويكون كالاعمى الذي يعير الاعمى بماءه ومن الثاني قالوا من نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم ارتضاها لنفسه فذلك هو الاحق بعينه . وقال الشاعر :

لا تلم المرء على فعله فأنت منسوب الى مثله

من ذم شيئاً وأنا مثله فأنما دل على جهله

ومن أمثال العرب قولهم « لا تنه عن خلق وتأتي مثله » أخذه الشاعر فقال :

لا تنه عن شيء فتأتي مثله عار عليك اذا فعلت ذم

وقال آخر :

إذا أنت عبت المرء ثم أتيته فأنت ومن تروي عليه سواء
وقلنا في هذا المعنى :
من عاب بالسوات أخوانه فليكُ ممن لا يحيي المعاب
ومن أطال عتب أخوانه فليتوقع مؤلمات العتاب
ومن يداري الصحب بات ومن حويله رهط من وفي الصحاب
وقال أبو الدرداء « علامة الجاهل ثلاث العجب وكثرة المنطق وإتيان ما ينهى عن
إتيانه » وأخذنا هذا فقلنا :

وأجهل الناس امرئ معجب بنفسه ومكثر للكلام
ومن إذا تنهأ لا ينتهي عن غيبه ولو أطلت الملام
ومثله أخلق بان يزدرى بأمره وشأنه كالطعام
وقال بعض العلماء إذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكن أول من يعمل به والاهلك
وأن لا ترضى لنفسك ما نهيت سواك عنه. وقال شاعرنا الانطاكى
ويضحكني من يكثر النصح لأئمة ويأتي بأسوا ما يلوم وينصح
ولو كان ممن ينصف الناس عادلاً لبات وفيما ينصح الناس بمدح
ومن الموانع التنبيه والالتزام. من ذلك ما أوصى لقمان ابنه فقال له يا بني إذا سألك
الناس فقل لهم لا أدري فانك إذا قلت لهم أدري سألوك حتى لا تدري وإن قلت لهم
لا أدري لا يسألونك حتى تدري
وقال بعض العلماء لا ينبغي للعاقل أن يصف لاهله طعاماً لا يريد أن يطعموه أو
لباساً لا يريد أن يلبسوه

ويكفي الليب عظة ما قيل أن امرء القيس الذي بنى قصر الخورنق للنعمان كان
واقفاً يوماً بين يدي الملك وذكر القصر وحسن بنائه فاغتر وقال والله أقدر أن أبني
قصرأ بديعاً كلما مضت ساعة من النهار تلون بلون الشمس فغضب امرء القيس وقال
قصرت في حقي فأمر به فألقي من أعلى القصر فراح ضحية غروره وهو القاتل
لنفسه بعدم ترويه وتدبر لوازمها يصدر عن فيه

ومن الموانع عود الضرر فإن من لا يتصور ما يعود عليه من الأمر الذي يعمله
يعود ضرره إليه. ومن ذلك ما في أمثال العامة قولهم « لا تبُل على أكمة » ومعناه لا تفعل
شيئاً يعود ضرره عليك وأصله أن يبول الرجل على أكمة فيردّ الريح بوله فينضح عليه

أو رُدُّه الاكمة لصلابتها والاكمة الجبل الصغير

قال الشريقي بن النظامي كان لقمان من بني ضد قد تزوج امرأة تسمى براقش وكانوا لا يأكلون لحوم الابل فأصاب من براقش غلاماً فنزل مع لقمان في بيت أبيها فأولموا ونحروا الجزر فراح بن براقش الى أبيه بعرق من الجزور فأكله لقمان فقال يا بني ما هذا فما تعرفت طيباً مثله فقال جزور نحرها اخوالي فقال وهل لحوم الابل في الطيب كما أرى؟ فقالت براقش جملنا أي أطمعنا الجمل واجتمعت أي أنت نفسك كل الجمل وكانت براقش أكثر قومها ابلا فأقبل لقمان على ابها فأسرع فيها وفي ابل قومها وفعل ذلك بنو أبيه لما أكلوا لحوم الجزور فقبل على أهلها نجني براقش وأصبح القول مثلاً ولا تنس لقد مررت بك قصة هذا المثل على وجه آخر ويراد من الشاهد المعنى

وفي كتاب العرائس لأبي الفرج الجوزي ان بعض طلبية العلم خرج من بلاده فرافقه شخص في الطريق فلما اقتربا من المدينة قال الرفيق للطالب أتد صار لي عليك حق وذمة وأنا رجل من الجان ولي عليك حاجة قال وما هي؟ قال اذا أتيت مكان كذا وكذا فأنت تجدد فيه دجاجات ينهن ديك أبيض فاسأل عن صاحبه واشتره منه واذبحه فهذه حاجتي اليك قال فقلت يا أخي وأنا أيضاً أسألك حاجة قال وما هي؟ قلت فاذا كان للانسان مارد لا تعمل فيه العزائم وألح بالآدمي منا مادواؤه؟ قال يؤخذ له وتر قدر شبر من جلد اليجمور ويشد به اهام المصاب من يده شداً وثيقاً ثم يؤخذ له من دهن السداب البري ويقطر في أنفه الايمن أربعاً وفي الايسر ثلاثاً فان الماسك به يموت ولا يعود الى أحد من بعده قال الطالب فلما دخلت المدينة أتيت الى ذلك المسكان فوجدت الديك لعجوز فسألته بيعه فأبت فاشترته منها بأضعاف منه فلما اشترته وتملكته مثل لي صاحبي من بعيد وقال اذبحه اذبحه فذبحته فخرج عليّ عند ذلك رجال ونساء وجعلوا يضربونني ويتولون يا ساحر فقلت والله لست بساحر فقالوا انك منذ ذبحت الديك أصيبت شابة عندنا بجني وانه منذ ذاك مسكها ولم يفارقها فطابت منهم ورأ قدر شبر من جلد يجمور وشيئاً من دهن السداب البري فأتوا بها فشدت اهام يدي الشابة شداً وثيقاً وفي الحال صاح صائح من داخلها قائلاً قاتلك الله أنا علمتك على نفسي ثم قطرت من الدهن في أنفها الايمن أربعاً وفي الايسر ثلاثاً فخرّ الجني في الحال ميتاً وشفى الله تلك الشابة ولم يعاودها بعده شيطان ولا جان

وأعجب ما يحكي في هذا المعنى أن رجلين كانا متجاورين بيت بيت احدهما تاجر

والاخر نجار ثم ان التاجر دخل الحمام فوجد جاره النجار فسلم عليه وترحب به وقام
 النجار بخدمة جاره التاجر فوقعت عين التاجر على حين غفلة على قبل النجار وهو بلا
 فوطه واذا قبله كبير ضخيم يشبه آلة الحمار فتمعجب التاجر ولما جاء الى بيته قال لزوجه
 ياتك العجب كيف لا تفر زوجة النجار منه فقالت على أي شيء ياسيدي ؟ فقال رأيت اليوم
 في الحمام فانكشفت عورته فرأيت قبله كبيراً وافراً يشبه آلة الحمار في الطول والغلظ
 فقالت اسكت « جته القرف » لو كان هذا زوجي ما قدمت معه ساعة. قالت هذا ولكن
 صار في نفسها شوق الى النجار وما صدقت ان خرج زوجها الى دكانه حتى عمدت الى
 مفتاح الباب فكسرتة وأرسلت خلف جاراها النجار فجاء فقالت له أصلح لنا مفتاح هذا
 الباب فقال سمعاً وطاعة ياسيدي ثم جلس لتصاير المفتاح فاذا بها قد لبست أنفرا ما عندها
 وجاءت بلا لباس فمشت بين يديه ووقعت عمداً فانكشفت عورها فرآها النجار ثم عمدت
 الى قفته ومسكت المبرد وقالت له ما هذا ؟ فقال مبرد فقالت بردك المبرد ثم مسكت المنقاب
 وقالت ما اسم هذا ؟ قال منقاب قالت تفبك المنقاب وهكذا جعلت تأخذ ما في القفة وتساله
 عن اسم ما فيها وهو يرد عليها وتضحك منه الى أن ابرته فأخرج ذكره وقال وهل
 تدبرين ما اسم هذا ؟ فأظهرت الاستحياء تصنعاً وأدارت وجهها فلم يخف ذلك على النجار
 ثم ان النجار اختط على الارض حلقة واسعة وقال دعيني أعمل المفتاح ولا تكلميني
 ومن دخل هذه الحلقة وطئته لاحالة. فأسرعت الى الحلقة وقعدت في وسطها فأسرع
 النجار وطرحها على قفاها ونال أربه منها فوقعت محبته في قلبها. فلما قام عنها وأزاد
 الانصراف أعطته أضعاف أجرته فانصرف داعياً لها وقال ياسيدي لقد أصبحت من
 جملة عبيدك ولا أحول عنك أبداً فتى وجدت غفلة من الرقيب ارسلني لي وانصرف
 تاركا حلقة في مكانها. قال الراوي وكان لتلك المرأة ولد صغير فانتبه لما كان فلما جاء
 أبوه أسرع اليه وقال له اياك والحلقة فان يدخلها يطأه جارنا النجار فانتبه التاجر
 الى ما حدث في بيته وندم على ما كان منه بحكايته عن قبل النجار لزوجه وطلقها في الحال
 وذكر صاحب عيون التواريخ وغيره ان المأمون مر يوماً على زبيدة أم الامين فرآها
 تحرك شفتيها بشيء لا يفهمه فقال لها يا أماه أتدعين علي لاني قتلت ابنك وسلبته ملكه
 فقالت لا والله يا أمير المؤمنين قال فما الذي قاتته قالت يعقبن أمير المؤمنين فألح عليها وقال
 لا بد ان تقولي قالت قلت قبح الله الملاححة قال وما سبب ذلك قالت لقد لعبت يوماً
 الشطرنج مع أبيك الرشيد على الحكم والرضا فغلبني فأمرني أن أتجرد من ثيابي

وأطوف القصر طرية فاستمعنيته فلم يمضي فامتلئت ونجرت من ثيابي حائقة وطفقت القصر ثم عاودنا اللعب فغابته فأمرته أن يذهب الى المطبخ فيطأ أبيض جارية وأشوها خلقة فاستمعاني من ذلك فلم أعفه فبذل لي خراج مصر والعراق فأبيت وقلت والله لتفعلن ذلك فأبى فألححت عليه وأخذت بيده وجئت به الى المطبخ فلم أر جارية أبيض وأقذر وأشوه خلقة من أمك مراجل فأمرته أن يطأها فوطئها فعلمت منه بك فكنت سبياً لقتل ولدي وسلبه ملكه . فولى المأمون هاربا وهو يقول لعن الله الملاححة فلو لم ألح عليها لما أسمعني ما سمعت

ومن هذه الحكايات يتنبه العاقل الى التحرز من فعل كل ما يمكن أن يعود عليه بضرر على قدر امكانه كما يتنبه الى وجوب حفظ لسانه فانه ليس كل ما يعلم يقال ومن المحظورات لزوم الاشتراك في الضرر قال أمير المؤمنين عليه السلام لرجل رآه يسعى على عدوه بما فيه الاضرار بنفسه « إنما أنت كالطاعن نفسه ليقتل ردفه » والردف هو الذي تردفه خلفك على فرس أو ناقة

ومن لطائف المنقول كان في بعض البلدان رجلان عدلان من العدول وكان بينهما من الحسد والعدوان ما يود كل واحد منهما اقتل الاخر . فرأى أحدهما مع فاجرة كان يحبها فأبصر بهما الشرطي واستاقهما الى الحبس . فلما سمع العدل الثاني أسرع الى زوجة الحبيس وقال لها أيها المسكينة ان زوجك الحبيث في الحبس مع إحدى العواهر نخلي عنك الغيرة وأسرعني اليه فخلصيه . فقالت له ويلى وماذا أصنع؟ قال بادري الى باب السجن وأظهري الشمامسة به وأعطي السجن شيئاً ليذكلك عليه على أنك تصفعيه فاذا دخلت نخذي ثياب الفاجرة وأعطيها ثيابك فتخرج كأنها أنت وتجلدين عند زوجك ثم تحتالين بعد ذلك في خلاصه من ورطته . ففعلت المرأة ما أمرها حتى اذا ما بلغت السجن رشت الشرطي وطلبت منه أن تدخل على زوجها لتصفعه فدخلت وخرجت البغية بثيابها ثم مضى ذلك العدل وجمع عدول البلد وهو ينادي ان قد زالت حرمة العدالة فليل له ولم ذلك؟ قال فلان العدل أراد أن يخلو بأهله في بستان فظلمه الشرطي وأهمه وحبسه هو وزوجته فأسرع العدول الى القاضي وشرحوا له الحال فغضب القاضي غضباً شديداً وسار بهم الى باب السلطان وشكوا حال العدل مع الشرطي وما ابتلي به من النهمه فأمر السلطان بالكشف عن المرأة فتبينت عند كل الناس أنها زوجته فأطلق من السجن وعوقب الشرطي عقاباً شديداً . فقال العدل للعدل الذي حبس وأهين: اعلم اني انصرتك

جاء بك ولا فربة لله تعالى والمداوة بيننا على ما تعهد بل هي الآن أعظم وأشد وإنما نصرت جنسي ودفعت الضرر عن نفسي للقدر المشترك بيني وبينك من اسم العدالة . نقول وهكذا يجب على كل قوم يشتركون في القدر أو الصنعة أن يكونوا متضامين في دفع الضرر الذي يقع على أحدهم فيناهم جميعاً

ومثل هذه الحكاياه ما رواه أحد الثقات قال قبض على رجل من البايبة وحيى به الى نحيب باشا والي بغداد فقال الوالي لا أقتله الا بفتوى المذاهب الخمسة . حكمت المذاهب الاربعة بقتله فأمر الوالي باحضار الشيخ موسى بن الشيخ جعفر النجفي فلما حضر أفتى بجرمة قتله وأبطل ما أفتى به على المذاهب الاربعة بأدلة واضحة فلام الناس الشيخ بعد ذلك فأجابهم لقد لاحظت من شر العواقب فيما لو قتل الرجل ما لم تلاحظوه فان هذا البايبي عليه اسم التشيع فلو حكمت بقتله وقتل يشيع الخبر بأن عالماً من علماء الشيعة قتل لظهور كفره ولا يقولون بأنه كان بايياً فتحاشياً من أن تلبسنا هذه السمعة السيئة أفتيت بجرمة قتله محاشياً على عرض الشيعة لا حفظاً لحياة البايبي

نقول كما ينبغي للمعاقل ان يدفع الضرر عما يلزم منه الاشتراك ولو كان عدواً لدوداً ينبغي أيضاً أن يجلب النفع لمن يلزم منه الاشتراك في النفع ومنه قولهم في الامثال « احلب حلباً لك شطره » وعلى هذه القاعدة وضع الفرنجة في هذا العصر قاعدة التضامن بين اصناف الناس المشتركين في المنافع والمضار بحيث ترى اصحاب كل حرفة متضامين على جلب المنافع ودفع المضار فيمتصبون ويتوقفون عن العمل اما طلباً لزيادة أجورهم أو لاتقاص ساعات عملهم أو لدفع ضيم عليهم من حكومتهم وقرأني الجرائد انباء اعتصابهم حيث يفوزون غالباً باغراضهم

ومن الموانع أيضاً انتظار سوء العقبي . قال بعض الحكماء « لاتصغراً من حاربت فانك اذا ظفرت به لم تحمد وان عجزت عنه لم تعذر » وحكي عن الاسكندر انه قصد موضعاً فخاربه النساء فكف عنهن وقال هذا جيش ان غلبناه فالنا من نخر وان غلبنا كان ذلك علينا فضيحة الدهر .

ومن الموانع سوء الذكر قيل ان المهدي قعد قعوداً عاماً للناس فدخل عليه رجل وفي يده نعل ملفوف في منديل فقال يا أمير المؤمنين هذه نعل رسول الله قد أهديتها اليك فقال هاتها فدفعها اليه فقبّل باطنها ووضعها على عينيه وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم . فلما أخذها وانصرف قال المهدي لجلسائه أترون اني لم أعلم أن رسول الله صلى

الله عليه وآله لم يرها فضلا عن ان يكون قد لبسها. واسكن لو كذبناه لخرج وقال للناس اتيت أمير المؤمنين بنعل رسول الله فردها علي وكان من يصدقه أكثر ممن يدفع خبره لما تعلمون من جهل العامة وميلهم الى تصديق ما يسمعون والانتصار للضعيف على القوي وان كان ظلماً. ولهذا اشترينا لسان الرجل وقلنا بتصديقنا قوله وقبولنا هديته وحكي ان المأمون بلغه ما كان عليه كسرى من العدل فقال في أحد مجالسه بلاني أن الارض لا تبلي أجساد الملوك العادلين وقد عزمتم علي أن أختبر هذا القول بكسرى. فتوجه الى بلاد الاكاسرة وفتح قبر ذلك الملك ونزل اليه وكشف عن وجهه فاذا هو في غاية الرطوبة والنياب التي دفن بها باقية على جدتها لم تتغير وكان في أصبعه خاتم من الباقوت الاحمر ليس في خزان الملوك مثله وعليه كتابة فارسية فاندعش المأمون مما رأى وقال هذا رجل مجوسي يبدال نارو لم يضيغ الله ما كان يفعله من العدل. وكان مع المأمون غلام خصي ففأفله وأخذ الخاتم المذكور فلما علم المأمون أمر بضرب الغلام ونفيه الى السند واعادة الخاتم الى أصبع كسرى كما كان وقال ان هذا الغلام يريد أن يفضحنا بين ملوك العجم حتى يقال كان المأمون نباشاً للقبور ثم أمر أن يسبك على قبر كسرى بالرصاص حتى لا ينتج بدمه.

وقال ابو الاسود الدؤلي لبنيه اني احسنت اليكم صفاراً وكباراً وقبل ان تولدوا فقالوا يا أبانا قد علمنا احسانك الينا صفاراً وكباراً فما احسانك الينا قبل ان نولد؟ قال طلبت لكم، ووضماً في النساء ثلاثاً تسيروا واعلم كما ان ملاحظة سوء الذكر مانعة فملاحظة حسن الذكر باعثة. فقد حكي أن المغيرة بن شعبة لما ولي الكوفة سار الى دير هند بنت النعمان وهي فيه عمياء مترهبة فاستأذن عليها فقالت من انت؟ قال المغيرة بن شعبة انتففي قالت ما حاجتك؟ قال جئت خاطباً قالت انك لم تكن قد جئتني مال ولا جمال ولكن اردت ان تتشرف في محافل العرب فتقول تزوجت بنت النعمان بن المنذر او يقال عنك ان ابنة النعمان تزوجها المغيرة والا فأني خير في اجتماع عمياء وانور؟

ومن هذا الباب ملاحظة أحياء الذكر في الافعال، كما يقال أن معاوية غرس نخلا في مكة في آخر خلافته فقال ما غرسها طمعا في ادراكها ولكن ذكرت قول الاسدي: ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا تكون له في الارض آثار
ولما كان عبد الله بن جعفر عند معاوية في الشام أخبروه بولده فآخبر معاوية

فأعطاه خمسمائة ألف درهم على أن يسميه معاوية فسماه وقال معاوية أشترى بها اسمي حتى لا يضيع

واعلم أن الناس عموماً من أكبر الملوك إلى أصغر الصعاليك يدأبون في تخليد آثارهم كل على قدر طاقته واجتهاده وما خلفات الغابرين العظيمة كاهرام مصر وغمائل آشور وبابل الآمن هذا القبيل وقد قال الشاعر :

تلك آثارنا تدلُّ علينا
فانظروا بعدنا إلى الآثار
وقلنا في أحياء الذكر :

إذا استحال على الناس الخلود بندي
أدنيا وكان الفنا يدنو لهم عجلاً
مالوا لتخليد آثار تذكر من
بجيه بعدهم ما فقد مضى وخلا
أن السعيد الذي يبقى لا مته
ذكر أحميداً فلا يمدو عليه بلى
ومن يبني على كرم الليالي إلى الأ
حسان والبر فيهم نضرب المثلاً

الروضة الرابعة

في مقدار النفع والضرر

اعلم أن ما يعالج من توطئة الأمور إما أن يكون نفعاً صرفاً أو ضرراً محضاً أو أن يكون فيه نفع وضرر . أما ما كان صرف نفع أو محض ضرر فهذا لا كلام عليه والمرء يأتيه أو يمتنع عنه وهو على بينة من أمره أما ما اشترك فيه النفع والضرر فهو موضع البحث في هذه الروضة . فمن الأمور ما يزيد ضرره على نفعه وبالعكس ما يزيد نفعه على ضرره أو ما يتساوى فيه النفع والضرر فهذه ثلاثة أقسام يجب أن نبحث فيها ونضرب عليها الأمثال عبرة وذكرى لقوم يذكرون فيعتبرون

(ما يزيد ضرره على نفعه)

اعلم أن كل أمر يزيد ضرره على نفعه ومؤنته على ثمرته وتببه على لذته لا يأتيه عاقل يقدر العواقب . قال الضحاك بن مزاحم لرجل ما تصنع بشرب النبيذ ؟ قال يهضم طعامي قال أما أنه يهضم من دينك وعقلك أكثر ؟ وقيل لبعض الأذكاء ما تقول في فلان وفلان قال هما الخمر والميسر أتمهما أكبر من نفعهما . ومن أمثال العامة « من قلة تديره حنطته أكلت شعيره » وأصل المثل أن رجلاً كان عنده حنطة وشعير فباع الحنطة واشترى بها فرساً ثم علف الشعير الفرس حتى نفد

ومن نوادر أبو الأسود الدؤلي أنه اشترى حصاناً بتسعة دنانير ومضى إلى داره

ونام فلما استيقظ سمعه يتنضم فقال ما هذا قالوا الحصان يأكل شعيره فقال لا أترك في مالي من أنام وهو يتلفه وأعرض عما يزيد وينميه. وفي اليوم التالي باع الحصان واشترى أرضاً للزراعة

وذكر المبداني في مجمع الامثال ان قوماً من الصوص استحضروا احدى الفواجر فقبضوا منها اوطارهم ثم أعطوها قربة زيت كانت عندهم اذ لم يحضرهم غيرها فقالت المرأة لا أريدها لاني أحسبني علفت من أحدكم وأكره أن يكون مولودي ابن زنا بزيت. فذهب قولها مثلاً لكل ما يزيد ضرره على نفعه

وقال أيضاً فيه: ان فاقوة امرأة مرّة الاسدي كانت من أجمل النساء في زمانها وان زوجها غاب عنها أعواماً فهويت عبداً عندها حياً كان برعى ماشيتها فلما هممت به أقبلت على نفسها فقالت يا نفس لا خير في الشره ، فانه يفضح الحرّة ، ويحدث العرّة ، ثم عرضت عنه حينئذ هممت به فقالت يا نفس موتة مريجة ، خير من الفضيحة ، وركوب القبيحة ، واياك والعار ، ولبوس الشنار ، وسوء الشعار ، ولؤم الدنار ، ثم هممت به وقالت ان كانت مرّة واحدة ، فقد تصلح الفاسدة ، وتكرم الائمة ، ثم جبرت على أمرها فقالت للعبد احضر بيتي الليلة فأتاها فواقعها وكان زوجها فائقاً مارداً وكان قد غاب دهر أم قبل آيا فيينا هو يا كل اذ هبّ غراب فأخبره ان أمراته لم تفجر قط الا تلك الليلة فركب مرّة فرسه وسار مسرعاً رجاء ان هواجتها منعها فاتمى اليها وقد قام العبد عنها وندت وهي تقول خير قليل وفضحت نفسي فسمعتها مرّة فدخل عليها وهو برعد لما به من الغيظ فقالت له ما برعدك ؟ قال خير قليل وفضحت نفسي فعلمت انه علم بـججورها فشبهت شهقة وماتت فقال مرّة:

لحى الله رب الناس فاقد ميتة وأهون بها مفقودة حين تفقد

لعمرك ما تعادني منك لوعة ولا أنا من وجد عليك شهيد

ثم قام الى العبد فقتله وذهبت كلمتها مثلاً « وهي خير قليل وفضحت نفسي »

ومن هذا الباب ما قاله بعضهم رأيت مجنونين يتنازعان رغيفاً يؤثر كل واحد منهما صاحبه به وهما يتغاسبان عليه. فقلت لهما وأنا اظن ان اريح عليهما انا آكله ان لم تأكلاه فقال احدهما يا أحق ان معه اداما لا يسوغ الا به قلت وما هو قال ضيق الخناق ووجعي العنق فوليت عنهما فقالا با مجنون لولا غضاضة الادام لا كنا منذ حين ومن هذا القليل ما قيل « من طمع من الناس بذره طمعوا منه بيدرة وان اخذت

منهم ديناراً اقتطعوا من مالك قنطاراً «
 واحسن ما يرسم في هذا الباب قول امير المؤمنين عليه السلام من وصيته للحسن
 عليه السلام « واكرم نفسك عن كل دنية وان ساقبتك الى الرغائب فانك لن تعترض
 بما تبذل من نفسك عوضاً ولا تسكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً وما خير خير لا ينال
 الا بشر ويسر لا ينال الا بعسر » ومن الطف ما يرسم في هذا الباب قول أبي حيان :
 خلقنا لامر لوعلمنا خفيته لما حببنا المرء ليلي ولابلنا
 ولكن جهلنا فاستراحت تقوسنا وما تلك الاراحة تعقب الخزنا
 واعلم ان أكثر مشتبهات النفوس يغلب ضررها على نفعها وشهرها الزنا الذي
 انتشر انتشاراً مخيفاً في البلاد التي دخلت التمدن الحديث على أسلوبه الا فرنجي فجعل
 الشبان يتأخرون في الزواج ويتلهون بالفواجر ونجم عن ذلك انتشار الامراض النسائية
 كالزهري والسيلان . قالوا ان في مصر والاسنانة لا يسلم شاب من مئة من أحد هذين
 المرضين وهكذا قل عن بلاد أوروبا حيث بلذة وقتية يكسب الانسان آلاماً واسقاماً
 طويلة وقد يفضي به الامر الى الموت ولهذا بحث طويل ليس موضعه هنا . وقلنا في
 الموضوع هذين البيتين :

لا تبأثر عملاً ان لم تسكن طرفاً ما النفع منه والضرر
 واذا باشرته جهلاً به فتوقع يا ابن وددي منه شر

« ما يزيد نفعه على ضرره »

واعلم ان كل امر يزيد نفعه على ضرره فهو مرغوب فيه لالوم على السير فيه لان
 مالا نفع منه ولا ضرر قل أن يوجد في أمور الناس
 قالوا ان جيشاً كان فيه الفرزدق فقال صاحب الجيش من جاءني برأس فله خمسمائة
 درهم ثم برز صاحب الجيش فقتل فبكى أهله عليه . فقال الفرزدق أما ترضون رأس
 برأس وزيادة خمسمائة فذهب قوله مثلاً
 وذكري في الكشاف في تفسير قوله تعالى « ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة »
 ان بعض جفأة الاعراب سرق ناختة مسك فتليت عليه هذه الآية فقال اذن احملها طيبة
 الريح خفيفة الحمل
 وقالوا في أمثالهم « بمنل جارية فلترن الزانية » وجارية هو ابن سليط وكان حسن
 الوجه فرأته امرأة فمكنته من نفسها وحملت فلما علمت أمها بحملها لامتها ثم رأت الام

جمال ابن سليط فعدت ابنها وقالت بمنل جارية فلترن الزانية في السر أو العلانية
وقال الشاعر :

ان هو بدرأ فليكن ابن الخليفة ذي السرير
وابناً لسلطان الوري أودا الوزارة أو أمير
وتجنب الاوغاد والموغا وذا القدر الحقير
ان الخطير هو الذي قد قام بالامر الخطير

وهذا الموضوع لا يحتاج لبحث طويل لانه من البديهيات التي لا تحتاج الى تفكير

« ما يشترك بين النفع والضرر »

أما ما يشترك فيه النفع والضرر فاليه يجب أن يتنبه الفكر بحيث ان المرء عنده ما يقدم
على العمل ويجد فيه خيراً وشرأ ان يراجع فكره ويعمل رويته فاذا رجح خيره على
شره أقدم عليه واذا رجح شره على خيره احجم

قالت العرب في الامثال « حببذا التراث لولا الذلة » يضرب للشيء فيه خصال محمودة
واخرى مذمومة. وذلك ان الرجل اذا مات أقاربه ورث أموالهم واستغنى الا انه في
الوقت نفسه يذل لهلاك أنصاره فهو والحالة هذه يحب التراث ولكن يكره الذلة التي
تعقبه بفقد أنصاره وقال الغزالي من هذا القبيل

ذهب السكرام فسدت غير مسود ومن الشقاء تفردني بالسؤدد

ومن أمثالهم « شقيت نفسي وجدعت أنفي » أي من جهة نلت مرادي ومن الجهة
الاخري لقيت ما أكره وأنشد أبو تمام لقيس :

فان أكُ قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم الا بناني

وقال الآخر :

ونبكي حين نقلكم عليكم ونقلكم كانا لانبالي

وقلنا في هذا الموضوع :

تدعون لو انا نقاسمكم حيا نسكم وأعوام الاله كثير

ماض لو انا نعيش وأنم عيشاً يصاحبه هنا وسرور (١)

(١) كنا يوماً في خدمة ولي النعم الشيخ المعز المعظم فجاه عيد رمضان المبارك فاخرج
عظمته لكل واحد منا ونحن في بابه ، معاشر العلماء والادباء والشعراء الكساوي والمنع وما

وروي أن أعرابياً باع شيئاً من أعرابي آخر إلى نسيئة وزاد في الربح كثيراً فقال المشتري :

يلوي بنان الكف بحسب ربحه ولا يحسب المطل الذي انما طله
ومن دون ما يرجو عنه مبرح أو اخره ما تنقضي وأوائله
ومن أمثال العرب « نمرة الجين لاربح ولا خسر » وهذا كقول العامة « الجبان
لا راجح ولا خسران »

وضل لأعرابي بعير خلف أب وجدته لبيبه بدرهم واحد فوجده فلم يحتمل
قلبه أن يبيعه بذلك الثمن فعمد إلى سننير وعلقه في عنقه وأخذ ينادي على الجمل بدرهم
والسنور بخمسمائة درهم ولا يبيعهما إلا مائة فرأى أعرابي به وقال ما أرخص الجمل
لولا القلادة

وكان يقال مثل الملك الصالح اذا كان وزيره فاسداً مثل الماء العذب الصافي فيه
التمساح لا يستطيع الانسان وان كان سابحاً والى الماء ظمأً دخوله حذراً على نفسه
وشكى رجل الى أبي العيناء سوء حاله فقال له ابشر فان الله رزقك الاسلام
والعافية فقال أجل ولكن بينهما جوع يقاقل الكبد

اكتفى أعزه الله بذلك بل أنعم علينا بعبايا محمولة الى المصارف في بلادنا لترسلها الى
عيالنا فلم يبق منا الا من شكر وحمد ودعا ثم وقفت بين يدي عظمته حفظه الله وقلت
اتنا يا مولاي نعيش مع أهالي بنا وأولادنا بفضلك وناجز عن قضاء واجب شكرك وحمدك
فما لنا الا أن نسأل الله عز وجل أن يضيف الى عمرك السعيد من أعمارنا وان يدعك
مصدراً للجود والاحسان على مدى الازمان. فبسم عظمته حفظه الله على ما هو معلوم
من بشاشته وقال أما أن تدعوانا بطول العمر فهو محبوب مرغوب فيه لانه يعذب على
السمع ولو كان ينكره العقل وقد قال سبحانه وتعالى « فاذا جاء أجلهم لا يستقدمون
ساعة ولا يستأخرون » وأما أن يضيف الله سبحانه من أعماركم الى عمري فهذا الأراضه
فما ضر أن نعيش سوياً وواهب الاعمار الهى والهكم سبحانه بيده الاعمار والارزاق
وعنده منها الكثير وهل تظنون انه يلذني ان أعيش دونكم لا والله. وأنشد عظمته
بعد ذلك مرتجلاً يتي المتن فعجبنا من هذه المبادئ السامية والتنازل الكبير في
جبر خواطرنا وازددنا الى الله دعاءً بطول بقائه ذخراً للإسلام ومجداً للعرب وسبحانه
موجب الدعوات

وقال النبي عليه الصلاة والسلام « شرب الدواء » للجسد كالأصابون للثوب ينقيه
ولكن مخلقه وأنشد بعض الأدباء في أحد الفضلاء :

قالوا فلان عالم فاضل فأكرموه مثل ما يرتضي
فقلت لما لم يكن ذا تقى تعارض المانع والمقتضى

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام لما غلب أصحاب معاوية على شريعة الفرات
بصفين ومنعواهم من الماء « قد استطعموكم القتال فأقروا على مذهبه وتأخير محله أو رخوا
السيوف من الدماء رويهم من الماء فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين »
فساوى عليه السلام بين الموت بالعز والحياة بالذل ومن هذا أخذ الشاعر معنى قوله فقال
فموت الفتى في العز مثل حياته وعيشته في الذل مثل مماته

وقال غيره :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
طيب الحياة بذلة كجبههم وجههم بالعز أنخر منزل

ومن هذا الباب قول العرب في أمثالهم « اتق خيرها بشرها وشرها بخيرها »
والضمير يرجع للقطة قاله رجل لصاحبه وهو يشكو ممرض القطط وأوساخها ويحمد
صيدها الفار فلا تعيث في البيت فساداً

ومن هذا الباب أيضاً نكتة لا بأس من إيرادها وهاشاعرنا عبد المسيح بك أنطاكى
قال كان شيخ هرم من وجوه حلب قد تزوج صببية حسناء ثم حدث بينهما نقرة في
ساعة غضب خلف عليها بالطلاق ثلاثاً فخرمت عليه . واذ كان لتلك الصبية وقع في نفسه
شديد أرسل فاستدعى القاضي وطلب منه حيلة شرعية يستعيد بها زوجته فقال القاضي
ان لا سبيل الى ذلك الا ان تزوجها من اجنبي زواجاً شرعياً ثم يعود هذا فيطلقها
فتنتظر قضاء عدتها ثم تزوجها ثانية فارتضى الشيخ برأى القاضي مرغماً ولكن حار
في الحصول على رجل يأتته على زوجته . وفيما هو غارق في بحار حيرته اذا بفلاح
شاب من فلاحيه العاميين في أرضه داخل عليه فقال أزوجها من هذا الفلاح
وهو طوع يدي يطلقها رغم أنفه . وبغير تردد استدناه اليه وعرض عليه الزواج
بمطلقته مشروطاً بطلاقها في صباح اليوم التالي فقال سمعاً وطاعة . وفي الحال كان
القاضي حاضراً فكتب الكتاب وشهد الشهود وفي المساء دخل الفلاح على الصبية
مطلقاً المعجوز الهرم واذا اراد ان يدخل عليها أمرعت الى طشت فوضعت على

الفرأش فقال لها الفلاح ولم هذا؟ قالت له أليس من عادة الرجال إذا أرادوا اتيان نسائهم يضعون الطشت من ورانهم للبراز؟ ففهم الفلاح بأن ذلك المعجوز كان لضعفه لا يستطيع عند الجماع ضبط نفسه. فضحك وقال لها ليس كل الرجال كما تهدين ودخل بها فشمرت بلذة لم تعهد لها بجماع ذلك الهرم وبقي الى الصباح بين لف وعناق وجماع وعند ما أصبح الصباح أخذ الفلاح يعول ويكي فقالت الصبية ولم تبكي قال لفرأش قالت كيف ألم تزوجني وقد حمدت الله على الخلاص من ذلك المعجوز القذر؟ قال نعم ولكن تزوجت في المساء على أن أطلقك في الصباح والان ينتظرني زوجك والغاضي والشهود لاحق بالطلاق فلاناً أمامهم. قالت ولكن أنت لا تطلقني قال وهل يستطيع ذلك والباشا سيدنا ونحن نشغل في أرضه وله نفوذ كبير فهو يستطيع أن يزجني في السجن أيضاً لدين له في ذمتنا. قالت اصغ فان أمر الطلاق بيدك وأنا لا صبر لي على فراقك ولا أريد الرجوع الى ذلك المعجوز القذر فاذا رفضت طلاقني فليس في استطاعة أحد كراهك عليه. أ. الدين الذي عليكم فان أبي وهو من أغنياء البلد يوفيه عنك قال سمعاً وطاعة وعادا فعمانقا وبيهاها كذاك واذا بباب غرفتهما يقرع والخدام ينادي يا فلان ان الباشا يدعوك قال حياً وكرامة وخرج الفلاح من غرفة زوجته تاركا بها قلبه وتوجه الى حيث الباشا فوجد عنده القاضي وطائفة من الاعيان فقال له القاضي أما طلقت زوجتك فلانة؟ قال كلا وأنت مرة كلا قال الباشا كيف وبلك قال ألم أزوجها بشريمة الله ورسوله أو ليس الطلاق لمن أخذ بالساق؟ فانا لا أطلق امرأتي ولو قتلتموني فغضب الباشا واضطرب وأخذ الحاضرون يرجون الفلاح تارة ويعرضون المال عليه طوراً ليطلق فآبى فتهددوه بالجن هو وأبوه فلم يؤثر فيه التهديد وهكذا خرج غاضباً وأسرع الى المحكمة الشرعية طالباً زوجته فلم يسع القاضي الا تسليتها له على رغم أنف الباشا وظلت معه على هناء وسرور كل حياتها

وأنت ترى من هذه القصة ان الباشا اذ عرض عليه أمر تزويج مطاقته موقتماً ليحلل له الزواج بها ثانية كان يجب عليه عند ما اختار الفلاح زوجاً موقتماً أن ينظر الى النفع والضرر من هذا الزوج أما النفع فهو تحليل زواجه بها أما الضرر فهو معرفة زوجته وهي صبية صغيرة بان في الرجال من هم أقوى وأكفأ منه على الجماع فلو عرض على نفسه النفع والضرر لوجد اطلته زوجاً في مثل عمره ولو فعل ذلك لما أضع امرأته التي كان شديد الشغف بها وفي هذا كفاية

﴿ الروضة الخامسة ﴾

﴿ في الأمور الساقطة عن اعتبار العقل ﴾

« توطئة »

ان الأمور الساقطة عن اعتبار العقل هي اما لقلة أثرها وضعف تأثيرها أو لامتناع موضوعها وتكون عبارة عن أربعة أمور وهي استدراك الفائق . والعناية بالمدير والاهتمام بالمقبل . وتحصيل الحاصل . وسنفرّد لكل منها فصلاً يوضحها أحسن توضيح « استدراك الفائق »

اعلم أن استدراك الفائق يقسم الى قسمين . أحدهما الفائق بنفسه . والثاني الفائق بوقته والاهتمام بكليهما من متاعب النفس بما لا يفيد أما الفائق بنفسه فان استدراكه جهل وخرق بالرأي والاهتمام بذلك عبث وغرور وقلنا في ذلك :

غرور وحمق ان تعاني متاعباً لارجاع ما نذقت بالأمس ضائعاً

اذا كنت ذا حزم وحسن دراية فأحرص على ما زلت من بعد جامعا

وكان أبو الاسود حاضر الجواب جيد الكلام مليح النادرة روي أنه دخل يوماً الى السوق يشتري ثوباً فقال له رجل هلم أقربك في هذا الثوب ؟ فقال له ان لم تقارني بأعدتك ثم قال له بكم هذا الثوب ؟ قال قدأ طوني به كذا وكذا قال انما نخبرني عما فانك ومن أمثال العرب قولهم « انقائت لا يستدرك » مثل محدث وبتله قوله الشاعر :

ندمت على سبي المشيرة بعد ما مضى واستتببت للرواة مذاهبه

فأصبحت لأستطيع رداً لما مضى كما لا برد الدرّ في الضرع حالبه

ومثل هذا قول النابغة :

والياس عمافات يعقب راحة ولرب مطمعة تكون ذباحا

وقال شاعرنا الانطاكى :

ولكم ندمت على الذي ضيّمته ولقد أضمت وما عقلت كثيراً

هيهات ليس تقيّدني يا ليتني كنت الحرّيس لما نذوت تقيرا (١)

(١) أنذمت هذين البيتين وأنا في القصر الخزعيّ العالي بين أصحابي وكنت أحدثهم بما مرّ علي من اليأس وما أصبحت فيه بأسرافي من العسر فنقله أحدهم لمسامع مولاي وليّ النعم بنيران أعلم نار تجلّ عظمت هذين البيتين معانياً فنقلها لي صاحبي وهما

وقال أحد الحكماء لا ينبغي ان يعمل الانسان الفكرة في ما فاتته ولكن ليعملها في
حفظ ما بقي لديه فلا ينفع النصح بعد العمل ولا الاستجابة بعد الفوت
حكى ان ضبة بن أركان كان له اiban احدها يسمى سعد واثاني سعيد فخرجا الى
سفر فهلك سعد ورجع سعيد فخرج والدعما فتشأ عن ابنه الهالك في الا شهر الحرم ومعه
الحارث ابن كعب فبينما هما ذات يوم ساران يتحدثنان اذ درأ بمكان فقال الحارث
لقيت بهذا المسكان شاباً صفتة كذا وكذا فقتلته وهذا سيفه فقال له ضبة « الحديث
ذو شجون » أي حديثك محزن فذهب قوله . ثم ان ضبة قتل الحارث فلامه الناس
على استجلال الاسم الحرام فقال « سبق السيف العذل » فأصبح قوله . ولا . ومن
هذا الباب قول حاتم الطائي

ألا لا تلوماني على ما تقدماً كفى بصروف الدهر المره محكما

فانكما لا ما مضى تدركانه ولست على ما فاتني متسداً

وقيل للاخنف بن قيس ممن تعلمت الحلم ؟ قال من قيس بن عاصم رأيت في أحد
الايام قاعدأ في فناء داره متقلداً بحمايل سيفه يحدث قومه فيبينها هو كذلك اذ أتى له

تشكو العسار وأنت شاعر خزعل وتبيت في ما ضاع منك فكورا

وتقول ليت وليت لا تغني الفتي ان لم يكن من قال ليت شكورا

فرفعت جوابي لعظمته بالاعتذار في الحال وقلت

عذراً أبا الاحسان لا أشكو ولن أشكو ولي مولى أراه نصيرا

أغنيتني عن كل أهل الارض مذ أغنيتني عن كل أهل الارض مذ

« فلا شكرتك ما حيت وان أمت » فتذيع شكرك أعظمي مقبورا

ولئن أساء الدهر لي فأضامني حيناً فلاقيت المماش عسيرا

فالدهر كفر عن اساءته فاس مدني فبت الى المعز سميرا

أنا بفضلك يا أمير العرب في نعمي بلغت بها الهنا الموفورا

نافست في نعمائك الشعراء والادباء حيث لهم غدوت أميرا

وأذعت ما بين الانام مدائمي ونشرت منها في البلاد عطورا

والفخر لي اني بيبابك لا تذل لا أن أكون مسوداً ميسورا

والله أسأل أن يدبمك لي وللا عراب يا خير الملوك دهورا

فسر عظمته من جوابي وأمر لي بنفحة سنية حسب عاداته الملوكية

رجلين أحدهما . فتول والآخر مكتوف فقيل له هذا ابن أخيك قد قتل ابنك قال
 الراوي والله ما قطع قيس كلامه ولا اغتاض
 ثم التفت الى ابن أخيه وقال يا ابن أخي أمت برّك ورميت نفسك بسهمك
 وقتلت ابن عمك ثم قال لابنه الاخر يا بني قم فادفن أخاك وحلّ قيود ابن عمك وسق
 لامك مئة نقة دية ولدها فانها غريبة عانا
 وقال أرس . تطاليس الايام لا تدبم الفرح ولا الترح والاسف على الماضي تضييع
 للعمر لا غير وقال المنبي :

فما يدوم سرورٌ ما سررت به ولا بردٌ عليك الفاتت الحزنُ
 وقاله شاعرنا الانطاكي :

فدى وألف فدى قارون مأخذت من درة فقدتها أصبح الملك
 قد أصبحت بمياه النهر ساجحة من بعد دورتها في ذبّة افلك
 فلا عليها يقال اليوم وأسفا ولو غدت طمة الحيتان والسماك
 ما دام صاحبها في غبطة وعلى وسؤددٍ ونخارٍ آمن الهلاك (١)

وقال أمير المؤمنين عليه السلام « ان كنت جازعاً على ما تفتت من يديك فاجزع
 على كل ما لم يصل اليك » أي لا فرق بين ما فقدت وبين ما لم تحصل عليه وكلاهما
 في حكم المدم . وقال الشيخ عايش الكبير الذي قسم لك حاصل لديك والذي لفرك
 لا يصل اليك

أما ما فات زمانه فالندم عليه كالندم على ما فاتت وكلاهما في حكم المدم لا ينزع فيها
 ندم وقد قال الشاعر :

(١) كان عظمة مولانا أعزنا الله بشريف وجوده على ظهر نخته « بهمشير » في
 مباء قارون في قرب محلة المظفرية وكان بأصبه خانم من الماس كبير الحشم غالي الثمن
 وكان هذا الخاتم من النضة مركبة عايه الحجر على دائرة من الذهب تلتصق بالفضة
 ببريم لينزعها عظمته عند الصلاة صلاحاً وتعبداً فينما كان عظمته مرة مستنداً على حاز
 البيخت يستعرض جيشه وقعت الماسة في النهر وهو في أبان ازدياده فتقدم الغلمان
 للغوص رغبة في ايجادها فقال حفظه الله مبتسماً لا تعبوا فوجودها عبر المان وهي
 فدى على كل حال وكنت وقتئذ في الحضرة فأنشدت هذه الايات فتبسم عظمته وقال
 فدى وألف فدى وأجازني بكرمه الخاتمي

ما مضى فات والمزمل غيبٌ ولك الساعة التي أنت فيها

وأكثر الندم على ما فرط من الزمن ندم الكهول على تضييع شباب سدى
وذلك لأن الشاب يقضي شبابه باللهو والطرب والتشبيب والنزل فلا يدخر ما لا ولا يكسب
علماً ولا يجني مجداً حتى إذا ما أدبته تجاربه وعرف خطاه وأراد محاولة تدارك ما فات
وجد عزيمته قد خارت وقواه قد ضفت فيندم على شبابه الضائع ويقول مع الشاعر :
إلا ليت الشباب يعود يوماً لاخبره بما فعل المشيب

ولهذا تقول العامة في أمثالها « لو كان للإنسان عمران لقضى أحدهما بالتجربة
والآخر بالامل » وإذا عرفت ذلك فالسعيد من الشبان من اعتبر بندم الكهول
والشيوخ على تضييع شبابهم سدى وحرصوا على زهرة شبابهم فكسبوا بها ما لا وعلماً
وجاهاً مما يكون لهم ذخيرة عند ما يكهلون فيصبحون بحالة لا تساعدهم عقولهم بها على
تحصيل العلم ولا قواهم على تحصيل المال وكلاهما على تحصيل الجهد. وفي ذلك قلنا :

ندم الشيوخ على الشباب وقد مضى باللهو ما عدأ جنبوا أو مالا
ندأ لقد عضوا البنان عليه إذ في لهولهم قد ضيعوا الأمالا
فايتبر شباتنا بشيوخنا وليحسبنوا زمن الصبا الرعلا

من هذا البيل أيضاً الندم على ضياع الفرصة فكم وكم تمنح لاحدكم فرصة
لانيان عمل ينم منه ربحاً كبيراً أو جاهاً وثيراً فيتغافل عنها فتفات من يديه فيندم
ولات ساعة مندم وهذا النوع من الندم لا يخلو منه أحد من الناس لأن ما من الناس
من لم تصبه فرصة خير فيضيعها وهيمت أن تعود الفرص ان هي أفلتت والسميد
من اغتمها

« معاناة المدبر »

والقسم الثاني من الامور الساقطة عن الاعتبار معاناة المدبر والمدبر هو ما أشرف
على الفوات ومن أمثال العرب قولهم « خذ الامر بقوابله » أي خذه عند استقباله
قبل أن يدبر فانه اذا أدبر أتعب طلابه . وقال الشاعر ما في هذا المني :
إذا رأيت يبيد أمر مقبلاً فقريب ما استدرت منه يبيد
وقال آخر :

نخذ لبن وجه الارض مادام مقبلاً اليك ولا تكلف به حين يدبر

رقال النظامي .

وخير الامر ما استقبلت منه وائس بأن يتبعه اتباعاً
وقال بعض الحكماء « ما كان عنك معرضاً فلا تكن له متعرضاً » ومن كلام بعض
الوعاظ « أيها العاقل مالك تعرض عن الآخرة وهي قبلة عليك وتقبل على الدنيا وهي
معرضة عنك » وقال بعض الشعراء :

ألا أما الدنيا غضارة أيكبر إذا خضرت منها جانب جف جانب
فلا تكتحل عينك منها بغيره على ذاهب منها فانك ذاهب

وقال الشاعر :

نفسى التي تملك الاشياء ذاهبة فكيف أخشى على شيء إذا ذهب
والزهد كله بين كلمتين في القرآن الشريف « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا
بما آتاكم » ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ لزهد بطرفيه

وقال الشاعر :

إذا عاش الفنى ستين عاماً فنصف العمر تحقته الليالي
ونصف النصف يذهب ليس يدري لغفاته يمينا من شمال
وباقى العمر يصرفه يكدر وهم بالمصائب والعيال
فماذا ترتجى من عيش عمره وقسنه على هذا المثال

وقال أحد الاكابر « ما أمتع بدنيا ان بقيت لها لم تبق لي وان بقيت لي لم أبق
لها » وكان يقال يا ابن آدم لا تأسف على مفقود لا برده عليك الفوت ولا تفرح
بوجود لا يتركه عليك الموت »

ومن هذا الباب معاناة الرجل بتجديد مجد دارس أو تجارة بأرة أو تعمير بيت
تداعى للخراب ولو عقل لاشفق على نفسه وماله فاشتغل لكسب مجد جديد من
وراء عمل جديد على أسلوب جديد أو خرب بيته المتداعي وعمر على انقاضه
بيتاً جديداً

ومن هذا القبيل عناية الامم بتجديد شباب دولها الشائخة فانهم يتعبون أنفسهم
في ما لا يفيد والدول على ما قرر ابن خلدون كالأفراد لها نشأة فشباب فكهولة
فشيخوخة فموت والامة التي تكون في دولة شائخة عابها أن تفكر باحداث دولة جديدة
تقوم على انقاضها خيراً لها من أن تفكر بتجديد شباب دولتها فتدوت معها . الا أن

رشيدات الامم كازاشدين من الرجال قليل ولذلك ترى كثيراً من الامم قد أضاءت
بمجدها وسؤدها ودخلت في حكم أم أخرى غريبة عنها
« الاهتمام بالمقبل »

واعلم أن الاهتمام بالمقبل هو عبارة عن الاهتمام بما قرب حصوله أو أشرف وهذا
وان كان يحكم به العقل بالبداهة الا أن اعتباره كالحاصل نوع من أنواع الوهم الواجب
أن يتزهد عنه ذو العقل السليم وقد قال الشاعر :

كل ما ترتجيه سهل ولكن عثرات الامال ليست بسهلة

قيل ان شاباً زاحم شيخاً في الطريق فقال الشاب كم تمن القوس وأراد في ذلك
تعبيره بأنحاء ظهره حتى بات يشبه القوس فقال الشيخ يا ابن أخي ان طال بك الاجل
فانك مشترها بغير ممن

ومن أمثال العرب « أنت على المحرب » أي أنك مشرف على ما تجر به . قيل ان
أصل هذا المثل أن رجلاً حاول وصال امرأة فلما دنا منها قال أبكر أنت أم تيب ؟
فقلت أنت على المحرب ويضرب هذا المثل لمن يسرع في السؤال عن شيء هو قادم
على معرفته

ومن أمثالهم « اليك يساق الحديد » يضرب مثلاً للرجل يهياً له الامر وهو
مستعجل يتمسك الوصول اليه قبل أو انه. وأصاه أن رجلاً خطب امرأة فجعل يصف لها
نفسه حتى انتصب ذكره من تحت ثوبه فضربه يده وقال « اليك يساق الحديد »
فذهب قوله مثلاً

ونظر اعرابي الى القمر حين طلوعه فأبصر به الطريق وكان خائفاً أن يضل
فقال ما عسيت أن أقول فيك ان قلت حسنتك الله فقد فعل أو رفعتك الله فقد فعل
وقال المتنبي :

والهجر أقتل لي مما أراقبه أنا الغريق فما خوفي من البلل

ووعده بعض الرؤساء بعض الادباء وعداً فاقضاه عليه مرة بعد أخرى وكان في
كل مرة يجدد له الوعد فكتب اليه لست أتمس باقتضاه وعدك تجديده لان هذا قد
أحرزته وإنما أتمس منك انجازته

وسأل بعض الخلفاء رجلاً عن شيء فقال الله أعلم فقال قد شقينا ان كنا لا نعلم
أن الله أعلم فاذا سئل أحدكم عما لا يعلم فليقل لا أعلم بكل صراحة

وقيل استأجر رجل حملاً ليجمل له قفصاً فيه قوارير على أن يعلمه ثلاث خصال
ينتفع بها فلما بلغ تلك الطريق قال هات الخصلة الاولى فقال من قال لك الماشي مثل
الراكب فلا تصدقه قال نعم . فلما بلغ الثالث الثاني قال هات الثانية قال ومن قال لك
الجوعان مثل الشبعان فلا تصدقه قال نعم . فلما انتهى الى باب الدار . قال هات الثالثة
قال من قال لك انه يوجد حمال أجهل منك فلا تصدقه . فرمى الحمال القفص على الارض
مغتاظاً وقال من قال لك انه بقي في القفص قارورة صحيحة فلا تصدقه

وسمع ابن الجصاص آية من القرآن في بعض المجالس فقال حسن والله هاتوا دواة
وقرطاساً أكتب هذا قالوا هذا من القرآن وفي داركم خمسون مصحفاً فلم يثن القول
عزيمته فكتبها وقال لسكل جديد طلاوة

ونظر ابن الجصاص وجهه في المرأة فقال لمن حوله هل طالت لحيتي ؟ فقيل له ان
المرأة في يدك قال نعم الا أن الحاضر يرى ما لا يراه الغائب
وقال أحق لابنه أي يوم صلينا فيه الجمعة في مسجد الرصافة ؟ فقال لقد نسيت
ولكنني أظنه يوم الثلاثاء فقال صدقت كذا كان

« في بيان الامور العديمة الفائدة »

ومما ينبغي الحاقه بهذا الباب هو بيان الامور المهدومة الفائدة المتساوية العائدة
منها وصف الشيء بنفسه كقول بعضهم :

كأنتا والماء من حولنا قوم جـلوس جـولهم ماء
وقال في ذلك ابن الوردي :

وشاعرته واقدته طبع الذكاء له فكاد بحرقه من فرط انكاه

أقام يجهد أياماً قريحتيه وشبهه الماء بعد الجهد بالماء

ومنها تخصيص الشيء بما لا يختص به أو يشاركه فيه ما هو أقل منه كما يحكى انه
تعرفت مدينة لكثير فقالت له هل أنت القائل :

وما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جنباتها وعراها

بأطيب من أردان عزة موهناً وقد أوقدت بالندل الرطب نارها

قال نعم قالت لله درك فلو أن زنجية أوقدت النار بالندل وتعطرت لطاب من أردانها
الشذا. ولكن هلاً قلت كما قال سيدك امرؤ القيس :

ألم زياتي كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وان لم تطيب

نخجل منها وقال صدقت يا خالة . وسمع بعضهم قائلاً يقول شعراً :
 ومن لا يود المدح أن مداحي نوافق عند الاكرمين نوامي
 نوافق عند المشتري الحمد بالندی نفاق بنات الحارث بن هشام
 قال يا ابن أخي ما بلغ من نفاق بنات الحارث بن هشام؟ قال كن حسان الوجوه
 وكان أبوهن إذا زوجهن يسوقهن وهوورهن الى بعواتهن فقال يا ابن أخي لو فعل
 ابليس بيناته ما فعل الحارث لتنافس فيهن الملائكة المقر بون . ومن ذلك قول شاعرنا
 الانطاكي لواقعة حال :

أقول وقد لاحت وأنضت خبائها جميلة هذي أم شبيه جميلتي
 فاني اليها شيق دائم الهوى وليت فؤادي كان يعشق بالتي
 فقلنا له وما معنى شبيه جميلة أريد أنها كانت أقل مما تعهدا جمالا أم أن الهوى
 أثر عليها كما أثر عليك؟ فقال :
 فاني رأيت البعد أثر في بها محاسنها
 ثم توقف فقلنا أتم قولك :

تأثيره في قريحتي

فلا أنا فيها واصف زهر حسنها ولا هي في ذا الحب ذات صباية
 ومن هذا الباب ترجيح الشيء على نقيضه أو ضده بالرجحان ضرورة وبداهة
 فان في ذلك نقصاً لارجح فضلا عن عدم فائدة الترجيح كتنفضيل الماس على الفحم
 والنور على الظلمة وهلم جرا قال الشاعر :
 اذا أنت فضيات امرءاً ذا نباهة على جاهل قد كنت فيه منقصاً
 ألم تر أن السيف ينقص قدره اذا قيل هذا السيف أمضى من العصا
 وقائنا في مثل هذا لواقعة حال :
 وما مدح فينا الحسين مفضل محامده النيرا على ابن معاوية
 سوى كالذي قد قارن الشمس بالدجى وذا مظلم من حيث هاتيك زاويه (١)

(١) ومما عرف به عظمة الشيخ المعز أطال الله بقاءه برّه وتقواه وتمسكه في حب
 آل البيت على زعيمهم وعليهم سلام الله ولذلك كثيرون من الشعراء يقصدون عظمتهم
 بتمدح المصطفى وآل بيته الاخيار. ففي ذات يوم جاءه أحد الشعراء مادحاً سيّد الشهداء
 وكان في جملة ما قال :

ومن ذلك ترتيب الآثار على غير الآثار على موضوعها. من ذلك انه قيل لاعرابي اشترى غلاماً انه يقول في الفراش فقال ان وجد فراشاً فليل عليه . وقيل لاعرابي ما تسمون المرق؟ قال السخين قال فاذا برد؟ قال نحن لا نتركه حتى يبرد . ومثله قدمي مع قوم على طعام فأخذ بيكي فقيل له وما بيكيك؟ فقال ان الطعام حار قالوا فاصبر حتى يبرد قال واسكنكم لا تصبرون. وقال الشاعر :

عجبت لمن يقول ذكرت حبي وهل أدنى فأذكر ما نسبت

وقال المتنبي مخاطباً المؤذن :

ألا أذن فما أذكرت نامي ولا لئنت قلباً وهو قاسي

ومنها أيضاً التعريف بالجميل والمبهم وذلك كما يحكى أن رجلاً قصد بشار ففرع الباب فقيل من الباب؟ قال أنا فقال يا أنا ادخل . وفرع الباب رجل على عمر بن عبيد فقال من هذا؟ فقال أنا، فقال لست أعرف أحداً من اخواننا المسلمين اسمه أنا وقيل فرع رجل على الجاحظ الباب فقال من؟ فقال أنا فقال الجاحظ أنت وفرعك سواء لا فرق بينكما

وروى شاعرنا عبيد المسيح بك أنطاكي حادثة من هذا القبيل نذكرها على سبيل الفكاهة . قال ان السادة الاشراف في اليمن كثيرو التبذير حتى على الامراء فيبما كنت مرة بضيايته سمى سلطان لحج المرحوم أحمد بن نضل محسن و كنت بخدمته في مجلس وباب الغرفة مغلقاً واذا به يقرع فنادى السلطان رحمه الله من بالباب؟ فقال الطارق افتح أنا سيدك قال ان أسيادنا كثيرون فأبهم أنت؟ قال سيدك محمد قال ان أسيادنا بهذا الاسم كثيرون فأبهم أنت؟ فقال سيدك محمد البار قال أهلاً ومرحباً تفضل فدخل السيد وتصدر المجلس ثم طلب مالا فذبحه السلطان ما طلب فانصرف . قال الانطاكي وبعد انصرافه قال السلطان المرحوم انظر هذه الحالة أنا سيدك فلان وهات احسان مع اني لو كنت قادماً لبيتي وقرعت الباب وسألني عبيد الذي هو ملك يدي

وان حسيناً ما يزيد بكفته وقد فاقه في المكرمات الزواهي

فتبسم عظمته حتى اذا انتهى من نشيده قال له ألا ترى حسناً أن تلحق بقصيدتك هذين البيتين وارنجل عظمته بيتي المتن في الحال فنجعل الشاعر واضطرب فسكن عظمته اضطرابه باحسانه اليه وأجازه على شعره وقال متطافاً ما أردت نخبيلك ولكن سيد الشهداء لا يجوز أن يفضل على غير الاكفاء والا فيكون ذلك، نقصبة له عليه السلام

من الطارق؟ فقلت له أنا فلان من غير أن أقول له سيدك نقول ان أشراف العراق على غير هذا

ومن هذا الباب التعريف بالتنوع وذلك كما يحكي أنه أرسل السراج الوراق غلامه الى السوق ليشتري له زيتاً فلما أحضره صبّ عليه عسلاً وأكل لقمة فوجده زيت سراج لا يصلح للاكل فذهب الى الزيات وعاتبه فقال يا سيدي لا ذنب لي فقد قال عبدك اعطني زيتاً للسراج . ومن ذلك ما يقال انه سئل جامع الصيدلاني عن عمر ابنته فقال لا أدري الآن الا أن أمها ذكرت لي انها ولدتها في أيام البراغيث والعامه في هذه البلاد أكثر تواريخها من هذا القبيل فمنهم من يقول لك ان مولده في سنة الوباء أو في سنة الجذب وانه تزوج في ولاية الامير فلان وهلم جرا

﴿ الروضة السادسة ﴾

﴿ في بيان الراجح والمرجوح ﴾

« توطئة »

غرسنا هذه الروضة لبيان الراجح والمرجوح أو هي موازين العقل في مقام التعارض أو التردد بين أمرين متنافيين لا يمكن اجتماعهما. وهذه الموازين على ثلاثة أقسام أولها ما كان بين أمرين متعارضين وكلاهما نافع. والثاني ما كان بين أمرين متعارضين واحدهما يراد به جلب منفعة والآخر يراد به دفع مضرة. والثالث ما كان في تعارض ضررين

وسنذكر هذه الاقسام الثلاثة بالتفصيل ان شاء الله

« في الأمرين المتعارضين وكلاهما نافع »

اعلم أن موازين هذا القسم سبعة وسنذكرها واحدة فواحدة

الميزان الاول رجحان الانفع من الامرين — وذلك كما حكى انه أكل السلطان محمود يوماً مع بعض ندمائه باتيجاناً وهو جائع فقال انه طعام لذيذ. فأفرط النديم في مدحه ثم شبع السلطان فقال ولكن الاكثر منه بضرراً فبالغ النديم في عدّ مضارّه فقال السلطان دحته لي الآن فكيف تعود الى ذمه؟ فقال أنا نديمك لانديم الباتيجان فأتكلم بما يطيب لك

وقيل سجع بعض المغنبلين فلما رأى الكعبة قال اللهم اغفر لها اللهم عافها. فقال له رجل يسمعه: ومن هذه التي آثرتها على نفسك؟ فقال امرأتني فاني صحبت كثيراً من الخلق فما وجدت من يلذني وأقضي معه حاجتي سواها فكيف لأدعوها؟

وحكي أن رجلاً حمل بعض الصوفية طاماً إلى طحان يداحنه. فقال الطحان أنا
مشغول فقال الصوفي اطحنه والا دعوت عايك وعلى سمارك ورحاك. قال فهل أنت بحباب
الدعاه؟ قال نعم قال اذن ادع الله عز وجل أن يصير حنطتك دقيقاً فهو أنفع لك
واسلم لدينك

ولما أخذ محمد بن سليمان صالح بن عبد القدوس ليتوجه به إلى المهدي قال له أطلقني
حتى أفكر لك فيولد لك ولد ذكر ولم يكن لمحمد بن سليمان غير بنت واحدة فقال بل
اصنع ما هو أنفع لك حتى تفلت من يدي. قال وما هو؟ قال ان تفكر في أن تصبح بنتي
غلاماً وهكذا ضاعت حياته

قيل لأبي ذر وقد رمدت عيناه هل داويتها؟ فقال أي عنهما لمشغول فقيل له هلا
سألت الله أن يما فيهما؟ فقال أسأله في ما هو أهم من ذلك

الميزان الثاني في رجحان الأرجح من الأمرين الناعمين — فمن أسأل العرب
قولهم: بطني تعطري. أصله ان امرأة كانت تعطر رجلاً ولا تطعمه فكأنه يقول لها
اشبعي بطني ولا تعطريني

وحكي أن رجلاً أتى امرأته وهو جائع فتبأت له فلم يلتفت إليها ولا إلى أولادها
فلما شبع دعا أولاده فقرَّبهم إليه إلى أن شعر بحاجته إلى امرأته فسمى إليها فقالت
بيطنه يبدو الذكر. فذهب قولها. مثلاً. وقال بعض الأذكياء:

إذا استنيت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه

اذ ما لا حاجة إليه لا يسدَّ عما إليه الحاجة والافتقار. وقال محمد بن عبد الرحمن
دعا مغنٍّ مرة أخاً له فأقعده إلى العصر فلم يطعمه شيئاً فاشتدَّ جوعه فأخذه مثل جنون
ولم يعد يستطيع العمل. فأخذ صاحب البيت العود وقال بجياني أي صوت تشتهي أن
أسمعك؟ قال صوت المغلي والمشوي

وحكى أبو الرمقمق قال كان لي اخوان أربعة كنت أنادمهم في أيام الاستاذ كان نور
قال فضاقي ما في يدي وقل ما عندي وجلست في بيتي مفكر في أمري. فبينما أنا كذلك
اذ جاءني رسولهم وكان يوماً بارداً ولم يكن عندي كسوة أتقي بها البرد فقال لي الرسول
ان اخوانك يقرؤنك السلام ويقولون لك اننا قد ذبحنا شاة سبينة فاذا تشتهي أن
نطبخها وعجل بالقدوم البنا فكتبت اليهم

اخواتنا قصدوا الصبح بسهرة وأنى رسولهم الي خصيصا

قالوا افترح شيئاً نرى لك طبيخه قلت اطبخوا لي جيسة وقيصا
قال فدفعت الرقعة الى الرسول فذهب بها اليهم وبقيت أنتظره وما شعرت الا وعود
اليّ ومعها أربع خلج كاسلة وأربع صرر في كل صرة شرة دنانير وفرج الله عني فأخذت
أحسن الخلع فلبستها وتوجهت اليهم نصحتهم اليوم بطوله وكان من هنا أيامي
الميزان الثالث في رجحان الأسهل من الأمر على الأصعب والميسور على المعسور —
فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خيّر بين أمرين الا اختار أيسرهما
ما لم يكن آثماً . وقال أحد الأدباء لصاحبه على سبيل الدعاية من الأولى بان يعشق الجارية
أم الغلام ؟ فقال أرى الأولى بأهل المدارس عشق الغلام ذي الطرف الناعس فان
الميسور أولى من المعسور ثم أنشد

حبّك المرء والصبيان أيسر من حبّ الغواني ذوات اللدّ والحفر
فالمرء في كل وقتٍ لاحجاب لهم والبيض نحجب في بيض وفي سمر
وقال أحد الحكماء من فطنة الكلب انه اذا عاين الظباء قريبة كانت أو بعيدة
عرف العليل منها والصحيح والذكر من الاثني فلا يقصد في صيده الا الذكر وان
علم انه أشدّ عدواً وأبعد وثبة ويدع الاثني على نقصان عدوها وذلك لعله ان الذكر
اذا كان مطارداً فزناً وعدداً شوطاً أو شوطاً بين حقن ببوله وكذلك كل حيوان اذا
اشتدّ فزته فانه يدركه الحفن واذا حقن الذكر لا يستطيع البول مع شدة العدو
فتنقل حينئذ خطواته فيلحقه الكلب ويصيده والاثني ليست كذلك . وقال بعض الشعراء
فاذا تعسّرت الامور فأرجها وعليك بالامر الذي لم يعسر

وقلنا في هذا :

لا تعب النفس بالامر العسير اذا لم ترج ان تكافا في تبسره
وكن نشيطاً بتدبير العسير اذا عراك يوماً وأحزم في تدبّره

الميزان الرابع رجحان الاقرب من الامرين على الابدع منهما ومعالجة الموجود خير
من انتظار المنفوق

حكى أن ملك الهند أرسل رسولا الى أنوشروان فلما انتهى اليه جميع أرباب
دولته وأعيان مملكته أذن له بالدخول فلما دخل عليه قال اسمع جواب رسالتك : ان
سلطان الهند يدعني لطاعته فقل له ان يصلح مملكته أولاً ثم ينظر الى مملكة سواه
واذا أبي أن يرضخ الكلامي فالحسام يئتنا وبينه والسلام وأنشد

فعاجز من ترك الموجود طاعة وطلب المفقودا
 وربما تتبع الانسان لنفسه ما بعد عنها استهانة بما قرب منه وطلب ما صعب مناله
 احتقاراً لما سهل وانتقل الى من لم يخبره ملاماً من خبره وعلى الاكثر ان مثل هذا لا يحصل
 على فائدة ولا ينظر بمائدة. واعلم ان العاقل من لا يترك ما يقربه التماساً للبعد ولا يستهين
 بالأسهل طمعاً بالأصعب ولا ينتقل مما له فيه الخيار الى المالا خيار فيه . وبهذا يأتى من
 الضرر ويسلم من الخطر . وقال أحد الحكماء لست منتفعاً بما تتعلم ما لم تعمل بما تعلم ، فان
 زدت في علمك بغير عمل فأنت كالرجل الذي حزم حزمة من الحطب وأراد حملها فما
 استطاع فوضعها على الارض وأزاد عليها . وسئل بعض الحكماء ما الحزم ؟ قال هو أن
 لا تطلب المفقود بفقد الموجود . وقال داود الطائي رأيت المحارب اذا أراد أن يذهب
 الى الحرب أليس يجمع عدّة الجلابد فاذا قضى عمره يجمعها فتنى بحارب؟
 الميزان الخامس رجحان ما لم يكن عنه بدل ولا عوض على ما عنه بدل وعوض —
 من ذلك ان بعض الامراء قال لمعلم ابنه علمه السباحة قبل الكتابة فانه قد يجد من
 يكتب له ولكن لا يجد من يسبح عنه
 وحكي أن نحوياً ركب في سفينة فقال للملاح هل تعرف النحو؟ قال لا قال ويلاه
 فقد ذهب نصف عمرك . وبعد قليل هاج البحر واضطربت السفينة حتى أشرفت على
 الغرق فقال للملاح للنحوي هل تعرف السباحة؟ قال لا قال ويلاه قد ذهب كل عمرك
 واعلم ان الانسان اذا وجد بين أمرين أحدهما له بدل وعوض وآخر ليس له بدل
 ولا عوض رجح الاول بالضرورة العقلية كما حكي ان الضحاك بن قيس كان ملكاً من
 أحسن الملوك سيرة وأصفاهم سريرة فنزى له ابليس بصورة انسان ودخل عليه وزعم
 انه يجيد طهي الدعام فضمّه الملك الى حاشيته ووكله على طامه وصار كل يوم يطهي
 له أطايب الاطعمة ولذائذ الاغذية مما يمجز عنه غيره. فلما أعجب الملك بطهييه قال له
 يوماً اقترح ما تريد عليّ ، فكانة لك على حسن طعامك . فقال له ابليس آتني عليك ان
 تسمح لي بتقبيل كنتفك . فلم ير الملك ما يمنعه من تلبية طباخه فحسر عن بدنه فأقبل
 عليه ابليس وقبّل لوحى كنتفيه وفرّ من بين يديه ؟ فخرج من موضعي قبليته ساعتان
 كأنهما حيتان ، فعلم الملك انه ابليس ، وقال قد قتلنا بالعين ، فادواؤهما ؟ قال ادمغة
 الأدميين ، فد الملك يد الفتك ، ولاجل ادمغة استعمل السفك ، فضج الناس من
 ذلك ، وأيتنوا بالمهاك ، ثم تمّ الاتفاق بالاجماع ، على أن تؤخذ الناس بالافتراع ، فمن

وقمت القرعة عليه ذبحه وأخذ دماغه بالحلين ، وغذوا به الحيتين ، ففي بعض الادوار خرجت القرعة على ثلاثة انفار ، فاخذوا وحبسوا الوقت الاضطرار ، فوقفت للضحاك امرأة وضية الوجه مستغيثة قاتلة ثلاثة من دار ، لا صبر لي عنهم ولا قرار ، حاشي السلطان أن يرضى بهذا العدوان ، ولدي كبدي ، وأخي عضدي ، وزوجي معتمدي والسكل مسجون ، ليسقي كأس المنون : فرق لها الضحك ، وقال لا يعمهم الهلاك فاختاري واحداً من الثلاثة فقالت اختار أخي الشقيق : فسألها الضحك عن سبب اختيارها لاختيارها ، دون ابنها ووالد بنها . فقالت اني مرغوبة ، وللزواج مطلوبة ، فان راح زوجي فعنه لي بدل ، واذا وجد الزوج وجد الولد وحصل ، فتهياً الغرض ، ووجد عنه العوض ، وأما الاخ الشقيق ، فما عنه عوض في التحقيق ، لان أبوينا ماتا وفاتا ، وأصبحت الارض رفاتنا ، فهذا ما أدت اليه أفكاري ، ووقع عليه اختياري ، فاستحسن الضحك منها هذا الكلام ، ووهبها الثلاثة مع زيادة انعام . وقال بعضهم :

بمضي أخوك فلا تلقى له خلفاً والمال بعد ذهاب المال مكتسب

وأما مثلنا لك بالاخ لتقيس عليه سائر الامور الفتوية على حسب درجاتها . واذا خاف الانسان على نفسه شيئاً طابت نفسه عن المال والاهل والوطن فانه يرجو الخلف من ذلك كله ولا يرجو عن النفس خلفاً . ولذلك قيل لجحى متى تقوم القيامة ؟ قال يوم أموت أنا . وقيل له متى القيامة الصغرى ؟ قال يوم موت الناس أجمعين

الميزان السادس رجحان اليقين على الظن ورجحان الظن على الوهم - ومن هذا قولهم كوخ في العيان خير من قصر في الوهم . وما كان أحسن من لو كان . وعصفور في الكف خير من كركي في الجو . ولئن تعطف خير من أن تقف . وقالوا أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس . ومن أمثال العرب مس الثرى خير من السراب أي اقتصارك على قليلك خير من اغترارك بما لا غيرك . وقال أمير المؤمنين عليه السلام « حفظ ما في يدك أحب من طلب ما في يد غيرك » قال بعض الشعراء هذا مثل قولهم في المثل المأثور: البخل خير من سؤال البخل . وليس مراده عليه السلام الوصاية بالبخل والامساك بل يريد النهي عن التفريط والتبذير . قال الله تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » . قالوا وأحمق الناس من أضع ماله اتكالا على مال الناس وظناً انه يقدر على الاستخلاف . وقال الشاعر

إذا حدثتسك النفس انك قادرٌ على ما حوت ايدي الرجال فكذب
ومن الامثال في ذلك ما جاء لبعضهم في الصياد والسمكة

اتفق الحال مع الصياد	في بلدة من اصغر البلاد
ان حكم الطوى على السناره	من بعد ما ان عمل استخاره
فغطست في الماء بعض أذرع	وشبكت سُميكة كالأصبع
قالت له وهل لمنلي منفعه	يا ليتما بدلتني بصفده
اني حقيرة وليس بي طمع	اذ ليس لي طعم ولا مني شبع
أرك سبيلي ستينين أكبر	وبعد في هذا المكان أحضر
وارم الى البحر لصيدي شبكة	حتى تقول الناس صاد سمكة
فقال بل أ دون عين الجاهل	اذا تركت عاجلا بأجل
وعاجر من ترك الموجودا	طماعة وطلب المفقودا

ومن أمثال العرب قولهم لا أطلب أثراً بعد عين والعين المعاينة ومعناه لا أترك
أشيء وأنا أعاينه ثم اتبع أثره حين يفوتني . وقيل العين ههنا نفس الشيء يقول لا
أترك الذي أطابه ثم اتبعه اذا فات . والمثل لملك بن عمر العاملي وذلك ان بعض ملوك
عُسان طاب رجلا من عماله نفاته فاخذ رجلين وهما مالك بن عمر وأخوه سهاك فقال
اني قاتل أحديكما فقال كل واحد منهما اقتلني مكان أخي فعزم على قتل سهاك فقال هذا
وهو مقدم على القتل :

فاقسم لو قتلوا مالكا لكنت لهم جنة راصدة

فقتل وخلي مالك فانصرف الى أهله فلبث زماناً ثم ركب مرة مع أمه في سفرة
فسمعا بأحدهم يعني « فاقسم لو قتلوا مالكا » فسمعت أم سهاك فقالت يا مالكا قبح الله الحياة
بعد سهاك أخرج في طلب دم أخيك فخرج فلقي قاتل أخيه يسير في نهر يسير من قومه فلما
رأوه عرفوا الشر في وجهه فقالوا له لك مائة من الأبل وكف فقال « لا أطلب أثراً بعد
عين » وحمل عليه فقتله

وقال ابن الجوزي في الأذكياء بإسناده عن المبرد قال حدثني أحمد بن المعدل البصري
قال كنت جالساً عند عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون فجاءه بعض جلسائه فقال
أعجوبة قال ماهي ؟ قال خرجت الى حائطي بالدابة فلما ان أصحرت وبعدت عن
بيوت المدينة تمرض لي رجل فقال اخلع ثيابك فقلت وما يسدعوني الى خلع ثيابي ؟

قال أنا أولى بها منك قلت ومن أين؟ قال لاني أخوك وأنا عريان وأنت مكسو. قلت فلو اسأه قال كلا قد لبستها برهة وأنا أريد أن ألبسها كما لبستها قلت أنتعرتني وتبدي عورتني؟ قال لا بأس بذلك قد رويانا عن مالك انه قال لا بأس للرجل أن يفتسل عريانا قلت فيلقاني الناس فيرون عورتني قال لو كان الناس يرونك في هذا الطريق ماتعرضت لك فيها فقلت أراك ظريفاً فدعني حتى أمضي الى بيتي فانزع هذه الثياب وأوجه لك بها قال كلا أردت أن توجه الي أربعة من عبيدك فيحملوني الى السلطان فيحبسني ويمزق جلدي ويضع القيد في رجلي قلت كلا أحلفك إيماناً أني أوفي لك بما وعدتك ولا أسيتك قال كلا انا رويانا عن مالك انه قال لا تلزم الايمان التي يحلف بها اللصوص قلت فاحلف اني لا أحتال في ايماني هذه قال هذه ايمان مركبة على ايمان اللصوص قلت فدع المناظرة بيننا فوالله لا وجهن اليك هذه اثياب طيبة بها نفسي فاطرق ثم رفع رأسه وقال هل تدري في من فكرت؟ قلت لا قال تصفحت أمر اللصوص من عهد رسول الله صلى الله عليه وآله الى وقتنا هذا فلم أجد لصاً أخذ سرقته نسيئة وأكره ان ابتدع في الاسلام بدعة يكون علي وزرها ووزر من عمل بها بعدي الى يوم القيامة فاخلع ثيابك قلت نخلعتها ودفعتها اليه فاخذها وانصرف

الميزان السابع رجحان الباقي على الفاني والدائم على المضمحل - قال الشاعر :

ولقد أقول لحاجب نصحاً له خلّ العروض وبيع لنا أرضاً

اني رأيت الارض يقيمى نفعها والمال يأكل بعضه بعضاً

وقيل مرّ سليمان بن داود عليه السلام في مركبة على راعي غنم فقال قد أوتي سليمان ملكاً عظيماً فألقت الرمح تلك الكلمة في أذن سليمان فنزل عن عرشه وجاء الى الراعي وقال له ان تسبيحة واحدة في صحيفة عيد أفضل ألف مرة عند الله من ملك سليمان لان ملكه لا يقيمى والتسبيحة لصاحبها ينتفع بها في يوم القيامة وقال بعض الحكماء صلاح أسقام النفس أفضل من صلاح أسقام البدن لفضل النفس على البدن لانه آلة للنفس والنفس باقية والبدن فان مضحجاً ومصالحة الباقي والعناية به وتعديله أفضل من اصلاح الفاني ومع ذلك فان صلاح أنفسنا سهل وأخف من مؤونة اصلاح أبداننا . وقال الفخر الرازي ان حسن السيرة أفضل من حسن الصورة لان حسن الصورة زائل وحسن السيرة دائم الاحدوثه . ومن كلام بعض الاعلام : الويل لمن أفسد آخرته بصلاح ديناه ففارق ما عمر غير راجع اليه وقدم على

ما خرب غير منتقل عنه وقال الشعبي سمعت الحجاج يتكلم بكلام ما سبقه اليه احد سمعته يقول أما بعد فان الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء فلا يفرونكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة واقهروا طول الامل بقصر الاجل . وقال ابن عباس لو كانت الدنيا ذهباً يفتى والآخرة خزفاً يمتى لاخترنا ما يبقى على ما يفتى فكيف وقد اخترنا ما يفتى على ما يبقى . ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام « أيها الناس إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار فخذوا من ممركم لمفركم » وقال عليه السلام « الغنى والفقر بمد العرض على الله » أي لا يعد الغنى غنياً الا من حصل ثواب الآخرة الذي لا ينقطع أبداً ولا يمد الفقير فقيراً الا من كتب عليه حرمان الآخرة وذلك هو الفقر حقيقة . فأما غنى الدنيا وفقرها فأمران عرضيان زوالهما سريع وانقضاءهما وشيك والذي يستحق اسم السعادة على الحقيقة هو السعيد في آخرته حيث البقاء بلا فناء والعلم بلا جهل والقدرة بلا عجز والغنى بلا فقر . وقال الشاعر في مثل ذلك :

ليس السعيد الذي دنياه تسعده بل السعيد الذي ينجو من النار
حكى أن أحد الأغنياء سمع ذات ليلة هاتفاً يقول له في المنام: غداً سيموت أسعد
رجل في المدينة . فلما صبحا من نومه ساوره الغم الشديد لانه يعلم ان لارجل في المدينة
أغنى منه . وكان في المدينة رجل حجار فقير فدنا أجله في ذلك اليوم . وجاء بعض
العلماء لذلك النبي وأخبروه ان فلاناً الحجار مات في صبيحة ذلك اليوم . قال فاصبروا
الى آخر النهار لئلا يموت غيره . وظل الغني قلقاً على نفسه بعد الدقائق بفروغ
صبر حتى انقضى النهار فلم يسمع بموت احد غير الحجار . فقال حقاً ان الحجار أسعد
مني لانه كان رحمه الله رجلاً صالحاً طيب السريرة لا يسعى الا في الخير قانعاً راضياً
مرضياً . ولا بد أنه انتقل اليوم الى السعادة الابدية وانا هنا في هم وشقاء لسبب حشد
الاموال وظلم العباد . فما يمنعني ان انعظ بذلك واغير سلوكي فاكون أسعد رجل بمعنى
الكلمة ؟ اني قادر بأموالي ان اكون سعيد الدارين وكان الله يحب التائبين
وقال عليه السلام « الحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور » وقال عليه السلام
« شتان ما بين عملي عمل تذهب لذته وتبقى تبعته وعمل تذهب مؤوته ويبقى أجره »
أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

تبقى عواقب سوء في مغبتها لا خير في لذة من يمدها النار
ومن كلامه عليه السلام « ان تتعب في البر فان التعب يزول والبر يبقى » ومن

كلامه أيضا « عجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء »

« في تعارض النافع والضرار »

واعلم ان القسم الثاني من أقسام الموازين يتعلق بتعارض مصلحة ومفسدة والتردد بين جلب نفع ودفع ضرر وهما ميزانان سنذكرهما تفصيلا

الميزان الاول في رجحان دفع المفسدة على جلب المنفعة - قال بقراط الاقلال من الضرر خير من الاكثار من النافع . وأوصى عبد الملك بن صالح أميراً قدمه على سرية أرسلها الى قتال عدو له فقال كن كالتاجر السكيس أن وجد ربحاً انجروا والا حفظ رأس مالك ولا تطلب الغنيمة حتى محمد السلامة . وقال شبيب بن شيبه أن ابتليت بمقام لا بد لك فيه من الاطالة فقل أحكام البلوغ في طلب السلامة من الخنظل قبل التقدم من أحكام البلوغ في سرف التجديد ثم اياك ان تعدل بالسلامة شيئاً فقليل كاف خير من كثير غير شاف وينبغي أن يؤخر القتال ما وجد بدلاً فان النفقة عليه من الانفس وعلى غيره من المال

الميزان الثاني رجحان رفع المفسدة وازالتها على جلب المنفعة - والفرق بينه وبين الميزان الاول دفع والدفع قبل الوقوع وهذا وقع وهو بعد الوقوع وكلاهما راجح على طلب المنفعة من ذلك ما رووا ان رجلاً سأل أحد العلماء أسبح الله أم أستغفره فقال ان الثوب الوسخ أحوج الى الصابون من البخور أي أن الاستغفار يجب أن يقدم على التسبيح . وقال بعضهم :

لا يعجبك من يصون ثيابه خوف الغبار وعرضه مبذول

فلربما افتقر الفتى فرايته دنس الثياب وعرضه مغسول

وأما رجحان الزرع على النفع فطلق من غير تقييد اذ لا مصلحة مع وجود مفسدة نال بزهر لا ينبغي للملك أن يكون في حفظ مملكته أقل من البستاني في حفظ بستانه فانه اذا زرع الریحان ونبت بينه الحشيش استعمل في قطع الحشيش لئلا يضبط أما كمن الریحان . وقال يحيى بن معاذ انكسار العاصين أفضل عندنا من صولة المصلين ومن كتاب الدر المنثور « شر لا يدوم خير من خير لا يدوم »

« في تعارض الضررين »

والقسم الثالث من الموازين تعارض الضررين والاضطرار الى ارتكاب أحد قبيحين وهو ميزان فقط

الميزان الاول رجحان ارتكاب أقل القبيحين وأهون الضررين — فاعلم انه كما يجب عقلا في تعارض المنافع تحري الانفع والاكثر والابقى وكذلك يجب عند تعارض ضررين اختيار الأهون الأقل ضرراً . من ذلك أن بعض الاذكياء سئل ما الماقل ؟ فقال هو العالم بخير الخبير وشرّ الشرّين فالعاقل اذن من عرف خير الشرين وألف بين الضدين وجمع بين المتباينين كما في قصة سليمان بن داود عليهما السلام في أمر الغنم والحارث وشرح ذلك فيما نقله المفسر هو :

دخل رجلان على داود عليه السلام أحدهما غنام والآخر صاحب حارث فقال للحارث دخلت غنم هذا الرجل بالليل على حارثي فأهلكته وأكاته ولم تبق لي فيه شيئاً فقال داود الغنم للحارث عوضاً عن حارثه فلما خرجا من عنده مرا على سليمان وكان في الحادية عشرة من عمره فقال لها ما حكم بينكما الملك فذكر له ذلك فقال غير هذا رفق بفريقكما فعادا الى داود وأخبراه بما قاله ولده سليمان فدعا داليه وقال له ماهو الاوفق ؟ فقال أن تسلم الغنم الى الحارث فيأكل ابنها وينتفع بدرها ونسائها ويسلم البكرم الى الغنم ليقوم فيه فاذا عاد البكرم الى هيئته وصورته التي كان عليها ليلة دخل الغنم اليه سلم البكرم الغنم لصاحبها واستلم كرمه كما كان فقال داود العدل ما قلت وحكم بذلك وقد نزلت الآية « وداود وسليمان اذ يحكمان في الحارث اذ نضت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين »

وقال صاحب الاذكياء عن عقبه الازدي انه أتى بجارية قد جُننت في اللبلة التي أراد أهلها أن يدخلوها الى زوجها فجأوا بزمام فعزم عليها فاذا هي قد سقطت فقال لاهلها خلوني بها ففعلوا فدنا من أذنها وقال ليس عندنا أحد فأصدقني عن نفسك وأنا أخلصك من ورطتك فقالت كان لي خليل وأنا في بيت أهلي فافتض بكارتي وعند ما أراد أهلي ادخالي الى زوجي خفت الفضيحة وتظاهرت بالجنون فهل لك أن تصون شرفي وشرف أهلي حسبة لله تعالى قال نعم ثم خرج الى أهلها وفيهم زوجها وقال ان الجنبي قد أجابني الى الخروج منها فاختاروا من أي عضو تريدون اخراجه واعلموا ان العضو الذي سيخرج الجنبي منه لا بد أن يفسد فاذا خرج من عينها عميت أو أذنها أو فمها خرست أو يدها شلت أو رجلها عرجت أو فرجها ذهب عذرتها فقال أهلها ما نجد أهون من ذهاب عذرتها فأخرج الشيطان من فرجها فتركهم ودخل على الصبية وعزم وحرق البخور وأوهمهم أن الجنبي خرج من فرجها وأدخات المرأة الى

زوجها وصين شرفها وشرف أهلها وقال الشاعر في هذا الباب :
رضيت ببعض الذل خوف جميعه كذاك بعض الشراهون من بعض
واما ارتكاب اقل الضررين فقد قال بعض الثقات حدثني رجل له قدر قال ارسل
الي السلطان ان طلق امراتك وارادها لبعض اصحابه فأيدت ذلك وراجعت الرسل غير مرة
فقال لي ناصح منهم خذ الامر مقبلا فانه لا حيلة لك اذ ان السلطان لا يخاف عاراً ولا
في الآخرة ناراً انفارتها

وذكر بن الاثير وغيره ان أبا جعفر المنصور لما حاصر ابن هبيرة قيل له انه يخندق
على نفسه كالنساء فبلغ ذلك ابن هبيرة فأرسل اليه انت القائل كذا وكذا فأبرز اليّ اتري
فأرسل اليه المنصور ما أجد لي ولك مثل في ذلك الا كاسد لفي خنزيراً فقال له الخنزير
بارزني فقال الاسد ما أنت لي بكفو فان نالني منك سوء كان عاراً عليّ وان قتلتك قتلت
خنزيراً ولا نخر لمثلي بقتل خنزير فقال له الخنزير ان لم تبارزني لاعرفن السباع انك
جبنيت عني فقال الاسد احتمال عار كلامك أيسر من تلطيخ راسي بدمك

وقيل أنهزم دروين من بهرام جوبيت وقال هربت وان كان الهرب عيباً لاخلص
بهربي ارواح جماعة من أصحابي لانني ان هلكت هلك بسببي ألوف من الخلائق
ومن أنال العرب «لئن يقولوا فرّ خزاه الله خير من قتل رحمه الله» ومن أمثالهم
«سوء الاستمسك خير من حسن الصرعة» وقال بعض الفرس لئن ادعى جباناً وأنجو خير
من أن ادعى شجاعاً وأقتل» وقال بعض المعمرين «يا بني ان الحياة خير من الموت فلا
تموتن وأنت تستطيع أن تحمل نفسك على الهدكات»

وحكي ان الخليفة المنصور ظهر عليه في بعض الغزوات عالج فقال من برز لهذا
وكفاني مؤنته أعطيتة عشرة آلاف درهماً فطمع في ذلك أبو دلامة فبرز اليه فلما رأى
منه مالا طامه له به تركه وهرب فقيل هرب أبو دلامة من خصمه فلما بلغ الخليفة خبره
وكان أبو دلامة عنده قال هربت قاتلك الله فقال أبو دلامة قاتله الله أحسن عندي من
رحمه الله فضحك الخليفة من جوابه

وقيل لا سلم بن زراعة أن أنهزمت من أصحاب مرداس بن أذينة يفضب عليك
الامير عبد الله بن زياد قال يفضب هو وأنا حي احب الي من أن برضى وأنا ميت
وقيل انه أنهزم رجل في حرب فشمته أميره وقبج عليه عمله فقال لان تشمني
أصلحك الله وأنا حي خير من أن ترحم علي وأنا ميت

ومن ارتكاب أقل القبيحين ما حكى انه ادعى رجل في أيام المأمون انه ابراهيم خليل الله فقال له المأمون ان معجزة الخليل الالفاء في النار فنحن نلقيك في النار لرى حالك قال اريد معجزة أخف من هذه قال فمعجزة موسى فانهلقى العصا فاذا هي حية تسعى فقال هذه أصعب من الاولى قال فمعجزة عيسى احياء الموتى قال مكانك قد وصلت أنا اضرب رقبة القاضي يحيى بن اكنم واحييه لكم في الحال فقال يحيى أما أنا فأول من آمن بك وصدق نبوتك فضحك المأمون واجاز المتنبي على ان لا يعود الى هزيانه

وادعى آخر النبوة في زمن المأمون ايضاً فأمر تمامه ان يسأله ما علامة نبوته؟ فسأله عنها فقال نبوتي ان اضاجع امرأتك بحضورتك فتلد ولدأ يشهد لي وقت ولادته اني نبي فقال له اما انا فاشهد انك نبي من غير معجزة فقال له المأمون ما أسرع ما آمنت به؟ فقال ما اهون عليك ان يفعل بأمرأتي وانا أنظر اليه فضحك المأمون وأجاز المتنبي على أن يتوب

ودعا رجل لسامان الشاذكوني فقال أرانيك الله على قضاء اصبهان قال ويحك ان كان ولا بد فاعلى خراجها فان اخذ اموال الاغنياء اسهل من اخذ اموال الايتام واستأذن الجاحظ والسكالك وهما من المتكلمين على رئيس فقال الخادم لولاه الجاحد والشكالك بالباب فقال المولى هذان من الزنادقة لا محالة فصاح الجاحظ ويحك قل الحدقي في الباب وكان يعرف بهذا الاسم فصاح الخادم الخلقى بالباب فصاح الجاحظ ويحك ارجع الى الجاحد ارجع الى الجاحد فانه أهون من الخلقى

واما رجحان ارتكاب اقل الضررين بمقابلة رجحان اقوى المنفعتين . فمن ذلك قيل ان هاروت وماروت لما اقترفا الذنب ههما بالصعود الى السماء فلم تظاوعهما اجنحتهما فعلمسا ما حل بهما وقصدا ادريس فخيرها الله تعالى بلسانه بين عذاب الدنيا وعذاب الاخرة فاختارا عذاب الدنيا لانه غير أبدي من قبيل انه أهون الشرين وقال امير المؤمنين عليه السلام « العجب ممن يخاف عقوبة السلطان وهي وقتية ولا يخاف عقوبة الديان وهي دائمة » وورد في الحديث عنه عليه السلام قوله « عجببت ممن يحتمي عن الطعام مخافة المرض كيف لا يحتمي عن الذنوب مخافة النار وقد اخذ ذلك بعض الشعراء فقال :

جسمك قد اقتبسته بالحى دهرأ من البرد والحار

وكان اولى بك ان نحتمي من المعاصي عذر النار
 وقال ابن جباوه انا نظرتنا فوجدنا الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذاب
 الله تعالى لان الاول غير دائم والآخر دائم
 وهكذا يجب على الانسان في جميع أمور دنياه واخراه اذا وقع بين ضررين
 زمانيين أن يختار أهونها والاحكام الشرعية قد قررت ذلك وكذلك النظمات الموضوعه
 ألا ترى ان أحدهم يحكم عليه بحبس طويل ثم يرى الحكام ما يوجب على ذلك السجين
 لشقيع له استبدال مدة الحبس المحكوم بها بأقصر منها فيستبدلونها بأمر الملك اختياراً
 لاهون الضررين كما ان المحكوم عليه نفسه يسعى وراء ذلك اختياراً لاهون الضررين
 بكل ماله من وسائل الشفاعة

الميزان الثاني رجحان فوات البعض على فوات الكل — قال الله تعالى « فان لم
 يصبها وابل فطل » ومن أمثال العرب « لا يسقط الميسور بالمعسور » وقولهم « من لم
 يجد الحميم رعى الهشيم » ومثله « من لم يجد ماءً تيمم » ومثله « اذا لم يكن ما تريد
 فأرد ما يكون » ومثله قول الشاعر :

ومولى رفدت النصح حتى برده عليّ وحتى يعذر الرأي عاذره
 اذا كان لا يرضى برأيك صدره ولا أنت ان لم يرض رأيك قاصره
 فصبراً جميلاً ان في اليأس راحة اذا الغيث لم يطر بلادك ماطره
 وقتنا في مثل ذلك :

عجبت لمن يأبى القليل طماعةً بنيل كثير لا ينال فيخسر
 فما ضره لو يفتح النفس بالذي تيسر ممّا بعد لا يتيسر
 وقيل ان الهدهد قال لسليمان عليه السلام أريد أن تكون بضيافتي فقال له أنا وحدي ؟
 قال أنت وعسكرك في جزيرة كذا في يوم كذا فضى سليمان وجنوده الى هناك وصعد
 الهدهد الى الجوّ وصاد جرادة وكسرها ورمى بها في البحر وقال ياني الله كل ومن
 ملك فان من فاته اللحم لم يفته المرق . فضحك سليمان وجنوده . وأخذ هذا بعض
 الشعراء فقال :

وكن قنوا فقد جرى مثله ان فاتك اللحم فاشرب المرقه
 وقال شاعرنا الانطاكى في معرض غزل:
 جفت وما رحمت صباً أخا وله يبكي ويشكو الجوى في ظلمة الفسق

يعالج الشوق حتى كاد يحرقه زفيره وهو لم يأمن من الفرق
 وهام في وجهه من لوعة وجوى بين الشوارع والساحات والطرق
 فاشفقت كرمياً اشفاق ذي كرم على متبهما في آخر الرمق
 وأرسلت رسمها فيه تقول له ان فاتك اللحم فاطلب سائل المرق
 ما كان يقنعني جسم أعانقه فصرت أقنع في رسم من الورق

ورأى أحدهم امرأة حسناء في طاقة فاجبها ولازم المقام بياها والمرور تحت طاقتها
 الى أن أعىي وقل صبره ففرع عليها الباب فخرجت جارية تسأله عن حاجته فدفع لها
 صحيفة وقال دعني صاحبك تبول في هذه الصحيفة فلما بلغ الحسناء طلب الرجل ضحكت
 وبالت وقالت للجارية اتبعيه وانظري ماذا يفعل فلم يزل الى أن دخل بعض الخرابات
 فوضع ذكره في ذلك البول وجعل يقول يا مشوم اذا فاتك اللحم عليك بالمرق
 ومن نوادر جيجا أنه رأى في نومه رجلاً أعطاه تسعة دراهم فقال سبحان الله في
 طبعك اجعلها عشرة فما رضي صاحبه وتخانفاً خناقاً شديداً وفي أثناء الخناق انتبه جيجا
 من نومه فما وجد في يده شيئاً فندم لانه لم يرض بالتسعة وظن أن صاحبه غدر به
 لطعمه فأغض عينيه وجعل يصيح لا بأس هات التسعة الفرق بيني وبينك ميسور
 وفي الامثال « زوج من عود خير من قعود » وأصل المثل كان رجل من عدوان
 وله أربع بنات وقد عضلن غيره فسمعهن يوماً يتحدثن في خلوة فأصغى فاذا احداهن
 تقول لاخواتها فلتقل كل منا ما في نفسها وتصدق المقال فتمنت الكبرى زوجاً مثرياً
 والثانية كريماً والثالثة ابن عم لها والرابعة سكنت ولم تقل شيئاً فألحت عليها شقيقاتها
 فقالت « زوج من عود خير من قعود » فعرف حينئذ الاب شر العضل وزوجهن
 وقال كسرى لمغني له قد قتل الفلهذ تلميذي وكنت استريح منك اليه ومنه اليك
 فاذهب مقتاه حسدك له ولكن ذهب بشطر لذني قال هذا وأمر أن يطرح المغني تحت
 أرجل الفيلة فتدوسه فقال المغني مولاي جعلت فداك أنا أذهبت شطر لذتك بمقتل
 تلميذك وأنت الساعة تذهب الشطر الاخر فتكون جنايتك على نفسك أعظم من جنايتي
 عليك فضحك كسرى من حسن تخلصه وعفا عنه . وقال بعضهم :

روح النفس بالسلو عليها لا تكن جالب الهموم اليها
 واذا مسك الزمان بضرر لا تكن أنت والزمان عليها

وقلنا مثل هذا في واقعة حال :

لا تطل لوم من دهنه الليالي واشنى بعدها بعيش كربه
 كان في عزه فامسى ذليلاً تاركا عهده لكبر وتيه
 من يجر دهره عليه مخاذر لاتكن أنت والزمان عليه (١)
 ورأى بعضهم رجلاً يصلي ولا يركع فقال هذه ليست بصلاة فقال أني رجل عظيم
 البطن فاذا ركعت ضرطت فاختر صلاة بغير ركوع أو ركوع بضراط . قال بعضهم :

مضى أمسك الماضي شهيداً معدلاً وأعقبه يوم عليك شهيد
 فان تك بالامس احترمت اساءة فبادر باحسان وأنت حميد

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله « اجتهدوا في العمل فان تصربكم
 ضعف فكفوا عن المعاصي » وقال ارستطاليس « من لم يقدر على فعل الفضائل فلتنك
 فضيلته ترك الرذائل » وقال رجل لمورق العجلي أشكو اليك نفسي أنها لا تريد الصلاة
 ولا تستطيع الصبر على القيام قال بئس التناء أثبتت على نفسك فاذا ضعفت عن الخير
 فاضعف عن الشر . وقال الشاعر :

احزن على أنك لا تحزن ولا تسيء ان كنت لا تحسن
 واضعف عن الشر كما تدعي ضعفاً عن الخير وقد يمكن
 وقلنا في مثل هذا :

اذا كنت لا ترجى خيراً تنيله سواك مخاذر أن تكون أخاشر
 فان أشر الناس من كان عائناً فساداً وخير الناس من جد للبر

وقال الله عز وجل « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا
 كل الميل فتذروها كالمعلقة »

واعلم أزدك الله علماً أن من يعجز عن الاتيان بكل الخير لا يجوز له أن يتهاون
 ببعضه كما أن من لا يستطيع دفع الشر كله لا يجوز له أن يفعل عن دفع بعضه فان

(١) أنشد عظمة مولانا الشيخ المعز أعزه الله هذه الايات في مجلس عرض فيه أحدهم
 بأحد ولاية البصرة بعد عزله وكان أحرق سيء السيرة وقد ترك في الولاية أقبح الانار
 وهذه الايات فيها الدلالة الصريحة على أخلاق عظمة مولانا الشيخ خزعل الشريفه
 ومبادئه السامية من حيث الترفع عن سماع ملامة الناس وانغيتابهم في مجلسه العالي ولو
 كانوا من المسيئين والتسامح والاغضاء عن المذنبين

بعض الشر أهون من بعض وبعض الخير أرفع من بعض
ومن أمثال العرب قولهم « ادفع الشر عنك بعود أو عمود » أي ادفع الشر بما
تستطيع من قوة أو ضعف . وقال بعضهم « إذا أتاك سائل فلا ردّه بغير عطية قلت
أو كثرت فقسلم من ملامه وتحظى باكرامه » وقال حكيم « ادفع الشر بما تقدر عليه »
وفي الامثال « من حقر حرم » أي من احتقر اليسير وهو قادر عليه حرم من الكثير
الذي يصير اليه . وفي الحديث « لا تردوا السائل ولو بظلف محرق فان من حقر
يسيره ومنع منه أعجزه كثير وامتنع عنه »

واعلم أن فعل قليل الخير أفضل من تركه فمن ادراك أن هذا الخير القليل لا يحتاج
اليه خلق كثير ؟ فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله قوله « لا يمنعكم من المعروف
صغيره » وقال عبد الله بن جعفر « لا تستح من القليل فان المنع أقل منه ولا تحين
عن الكثير فانك أكثر منه » وقال بعضهم :

إذا تكرّرت أن تعطي القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود

بثّ النوال ولا تمنعك قلته فكلّ ماسد فقرأ فهو محمود

وقلنا في هذا المعنى :

إبذل من المال ما تقوى عليه ولا تكن بخيلاً به إن قلّ أو كثراً

فربّ مال يسير قد أجهدت به على فقير قضى من حاجه وطرا

وقال شاعرنا الانطاكى :

قل للذي يمنع المحتاج مكرمة قلت ولم يستطع بالجود اكناراً

لا تحتقر كسرة يقوى الفقير بها على الحياة ولا تمنعه مختاراً

وقال أمير المؤمنين عليه السلام « لا تستح من اعطاء القليل فان الحرمان أقل
منه » وقال عليه السلام « افعلوا الخير ولا تحتروا منه شيئاً فان صغيره كبير وقليله كثير
ولا يقران أحدكم ان فلانا أولى بفعل الخير مني فيكون والله كذلك القليل من الخير خير
من عدم الخير » وقال الشاعر

اعمل الخير ما استطعت وإن كان قليلاً فلن تحيط بكله

وحتى تفعل الكثير من الخير إذا كنت تاركا لاقبه

حكى ان رجلاً كان يسمر وقد فننر ان شفاه الله يتصدق بجميع عمله في أيام الجمع
عن والديه فعاش زماناً طويلاً وهو يفي بنذره ففي أحد الجمع طاف النهار كله ولم يحصل

على شيء يتصدق به فاستفتى بذلك سالماً فقال له أخرج في طلب قشر البطيخ المرعي في الشوارع واغسله بالماء وأخرج به على طريق الرساتيق واطرحه بين حميرهم واجعل ثوابه لوالديك فتخرج من نذرك ففعل ذلك وفي المساء نام في فراشه فرأى في الحلم والديه يمانقانه ويقولان له يا ولدنا عملت معنا كل شيء من وجوه الخير حتى اطعمتنا البطيخ وكننا نشهيه فرضي الله عنك

قال أمير المؤمنين عليه السلام « اتق الله بهض التقى وان قل واجعل بينك وبين الله سترأ وان رقق » ويقال في المثل « ما لا يدرك كله لا يترك أمله » فالواجب على من عمرت عليه التقوى باجمها أن يتقي الله في البعض وأن يجعل بينه وبين الله سترأ وان كان رقيقاً

وفي أمثال العامة اجعل بينك وبين الله « دوزنة » والدوزنة لفظة صحيحة معربة أي لا تجعل ما بينك وبين الله سداً مظلماً

الخاتمة

هذا ما أثبتناه في هذا المورد وعسى أن يكون عذبا سلسلا لواردية وفيه النفع لقارئيه والحمد لله أولا وآخراً
وكان الفراغ من تسويد المجلد الاول من الرياض الخزعلية في غرة ربيع الثاني سنة ١٣١٨ للهجرة النبوية على مهاجرها أفضل صلاة وأزكى تحية
ثم أعدنا النظر فيه وأزدنا في مبانيه وانتهينا منه في شعبان سنة ١٣٣٠ والله الحمد في البدء والختام

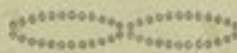
(انتهى المجلد الاول ويليه المجلد الثاني)

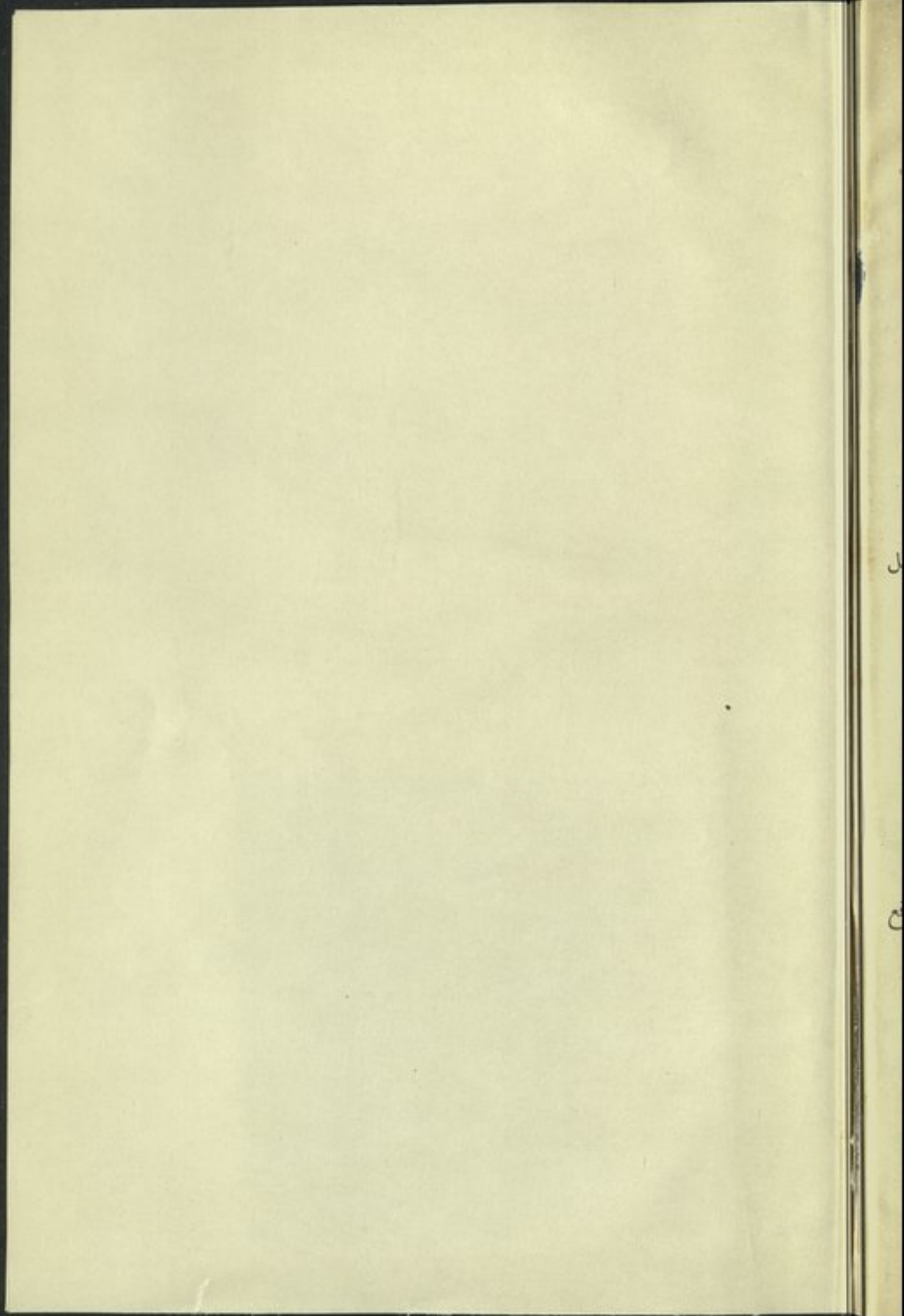
صفحة	صفحة
٢	رسم صورة عظمة المردار أقدس
٣	مؤلف الكتاب اعزه الله
٤	توطئة المجلد الاول بقلم العبد المملوك
٦	رسم آخر لعظمة المردار أقدس
٦	القصر الخزعلي كما هو اليوم
٦	عربستان
٨	القصر الخزعلي كما كان سنة ١٩١١
١٠	رسم المحمرة
١٢	رسم الشارع الخزعلي في المحمرة
١٤	رسم صاحب السمو الامير المردار
١٦	أرفع الشيخ جاسب خان
١٦	رسم صاحب السمو الامير المردار
١٦	أجل الشيخ عبد الحميد خان
١٦	(الفيلية)
١٨	رسم آخر لعظمة المردار أقدس
١٩	المحمرة
٢٠	رسم الاميرين الجليلين
٢٢	رسم أصحاب السمو المردار أشرف
٢٣	والمردار أرفع والمردار كشور
٢٣	ناصرية الاهواز
٢٤	رسم صاحب السمو نصرت الملك
٢٤	الشيخ عبد العزيز خان
٢٦	رسم سمو المردار لشكر الشيخ
٢٨	عبد الكريم خان
٢٨	رسم بقايا قلعة الاهواز
٢٩	القصور الخزعية في الاهواز
٣٠	رسم صاحب السعادة الحاج محمد علي خان
٣١	الخرزعية
٣٢	رسم جلاء الملك سعادة ميرزا عبد
٣٢	الصمد خان
٣٢	عبادان
٣٣	رسم عبادان الجديدة
٣٤	رسم مشير التجار الحاج أبو الحسن
٣٥	ختام القول
٣٦	لعائلة الفخمة الجاسبية
٣٧	رسم عظمة معز السلطنة في يرم
٣٨	ولايته السعيد
٣٨	الحضرة السنية الخزعية
٣٩	رسم مظفر الدين شاه ايران
٤١	رسم الحاج مصطفى فهمي معتمد
٤٣	عظمة المردار أقدس ونديمه
٤٣	امارة عظمة المردار أقدس
٤٥	رسم الموسيقى الخزعية
٤٦	سياسة عظمة المردار أقدس
٤٨	جلالة الشاه احمد خان في موكبه
٥١ و ٥٣ و ٥٥	رسم ثلة من الجيش الخزعلي
٥٧	رسم فصيلة من الجيش الخزعلي
٥٩	رسم ثلة من الحرس الخزعلي
٦٠	احكام عظامته
٦٠	العسكرية في عربستان

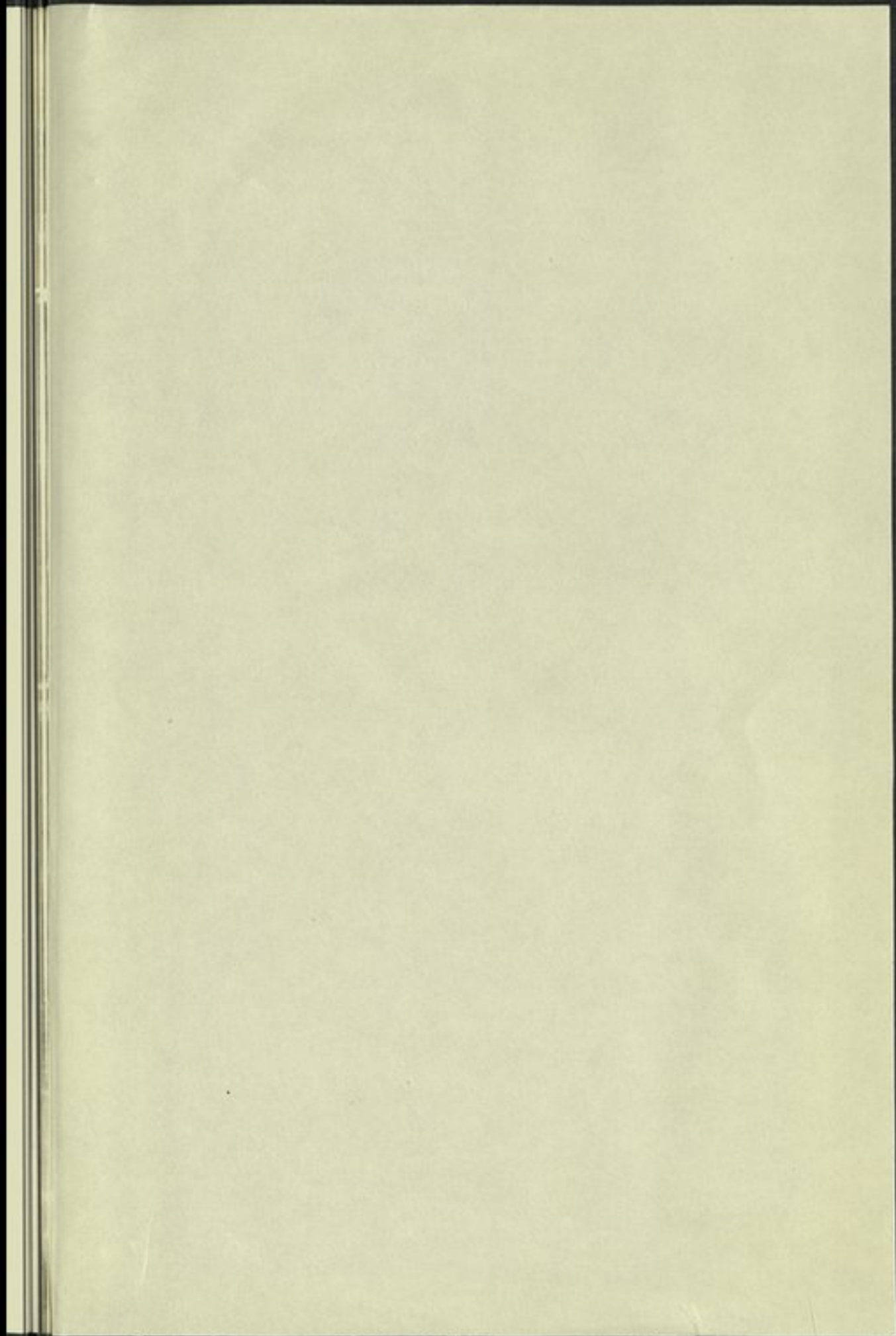
صفحة	صفحة
الروضة الثالثة	٦١ رسم فرقة الحرس الخزعلي
١١٥ توطئة	٦١ معيشة عظمته
١١٦ الكمال لله ١٢٠ حب الجاه	٦٢ الامراء الانجال المظالم
١٢٢ حب المدح واتناء	٦٢ رسم الحرس الخزعلي الابراني
١٢٧ المعجب والرهو	٦٣ اخلاق عظمته و مناقبه
١٢٩ اقسام المعجب	٦٤ الرياض الخزعلية
١٣٢ المعجب يدعو الى التقصير	المورد الاول
١٣٣ الكبرياء	٦٨ المقدمة
١٣٦ حقيقة الكبرياء وآفها	٦٩ وحدة النفس — ماهي النفس
١٤٥ العفة ١٤٦ الوفاق والصدق	٧٠ شوائب النفس الانسانية
١٤٨ الخاتمة	٧٠ في الاحوال النفسية
١٤٩ الطبع والتطبع	٧٢ المملكات النفسانية
١٥٢ الافعال الظاهرة تدل على الاخلاق	الروضة الاولى
الباطنة	٧٢ بين الراجل والآجل
١٥٥ في العادة	٧٤ ما أضيقت العيش لولا فسحة الامل
١٦٠ الطبع سراق	٧٨ الشج
١٦٣ الناسي بالامثال	٧٩ التشوق الى المال
١٦٧ ميل النفس لشكلها	٨٢ الحرص على الممتع
١٧١ جهل الاشياء	٨٤ التهاون بالبتدل
١٧٢ رضى الناس لا يدرك	٨٩ الملل من الوجود
١٧٤ بين اللؤم والكرم	٩١ الدنع والجذب
١٧٩ الطمع	الروضة الثانية
١٨٢ العين أو النظرة	٩٤ توطئة ٩٧ الحقد
١٨٤ الاعتقاد	١٠١ حسد الاقربين والمتناظرين
١٨٥ الوهم	١٠٤ حب المنانلة
١٩١ تأثير الكلام	١٠٥ الغيرة ١٠٩ الحمية

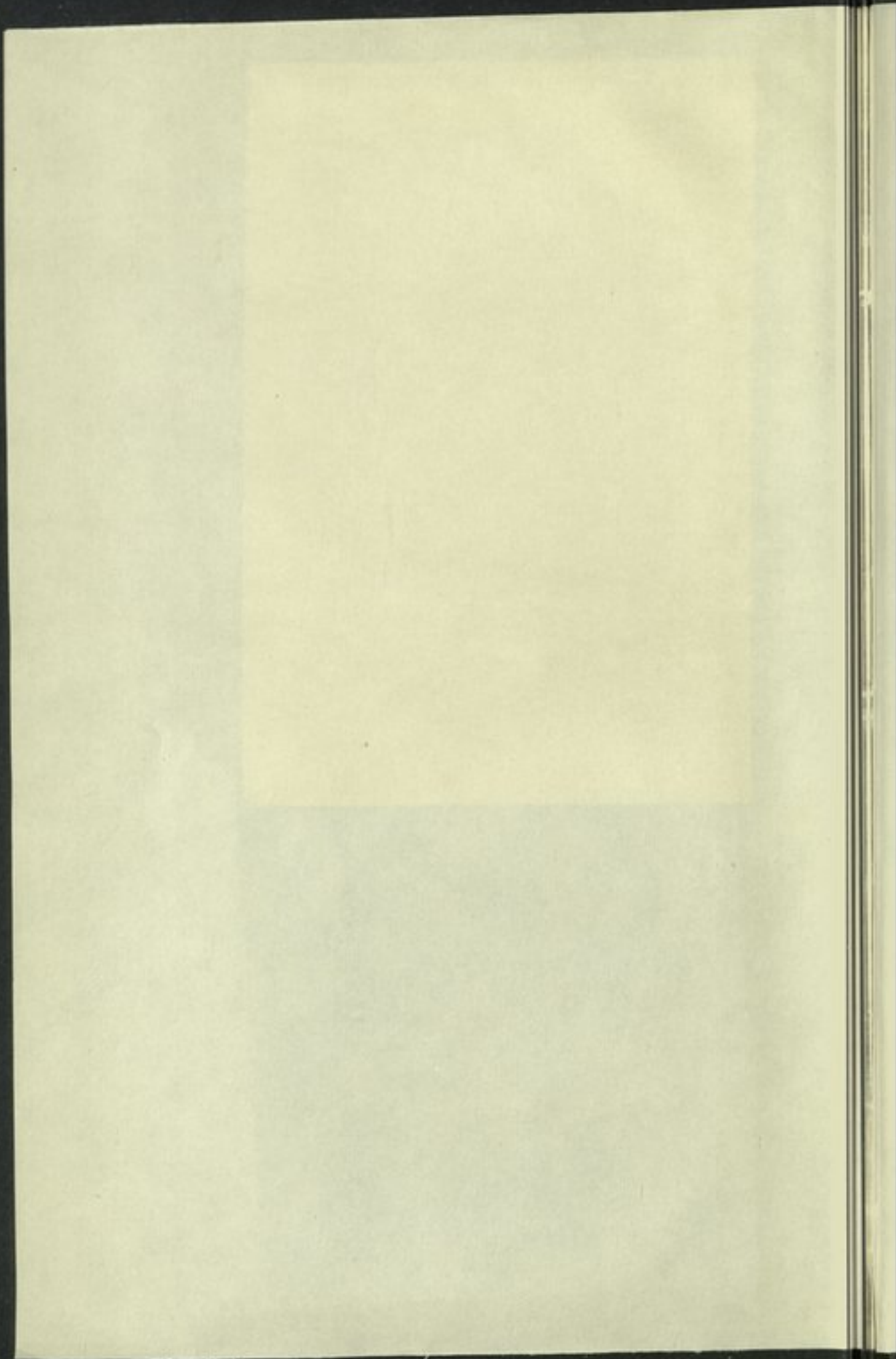
صفحة	صفحة
٢٣٧ البطنة	١٩٢ تأثير الشعر
٢٣٨ الانهماك بالمعاصي	١٩٥ التطير
٢٣٩ غلبة الطبع والعادة	١٩٨ التفاؤل
٢٤٢ الحرص والاماني	٢٠٠ تمة
٢٤٤ شدة الطمع	٢٠٠ في تأثير اللسان والمكان
٢٤٦ الجشع في الكسب	المورد الثاني
٢٤٧ غلبة الشهوات	٢٠٢ مقدمة
٢٤٩ غلبة الحب النفساني	٢٠٢ في العقل وأحكامه علماً
٢٥٠ الانانية وحب الانسان لنفسه	الروضة الاولى
٢٥٠ العجب النفساني	٢٠٣ في فضل العقل وثمراته
٢٥٤ شدة الغضب	٢٠٥ تعريف العقل
٢٥٥ الحجاج والخلاف	الروضة الثانية
الروضة الخامسة	٢٠٨ في ذم الجهل والغباوة
٢٥٥ في الامور الكاشفة	٢٠٩ الجهل البسيط
٢٥٥ توطئة — السنة الناس	٢١٤ الجهل المركب
٢٥٨ تنزيل النفس منزلة الغير	الروضة الثالثة
٢٥٩ تنزيل الغير منزلة النفس	٢١٩ في الاستدلال بالعقل السليم
٢٦١ مقابلة الشيء بنظيره أو بضده	٢١٩ القياس
٢٦١ الحياء بين الاظهار والسكران	٢٢٦ الاستدلال بقرائن الاحوال
٢٦٣ الاجماع	٢٢٧ الاستقراء
٢٦٤ القدوة الحسنة	٢٢٩ التعميل
٢٦٦ الاستشارة وقبول النصيحة	٢٣٢ الاعتبار بالامثال
٢٧٥ شروط المستشار	٢٣٤ علة الحكم
٢٧٦ الاستخارة ٢٧٩ هوى النفس	الروضة الرابعة
٢٨١ حال الهوى مع العقل	٢٣٦ في الامور الحاجية للعقل
٢٨٧ ثمرات مخالفة النفس	٢٣٦ توطئة

صفحة	صفحة
٣٣٨ الامكان	٢٩٣ الخاتمة
الروضة الثالثة	المورد الثالث
٣٤١ في الموانع والمحظورات	٢٩٤ المقدمة
الروضة الرابعة	٢٩٤ من شأن العقل النظر الى العواقب
٣٤٨ في مقدار النفع والضرر	٢٩٦ الفرق بين حكم العقل وحكم النفس
٣٤٨ ما يزيد ضرره على نفعه	٢٩٧ النفس تميل لذتها والعقل لمنفعته
٣٥٠ ما يزيد نفعه على ضرره	٢٩٨ النفس تمعجل ملاذها والعقل يخالفها
٣٥١ ما يشترك بين النفع والضرر	٢٩٩ العقل ينافي القوة الغضبية
الروضة الخامسة	٣٠٥ في مناعة العقل للقوة الروحانية
٣٥٥ في الامور الساقطة عن اعتبار العقل	الروضة الاولى
٣٥٥ توطئة	٣٠٦ في أن من شأن العقل النظر في العواقب
٣٥٥ استدراك الفائت	٣٠٦ تمهيد
٣٥٨ معاناة المدبر	٣٠٧ معاناة ما لا حاجة اليه
٣٦٠ الاهتمام بالمقبل	٣٠٨ في الاهتمام بما لا يضر
٣٦١ في بيان الامور المدببة الفائدة	٣٠٩ فيما لا تقع فيه
الروضة السادسة	٣١٩ النظر الى القول دون القائل
٣٦٤ في بيان الراجح من المرجوح	٣٢١ الاشتغال بما لا يعني
٣٦٤ توطئة	٣٢٥ تطوع الانسان لما لا يدعي اليه
٣٦٤ في الامرين المتعارضين وكلاهما نافع	٣٢٨ التكليف لما ليس من الشأن
٣٧٢ في تعارض النافع والضرر	الروضة الثانية
٣٧٢ في تعارض الضررين	٣٣٢ في جهة الشرائط
٣٨٠ الخاتمة	٣٣٢ المعرفة
	٣٣٣ القدرة





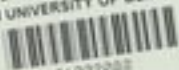




170:K451rA:v.1:c.1

خزعل خان (امير المحمرة)
الرياض الخزعلية في السياسة الانسانية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01002002

170:K451rA

V.1

خزعل خان (امير المحمرة)

الرياض الخزعلية في السياسة الانسانية

APR 10 A751

170
K451rA
V.1

